الجمــهورية الجـزائـرية الديـمقراطـية الشـعبـية
وزارة التـعليم الـعالـي والبـحث العـلمـي
جــامعــة أبي بكر بلــقايــد – تلمـــسان -
كلـية الآداب والـلـغـات
قسـم اللغـة العربيــة و آدابــها

الاتّجاه الوطني في الأدب الأندلسي على عهد الموحّدين

رسالة للحصــول على شهــادة الدكتوراه في الأدب الأنــدلســي

إعداد الطالب :
صـدّيـق مــقدم

إشراف الأسـتـاذ الدكـتور:
محـمّد عبّـاس

لجنة المناقشة :

أ.د. بومدين كرّوم	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	رئيساً
أ.د. محمّد عبّاس	أستاذ التعليم العالي	جامعة تلمسان	مشرفاً
د. محمّد بن أعمر	أستاذ محاضر " أ "	جامعة تلمسان	عضواً
أ.د. مونسي حبيب	أستاذ التعليم العالي	جامعة سيدي بلعباس	عضواً
أ.د. رويسات محمّد	أستاذ التعليم العالي	جامعة سعيدة	عضواً
أ.د. إبراهيم بلقاسم	أستاذ التعليم العالي	جامعة مستغانم	عضواً

السنة الجامعية : 1437 - 1438 الموافق لـــ 2016 - 2017

بســـــم الله الرحـــــــمن الرحـــــــــيم

إهداء

أهدي هذا العمل المتواضع إلى الوالدين الكريمين .

وإلى ابني العزيز **محمّد سعيد رمضان .**

وإلى روح شيخي الكريم ، الأستاذ الدكتور **محمّد سعيد رمضان البوطي** ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه .

وإلى العائلة الصغيرة والكبيرة ، وكل من ساعدني في إنجاز هذه الرسالة .

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر إلى شيخ العلماء ، وعالم المشائخ ، صاحب الحظوة العلية ، والقامة السنيّة ، الأستاذ الدكتور **محمّد عبّاس** ، لإشرافه على هذه الرسالة ، ولتوجيهاته القيّمة .

وإلى من له فضل كبير في رعاية هذه الرسالة يوم أن كانت باكورة، أستاذي الكريم الدكتور محمد محيي الدين شفاه الله ورعاه .

والشكر موصول للسّادة العلماء ، أعضاء لجنة المناقشة ، لتقويمهم هذا العمل وتقييمه .

مقدّمــــة

كان عصر الطوائف من أزهى العصور الأندلسية ، فلم يترك الباحثون فيه قضية تتعلق بالآداب إلا وقد أحاطوا بجوانبها ووقفوا عندها بالبحث والنقد ، وتابعوها بالشرح والتفسير ، واستعرضوها في نصوصها . وقد أعقب زمن الطوائف عصر الموحدين ، الذي كان امتدادا لعصر الطوائف ، فظهر فيه كثير من الشعراء والكتاب ، وطفت على ساحته أحداث كثيرة ، وبرزت فيه قضايا موسّعة وظواهر فاقت - كمّا وكيفا - تلك التي كانت في العصر الذي قبله .

ومن تلك القضايا الاتجاه الوطني ، الذي نلمح فيه مدى نضج الأديب الأندلسي وعمق تفكيره الذي طار به في الآفاق مفضلا وطنه على سائر الأقطار ، بل جعله مُعادلا موضوعيا لجنّة الخلد في الدنيا . ومن هذا الإحساس كان اختيار عنوان البحث الذي وسمته : " الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي على عهد الموحّدين " .

وقد كانت البواعث التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع ذاتية ، وموضوعية. أمّا الذاتية فتمثلت في ميلي إلى الأدب الأندلسي ، وشغفي بنصوصه الشّعرية والنّثرية. وأمّا الموضوعية فتتجسد في حاجة هذا الاتجاه الأدبي إلى دراسة ، فليس في المكتبة التي حوت القضايا الأندلسية حسب اطّلاعي - كتاب متخصص طرح هذا الموضوع عل الرغم من أهميته .

وإذا كان لكل باحث علمي هدف يبذل جهده فيه ، فإنّ هدفي من وراء هذه الدراسة ، هو جمع كل ما يتوفر لي من نصوص شعرية ونثرية أندلسية من عهد الموحّدين أُنْشِئت بباعث وطني ، ثم تصنيفها وتحليل نماذج منها .

وتشتمل هذه الرسالة على أربعة فصول وخاتمة .

فالفصل الأوّل أبرزت فيه بعض العوامل التي كان لها الأثر البالغ في ظهور الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي على عهد الموحّدين ، ومن بينها :

- نشاط حركة الاسترداد وما نجم عن ذلك من سقوط كثير من مدن الأندلس في أيدي النصارى ، وقد أدّى ذلك إلى تضعضع البلاد ، وتمزّق الوحدة الوطنية .

- ابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم ، وقد ولّد فيهم ذلك الابتعاد الشوقَ والحنين إلى بلادهم .

وأمّا الفصل الثاني فخصصته لبيان الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين ، و تناولت فيه رثاء المدن التي سقطت جرّاء حركة الاسترداد النصرانية التي كانت نشيطة في زمن الطوائف ، وازدادت نشاطا في عهد الموحّدين .

ووقفت عند مسألة الاستنجاد والدعوة إلى الجهاد ، وقد تجسّد في تلك الدعوات والزّفرات التي كان ينادي بها بعض الشعراء والكتّاب المخلصين لوطنهم ، لعلّها تُحيي فيهم بعض النفوس ، وتوقظ بعض الهمم .

كما تعرّضت لذكر مَحاسن الأندلس وبيان فضائلها ، وقد كان هذا سبب إعجاب الشعراء بطبيعة بلاد الأندلس ، فترجموا ذلك الإعجاب في قصائد أفصحت عن مدى حبهم لجمال تلك البلاد ، وذكروا بعض فضائلها .

وتناولت شعر الحنين الذي يُمثّل أحد الروافد الهامة للاتجاه الوطني . وهذا النوع من الشعر ظهر بكثرة في كامل الحِقب الأندلسية ، منذ الفتح إلى السقوط .وضمّنت في هذا الفصل شعر الفتوحات ومدح الفاتحين ، وأوردت فيه بعض الأشعار التي قيلت في الفتوحات التي قام بها ملوك الموحّدين ، ومن ثمّ مدح أولئك الفاتحين .

وعالج الفصل الثالث الاتجاه الوطني في النثر الأندلسي في العصر المذكور، وقد وقفت عند أهمّ موضوعات ذلك النثر ، الذي سجلته رسائل المفاخرات والمناظرات ، وانضوت تحتها رسالة صفوان بن إدريس في المفاخرة بين مدن الأندلس ورسائل في بيان فضل الأندلس ومحاسنها ، وكان من بين تلك الرسائل تذييل ابن سعيد لرسالة ابن حزم في فضل الأندلس ، ورسالة الشقندي في فضل الأندلس والأندلسيين .

إلى جانب رسائل أخرى احتوت موضوع الدّعوة إلى الجهاد ، وطلب الإغاثة ، ورثاء المدن ، و رسائل الفتوحات والغزوات ، و الإشادة بمحاسن المصنوعات

وجاء الفصل الرابع الذي بينّت فيه بعض الخصائص الفنيّة لتلك النصوص الشعرية والنثرية السائرة في الاتجاه الوطني في عصر الموحّدين .

وفي الخاتمة استخلصت بعض ما توصلت إليه من نتائج البحث حول هذا الجهد في مضمونه العام .

واقتضت هذه الدراسة أن اعتمد المنهج التاريخي الذي وظفته في المدخل عند الحديث عن دولة الموحّدين ، وفي الفصل الأول الذي بيّنت فيه بعض الأحداث التاريخية التي وقعت لبلاد الأندلس خلال تلك الحقبة ، ووظفته عندما ترجمت لسِيَر بعض الشعراء وكتاب الدولة الموحّدية . واستخدمت المنهج الوصفي التحليلي في الفصلين الثاني والثالث ، وذلك عند ما شرحت بعض النصوص الشعرية والنثرية . واستعنت ببعض العناصر من المنهج التحليلي الذي يرتكز على التحليل الأسلوبي في الفصل الرابع المخصّص للدّراسة الفنيّة وتطبيقها على بعض القصائد والكتابات .

ولقد اعتمدت في إعداد هذه الرسالة على مجموعة من المصادر والمراجع يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أصناف أساسية وهي :

- الصّنف الأوّل : يتضمن المصادر التاريخية وكتب التراجم مثل : كتاب "دولة الإسلام في الأندلس ، عصر الموحّدين" لمحمد عبد الله عنان ، وكتاب "البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب " لابن عذاري المرّاكشي ، وكتاب "الذّيل والتكملة" لابن عبد الملك المرّاكشي .

- الصّنف الثاني : وهو الذي يحتوي على المصادر التي وردت فيها النصوص الشعرية والنثرية ، ومراجع ساعدتني على فهم بعض تلك النصوص ، مثل كتاب "نفخ الطّيب" للمقرّي ، وكتاب "المنّ بالإمامة" لابن صاحب الصلاة ، وكتاب "مجموع رسائل موحّدية" حققه وجمعه ليفي بروفنصال ، وكتاب "الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين لحكمت علي الأوسي ، بالإضافة إلى دواوين شعراء فترة الموحّدين .

- الصّنف الثالث : يضم المصادر والمراجع التي تحتوي على الخصائص الفنيّة ككتاب "الصّناعتين" لأبي هلال العسكري ، و"العمدة" لابن رشيق ، و"شرح الكافية البديعيّة" لصفي الدين الحلي .

ولئن كان قد ظهر هذا الجهد على ماهو عليه ، فإني لا أنس رعاية أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور محمد عباس على ماتكرم به من نصح وإرشاد وتوجيه ، فله مني جزيل الشكر وجزاه الله عني أحسن الجزاء . وشكري الآخر إلى كل من مدّني يد المساعدة .

وأخيرا فإنّي لا أدّعي لهذا الجهد الكمال ، وحسبي أنّي اجتهدت في معالجة هذا الموضوع ، وأرجو أن أكون قد سدّدت وقاربت ، كما أرجو من الله القبول .

أدرار في 24 سبتمبر 2016

صديق مقدم

مدخـــــل

قراءة في العنوان

سنهتدي في هذا المدخل إلى تعريف بعض المفردات الواردة في عنوان الأطروحة ، والتي لها أهمية بارزة أثناء الدراسة . ومن تلك المفردات نذكر : الاتجاه ، الوطن ، وعصر الموحّدين .

أ - الاتّجاه :

يبدو أنّ معظم المعاجم اللغوية اتفقت حول معنى مشترك للفظة " الاتجاه " ، حيث جاء معناها يدور حول " المسلك " و " الطريق " .

جاء في لسان العرب : " الوُجاه والتُّجاه : الوجه الذي تقصده " ([1])، أي الطريق أو المسلك الذي يقصده القاصد . ولم يحدد نوع هذا الوجه ، فقد يكون طريقا حقيقيا ، أو فكرا ، أو عادة يعتادها الفرد ...

أما أحمد مختار عمر ، فقد حدّد نوع الاتجاه وهو يتحدث عنه فقال : " اتجاه (مفرد): جمع اتجاهات ، مصدر اتجه إلى ، طريق وسبيل ... تهيؤ عقلي لمعالجة تجربة أو موقف من المواقف ، تصحبه عادة استجابة خاصة ، ميل ، نزعة "([2]) . فهذا التعريف يشير إلى مدى الحضور الشعري الذي كان عند بعض الشعراء الأندلسيين ، وهم يفتتحون قصائدهم الرثائية بالحِكم والتأمل ، وكل ما من شأنه يُعمل فيه العقل ، فيصير هذا ميلا واتجاها خاصا بمراث المدن والدول والملوك .

وتظهر هذه الكلمة - في بعض المعاجم - عند شرح بعض الألفاظ التي لها علاقة مباشرة بها ، مثل لفظة " التيار " . ورد في معجم المصطلحات الأدبية : " تيار : اتجاه أو حركة أو مذهبا يتبعه مجموعة من الأدباء أو الفنانين المهتمين " ([3]).

لقد أبان هذا التعريف عن مصطلحين يتقاطعان مع لفظة (اتجاه) وهما : تيار ، ومذهب ، وهو عبارة عن طريقة تنتهجها مجموعة من الشعراء أو الكتاب ، و تكون هذه الطريقة في ميلهم الكثير إلى غرض من الأغراض الشعرية مثلا وإبداعهم فيه ،

([1]) ابن منظور، اعتنى بتصحيحها :أمين محمد عبد الوهاب،محمد الصادق عبيدي،بيروت:دار إحياء التراث العربي،ط3 /د.ت،226/15
([2]) معجم اللغة العربية المعاصرة ، القاهرة : عالم الكتب ، ط1 / 2008 ، 3 / 2407 .
([3]) نواف نصّار ، عمان ، الأردن : دار المعتز ، ط1 / 2011 ، ص 82 .

كما هو بالنسبة لبعض شعراء الأندلس الذين تفوّقوا في شعر الحنين - مثلا - حتى أضحى علامة فارقة عندهم ، وسمة مميزة لعبقريتهم .

وإذا كان هذا المعنى يخص لفظة " التيار " بشكل عام ، فإنّ " التيار الأدبي اتجاه عام يوجه الأذهان نحو فكرة معينة ، بطغيان ذوق أدبي معين " ([1]) ، وينطبق هذا على الأشعار التي قالها الأندلسيون في حب وطنهم ، حيث ظل هذا الوطن هو الفكرة الأساسية التي دار حولها كثير من قصائد الموحدين ، وقد صبغوها بذوق فني رفيع ، يمكن للمتمرس ومن له اطلاع واسع ، أن يفرق بين ما قاله الأندلسيون في هذا الموضوع وما قاله غيرهم .

ومما يدخل في هذا المعنى ويفسره ، هو تلك الإشارة التي جاءت في الحديث عن لفظة " السياق " ، إذ تومئ إلى جانب مهم في كلمة " اتجاه " . يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي : " والسياق النزع ، هو في النزع ينزع نزعا ... والنفس إذا هويت شيئا"([2]) ويقول كذلك : " والنزوع : الذي يحن إلى الشيء " ([3]) . فالتعريف يشير بوضوح إلى قصائد الحنين التي كانت كثيرة عند الأندلسيين في هذا العصر وبخاصة الحنين إلى الوطن ، وذلك بالنظر إلى الظروف الاستثنائية التي كانت تعيشها البلاد .

وعلى العموم ، فإن لفظة " اتّجاه " يشترك معناها مع معاني ألفاظ أخرى ، كـ : النزعة ، و السياق ، والتيار ...

ب - الوطن :

لقد اتّفقت جُل معاجم اللغة العربية على أنّ الوطن هو المكان الذي يقيم فيه الإنسان ، أو الأرض التي يستوطنها . وأطلقوه كذلك على المنزل والمحل .

يقول أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري : " قال الليث : الوطن موطن الإنسان ومحله ... ويُقال : أوطن فلان أرض كذا وكذا ، أي اتخذها محلا وسكنا يقيم

([1]) سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، بيروت :دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء:سوشبريس،ط1985/1، ص 57 .
([2]) كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، إيران : مؤسسة دار الهجرة ، ط2 / 1409 هـ ، 1 / 357 .
([3]) م . ن ، 1 / 358 .

فيها ... وأما الوطن فكل مكان قام به الإنسان لأمر فهو موطن له ." ([1])

ويُعرّف الوطن بأنه " المنزل تقيم به ، وهو موطن الإنسان ومحله . " ([2])

وجاء في معجم المحيط في اللغة " الوطن : الموطن ... وأوطن فلان أرض كذا : اتخذها محلا وموطنا ." ([3])

ومما سبق ذكره يمكننا القول إن الاتجاه الوطني هو ذلك النزوع العاطفي الذي كان عند الأندلسيين تجاه وطنهم ، سواء أكان مكانا عاش فيه الأديب حياته ، أم مدينة ، أم الأندلس بكاملها ، أم حاكما كان يمثل الشخصية الأندلسية ، أم تلك الفتوحات التي قام بها أولئك الحكام ، إلى غير ذلك . وقد تجلى هذا كله في تلك النصوص الشعرية والنثرية التي برع في كتابتها أدباء الأندلس ، حتى غدت هذه الوطنية سمة تميزهم عن غيرهم من أدباء الأصقاع الأخرى ، لأنّ " الوطنية إحساس فطري بالوطن ومسرح أحداثه ، إحساس غريزي نشأ في نفوس أبناء لغة الضّاد عبر مراحل تاريخيّة متتابعة."([4])

ج - نبذة عن دولة الموحّدين :

إن المؤسّس الأول لدولة الموحّدين هو محمّد بن تومرت الذي نشأ في جبل السّوس بالمغرب الأقصى . وقومه من بني مصمودة ، حيث بدت عليه دلائل التقوى منذ صغره ، ورحل في عزّ شبابه إلى الشرق لطلب العلم ، فقصد بغداد ، وتتلمذ لأبي حامد الغزّالي في المدرسة النظاميّة . ولمّا رجع إلى المغرب راح يدعو الناس إلى التمسك بالشريعة وإقامة أحكام السُّنَّة ، وبيّن لهم فساد الملوك والأمراء من المرابطين ، ودعا إلى عصيانهم ، فسُمّي الذين اتبعوه الموحّدين ، فأمرهم ابن تومرت بجهاد المرابطين وأباح لهم دماءهم ([5]) .

([1]) تهذيب اللغة، إشراف :محمد عوض مرعب ،علق عليها:عمر سلامي،عبد الكريم حامد،بيروت:دار إحياء التراث العربي،ط2001/1، 21/14 .

([2]) ابن منظور : لسان العرب ، 15 / 338 .

([3]) الصاحب إسماعيل بن عباد ، تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بيروت : عالم الكتب ، ط1 / 1994 ، 9 / 219 .

([4]) أحمد زلط : الخطاب الشعري الوطني والسياسي ، اتجاهاته وروائع أعلامه ،القاهرة: هبة النيل العربية للنشر والتوزيع،ط1/ 2008، ص 55 .

([5]) ينظر : جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، القاهرة : دار المعارف ، ط1970/3 ، ص 28 .

وخلفه بعد وفاته أحَب أصحابه إليه ، وهو عبد المؤمن بن علي الذي تلقب بأمير المؤمنين . وفي هذه الأثناء انتشرت دعوة المصامدة بالأندلس ، تبعا لما كان يحدث بالمغرب . فعندما كره الأندلسيون الأوضاع السيئة التي كانوا يعيشونها أيام المرابطين، تشوّفوا إلى هذه الدعوة الموحّدية ، وتنافس أعيانهم في الهجرة إلى الموحّدين ، فدخل في مُلكهم الكثير من أهل الجزيزة الخضراء ، و"رُندة" ، و"إشبيلية"، و"قرطبة" ، و"غرناطة" . فلمّا رأى عبد المؤمن ذلك ، جمع جموعا عظيمة ، فمرّ بـ"سبتة" ، ثم عبر البحر ، ونزل بجل طارق ، وسمّاه جبل الفتح . فمكث به أشهرا ، ووفد عليه للبيعة أهل "مالقة" ، و"غرناطة" ، و"إشبيلية" ، و"قرطبة" ، وما والى هذه البلاد ([1]) .

ونشير إلى أنه كانت هناك بيعة خاصة سِرّية ، بايعه فيها أهل العشرة المسمّون صحابة المهدي فقط ، وبيعة عامة بايعه فيها أهل العشرة ، ثم الخمسون ، ثم عامة الموحّدين ([2]) .

ولمّا توفى الخليفة عبد المؤمن بن علي بثغر سلا في سنة 558 هـ ، خلفه ابنه أبو يعقوب يوسف ، وعقدت له البيعة في يوم الجمعة ، العاشر من جمادى الآخرة . وتولّى تنظيمها شقيقه السيد أبو حفص عمر الهنتاتي ، كبير أشياخ الموحّدين . ولمّا كملت البيعة سار الخليفة من "سلا" إلى "مراكش" ، ونزل قصر الخلافة ، وقام الشيخ أبو حفص بوعظ الموحّدين ، وحثّهم على التزام الطاعة . ولم يتخلف عن البيعة سوى بعض أشياخ الموحّدين ، وثلاثة من الإخوة ، هم السيد أبو الحسن علي ، والسيّد أبو محمد والي "بجاية" ، والسيّد أبو سعيد والي "قرطبة" ([3]) .

وكان أبو يعقوب يوسف ملكا كبيرا ، جاز إلى الأندلس ، واسترجع ما كان من البلاد تحت حكم ابن مردنش . وانصرف بعدها إلى المغرب بعد أن قرر أمور الأندلس . " ثم جاز في سنة 580 هـ ونازل مدينة "شنترين" ، فأصيب بجراحة من قِبل

([1]) ينظر : عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، شرحه واعتنى به : صلاح الدين الهواري ، بيروت : المكتبة العصرية ، ط2006/1، ص 156 .

[(2)] ينظر: صالح بن قربة : عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين ، الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، د . ط /1991 ، ص24 .

([3]) ينظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، مصر : مكتبة الأسرة ، د.ط/2001 ، 11/5 .

حامية النصاري لم تُخطه ، فكانت منها وفاته بمحلة غزاته ، ليلة الثامن والعشرين لربيع الآخر سنة 580 هـ " ([1]) .

وبعد وفاة أبي يعقوب ، بعث السيد أبو زيد ابن الخليفة إلى إخوته الموجودين مع الجيش وإلى أكابر الموحّدين وطلب إليهم مبايعة الأمير يعقوب أبي يوسف ، فتمت البيعة في مساء اليوم نفسه . وقد تمّت بيعة الخليفة أبي يوسف في هدوء وسلام ، ودون أية معارضة ؛ لأن أباه الخليفة الراحل ، كان قد خصه بولاية العهد ، ولأنّه كان أكبر أولاده . ولما تمت البيعة ، وشملت سائر أنحاء الأندلس وسائر الطبقات ، وتم تنظيم شؤون الأندلس ، دعا الخليفة أشياخ الموحّدين والعرب ، وأذن بالحركة والتأهب للرحيل ، والانتقال من "إشبيلية" إلى رباط الفتح بمياه "سلا" ([2]) .

وقد امتاز حكم الخليفة أبي يعقوب بالحزم ، وتحقيق العدالة ونبذ الظلم والبغي . وكان هذا الخليفة أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثا ، مجربا للأمور، وعارفا بأصول الشر والخير وفروعهما . وكان في أول أمره أراد الجري على سنن الخلفاء الأول ([3]). وتوفّي أمير المؤمنين في ربيع الأوّل من سنة 595 هـ ([4]) .

فهؤلاء الخلفاء الثلاثة ، بلغت بهم دولة الموحّدين أوجها ، وكانت في عزّ انتصاراتها ضد النصارى ، وافتتحوا مدنا أندلسية كثيرة ، وأرجعوها إلى حظيرة الإسلام .

وبعد أسبوع من وفاة أبي يعقوب ، بويع ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بالناصر لدين الله ، وذلك في العشر الآخر من ربيع الأول من السنة نفسها . " ولما استوسقت القبائل بالقدوم للمبايعة ، وبلغت واجبها من المبادرة والمسارعة وتطبيب

([1]) لسان الدين بن الخطيب: تاريخ إسبانية الإسلامية ، أوكتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينة ، د،ط/2006، ص260.

([2]) ينظر : م .س ، 5/ 130-131-132 .

([3]) ينظر : عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 192-207.

([4]) ينظر : م.ن ، ص 225.

النفوس كل مأمول ، ووصلت البيعات من البلاد ، وخرجت البركات للموحّدين والأجناد، أنشدت الشعراء في التهنئة بتجديد البيعة " ([1]) .

وكان أهم ما ميّز هذه الفترة ، هو أن محمّد الناصر شغل منذ ارتقائه العرش في أوائل سنة 595 هـ بحوادث إفريقية واستيلاء بنى غانية على قواعدها ، وعمل جاهدا على تحريرها وإعادة حكم الموحدين إليها . وقد شغله هذا عن الاهتمام بالحوادث التي كانت تعيشها الأندلس . ولم يستطع الخليفة الموحّدي خلال هذه الفترة التي دامت زهاء اثنتي عشرة سنة أن يهتم بشؤون الأندلس ، أو يعبر إليها بنفسه ([2]) .

وكانت معركة العقاب بالأندلس أشهر ما حدث في زمن محمد الناصر . توفى هذا الخليفة في 10 شعبان من سنة 610 هـ ([3]) .

وبوفاته بدأ أنهيار دولة الموحدين في المغرب والأندلس ، فقد جاء من بعده خلفاء ضعاف لم يكونوا على مستوى الأحداث الخطيرة التي كانت تمر بها البلاد .

وعلى العموم فإن أهم الأحداث التي ميّزت عصر الموحدين بالأندلس ، هو تلك الفتوحات التي قام بها خلفاء الدولة الموحدية ، واستردوا بفضلها كثيرا من المدن الأندلسية ، والحصون ، والقلاع . ونوجز هذه الفتوحات فيما يلي :

أ/في جنوبي الأندلس و غربيّها :

لمّا ساءت أحوال المرابطين ، قامت في الأندلس عدة ثورات تزعمتها حركات مختلفة و شخصيات مهمة ، كثورة المريدين و بعض القضاة ، وما قام به ابن حمدين وابن مردنيش . هذا الوضع السياسي جعل من الأندلس بؤرة توتر أضعفت من قوة المرابطين و تمنى أغلب الشعب الأندلسي رحيل هؤلاء المغاربة ، لأنهم لم يستطيعوا صدّ الهجمات التي كانت تأتيهم من قبل النصارى .

([1]) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحّدين ، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1985/1، ص236.

([2]) ينظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 5/ 283.

([3]) ينظر: محمد سهيل طقوش : تاريخ المسلمين في الأندلس ، بيروت : دار التفائس، ط2008/2، ص595 .

وإزاء هذا الوضع كان الموحّدون في المغرب قد اشتدّ عُودهم و راحوا يغمدون سيوفهم في رقاب المرابطين الموجودين هناك . وكان المهدي بن تومرت ، مؤسس هذه الدولة ، على دهاء كبير و معرفة واسعة مكنته من إقناع الشعب المرابطي بفساد حكامه و وجوب الإطاحة بهم . و قد كون هذا الرجل عصبة من أتباعه الذين أشبعهم بفكرة "المهدية" ، فراحوا ينتزعون المدن المغربية من أيدي المرابطين مدينة مدينة .

و لمّا خضعت لهم بلاد المغرب ، تاقت أنفسهم إلى الأندلس . و بدعوة من بعض الأندلسيين ، جهز عبد المؤمن بن علي - خليفة ابن تومرت بعد وفاته - جيشا وأنفذه إلى بلاد الأندلس بقيادة بزار بن محمد المسوفي ، فعبر به مضيق جبل طارق في سنة 541هـ و استولى على جزيرة طريف ، ثم الجزيرة الخضراء . و لم يلق أي صعوبة و لا مقاومة تذكر . و كان ابن قسي هو المرشد و الموجه لهذا الجيش،لأنه رغّب من قبلُ عبد المؤمن في الدخول إلى الأندلس وأغراه بالملثمين [1]. ثم أمر عبد المؤمن بن علي بشفع هذا الجيش بآخر بقيادة "موسى بن سعيد " ، و أردفه بثالث بقيادة "عمر بن صالح الصنهاجي" .

بعد ذلك توجه هذا الجيش الضخم إلى الثوار الذين كانوا مرابضين "بشريش" و "رندة" وهاجم أبا الغمر بن عزون الثائر فدخل في طاعة الموحدين . ثم قصدوا "لبلة" و بها من الثوار يوسف بن أحمد البطروجي ، الذي دخل في طاعتهم ، ثم ذهبوا إلى "مارتلة" التي كانت تحت طاعة أحمد بن قسي . بعد ذلك قصدوا "شلب" و فتحوها و جعلوها تحت حكم ابن قسي ، ثم انصرفوا إلى "باجة" و "بطليوس" . أما مدينتا "باجة" و "يابرة" ، فقد أعلن حاكمهما سيدراي بن وزير الدخول في طاعة الجيش الموحدي[2] .

---

[1] ينظر : عبد الله علام : الدولة المرابطية والموحدية ، القاهرة : دار المعارف ، د.ط/ 1971 ، ص (181) ؛ صالح بن قربة : عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين ، ص36؛ السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير العصر الإسلامي، دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية ، بيروت : دار النهضة العربية ، د.ط/1981 ، ص788 .

[2] ينظر : عبد الرحمان بن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، القاهرة :الهيئة العامة لقصور الثقافة ، د.ط/2007 ، 6 /234 .

وكان أغلب هاته المدن يُفتح دون قتال يذكر ، إذ راح أصحابها يعلنون الولاء و الانضواء تحت راية الموحدين لقوة جيشهم و بسالته في الحرب .

وفي السنة نفسها أخذ الموحدون طريقهم إلى مدينة كبيرة و هامة في الأندلس ، و هي "إشبيلية" . فقد كانت أمنع مدن غربي الأندلس وأحصنها . وفي تلك الأثناء كانت بقية من المرابطين تربض بها . فسار إليها الموحدون بجموعهم حيث كان معهم زعماء ثوار غربيّ الأندلس المذكورون سالفا من أمثال سيداري بن وزير و أحمد بن قيسي ويوسف بن أحمد البطروجي ، فاستسلم أهل "طلياطة" و"حصن القصر" للموحّدين الذين استولوا عليهما صلحا من غير قتال [1] .

وبعد ذلك ضرب الموحّدون حول إشبيلية حصارا من جهة البر ، ثم سار إليها صاحب "قادس" ، عيسى بن ميمون ، بالأسطول ، فحاصرها من ناحية البحر ، ثم اقتحم الموحّدون هذه المدينة في شعبان سنة 541هـ و استولوا عليها بالقوة وقتلوا أعدادا ممن كانوا بها من المرابطين في حين فر بعضهم إلى مدينة "قرمونة" [2].

وإزاء هذه الفتوحات التي كان الموحّدون يقومون بها في هذا القسم من الأندلس، كان الثوار الذين أعلنوا انقلابهم على المرابطين و استبدّوا بتلك المدن يسارعون إلى المغرب ليبايعوا الخليفة عبد المؤمن بن علي و يعلنوا طاعتهم وولاءهم له . و منهم من قابله في الأندلس ، ومنهم من جدّد عزمه مع بقايا المرابطين لقتال الموحّدين .

فعلي بن عيسى بن ميمون ، الثائر على المرابطين في مدينة قادس ، عبر البحر إلى المغرب و قابل عبد المؤمن و هو يحاصر مدينة "فاس" ، فأعلن له الولاء والطاعة. وكذلك فعل القاضي ابن حمدين ، زعيم ثورة "قرطبة" ، فقدعبر البحر إلى المغرب و قابل عبد المؤمن و هو يحاصر مراكش ، فأحسن هذا الأخير استقباله و أكرم ضيافته . و كان بصحبة ابن حمدين بعض أعيان قرطبة يحملون معهم بيعة سكان

---

(1) ينظر:هشام أبو رميلة:الموحّدين وعلاقتهم بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس،عمان: دار الفرقان ، ط2004/1 ، ص 93 .

(2) ينظر : ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه : محمد يوسف الدقاق ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط2003/4 ، 342/9- 343 .

البلاد إلى الخليفة فقبلها منهم وطيب قلوبهم ، و طلب منهم العون و النصرة . وسار أيضا أحمد بن قسي ، زعيم غربي الأندلس ، إلى المغرب حيث عبر البحر و نزل في مدينة "سبتة" ثم ذهب إلى مدينة "سلا" حيث قابل الخليفة عبد المؤمن و راح يحثّه على العبور إلى الأندلس للقضاء على المرابطين و الثوار معا . أمّا إشبيلية ، فقد ذهب منها وفد برئاسة القاضي أبي بكر بن العربيّ المعافري ، فعبر البحر إلى مراكش حيث استُقبل استقبالا رائعا من قبل الخليفة . و قدّم الوفد بيعة إشبيلية و ألقى الخُطب والإطراءات بين يدي عبد المؤمن . مما ألقى الفرح و السرور في نفسه . فشكرهم وأجزل لهم العطايا والصلات (1).

و لما استوثق الموحّدون من الأمر في إشبيلية اتّجهوا إلى بقية الجهات الأخرى لكي يطفئوا نيران الفتن فيها و يبسطوا نفوذهم عليها ، فساروا بقواتهم بعد أن تركوا إشبيلية محمية من قبلهم بقيادة عيسى وعبد العزيز أخوي المهدي بن تومرت . لكن هذين أساءا معاملة الناس في هذه المدينة و بطشا بهم و سفكا دماءهم ، و استباحا أموالهم حتى طالت أيديهما يوسف بن أحمد البطروجي صاحب "لبلة" و أحد زعماء الثوار في غربي الأندلس الذي كان إلى جانبهما . و قد حاول الأخذ على أيديهما ومنعهما من الإفساد في هذه المدينة . لكنه نجا منهما و رجع إلى "لبلة" و أخرج الموحدين منها و استبد بها (2).

ولم يقف البطروجي عند هذا الحد ، بل راح يتّصل بباقي الأماكن الأخرى القريبة منه التي كان المرابطون يحكمونها ، ويؤلّبهم على قتال الموحّدين . فسار قائد المرابطين يحيى بن غانية ليستولي على الجزيرة الخضراء و ليقطع إمدادات الموحدين من المغرب ، و خلع بعض ثوار غربي الأندلس طاعة الموحدين حيث استبد أحمد بن قسي بمدينة "شلب" ، واستبد علي بن عيسى بن ميمون بمدينة "قادس" ، و استبد محمد

---

(1) ينظر: ابن عذاري المراكشي : البيان المُغرب . ص 36

(2) ينظر: ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، 6 /234 .

بن علي بن الحجام بمدينة بطليوس . لكن أبا الغمر بن عزون ، صاحب شريش ، بقي محافظا على طاعته للموحدين وولائه لهم [1].

ثم إن عيسى و عبد العزيز أخَوا المهدي بن تومرت لم يستطيعا المكث في إشبيلية نتيجة لتصرفاتهما التي أغضبت الشعب الأندلسيّ ، إذ ثار عليهما أهل طلياطة وحصن القصر . و هو ما أخافهما و جعلهما يهربان من هذه المدينة مع ابن عمهما "بصليتن" ليعتصما بالجبال . ثم أقبل إليهم أبو الغمر بن عزون ، صاحب شريش ، بقواته لنجدتهم و تخليصهم مما هم فيه . فاتفق معهم على المسير إلى الجزيرة الخضراء واسترجاعها من المرابطين ، فساروا إليها وحاصروها حتى استولوا عليها و قضوا على المرابطين الذين كانوا فيها [2] .

هذه الأوضاع التي كانت تسود الأندلس أقلقت عبد المؤمن بن علي فعزم على أن يرسل جيشا ضخما بقيادة يوسف بن سليمان للقضاء على بؤر التوتر ، فسار هذا الأخير مجتازا البحر واستولى على مدينة "إشبيلية" و تمكن من أهل "طلياطة" ، ثم ذهب بعد ذلك إلى ناحية "لبلة" فاستسلم حاكمها ، يوسف بن أحمد البطروجي ، للموحدين ، ثم قصد يوسف بن سليمان مدينة "شلب" فاستولى عليها . ثم أخضع حصن "طبيرة" لطاعته . ثم سار إلى ناحية "قادس" و"شنتمرية" الغرب حيث دخل تحت طاعته حاكمها علي بن عيسى . و الأمر نفسه قام به صاحب بطليوس ، محمد بن علي بن الحجام ، حيث أعلن الولاء و الخضوع للموحّدين . ثم رجع يوسف بن سليمان إلى إشبيلية بعد أن أخضع أولئك الثوار وأرجع تلك الأماكن والحصون تحت سلطة الموحدين [3] .

بهذا العمل الذي قام به الموحّدون دانت لهم منطقة الغرب مرة ثانية ، ودخلت الأندلس في مرحلة جديدة لما راح الموحدون يحضرون لضمها إلى حكمهم .

---

[1] ينظر :عبد الله علام : الدولة المرابطية و الموحّدية ، ص 183 .

[2] ينظر: م.س ، ص.ن .

[3] ينظر : هشام أبو رميلة : الموحّدين وعلاقتهم بالممالك النصرانية و الدول الإسلامية في الأندلس . ص 95 ؛ سعدون نصر الله : تاريخ العرب السياسي في الأندلس ، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط1/1998 . ص 318

ب/ في وسط الأندلس :

أما في وسط الأندلس فنجد "قرطبة" كبرى المدن الأندلسية التي كانت عاصمة للأندلسيين فترة طويلة ، وهذه المدينة التي كان يحكمها في زمن المرابطين القائد المحنك الشجاع يحيى بن غانية .

وكان الذي ثار في هذه المدينة من الأندلسيين هو القاضي ابن حمدين حيث استغل فرصة زيارة ابن غانية مدينة إشبيلية و انقضّ على الحكم المرابطي هناك بمساعدة النصارى له . ولكن ابن غانية لم يستسلم لهذا الواقع ، بل راح يبطش بالثوار الذين كانوا بإشبيلية ، ثم رجع إلى قرطبة بعزيمة و إرادة قويتين مكنتاه من ابن حمدين و النصارى المؤازرين له . و هو ما أعجب ألفونسو السابع ، ملك قشتالة ، الذي ارتأى أن يعقد صلحا مع ابن غانية الذي توسّم فيه قوّة القائد الذي يرد بأس الموحدين و زحفهم عن الأندلس (1) .

ثم إن ابن حمدين لمّا تخلّى عنه حلفاؤه النصارى فر هاربا إلى المغرب ليلتقي الخليفة عبد المؤمن ، إذ لم يستطع مواجهة ابن غانية و التمكن منه . بعد ذلك راح ألفونسو يدبر المكائد لابن غانية حتى يتنازل له عن بعض الأماكن التي كانت تحت سيطرته . فرأى ابن غانية ألا طاقة له بمجابهة الموحّدين الذين قويت شوكتهم ، والوقوف حجر عثرة أمام الإسبانيين الذين رغبوا في استرداد بعض مدنهم . فاهتدى إلى أن يجيب ألفونسو في طلبه ، فتنازل له عن "بياسة" و "أبدة" . و أمام هذا الوضع المخزي سقطت قيمة ابن غانية من عين ألفونسو ، فازداد طمعه و رغبت نفسه في المزيد . فعاد يطلب من ابن غانية أن يسلمّ إليه مدينة "جيان" ، فأظهر له ابن غانية القبول و الرضا ، و هو يضمر غير ذلك حيث اتصل سرا بالموحّدين و تنازل لهم عن مدينة قرطبة و مدينة قرمونة في سنة543هـ فشكروه على صنيعه و أمنوه على نفسه وحفظوا له ماله . ثم شدّ الرحال بعد ذلك إلى مدينة غرناطة التي كانت تحت حكم القائد

---
(1) ينظر :عبد الله علام :الدولة المرابطية و الموحّدية ، ص 185 .

المرابطي ميمون بن بدر اللمتوني [1] و نصحه بأن تسليم المدينة إلى الموحدين خير من الخضوع للإسبانيين ، ولكن ابن غانية توفي قبل تنفيذ طلبه [2] .

وبقيت غرناطة ردحا من الزمن تحت حكم المرابطين بفضل القائد الشجاع ميمون بن بدر - أي قرابة سبع سنوات بعد استيلاء الموحدين على قرطبة و قرمونة - و لما بسط الموحّدون سلطانهم على معظم المدن الأندلسية ، رأى ميمون بن بدر أنه من الحكمة تسليم هذه المدينة للموحّدين حتى لا يعرّض نفسه و بقية المرابطين للاضطهاد و الفناء . فبعث إلى الخليفة عبدالمؤمن كي يلبي رغبته و طلب منه الأمان على نفسه و ماله . فوافق الخليفة على ذلك ، و أمر ابن الأمير أبا سعيد حاكم سبتة والجزيرة الخضراء بتنفيذ الطلب . فلما دخل الأمير بصحبة قائد أسطوله إلى غرناطة استقبلهما ميمون بن بدر و حاشيته ، و قام بتسليمهما المدينة العظيمة التي بقيت تحت حكم الأمير . وذلك سنة 551هـ [3] .

1 - فتح المرية

لمّا استولى الموحّدون على غرناطة كانت عزيمتهم قد عُقدت على فتح ثغر المرية و استعادته ، إذ كانوا يتطلّعون إلى استرداده منذ أن استقرّوا في قرطبة . ويرجع هذا - في اعتقادي - إلى أهمية المدينة ، إذ إنّها تعد المنطلق لفتح ما تبقّى من مدن الشرق ، ولموقعها الجغرافي أيضا لأنّها تطل على البحر الأبيض المتوسط. وهو ما يمكنهم من الاستقرار من ناحية البحر والازدهار الاقتصادي ، لأنّ النصارى صاروا يهدّدون البحرية الإسلاميّة و الشواطئ من هذه الجهة . لذلك ضرب الموحّدون حول هذه المدينة حصارا برا وبحرا .

---

(1) جاء اسم هذا الرجل في البيان المغرب " ميمون بن بدر اللمتوني" و أعتقده هو الصواب . ابن عذاري المراكشي ، ص 55 .

(2) ينظر: عصمت عبد اللطيف دندش : الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحّدين ، عصر الطوائف الثاني ،بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط 1 / 1988 ، ص 111-112 .

(3) ينظر : م.س ، ص 55- 56 .

ولمّا أحسّ النّصارى بخطورة الموقف وما أقدم عليه الموحّدون ، راحوا يستغيثون بعاهلهم ألفونسو ريمندس ، فقدم مع حليفه محمد بن سعد بن مردنيش ، أمير شرق الأندلس . وفِعْل هذا الأندلسيّ المسلم يذكرنا بأيام ملوك الطوائف الذين كانوا يستعينون بملوك النصارى على إخوانهم المسلمين . وهو ما عُدّ وصمة عار في حياتهم السياسية . وقد أجمع بعض المؤرّخين والدّارسين على انتقاد هذا السلوك الذي يطعن في وطنية هذا الرجل وخيانته لبلده . ولكن على الرغم من هذا كله فإن الموحّدين استطاعوا دخول هذا الثغر وضمه إلى حظيرة المسلمين ، وذلك سنة 552هـ بعد أن احتله النصارى زهاء عشر سنوات . وقد توفي على إثر هذا الفتح العظيم ، ألفونسو ملك قشتالة [1] .

بعد هذا الفتح تمّ استرجاع هذه المدينة من قِبل محمد بن مردنيش ، وخرجت من سيطرة الموحّدين ولم تعد إليهم إلا في سنة 566هـ [2] .

2 - فتح قرمونة

في سنة 555هـ توجه القائد إبراهيم بن همشك ، وهو صهر ابن مردنيش ومساعده ، من مدينة "جيّان" إلى "قرطبة" على رأس جيش ضخم ليتمكن منها ، ولكن مدينة "قرطبة" كانت محصنة منيعة ، فضرب حولها حصارا حتى يضطر الموحدين إلى تسليمها ، لكنه عجز عن ذلك ، فرأى أن ينصرف إلى "إشبيلية" ليدخلها ففوجئ بتحصينها المنيع هي أيضا ، ممّا جعل اليأس يتسلل إلى نفسه ، فاتّجه إلى إحدى قلاع "إشبيلية" ، وهي "قرمونة" ، و استطاع أن يدخلها بخيانة أحد حكامها يدعى عبد الله بن شراحيل [3] ، ولكن الموحّدين بقوا متمنّعين بوسط المدينة [4] . في هذه الأثناء ، وبعد

---

[1] ينظر: لسان الدين بن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة ، شرحه و ضبطه وقدم له : يوسف علي الطويل ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1/2003 ، 265/1 .

[2] ينظر: ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة ، تاريخ بلاد المغرب و الأندلس في عهد الموحّدين، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط3/1987 ، ص 320 .

[3] ورد في البيان المغرب 'شراحيل' ، ابن عذاري المراكشي ، ص 73 .

[4] ينظر:عبد الله علام :الدولة المرابطية و الموحّدية ، ص192-193 .

هذه السنة ، وصل أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي إلى مدينة "إشبيلية" عام 556هـ ، حيث عزم على حرب أهل "قرمونة" فتمكن من الغادر عبد الله بن شراحيل وقتله مع اتباعه و أشياعه . وإزاء هذا الوضع وصل يوسف بن سليمان بجيش ضخم إلى "إشبيلية" ، وتوجه أبو يعقوب يوسف إلى مراكش لزيارة أبيه ، وترك وراءه أبامحمد عبد الله بن أبي حفص لتحرير "قرمونة" . فسار هذا الأخير بالجيش إلى القلعة و ضرب حولها حصارا و ضيّق الخناق على أهلها الذين يئسوا من نصرة ابن مردنيش ، فهبّ رجل منهم إلى الموحّدين بعد ما طلب منهم الأمان مع ثلة من أصحابه و فتحوا باب المدينة و دخلها الموحّدون بعد ما طال حصارها مدة سنة . و كان فتحها يوم الجمعة من سنة 557 هـ (1) .

3 - فتح وبْدة

خرج الخليفة أبو يعقوب يوسف بعد وفاة أبيه عبد المؤمن من إشبيلية إلى مدينة "وبدة" في الحادي عشر من شوال سنة 567هـ ، حيث فتح في طريقه حصن "بلج القشيري" و حصن "إنكرس" . ثم عزم على قتال أهل "وبدة" ، إلا أن المطر الغزير حال بينه وبين قتالهم ، ثم ثار الفزع والهلع في نفوس الجند فعجز كثير منهم عن القتال وتنكسوا عما جاءوا لأجله من "مراكش" إلى أن قام فيهم الشيخ أبو محمد بن عمر خطيبا فذكرهم بالله و أثار فيهم حميّة الجهاد ، فبكى بعضهم و تاب إلى الله ، وعزم البعض الآخر على الرحيل . فلمّا رأى النصارى الذين كانوا في هاته المدينة حال الموحّدين عزموا على قتالهم و صدّهم عن المدينة " فالتحم القتال بين النصارى والمسلمين وأمر الأمير جميع العساكر بالوقوف حتى تُرفَع الأخبية فرُفعت و تقدمت، وبقيت قبّته واقفة على حالها حتى رفع جميع الناس ، ثم أمر بضرب الطبل و الحركة والناس على ترتيبهم ، والنصارى يقربون ثم يهربون إلى حين نزول المحلّة ، ثم تمادى

(1) ينظر : م.س. ص 73 .

مشي العسكر بعد ذلك حتى وصل إلى "مرسية" فدخلها يوم الخميس من ذي الحجة من السنة "[1] .

4 - فتـح شنتريـــن

كانت مملكة البرتغال تثير الكثير من الإزعاج للمسلمين في الشمال الغربي للأندلس ، ومن أجل هذا صمم الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي على أن يعبر إلى الأندلس في صفر سنة 580هـ لمهاجمة هذه المملكة من البر والبحر ثم الزحف على ضفاف نهر "التاجه" إلى قلب مملكتي "قشتالة" و "ليون" ، و يرسل قوات أخرى تزحف من الجنوب لاستدراج قوات النصارى القشتالية و الليونية [2].

وقد سار أبو يعقوب في بادئ الأمر متجها إلى بطليوس على رأس جيش كبير رئيسي عازما على حصار أشبونة فرأى أن يستولي على قلعة شنترين قبل أن يحاصر "أشبونة" ، هذه القلعة التي تقع قريبا من المدينة على ضفة نهر "التاجه" اليسرى . ولذلك عندما عبر الجيش نهر "التاجه" ، ضرب الخليفة الحصار حول القلعة ظانا أنها تسقط قبل وصول الأسطول الذي سيحاصر أشبونة من جهة البحر .

وكان الخليفة قبل أن يحاصر المدينة . وهو في طريقه إليها ، يتلف الزرع ، ويقطع الثمار ويشنّ الغارات على ضواحيها . فلمّا علم ابن الرّيق (ألفونسو إنريكي) أن جيش الموحّدين متوجّه إليه ، قام بجمع كلّ ما يحتاج إليه من أكل و شراب و تحصّن بقلعة شنترين المنيعة [3] .

ولمّا رأى الخليفة حصانة القلعة و صلابتها أمام قوة جيشه زاد تضييقه عليها وانتساف معايشها . وهو ما زاد أهلها صرامة و صبرا . عندها خاف المسلمون من أن يدخل عليهم فصل الشتاء و يثور عليهم نهر "التاجه" ، فلا يقوُون على عبوره ، فطلبوا

---

(1) م . س ، ص 123- 124 .

(2) ينظر: علي محمد محمد الصلابي :إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحّدين ، القاهرة : دارالتوزيع و النشر الإسلامية ، ط2003/1 ، ص 155.

(3) ينظر : عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 188-189 .

من أبي يعقوب الرحيل عن هذا الحصن . عند ذلك تملكت المسلمين الرغبة في حصار "أشبونة" ، فراح أغلب الجيش يجمع أمتعته ، وأخذ جنوده بالانسحاب بشكل فوضوي، تاركين الخليفة مع قلة من جنوده . وهو ما ترك فراغا استغله النصارى في التسلل إلى أبي يعقوب ، حيث قتلوا عددا كبيرا من قواد الجيش ، وأصيب الخليفة بسهم مسموم مات بسببه بعد ليلتين .

وهكذا ، بعد أحد عشر يوما من الحصار ، تمكن أبو يعقوب من فتح المدينة، سوى قلعتها التي كان فيها النصارى المحصّنون . وكان ذلك سنة 580هـ [1] .

5 - الاستيلاء على حصن الأرك [2]

إن أعظم فتح قام به الموحّدون هو فتحهم لحصن الأرك . وهذا الفتح كان بفضل معركة كبيرة قام بها الخليفة الموحّدي يعقوب المنصور ضد ملوك النصارى . حتى إن كثيرا من المؤرخين والباحثين يرون أن هذه المعركة تشبه بدراً و القادسية واليرموك وغيرها من معارك الإسلام المشهورة ، لأنها كانت فاصلة بين الحق والباطل .ولو انهزم فيها المسلمون لاستؤصلت شأفتهم في هاته البلاد و قضي على الإسلام . ولكن الله - تبارك و تعالى - قضى بأن ينتصر المسلمون و يبقى الإسلام ردحا آخر من الزمن هناك . إن ألفونسو الثامن صاحب طليطلة لمّا رأى سيطرة الخليفة يعقوب المنصور و فتحه لكثير من بلاد الأندلس خاف أن يلحقه أذاه فطلب منه أن يعقد معه صلحا وهدنة لمدّة خمس سنوات فوافق على ذلك . و قبل أن تنتهي هذه المدّة راح ألفونسو الثامن يعيث في الأرض فسادا و يتلف الزرع والضرع ، و ينهب من خيرات البلاد و يعتدي على المسلمين . فلمّا انتهت هذه الأخبار إلى الخليفة ، و هو يومئذ بـ"مراكش" ، قرّر أن يجتاز إلى الأندلس و يضع حدا لتجاوزات النصارى . بل قرر أن

[1] ينظر: السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، العصر الإسلامي ، 2 / 810 .

[2] الأرك : حصن منيع قريب من قلعة رباح . ينظر : الحميري :صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار ،اعتنى بشرحها وتصحيحها : ليفي بروفنصال ، بيروت : دار الجيل ، ط2 / 1988 ، ص 12 .

يغزو بلاد النصارى في البرتغال و كل المدن المحاذية لبلاد المسلمين . و مما زاد من غضب الخليفة ، أن ألفونسو اغتر بنفسه وبعث إلى يعقوب المنصور خطابا يدعوه فيه إلى القتال [1] . وهو يشبه الكتاب الذي بعثه ألفونسو السادس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين .

فلمّا وصل هذا الكتاب إلى الخليفة مزّقه و كتب على ظهره : " قال الله العظيم: (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون) الجواب ما ترى لا ما تسمع .

ولا كُتْب إلا المشرفيّة عِندَه وَلَا رُسل إلا الخَميس العَرَمْرَم "[2].

ثم أمر بإخراج القبة الحمراء له و سيفه الكبير واستنفر الناس للجهاد وحشد الجيوش وأمر الموحّدين وسائر الأجناد بالحركة ، وكتب إلى إفريقية وسائر بلاد المغرب يدعوهم إلى النصرة ، و أمرهم بالسير إلى "سبتة" وغيرها من نقاط العبور إلى الأندلس . وأمر أن يُذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم . وضجّ الناس وصاحوا بالجهاد و هتفوا بنصرة دين الله و الدفاع عن الوطن ، و دوت صيحات الجهاد في كامل أرجاء المغرب من مدينة "سلا" على شاطئ المحيط الأطلسي حتى "برقة" شرقا على حدود مصر . و شُحنت نفوس المسلمين و تاقوا إلى مصارعة النصارى . وزاد في حماسهم أنهم سمعوا بانتصارات صلاح الدين الأيّوبي في المشرق على الحملات الصليبية ولاسيما انتصاره في معركة "حطين" واستعادة مدينة "القدس" من الصليبيين .

ثم خرج الخليفة من مراكش في يوم الخميس الثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة ، والجيوش تتلاحق في إثره من كل صوب و حدب ، فلمّا انتهى إلى قصر المجاز أخذ في إجازة الجيوش الواردة عليه ، فجازت قبائل العرب

---

[1] ينظر : ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة ، د.ط/1972 ، ص 220 ؛ عبد القادر قلاتي : الدولة الإسلامية في الأندلس من الميلاد إلى السقوط ، بيروت : دار وحي القلم ، دار الأصالة : الجزائر، ط2006/1 ، ص 138 .

[2] شمس الدين بن خلكان : وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان، بيروت : دار صادر، د.ط /1977 ، 7 / 7 .

والموحّدين والعبيد ثم جاز الخليفة في إثرهم في مشهد حافل وعظيم مع أشياخ الموحدين وفقهاء المغرب ، وانتهى إلى الجزيرة الخضراء بعد صلاة الجمعة فمكث بها يوما واحدا .

بعد ذلك واصل السير قاصدا "إشبيلية" فلقيه واليها مع بعض الأعيان . وفي اليوم الموالي مشى إلى حصن الفرج فأعجب به ، ثم خرج بعد ذلك اليوم يتفحص الجيش و يطمئن عليه ، و يطوف بين صفوفه ، صفا صفا ، ثم وزع عليهم الأسلحة وأغدق عليهم الأموال وأخرج من السجون بعضا ممن وسعهم الشرع في ذلك ، ثم توجه في التاسع عشر من رجب صوب "قرطبة" ، و كانت خطة الموحّدين تقضي بأن يتوجهوا إلى "طليطلة" ، حتى إذا ظفروا بها سهل لهم الاستيلاء على بقية ما كان تحت حكم النصارى وسهل لهم التوغل في قلب إسبانيا لأن "طليطلة" تقع في قلب بلاد الأندلس . فلما علم ألفونسو الثامن بمقدم الموحّدين إليه استنفر حلفاءه ملوك النصارى الآخرين ، مثل ملك "ليون" و "نبارة" ، واستصرخ البابا في روما وطلب العون من هولندا و فرنسا و ألمانيا و غيرها من الدول الأوروبية المجاورة للأندلس ، وحُشدت كل تلك القوّات و نزلت في "الأرك" . فلما علم يعقوب المنصور بذلك توجه إلى هذا الحصن لخوض المعركة .

وكان الذي تولى أمر الجيش بأمر من الخليفة يعقوب المنصور هو الوزير أبو يحيى بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص ، حيث أمر الجنود بأخذ أسلحتهم و الاستعداد للقاء العدو . ثم راحوا يزحفون في اتجاهه أسرابا أسرابا وأخذوا أماكنهم وغدوا كالبنيان المرصوص حيث احتل الموحدون ـ أو القوات النظامية ـ القلب ، وتمركز الجند العرب ـ أو أحفاد فاتحي المغرب المسلمين ـ في الجناح الأيسر ، ومعهم زناتة وبعض القبائل الأخرى . أما الجناح الأيمن فتموقعت فيه قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد . وكان الخليفة على رأس القوة الاحتياطية المكونة من صفوة الجند والحرس . فلما اكتملت جموع الموحّدين في حصن "الأرك" على مقربة من القشتاليين ، قام إليهم الوزير أبو يحيى بن أبي حفص " وقال بصوت مسمع لكل من حضر: يقول لكم أمير

المؤمنين اغفروا له فإن هذا موضع غفران ، و تغافروا فيما بينكم ، وطيبوا نفوسكم وأخلصوا لله نياتكم . فبكى الناس وأعظموا ما سمعوه من سلطانهم و ما جرى إليه من حسن معاملتهم ، ثم قال الجميع : من خليفة الله نطلب العفو والغفران وبيمن نيته وصدق طويته نرجو الخير من الرحمان . وقام أبوعلي القاضي ابن حجاج و خطب خطبة بليغة في التحريض على الجهاد وفضله ... و انفصل الناس و قد تنورت بصائرهم و خلصت لله ضمائرهم... " [1] .

و كان في الجهة الأخرى ملك "قشتالة" يرتّب جنوده في مواقعهم و قد نزلوا في هذا الحصن كالجراد المنتشر تحميهم قلعة "الأرك" من جهة ، و بعض التلال من جهة أخرى . وبهذا يكون القشتاليون قد احتلوا مكانا منيعا لا يُتوصَّل إليه إلا بشقّ الأنفس لأنه ، ـ أيضا ـ كان عاليا ، لذلك عندما تقدم إليهم المسلمون يريدون قتالهم، انثال عليهم ما يقارب ثمانية آلاف من جند العدو المثقلين بالأسلحة و الدروع ، كالسيل العرم [2] .

فلما التحم الجيشان صمد قلب الجيش الموحّدي ، و قاتل الوزير بن أبي حفص باستبسال حتى استشهد . و مال قوم من المتطوعة و أخلاط الناس على الميسرة ، فقال المنصور لخاصته : " جدّدوا نياتكم وأحضروا قلوبكم . ثم مشى منفردا بين الصفوف يؤجج النفوس للقتال ، و أمرهم بالبقاء صامدين أمام العدو. فلما رأى المسلمون ما قام به خليفتهم زاد حماسهم وغيرتهم ، وحملوا على القشتاليين حملة عنيفة ، و كرّوا وفرّوا وأخذت فرقة القواسين ترمي العدو بالسهام . واشتد القتال حيث انقضّ العرب والمتطوعة وقبائل "هنتانة" على جيش المسيحيين فأثخنوهم بالضرب والطعن . ثم انطلق بشير من الموحّدين إلى الخليفة يعلمه باقتراب النصر المبين . عندها أمر المنصور برفع الرايات وقرع الطبول ، و رفع المسلمون أصواتهم بالتكبير ، وأرعبوا

---

[1] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب، ص 219 .

[2] ينظر :علي محمد الصلابي ، دولة الموحّدين ، ص 135- 136 .

بهذا المشهد ألفونسو الثامن وقذف الله في قلبه الرعب [1] . و تحقق للمسلمين النصر والفتح العظيم ، و أصابوا مالا جسيما و غنموا كنوزا وفيرة ، و تمكنوا من استرداد بعض حصون النصارى مثل "ملجون "و "بنافنتي" و "قلعة رباح" و فتحوا "حصن الأرك" .

---

[2] ينظر : أبو العباس أحمد الناصري السلاوي : الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق : جعفر الناصري و محمد الناصري ، الدار البيضاء : دار الكتاب ، د.ط / 1950 ، ص 170 .

الفصل الأول

عوامل ظهور الاتّجاه الوطني في الأدب الأندلسي
على عهد الموحّدين

لقد نعمت بلاد الأندلس في زمن المرابطين ببعض الاستقرار السياسي والازدهار الأدبي ، و ذلك لأن الدولة المرابطية التي ظهرت بالمغرب بسطت نفوذها على الأندلس بعد ملوك الطوائف الذين كانوا متفرقين و متناحرين فيما بينهم ، مما أدى إلى سقوط الكثير من المدن الأندلسية و خراب أكثر البلاد . وقد راح المرابطون يذودون عن هذا الوطن بحمية كبيرة و شجاعة لا مثيل لها. مما أدى إلى استرجاع الكثير من تلك المدن التي استردها النصارى من قبل . وقد أضفى الملثمون شيئا من الأمن و الاستقرار السياسي ، و انتعش معه الجانب الحضاري و الأدبي ، فشيدت الكثير من الحصون و القلاع و الأسوار ، و أُعيد ترميم الكثير مما ضاع منها أيام الدمار في عهد ملوك الطوائف . و ظهرت ثلة كبيرة من العلماء والأدباء الذين أضافوا الكثير إلى الصرح الحضاري الذي كان قائما في بلاد الأندلس.

بيد أن هذا الأمر لم يدم طويلا ، إذ ظهرت أشياء كثيرة اضطربت بسببها أحوال الأندلس ، و بات كثير من الناس يتمنون رحيل المرابطين بعد أن كانوا يترقبون قدومهم من قبل .

إن هاته الأوضاع التي كانت الأندلس تعيشها في أواخر دولة المرابطين هي أحد عوامل ظهور الاتجاه الوطني في عهد الموحدين ، لأنها مهدت لظهور عوامل أخرى ، من بينها : نشاط حركة الاسترداد من قبل النصارى ، وابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم , و سأقف عند هذين العاملين بالتفصيل و التحليل .

وقبل الحديث عن الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي آثرت الكلام على عوامل ظهور هذا الاتجاه . و هو جانب نظري تكتمل من خلاله صورة هذا الاتجاه ، و به يتضح كثير من القصائد و النصوص النثرية التي تصب في هذا الموضوع . ومن تلك العوامل نذكر ما يلي :

أ - نشاط حركة الاسترداد

لقد نشطت حركة الاسترداد في مواقع كثيرة من الأندلس ، حيث راح النصارى يستردون بعض تلك المدن التي كانت تسقط في أيديهم تباعا . وقد أدى هذا الأمر إلى أن هب كثير من الشعراء و الكُتّاب الأندلسيين لرثاء تلك المدن وبكائها بكاء حارا نتيجة لعظم تلك الفاجعة . وكان لسقوط المدن الأندلسية الأثر البالغ في نفوس الأندلسيين . وفيما يلي نقف عند أهم المدن التي سقطت نتيجة لتلك الحركة القاسية:

1 - سقوط شنترين

تقع شنترين في كورة باجة على جبل مرتفع جدا ، ولها سور عظيم [1] وأبراج منيعة لا تُنال بيسر ، ولها بساتين كثيرة . وهي من أفضل مدن الأندلس جمالا، حيث يفيض نهرها على بطحائها كفيض نهر النيل في مصر [2] .

إن الموقع الجغرافي الممتاز لهذه المدينة ، وجمالها الأخاذ هما اللذان جعلا ألفونسو هنريكيز يطمح إلى الاستيلاء عليها . بالاضافة إلى أن هذه المدينة لما استولى عليها الموحدون كانت تشكل خطرا كبيرا على مملكة البرتغال حيث كانوا ينطلقون منها للإغارة على البرتغاليين . لذا رأى ألفونسو أن استرداد هذه المدينة الهامة يعزز من أمن مملكته .

و من أجل هذا كله قرر هنريكيز الاستيلاء على شنترين وضمها الى مملكته . وقد رتب لهذا العمل خطة مُحكمة ، فبدأ بالهجوم المباغت وأرسل بعض جواسيسه إلى الحصن ليتحسسوا له الأوضاع ويترصدوا له الأماكن الهشة التي يأتون المسلمين من قِبَلها . فارتأى أن يبعث بوحدة تشغل الموحدين ، في الوقت الذي يقوم فريق

---

(1) يذكر الحميري أن هذه المدينة ليس لها سور . (ينظر : الروض المعطار في خبر الأقطار ، حققه : إحسان عباس ، بيروت : مكتبة لبنان، ط1984/2 ، ص 346 .) وأرجّح ما جاء في كتاب "ذكر بلاد الأندلس" ، لأن هاته المدينة لم تفتح بسهولة من قبل أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وقد لاقى ألفونسو صعوبة في الاستيلاء عليها ، حيث حاول ذلك سنة537 هـ .

(2) ينظر : مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق : لويس مولينا ، مدريد : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، المعهد ميغيل أسين ، د.ط / 1983، 1/ 53 .

بتجهيز السلالم لتسلق الأسوار والدخول الى الحصن من الأعلى ، ويذهب فريق آخر من المقاتلين إلى الأبواب الخارجية ليفتحوها . وهكذا تغدوا المدينة مفتوحة من كل الجهات . [1]

كانت هذه هي خطة الفونسو هنريكز التي بدأ في تطبيقها سرا دون أن يُعْلم أحداً عدا أحد فرسانه المقربين يدعى "ميم راميز" ، وهو الذي قدم مع مائتين وخمسين من خيرة فرسانه ليستطلعوا أحوال المدينة ويتفقدوا أمور الحصن حتى تسهل عليهم مهمة الاستيلاء . وقد وُفق هذا الرجل في هذه المهمة ، وأعد تقريرا وافيا بالمعلومات دفعه إلى الملك الفونسو الذي كان موجودا بمدينة قلمرية[2].

وهبّ الفونسو بكامل جموعه في اتجاه مدينة شنترين في شوال 541هـ مارّا على دير "سانت كروس " ، فدعمه القائم عليه بالعتاد والمقاتلين . ثم واصل سيره مارا بسلاسل جبال "البوردوس " وقام بحصار المدينة من جهة الشرق ، وأحضر معه عشرة سلالم ، حيث يصعد في كل واحد منها اثنا عشر فارسا لكي يتخطوا تلك الأسوار المنيعة . ويبدو أن هنريكز كان ذكيا في خطته ، إذ بدأ بوضع تلك السلالم في المساء خفية بالحقول القريبة من الأسوار . وفي الصباح الباكر نفذوا خطتهم بإحكام ، وتسلقت فرقة من الجنود بقيادة "ميم راميز"الأسوار بواسطة السلالم وهاجموا حراس المدينة وقتلوهم ، ثم اتجهوا إلى باب المدينة المسمى "المرمر" وفتحوه . ودخل "هنريكز" المدينة وقام بمذبحة شنيعة ، وكان ذلك سنة 541 هـ [3].

2 - سقوط اشبونة:

إن اشبونة من أجمل المدن في الأندلس وأمنعها ،وهي مدينة قديمة على مشارف البحر تقع بغربي مدينة باجة ، لها سور عال محكم البنيان ، وبها عدة أبواب ، منها الباب الغربي الذي عُقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام

---

[1] ينظر: محمد محمود النشار: تأسيس مملكة البرتغال ، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط1/ 1995، ص 156 .
[2] ينظر: م .ن ، ص.ن .
[3] ينظر: م .ن ، ص 157.

مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها ، ولها باب يعرف بباب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند هيجانه . والمدينة لها سور وقصبة منيعة[1] .

و كانت هذه المدينة تحتل مكانا جيدا في الأراضي البرتغالية حيث ظلت لفترة معقل المسلمين المنيع في قلب تلك الأراضي ، بالإضافة إلى موقعها الفريد عند نهر التاجه . وانطلاقا من هذه المعطيات وغيرها ، كان زعيم مملكة البرتغال آنذاك "الفونسو هنريكيز" يتحين الفرصة للإغارة على هذه المدينة ،وبخاصة لما اضطربت شؤون الأندلس . ولكي يحقق رغبته تلك راح يطلب المعونة من القوات الصليبية التي كانت تنطلق من بلاد الإنجليز والألمان والهولنديين إلى المشرق لتشن حملاتها التوسعية الصليبية هناك . وبالطبع لم يخيبوا ظنه ، فقد أمدوه بإعانات كبيرة ليتقوى بها على الموحدين[2].

ولما بلغ الفونسو مأمله خرج في قواته ليحاصر مدينة أشبونة وذلك في أوائل سنة 541 هـ ، فنزل في مدخل الميناء ليمنع وصول أي إمداد إلى المدينة المحصورة. واستمر هذا الحصار بضعة أشهر . وقد كانت هذه المدينة منيعة ومحصنة بحيث استعصى على النصارى فتحها في بادئ الأمر، لأسوارها الضخمة وأبوابها العديدة العظيمة . ووقعت بين الفريقين معارك عنيفة استبسل فيها المسلمون ودافعوا عن مدينتهم . ولكن الحصار الذي كان مضروبا عليهم زاد من معاناتهم حيث نفدت المؤن وخارت القوى وهُدت الأسوار في مواضع عدة ، ولم يستطيع جيرانهم من المسلمين إنجادهم وهو ما سهل من سقوط المدينة ، حيث قام "الفونسو" خطيبا في جنده يرغبهم في دخول المدينة ويشحذ هممهم ويذكرهم بالأموال الطائلة الموجودة فيها والذخائر والكنوز النفيسة التي ستصير ملكا لهم ، بالإضافة إلى أن المسلمين أعداء لهم .

هذه الكلمات ضاعفت من حماس جنود النصارى ، واستطاعوا أن يقتحموا تلك الأسوار المثلومة . ودارت بين الفريقين معركة ضارية قام المسلمون فيها بالدفاع عن

---

[1] ينظر:الحميري : الروض المعطار في خبر الأقطار ، ص 99 .

[2] ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 24/5 .

مدينتهم دفاعا مريرا . ولكن بفضل حشود النصارى الهائلة وطول الحصار الذي ضُرب على المسلمين ، تمكن البرتغاليون من دخول المدينة من بابها الشرقي ـ باب الحمة ـ . وقتلوا من المسلمين الكثير، وأسروا من بقي منهم حيا . ثم أُعلنت المدينة مفتوحة ونُهبت نهبا ذريعا ، وحُول مسجدها الجامع إلى كنيسة . وكان استيلاء النصارى على أشبونة في شهر جمادى الأولى من سنة 542هـ .[1]

3 - سقوط جيان

منذ أن سقطت قرطبة والقشتاليون يعيثون في الأراضي والمدن التي تجاورها فسادا . وكان من بين أهم أهدافهم في تلك المنطقة الاستيلاء على مدينة "جيان" التي كان "فرناندو الثالث" قد حاصرها من قبل في سنة 627هـ ولم يتمكن من الاستيلاء عليها . وفي أوائل ظهور محمد بن الأحمر اتخذها هذا الأخير مقرا لرئاسته . ثم إن فرناندو كان يدرك أن الاستيلاء على هذه المدينة سيحقق بسطة في المعيشة للقشتاليين لخصوبة أراضيها وغناها . ومن ثم لم يكن أمامه من سبيل سوى أن يضرب حولها حصارا يضيق عليها في المعيشة ويقطع أسباب حياتها حتى يرغمها الجوع على التسليم .

وفي أواخر سنة 642هـ ، سار فرناندو الثالث بجموعه إلى المدينة ، وضرب حولها حصارا استمر شهرا في قلب الشتاء حيث البرد القارس والأمطار الشديدة التي أوهنت من قوة الجيش المحاصِر ، والمدينة صابرة صامدة في وجهه ، حيث كان أهالي جيان يخرجون بين حين وآخر لقتال القشتالين . إلا أنهم كانوا في كل مرة يفتكون بهم ، بالإضافة إلى أن الجوع قد تمكن منهم جراء ذلك الحصار، الأمر الذي اضطر حاكم المدينة ، أبا عمر بن موسى ، إلى أن يستغيث بابن الأحمر ، فلبى طلبه حيث أرسل إليه قافلة كبيرة مُحمَلة بالمؤن استطاعت أن تتوارى عن أعين الجيش

---

[1] ينظر : م . س ، ص 24 - 25 .

المحاصِر ووصلت إلى المدينة بسلام . ولكن الحصار طال ونفدت الأقوات بعد أمد وظلت المدينة تصارع الجوع والحرمان بثبات .

وكان القشتاليون في تلك الأثناء أيضا يغيرون على الأراضي القريبة من مدينة غرناطة ووصلوا إلى مشارفها . وكانت غرناطة تحت إمرة ابن الأحمر ، فخشي أن تطاله غزوات النصارى . لذلك راح يلتمس وسيلة يتجنب بها عادية القشتاليين ، فرأى أن يعقد معهم هدنة . ولذلك صرف نظره عن إمكانية نجدة جيان لتأمين مدينته . ولم يكن فرناندو الثالث يرى إتمام عقد هذه الهدنة إلا إذا قبل ابن الأحمر الخضوع لسيادته، والدخول تحت طاعته . فسار ابن الأحمر بنفسه إلى المعسكر القشتالي وقدم طاعته إلى ملك قشتالة تحت أسوار مدينة جيان . فياله من موقف مؤلم ، وكان من بين شروط تحقيق تلك الهدنة أن تُسلّم جيان وأعمالها إلى ملك قشتالة ، وأن يبقى ابن الأحمر ملكا على غرناطة وسائر أراضيها وتابعا لملك قشتالة . وتمّ عقد هذه المعاهدة في أواخر سنة 643هـ . ومن ثم دخل القشتاليون مدينة جيّان العظيمة وحُوِّل مسجدها الجامع في الحال إلى كنيسة ،واحتُلّت المدينة وغادرها معظم الأندلسيين [1].

4 - سقوط مدينة باجة

مدينة باجة من أقدم مدن الأندلس بنيانا ،وحوز باجة كبير وخطتها واسعة ، ولها معاقل شديدة الحصانة والمنعة ، وإليها يُنسَب الفقيه المشهور، القاضي أبو الوليد الباجي[2].

كانت هذه المدينة تحت حكم رجل بربري اسمه "عمر بن سحنون" موصوف بسخافة العقل . وكان قليل الفهم،قصير القامة ، صغير الهامة ، مجلسه مجلس حمق وظلم وشهادة زور . اتخذ هذا الوالي لنفسه وزيرا من أراذل بادية باجة ، لم يردعه عن سفك الدماء وأخذ أموال الناس بالباطل . بل أعانه على تلك الجرأة قاضي البلد

---

[1] ينظر: م .س ، 6 /67-68 .

[2] ينظر : الحميري : الروض المعطار ، ص 122 .

المتواطئ معه ، "عمر بن زرتاج" . وكانت له عصبة من سفلة القوم يحضرون مجالسه لشهادة الزور وتكريس الظلم . فكانوا يعقدون العقود بالكذب والتدليس . ثم إن" عمر بن سحنون " ذهب هذا المذهب ، وأخذ برأي الفجار ، ووصل به الأمر إلى قتل الفقيه أبي جعفر بن الأنصاري ظلما وجورا ، وقتل جماعة من الفضلاء معه.[1]

وفي سنة 568 هـ غدر النصارى هذه المدينة من البرج المستقبل بباب قصبتها المسمى "برج الحمام" ، وذلك لعدم اهتمام ابن سحنون به ، وانشغاله عن الدفاع عن المدينة لأنه كان منهمكا في ملذاته ولهوه وجرأته على حقوق الناس كما ذكرنا ، وغفل عن أسوار المدينة وحصونها . وكان على البرج المذكور سابقا حراس لا تنام أعينهم عن حراسة المدينة . فلمّا طالت يد ابن سحنون على حقوقهم وأكل ما كان يُجبى إليهم، خارت عزيمتهم وبقي البرج دون سامر . فوصل النصارى في ظلام الليل إلى السور متسللين على أيديهم وأرجلهم ، ولم يشعر بهم أحد من السمار، إلى أن ألصقوا السلالم بالبرج ، وراحوا يتصايحون ويلغطون بأصواتهم وابن سحنون يعمه في سكرته ، فقام إلى باب القصبة فوجد النصارى قد فتحوه ، وجبن عن الدفاع عن مدينته فارا بجلده من أعلى البرج ، ثم تدلّى من سور المدينة هاربا إلى منطقة "مرتلة " على قدميه، وترك وراءه المدينة تصارع مصيرها المفجع ، حيث ارتفع الصياح من قبل النصارى وساكني المدينة ، مما أثار ضجة وهولا كبيرا . ففرّ الناس من كل جانب يبتغون النجاة من أبواب المدينة ،فقتل منهم كثير عند تلك الأبواب ، وأسُر منهم من أسر، وغنم النصارى المال الكثير[2] . وحل عقاب الله على كل من سولت له نفسه ظلم الناس وأكل أموالهم بالباطل .

---

[1] ينظر : ابن عذاري المراكشي . ص 128- 129

[2] ينظر : م . ن. ص 127

5 - سقوط مدينة قونقة

لقد تم في سنة 568هـ صلح ومهادنة بين خليفة الموحّدين أثناء مكثه بإشلبية والكونت نونيودي لارا ، صاحب طليطلة ، وألفونسو الثامن ملك قشتالة ، وألفونسو هنريكز ملك البرتغال ، لأنّ الأحوال بدأت تسوء في الأندلس شرقها وغربها . ثم ما أن عزم الخليفة على الذهاب إلى المغرب سنة 571هـ حتى هَمّ ملوك النصارى بنقض الهدنة واستمرار عملية الاسترداد . و في سنة 572هـ عمد الفونسو الثامن ملك قشتالة والكونت نونيودي لارا إلى غزو المسلمين . وكانت قبلتهما مدينة "قونفة" ، هذه المدينة التي هي عبارة عن حصن من حصون ولاية بلنسية المنيعة ، إذ تقع فوق ربوة عالية عند ملتقى نهري "شقر" و"وقر" في شمال شرقي الأندلس . يقول المؤرخون إن هذه المدينة أنشأها المسلمون من بين ما أنشأوه من المدن الأندلسية .

ولقد اشترك في هذه الحملة ، إلى جانب الملكين المذكورين عدد كبير من القادة والفرسان الكبار، من أمثال" بيدرو" و"سانشو" صاحب " أبلة "و"ريموندو" صاحب" بلازنسيا" وغيرهم ، وضربوا حصارا شديدا حول "قونفة" . واضطر أهل المدينة إزاء هذا الوضع المؤلم إلى طلب النجدة من الخليفة الذي ارتد إلى مراكش[1] كما ألمعت سابقا .

فلما وصل الخبر، أرسل إلى ابنه أبي علي الحسين ، والي إشبيلية ، وابنه أبي الحسن علي ، والي قرطبة ، آمرا إياهما بأن يغزوا نواحي طليطلة وطلبيرة ، وذلك لإخافة النصارى وإجبارهم على رفع الحصار عن المدينة ، فخرج السيد أبو الحسن بجيشه سنة 572هـ وأغار على طليطلة وأفسد فيها ثم رجع بغنائم وفيرة . أما أخوه السيد أبو علي الحسين فاتجه هو بقوته إلى طلبيرة وأثخن فيها وغنم كثيرا مما كان بحوزتها[2] .

---

(1) ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس .65/6.

(2) ينظر: ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص137-138 .

إن الذي قام به هذان السيدان لم يأت بنتيجة تذكر في إضعاف العدو ورفع الحصار عن المدينة ، بل لبث المحاصرون للمدينة على الرغم من مناعتها وصعوبة الوصول إليها . أضف إلى ذلك برودة الشتاء القارس . ثم إن الموحدين إزاء هذا الوضع بعثوا بإمدادات صوب هاته المدينة ، لكن جيش ملك أرجون ، حليف ملك قشتالة ، منعها من الوصول . واستمر حصار قونقة زهاء تسعة أشهر . وكانت سبل الدفاع عن هذه المدينة استُنفدت ،ومؤن العيش انقطعت ، ودب الجوع والحرمان بين الأهالي . فحتّم هذا الوضع تسليم المدينة وسقوطها في يد ملك قشتالة ، دون أن يبذل الموحدون قصارى جهدهم في إنجادها . بل تركوها لمصيرها المشؤوم . وهو ما يكشف عن حقيقة ضعف وسائل الدفاع الموحدي عن بلاد الأندلس في هذه السنوات من عُمر الدولة . ولقد سقطت المدينة في الحادي والعشرين من شهر سبتمبر سنة 1177م(1) . وكان لسقوطها الأثر السيئ في نفوس الأندلسيين . ولقد حُوّل مسجدها الجامع إلى كنيسة (2)، وصار خطّ الدفاع للأندلس مهددا بإغارات القشتاليّين على الأراضي الإسلامية.

6 - سقوط مدينة شِلْب

تُعدّ شلب من أقدم مدن الأندلس . لا يُعرَف من بناها من الأمم وهي مبنية على ضفة نهر آنة الذي يصب في المحيط الأطلسي . والمدينة " في المحل الرفيع ، ولها المنظر العجيب والرفقة والجمال والتحصين والحسن والخصب والكمال ، موضعها شريف وفناؤها رحب وحصنها باد ... وهي مع ذلك كثيرة المرافق والفوائد والخيرات ." (3)

تقع في أقصى جنوبي البرتغال على مقربة من المحيط ، وعليها سور حصين. وكانت تُعد في ذلك الوقت ، بعد "باجة" و" يابرة" ، من أمنع قواعد ولاية الغرب

---

(1) ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ص66 .

(2) O 'callaghan , J . F : A history of medieval Spain , New-york , 1975 , p 240 .

(3) مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، 1 / 53.

الأندلسية وأوفرها عمرانا وثراء . وإذن فالمدينة ، مع جمالها وحسنها وما يُجبَى إليها من الخيرات وما تنتجه من الثمرات ، حصينة منيعة عسيرة المنال .

إنّ هاته المغريات التي كانت تتميز بها "شلب" جعلتها مطمعا للنصارى الحاقدين . فقد جمعوا كل قواتهم بمختلف روافدها حيث اتفق "سانشو" ملك البرتغال مع أسطول صليبي قادم من إنجلترا وبلاد الفلاندر نحو مياه "أشبونة" ، ثم انضمت إليه سفن قدمت من مياه "جليقية" ، واجتمع هذا كله في مياه "أشبونة" . وكانوا بالاستيلاء على هاته المدينة يريدون أن يتخذوا منها قاعدة للخروج إلى شواطئ المحيط يغزونها وينهبونها ، فاجتمعت عزائمهم على إحراز الغنائم ، وازدادت أطماعهم على استغلال ثروات المسلمين .

ففي أوائل سنة 585هـ ، أرسل القائد "سانشو" قواته البرية باتجاه جنوب مدينة شلب ، وأبحرت سفن الصليبيين من خليج "التاجه" المحاذي للشاطئ البرتغالي، وبدأ البرتغاليون بمهاجمة حصن " البور" حيث أفنوا حاميته الإسلامية ومن لجأ إليه . ثم تقدم بعد ذلك "سانشو" مع حلفائه باتجاه المدينة وهاجموا أرباضها واستولوا عليها. وكان القائم على أمر المدينة هو عيسى بن أبي حفص بن علي الذي لم يستطع أن يرد إغارات الصليبيين لقلّة معرفته بشؤون الحرب ، فامتنع بقواته داخل المدينة متحصّنا بأسوارها العالية المنيعة . ولم يجد النصارى حلا لهذا الوضع سوى مضاعفة الخراب وإتلاف الأرباض.

ولقد حاول "سانشو" عبثا أن يقتحم المدينة في بضعة أسابيع ولكن محاولاته تلك ظلت تراوح مكانها ، فاضطر إلى حصارها ، واستدعى قوات أخرى لإعانته حُملت في أربعين سفينة . واشتد الحصار على المدينة حيث حاول سانشو ثانية اقتحام شلب ولم يستطيع لحصانتها ومناعتها ـ كما أسلفت ـ على الرغم من أنه أمطرها بالمجانيق والنبال ، وحاول الجند "الفلمنك" أن يحفروا سراديب تحت الأسوار لكي يتسللوا منها ، فأحبط الأهالي المتحصنون محاولاتهم تلك . لكن الذي زاد من معاناة المتحصنين ، وكان سببا لسقوط المدينة هو أن "سانشوا" اللعين لجأ إلى قطع الموارد

المائية التي كانت تزوّد المدينة . فتعرّض أهلها لعطش أرغمهم على الاستسلام وتسليم المدينة ، وكان أهالي شلب يرتوون من بئر كبيرة متصلة بنهر قريب منها ، وأقيم فوق هذه البئر برج لحمايتها ، فقام النصارى بهدمه واستولوا على البئر بعد مشادات مع المسلمين تفوقوا فيها عليهم . وأمام هذا الوضع ، لم يستطيع الأندلسيون الصمود لأن الماء أساس الحياة ، وقد قُطعت عنهم موارده ، فاستسلموا للأمر الواقع حيث بعثوا وفدهم إلى "سانشو" يعرضون عليه تسليم المدينة . فاتفق الطرفان على أن يخرج المسلمون من شلب تاركين وراءهم كل أموالهم وأمتعتهم حيث سلبها منهم "سانشو" وحلفاؤه مقابل تأمينهم على أنفسهم أثناء خروجهم من المدينة . وهكذا سقطت المدينة ودخلها النصارى بعد حصار دام ثلاثة أشهر، وذلك في سنة 585هـ .[1]

وتذكرنا هاته الحادثة بما وقع "لبربشتر" ، زمن ملوك الطوائف ، عندما داهمها النورمانديون وحاصروها وقطعوا عنها منابع الماء ، مما أدى إلى سقوطها .

7 - سقوط جزيرة ميورقة

كانت جزيرة ميورقة تحت حكم بني غانية مدة من الزمن إلى أن أخذها منهم الموحدون في سنة 600 هـ ، وبقيت تابعة من الناحية الإدارية لولاية بلنسية ، إذ تعاقب عليها في هذا العصر وُلاة موحدون كُثر .

وقبل أن يجتاح هذه الجزيرة الملك النصراني الأرغوني كانت بين حاكم هذه الجزيرة ووالي طرطوشة النصراني مناوشات لا أريد أن أدخل في تفاصيلها. وملخص ذلك أن والي ميورقة استفز الحاكم النصراني في مياه إقليمية مما أثار مناوشات بينهما فاستقر الأمر على استنجاد هذا الأخير بملك الروم الذي عزم على

---

[1] ينظر : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب . ص 201-202 .

غزو الجزيرة . وجمع لذلك عشرين ألفا من أهل البلاد وجهز في البحر ستة عشر ألفا آخرين ، كلهم تطوعوا بأنفسهم وأحوالهم لمؤازرته وأخذ منهم عهدا على ذلك[1].

وقبل أن يغزو هذا الملك وهو "جاقمه" (خايمي الأول) جزيرة ميورقة ، استدعى مجلس البلاط القطلاني في برشلونة سنة 625هـ ، وعرض عليه خطته لفتح ميورقة . وتتضمن أيضا تأمين تجارة قطلونية في البحر المتوسط ، فوافقه المجلس على مشروعه . وبعد هذا الاتفاق راح الملك يحشد قواته التي اشترك فيها أيضا كبار الرهبان وأكابر الأشراف القطلان فضلا عن الفرسان الأشداء . وكان قد تعهد الملك بتقسيم الغنائم وتوزيع الأراضي المفتوحة بين المساهمين في هذه العملية بالتساوي بحسب إسهامات كل مشارك فيها [2].

وفي شهر شوال من سنة 626هـ ، خرج أسطول أرغونة يحمل ألفا وخمسمائة من الفرسان وخمسة عشر ألفا من المشاة وأعداداً هائلة من المتطوعين أقلتهم كلهم مائة وخمس وخمسون سفينة من ميناء "طركونة" إلى خليج " بلمه" . وعلى الرغم من أن الموحدين اتخذوا كل الأسباب والاحتياطات للدفاع عن جزيرتهم ، فإن القوة النصرانية استطاعت الرسو ليلا بكل سهولة في خليج ميورقة . واشتبك المسلمون مع أعدائهم وتفوقوا عليهم في بادئ الأمر باعتبار أنهم كانوا ممتنعين داخل حصونهم . إلا أنهم تراجعوا فيما بعد إلى داخل مدينتهم بعد أن كبدوا أعداءهم خسائر كبيرة . ثم تواصل العراك إلى أن أحكم النصارى الحصار حول ميورقة واستمروا في ضربها بمختلف الآلات ، وشددوا عليها الخناق حتى تمكنوا من اقتحامها بالقوة. وتطاحنوا مع المسلمين في معركة عنيفة ، وكانت الغلبة فيها أخيرا للنصارى حيث قتل من المسلمين أربعة وعشرون ألفا . وكان ذلك في صفر من سنة 627[3].

---

[1] ينظر : محمد أحمد أبو الفضل : شرق الأندلس في العصر الإسلامي، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري ،الأسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د.ط / 1996 ، ص 200 .

[2] ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 6/ 404 .

[3] ينظر:أبو العباس أحمد المقري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، بيروت:دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1/ 1998 ، 5/357-358 .

8 - سقوط جزيرة يابسة

لقد حقق النصارى انتصارا كبيرا بسقوط جزيرة ميورقة ، لأنها كانت تعد كبرى الجزائر الشرقية . لذلك كان من السهل جدا سقوط بعض الجزر الأخرى ، كجزيرتي "منورقة" و "يابسة" . لكن الملك "جاقمه" وجه اهتمامه لبلنسية ، فتخلى مؤقتا ،عن إخضاع جزيرتي منورقة ويابسة[1] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن الراوية الإسلامية ليس فيها ما يشير إلى سقوط جزيرة ميورقة ولا إلى وضعها وحالها بعد السقوط ، ولكن الراوية النصرانية ـ كما تذكر بعض الكتب – وإن كنا نتحرّج من الأخذ بهذه الرواية لأنها في بعض الأحيان تحوي مغالاة - تشير إلى سقوطها ، حيث يذكر المؤرخ "مرسيليو" أنه في عام 631هـ وصل خايمي الأول إلى مدينة الكنيز فقدم إليه "جيرمودي مونتجري " قديس جرندة المرشح لأسقفية طركونة ، وعلم من الملك خايمي الأول أنه لا ينوي فتح يابسة، فعرض عليه الأسقف ، رأيا محصلته أن يتولى هو إخضاعها تحت سيادة مملكة أرغون ، فأعجب الملك برأيه ، وأبدى قبولا له واحتفل العاهل الأرغوني والأسقف بهذه المناسبة ، وتم في هذا اللقاء الاتفاق على افتتاح جزيرة يابسة [2].

وهذه الرواية لم يرد فيها حديث عن تفاصيل سقوط هذه الجزيرة بل اكتفت بالتلميح إلى أنها افتتحت من قبل العاهل الأرغوني و الأسقف.

والرواية الإسلامية ، على الرغم من ايجازها تشير إلى سقوط هذه الجزيرة ، حيث يذكر ابن أبي زرع في "روض القرطاس" أن الأرغونيين عندما حلوا بجزيرة يابسة سنة 632 هـ ،لاقوا مقاومة من قبل أهلها المسلمين ، واستمر هذا الصراع بين

---

[1] ينظر: محمد أحمد أبو الفضل : شرق الأندلس في العصر الإسلامي ، ص 202 .

[2] ينظر: م .ن ، ص203 .

الفريقين نحو خمسة أشهر إلى أن انتصر المسيحيون على المسلمين ، واستولوا على الجزيرة [1].

9 - سقوط قرطبة

لقد كانت قرطبة - منذ أن دخلها المسلمون و اتخذوها عاصمة لهم - مصونة من كل عوامل السقوط إلا ما أصابها من هزات عنيفة ، و تخريب و دمار ، و لكن رغم ذلك ، لم يُرفَع فيها للنصارى عَلَم ، و لم يستردوها منذ أن فُتحت من قبل المسلمين مع ما استردّوه من المدن الأخرى ، فقد ظل المسلمون محافظين على عاصمتهم طيلة هاته المدة ، غير أنها تعرضت لفتنة بربرية مبيرة ، قبل ظهور أمر الطوائف ، محت الكثير من محاسنها ، وتعرضت لكثير من الخراب و التلف من قبل البربر . ومنذ ذلك الحين بقيت قرطبة كالطود العظيم تحت حكم المسلمين ، إلى أن سقطت أخيراً في أيدي النصارى على عهد الموحدين ، فكيف كان هذا السقوط ؟

في بدايات سنة 633هـ خرجت مجموعة من خيرة الفرسان القشتاليين الذين كانوا مرابضين في شرقي قرطبة وبالضبط في منطقة "أندوجر" ، و اتجهوا نحو المدينة ، فلما وصلوا إلى منطقة الربض الشرقي (أو الشرقية) عزموا على اقتحامها و خططوا لذلك بإحكام . و تختلف الروايات في طريقة هذا الاقتحام لكنها تتفق كلها على أن القشتاليين استطاعوا أن يستولوا على السور الذي كان يحصن هذه المنطقة من دخول الأعداء إليها ، و احتلوا بعض أبراجه المنيعة . و في هذه الأثناء تعالت أصوات من كانوا بالمدينة و وقع فيها لغط و هرج كبيران . ثم تدافع بعضهم لرد النصارى عن موقعهم ذاك ، و وقع بين الفريقين قتال سقط فيه عدد من كلا الجانبين، و لكن القشتاليين بقوا صامدين و أرسلوا فوراً بطلب الإمداد لهم [2].

---

[1] ينظر : ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، ص 183 .

[2] ينظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس . 6/ 420 .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أمر النصارى في عملية الإنجاد كان مختلفاً عما كان عليه أمر المسلمين ، إذ على الرغم من أن ملوك الأقاليم الثلاثة (مملكة قشتالة ، و مملكة ليون ، ومملكة أراغون) كانوا يتسابقون للظفر بالمزيد من ضمّ المدن الإسلامية إلى مملكاتهم ، فإنهم كانوا يسارعون في نجدة بعضهم البعض ، لكن المسلمين عندما كانوا يُحاصَرون من قبل هؤلاء النصارى ، ثم يستنجدون إخوانهم ، لم يجدوا لطلبهم ذاك - في الغالب- سميعا و لا نصيرا .

لذلك فإن القشتاليين جاءهم المدد على جناح السرعة من قبل اثنين من القادة هما "أردونيو الباريث" ، و "ألباربيرث" ، كل واحد في قواته ، بالإضافة إلى أسقف بياسة مع رجاله ، و أسقف قونقة في قواته ، و آخرين من الفرسان و الشجعان الذين توجهوا إلى مكان الحدث . و وصل الخبر إلى فرناندو الثالث ملك قشتالة فهب بعزيمة قوية إلى الجنوب في مائة فارس فقط ، و قد نقض بهذا الفعل الهدنة التي كانت بينه و بين ابن هود إذ كانت قرطبة تحت إمرة هذا الأخير ، بالإضافة إلى أن فريقا من أهل المدينة هم الذين استدعوا النصارى . و ما إن وصل ملك قشتالة إلى قرطبة حتى بدأت الوفود تتقاطر من كل جهة من مملكة ليون و من فرسان الجماعات الدينية ، واجتمعوا كلهم تحت أسوار المدينة ، و شرعوا في وضع خطة الاستيلاء عليها .[1]

و إزاء هذا الموقف العصيب ، فإن أهالي قرطبة -على ما يبدو- واجهوا هاته الحشود النصرانية بمفردهم ، فالرواية الاسلامية لم تذكر عن هذه المواجهة أي تفصيل، و لم تشر إلى اسم القائد الذي انضووا تحت توجيهاته ، فمثلا لم يذكر صاحب روض القرطاس أن أهل قرطبة لبثوا مع النصارى في قتال شديد [2].

وبما أن قرطبة كانت في هذا العصر تحت حكم ابن هود ، فقد هرع هذا الأخير من مرسية لإنجادها في حشد كبير من الجنود ، بلغ خمسة و ثلاثين ألف مقاتل، ومعه نحو مائتي فارس من المرتزقة النصارى ، فاتجه مباشرة بهذه القوات

---

(1) ينظر: أحمد فكري : قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، د.ط /1983 ، ص 150 .

(2) ينظر: الحميري : صفة جزيرة الأندلس . ص 183

إلى المدينة المحاصَرة ، و انحرف عنها قليلا نحو الجنوب الشرقي ، و نزل بالقرب من إستجة [1] ، في حين أن القشتاليين لم تكن لهم القوة الهائلة لردع جيش ابن هود ، حيث لم يكن مع ملك قشتالة سوى نحو مائتي فارس و حشود كانت تنضم إليه من مختلف أنحاء قشتالة ، لم تكن تؤلف قوة ذات شأن .

و انطلاقا من هذه المعطيات نرى أن ميزان القوة كان لصالح المسلمين ، حيث إن النصارى كانوا بين جبهتين : جبهة ابن هود وقواته ، وجبهة أهالي قرطبة المحصنين في المدينة . ولو أن ابن هود هاجم القشتاليين لتمكن منهم ، ولانفك الحصار الذي كان القرطبيون يعانون منه ، ولكن الذي حدث هو غير ذلك ، إذ بقي ابن هود في مكانه جامدا لا يقوى على فعل شيء . ولتفسير هذا الجمود ، هناك روايتان حسبما جاء في بعض الكتب :

-أما إحداهما فتذكر أن قسوة الطقس والأمطار الغزيرة ،ونقص المؤن كانت الأسباب التي جعلت ابن هود لا يقدم على مهاجمة النصارى .

-أمّا الراوية الثانية ، فمجمل ما جاء فيها هو أن جيش ابن هود – كما أسلفنا – كان يوجد فيه أحد فرسان قشتالة الذي نفي من قبل القشتاليين ومعه مائتان من المرتزقة النصارى ، وكان هذا الفارس (لورنسو خواريز) مقربا من ابن هود ومستشارا له. فلما عسكر ابن هود بقواته في استجة لمقارعة جيش العدو عزم لورنسو على كسب ثقة ملك قشتالة وإرضائه بأن يعمل على خداع ابن هود ويثنيه عن مقاتلتهم ، فأعلم لورنسو ابن هود ، بأنه سيتسلل في جنح الليل الى معسكر النصرانيين و يأتيه بعدده و عدته . وفعلا تسلل إلى المعسكر وأبلغ الملك أنه يريد مقابلته في أمر جلل ، ووفد إليه وشرح له خطته في خداع ابن هود بأن يخوفه ، ويعلمه بقوة القشتاليين لكي يولي راجعا ولا يصطدم معه في قتال يكون المسلمون هم الرابحين فيه . فلما اطمأن الملك إلى خطته ، عفا عنه ووعده برعايته وتقريبه منه . واستطاع بعد ذلك لورنسو أن

---

[1] ينظر : عبد الواحد المراكشي : وثائق المرابطين والموحّدين ، تحقيق : حسين مؤنس،القاهرة:مكتبة الثقافة الدينية ،ط2 / 2006 ، ص 185 .

يقنع ابن هود بالرجوع وعدم خوض معركة مع النصارى مظهرا له قوتهم وبأسهم. وهو ما كان ، حيث قرر أن يتخلى عن إنجاد أهل قرطبة [1].

هذا ما تقرره الراوية النصرانية ، وتضيف إلى ذلك أن أبا جميل زيان صاحب بلنسية بعث رسالة إلى ابن هود يطلب منه المساعدة ونجدته من الخطر الذي كان يحدق به من قبل خايمي ، ملك أراغون . وإضافة إلى ما أشار إليه به مستشاره لورنسو ، قرر ابن هود ترك المدينة تصارع مصيرها ، مؤملا أن يصمد أهلها للدفاع عنها إلى أن يعود إلى تخليصها من بعد ، وقرر أن يسير إلى بلنسية تلبية لطلب أبي جميل زيان .

وإذا أمعنا النظر في هذه الرواية النصرانية ألفينا أنها لا تقدم لنا تفسيرا واضحا لإحجام ابن هود عن نجدة القرطبيين وعدم مقاتلته للنصارى ، وتثير أيضا تساؤلات كثيرة حول هذا الموقف ،فبرودة الطقس وسوء الأحوال الجوية ونقص المؤن كلها ليست عوامل حقيقية تكسر عزيمة جيش كبير . أولم يضع ابن هود كل هذه الأمور في حسبانه ؟، أولم يكن معه ما يتقوى به عليها ؟، أوليست هذه الأمور آنية ثم تزول؟. أما الرواية الثانية فهي أكثر غرابة و أولى ما تُنكره ،إذ كيف يُعقَل أن يقدم ابن هود على قتال جيش وهو لا يعرف مقداره ولا مؤنه ولا كيفية تموقعه حول أسوار المدينة؟،متى كان المسلمون على مر التاريخ يقاتلون دون أن يبعثوا من يتحسس لهم أمر عدوهم ؟. ونحن نعلم بأن الأندلس فتحت في بادئ الأمر بعد أن بعث موسى بن نصير السرايا بقيادة طريف بن مالك ليأتيه بأخبار هذه البلاد قبل أن يصطدم مع النصارى .

بل الأدهى والأمر هو أن جيش المسلمين في هذه الموقعة كان عدده خمسة وثلاثين ألف مقاتل والنصارى لم يبلغوا الألف الواحد . فميزان المقارنة بين القوتين مختلف . ونجزم بأن ابن هود لو أقدم على القتال لانتصر حتى لو انحاز أولئك المرتزقة إلى قومهم . ونحن لا ندري لم فضل ابن هود فيما بعد إنجاد بلنسية التي

---
[1] ينظر : بطرس البستاني : معارك العرب في الأندلس ، بيروت : دار الجيل ، د.ط /1987 ، ص 123- 124.

كانت تحت إمرة أبي جميل زيان وتركه قرطبة العاصمة التي لم تسقط منذ أن فتحت إلا في هذه الأثناء ، ثم ما هو التفكير السليم الذي اعتمده هذا الرجل في تركه مدينة تصارع الموت ، وهو بالقرب منها ، إلى مدينة بلنسية التي تقع في شمال شرق الأندلس . والشقة بعيدة بين المدينتين إذ سينهك جيشه قبل وصوله إلى بلنسية .

ولما يئست المدينة من نجدة ابن هود ، زاد فرناندو الثالث من تضييق الحصار عليها ، و قطع كل السبل والصلات التي تربطها بما يحيط بها من جهة البر ومن جهة الوادي الكبير، وبقيت معزولة دون أن يدخلها أو يخرج منها أحد ، أو أن يغيث أحد أهلها الذين كانوا يصارعون هذا الحصار المرير . فلما نفدت الأقوات والمؤن اضطُرّ القرطبيون إلى أن يفاوضوا القشتاليين في تسليم المدينة على أن يؤمنوهم في أنفسهم ، وأن ينقلوا معهم ما يستطعيون من أموالهم ومتاعهم ، فوافق الملك على ذلك ، لكن المسلمين علموا بأن جيش القشتاليين في وضع حرج حيث تنقصه المؤن والإمدادات ، فماطلوهم في عملية التسليم رجاء أن ينصرفوا عنهم ويفكوا الحصار ، لكن القشتاليين تفطنوا لما كان يخمن فيه المحاصَرون فبعث ملك قشتالة إلى محمد بن الأحمر ، أمير جيان ، لعقد تحالف معه . وكان ابن الأحمر هذا في هدنة مع ابن هود . وعلى الرغم من هذا ، فإنه كان يراه خصمه الأول في رئاسة الأندلس . وفوق هذا كله كان مغتاظا جدا من القرطبيين لأنهم طردوه . عندها لم ير أهل قرطبة حلا لحصارهم سوى تسليم المدينة على الشروط السابقة الذكر[1].

وهكذا ما إن كاد عهد التسليم يعقد بين الأهالي والقشتاليين حتى بدأ القرطبيون يهجرون مدينتهم ويحملون ما وسعهم حمله من الأموال والمتاع ، تاركين وراءهم مدينتهم العزيزة الغالية ، وتفرقوا في أنحاء مدن الأندلس الأخرى . وفي شهر شوال من سنة 633هـ دخل الجند القشتاليون قرطبة ووضعوا الصليب على صومعة الجامع الأعظم وحول أسقف النصارى الجامع إلى كنيسة وحُشدت لحراسة المدينة خيرة

[1] ينظر : شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، د.ط / د.ت ، ص64-65 .

الفرسان الشجعان ، وأخذ النصارى يَنْسِلُون إليها من كافة الأرجاء لتعميرها ، ثم انصرف ملك قشتالة بعد هذا الإنجاز راجعا إلى مملكته (1).

بهذا الوجه البائس سقطت عاصمة المسلمين في الأندلس وكبرى قواعدها الهامة بعد أن صمدت لسنوات كثيرة ، منذ أن فتحت إلى هذه السنة المشؤومة . هذه المدينة التي كانت ذات إشعاع معرفي يقبس من نورها كل من له همة في العلوم ، هذه المدينة التي كانت من قبل صرحا حضاريا هاما . فهذه المدينة العظيمة لم تحفل بمأساتها الراوية الإسلامية إلا تلميحا في حين كانت الرواية النصرانية مشبعة بتأريخ هذا السقوط ،بل الأدهى والأمر أن الشعر والنثر الأندلسيين لم يبكيا كثيرا هذه المدينة كما بُكيت زمن الفتنة البربرية . وربما يرجع سبب ذلك إلى عدم وجود فطاحل الشعراء والكتاب الأندلسيين في قرطبة أثناء سقوطها من أمثال ابن الأبار القضاعي و أبي المطرف بن عميرة.

10 - سقوط بلنسية

بعد أن سقطت جزيرة ميورقة ، عزم "جاقمة" على احتلال مدينة بلنسية ،لأن الجزيرة كانت تابعة إداريا لبلنسية . وقد أثار سقوط الجزيرة في نفس الملك رغبة الاستيلاء على أهم مدينة من مدن الأندلس وهي بلنسية . لذلك فإن القطلانيين وافقوا فيما بينهم على جمع الضرائب التي سنوها على كل زوج من الثيران بصفة استثنائية لتمويل مشروع الاستيلاء ، كما أضفى جاقمة على هذه الحملة صبغة صليبية بمباركة البابا "جريجوري التاسع" (2)

وللعلم فإن بلنسية كانت محاطة بحصون وقلاع كثيرة تصعب من مهمة الفاتحين . لذلك فإن النصارى بدأوا في حملتهم هذه بإسقاط هذه الحصون والقلاع للوصول إلى المدينة الحصينة . ومما يُلاحَظ أيضا أن الأندلسيين أو بالأحرى

(1) ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 425/6 .

(2) ينظر : محمد أحمد أبو الفضل :شرق الأندلس في العصر الإسلامي . ص 206 .

الموحّدين الذين كانوا يحكمون هذه المدينة ، لم يستفيدوا من هذه التحصينات ، لأنهم لم يسارعوا إلى نجدة ما كان يسقط من تلك الحصون حتى لا يصل العدو إلى المدينة، بل اكتفوا بداخلها وحاولوا الدفاع عنها ، ويعد هذا تخطيطا سيئا.

وبناء على هذا ، فإن قوات جاقمه توجهت إلى حصن آرش (Arces) واستولت عليه . ثم ألحقت به حصن مورله (Morella) وهو من حصون إقليم بلنسية الشمالية ، ثم تمكنت هذه القوات من السيطرة على أراضي شارقة (Jerica) و تورس - تورس (Torres-Torres) وصولا إلى بلدة بوريانة (Burriana) الواقعة على البحر من شمال بلنسية ، حيث عاثوا فيها فسادا وأهلكوا حرثها ونسلها . وعلى الرغم من أن أهل هذه المنطقة دافعوا ببسالة عن مدينتهم لمدة شهرين فإنها سقطت في سنة 630 هـ ثم سقطت بعدها حصون كثيرة منها حصن شيفت (Chisvert) وتيرفيرا (Cervera) و قولر (Culler) وغيرها من القرى والأراضي الواقعة على ضفة نهر شُقْر . كما استولى جاقمه أيضا على ثغر قسطلونة الهام . ومن القلاع ، استولى على قلعة مونكادة (Moncada) و مسيروس (Museros) القريبتين من بلنسية ، دون أن يحرك حاكم بلنسية ، الأمير زيان ، ساكنا[1] .

وبعد هاته الانتصارات التي حققها جاقمه على مستوى القلاع والحصون ، رجع إلى بلده ولم يصل إلى بلنسية ، وذلك لظروف داخلية طرأت على مملكة أراغون ، مكتفيا بما أنجزه في شمال مدينة بلنسية.

ومر نحو عامين لم يكن فيهما أي حرب بين المسلمين والنصارى في هاته المنطقة عدا بعض الغارات التي كانت تقوم بها حاميات الحصون النصرانية في أحواز بلنسية ، ولكن على الرغم من هذا كله ، فإن جاقمه كان يتوق إلى فتح بلنسية، لذلك عزم على الاستيلاء على أهم حصن منيع يحمي المدينة ، وهو حصن "أنيشة"، وذلك ليتخذه قاعدة ينطلق منها في شن غاراته على بلنسية . وقد أدرك في هذه المرة الأمير زيان أهمية هذا الحصن وخطورته إن وقع في أيدي الأراغونيين . لذلك قرر

---

[1] ينظر : م .س ، ص 207 .

هدمه وإزالته . وفي أوائل سنة 633 هـ توجه جاقمة بجيشه بغية الاستيلاء على حصن أنيشة حيث هاجم حاميته الإسلامية وتمكن من احتلاله ، ثم أمر ببناء حصن منيع آخر فوقه وترك به قوة تتألف من 110 فارس وألفين من المشاة ، ثم قفل راجعا إلى أرغون لتجهيز حملة قوية لفتح بلنسية [1].

وفي هذه المرة استشعر "زيان" ، بجد ، خطر حصن أنيشة على المدينة إن هو بقي في أيدي الأراغونيين فقرر استرداده ، وحشد لهذا قوة كبيرة من الجند خاضوا مع حامية الحصن النصرانية قتالا عنيفا كاد يكون فيه النصر للمسلمين ، لولا أن قوة أخرى تداركت هزيمة النصرانيين ، حيث أسرعت بالانقضاض على مؤخرة جيش زيان ورجحوا الكفة لصالحهم ، وقتل من بين المسلمين عالم بلنسية آنذاك وكبير محدثيها ، الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي الذي كان في مقدمة الجيش يحرض الناس ويدفعهم إلى الجهاد إلى أن لقي حتفه[2] .

ولقد سُرّ جاقمه بأنباء هذا النصر لأنه يعلم بأن الاستحواذ على بلنسية بات وشيكا . أما الأمير زيان فبعد هذه الهزيمة امتنع بقواته داخل المدينة . ومما زاد الطين بلة وزرع اليأس والقنوط في نفس زيان علمه بسقوط قرطبة في أيدي القشتاليين بالإضافة إلى مصرع ابن هود زعيم الأندلس بعد أن زال سلطان الخلافة الموحدية، هذا الذي وعد "زيان" بإمداده بأسطول كبير من المرية . وكانت نفسية جاقمة متحمسة للقتال والظفر بالمعركة القادمة ، أما زيان فكان على النقيض التام من حيث استعداده النفسي لهذه المعركة الحاسمة . لذلك خرج الملك النصراني في قواته سنة 635هـ متجها نحو جنوب بلنسية وضرب حولها حصارا شديدا ومنع عنها كل الإمدادات الخارجية [3].

---

(1) ينظر: م . س ، ص 207- 208 .

(2) ينظر: ابن الخطيب :الإحاطة . 303/4 .

(3) ينظر: محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ،القاهرة : مكتبة الخانجي ،ط2 / 1970 ، ص 337 .

وبعد هذا الحصار الذي أضعف من قوة المسلمين ، راح جاقمه يقذف المدينة بالمجانيق ، وكان زيان يدافع عن المدينة بكل شجاعة واستبسال دون أن يفقد الأمل في نجدة المسلمين . وقام بإرسال وفوده ورسله إلى مختلف القواعد الإسلامية طلبا للنجدة والإمداد . وكان أهم من أرسل إليه بسفارته السلطان أبو زكريا الحفصي القائم على شؤون إفريقية ، حيث بعث إليه وزيره وكاتبه الشاعر المشهور أبا عبد الله محمد بن الأبار القضاعي يحمل إليه رسالته التي ضمنها بيعته وبيعة أهل بلنسية ويطلب منه الإمداد و الغوث قبل سقوط المدينة . ولما وصل ابن الأبار إلى تونس ومثل بين يدي أي زكرياء أنشده قصيدته الرائعة السينية المشهورة التي كان لها الأثر البالغ في نفس الأمير ، مما جعله يحشد قواته ويجهز أسطولا عظيما تلبية لنداء زيان [1] .

ولكن الحظ لم يسعف هذا المدد الحفصي ،بحيث اعترضه الأراغونيون . ولم يستطيع جيش أبي زكرياء إنجاد البلنسيين . وباءت كل محاولاتهم بالفشل لأن النصارى كانوا قد أحكموا كل الطرق والثغور المؤدية إلى المدينة ، مما جعل أهلها يعيشون في عزلة تامة . وعندئذ توجه أسطول الإمداد إلى ثغر "دانية" بعيدا عن بلنسية المحاصرة وأفرغ شحنته هناك ثم ولى راجعا إلى تونس ومعه الأموال التي بعث بها السلطان الحفصي للأمير زيان[2].

ولمّا علم النصارى بعدم تمكن الأسطول الحفصي من إنجاد المدينة ، زادوا في تضييقهم عليها بحيث أرهقوا أهلها مدة خمسة أشهر ، وانعدمت كل سبل الحياة وفشا الغلاء واشتد البلاء حتى"إن القمح كان يباع بها ستة أواق بدرهم والشعير عشرة أوقية بدرهم". [3]

وأمام هذا الوضع المأساوي ، لم يجد زيان وأشراف المدينة ما يخلص أهل بلنسية مما هم فيه سوى تسليم المدينة صلحا ، فبعث زيان ابن أخيه ليفاوض ملك

---

(1) ينظر : أبو عبد الله محمد الزركشي : تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تحقيق وتعليق : محمد ماضور، تونس:المكتبة العتيقة ،ط2/ د.ت ، ص 27 -28 .

(2) ينظر : شكيب أرسلان : خلاصة تاريخ الأندلس ، ص62.

(3) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص354 .

أراغون في شروط التسليم . وكان ابن الأبار حاضرا وقت توقيع هذا الاتفاق حيث يصفه بقوله : "وفي هذا اليوم خرج أبو جميل زيان بن مدافع بن يوسف بن سعد الجذامي من المدينة وهو يومئذ أميرها في أهل بيته ووجوه الطلبة والجند ، وأقبل الطاغية ، وقد تزيّا بأحسن زي في عظماء قومه ، من حيث نزل بالرصافة أول هذه المنازلة ، وتلاقيا بالولجة ، واتفقا على أن يتسلم الطاغية البلد سلما لعشرين يوما، ينتقل أهله أثناءها بأموالهم وأسبابهم . وحضرت ذلك كله وتوليت العقد عن أبي جميل في ذلك"[1] وقد وقع هذا الاتفاق في شهر صفر من سنة 636هـ.

11 - سقوط إشبيلية

عزم ملك قشتالة في سنة 646هـ على التوجه إلى إشبيلية ، فحشد قواته من فرسان قلعة رباح وشنت ياقب وجيش قرطبة ، وعبر بها الوادي الكبير تجاه قرمونة، وأخذ يهلك حرث هذه المنطقة ويفسد فيها ويأسر أهلها من المسلمين . وعلى مقربة من مدينة قرمونة التقى حليفه ابن الأحمر الذي أمده بقوة قوامها خمسمائة فارس ، و سارت هذه القوات المشتركة تجاه قلعة جابر التي تعتبر حصن إشبيلية من ناحية الجنوب الشرقي . وعند وصولهما إليها راح ابن الأحمر يقنع حاميتها الإسلامية بتسليم القلعة دون قتال حقنا للدماء . وبالفعل تسلم فرناندو الثالث القلعة ووضع بها حامية نصرانية . وكانت هذه أول مرحلة لسقوط إشبيلية.

وكانت خطة ملك قشتالة في إسقاط إشبيلية تقتضي تجريدها من كامل حصونها الأمامية وخطوطها الدفاعية الأولى ، والاستيلاء على بعض الأراضي التي تمهد لاسترداد المدينة.

وأول ما قام به فرناندو الثالث هو أنه جهز أسطولا بحريا قويا مشحونا بالفرسان والمؤن بقيادة أمير البحر "رامون بونيفاس" ، إضافة إلى هذا كسب من البابا قراراً بأن تمده الكنيسة القشتالية والليونية بثلث إيراداتها للمساهمة بها في نفقات

---

(1) ابن الأبّار: الحلة السّيراء ، حققه وعلق حواشيه : حسين مؤنس ، القاهرة : دار المعارف ، ط2 / 1985 ، 127/2 .

الحرب . ثم توجه فرناندو إلى قرطبة . وهناك تجمعت قوات الفرسان الدينية وجموع ليون وبطليوس وغيرها ، وتوجهت بعض قوات فرناندو إلى قرمونة ، وهي أمنع حصون إشبيلية الأمامية من ناحية الشرق ، وحاصرتها حصارا شديدا . مما ألزم أهل قرمونة على أن يعرضوا تسليمها إليهم بعد ستة أشهر إذا لم تصلهم أثناءها الإمدادات. فقبل الملك عرضهم .

ثم سار فرناندو بعد ذلك في جيش صوب إشبيلية ، حيث استولى في طريقه على لورة دون قتال ، ثم توجه إلى قنطلانة وأسقطها ، ثم إلى غليانة وتسلمها وكذا الجرينة القريبة منها ، ثم بعث قوة إلى بلدة القلعة الحصينة التي كانت على مقربة من شمالي إشبيلية فصمدت حاميتها حينا لأن الإشبيليين شحنوها بالجند والمؤن للدفاع عن المدينة ، فعمد فرناندو إلى حصارها وضربها بالآلات الحربية ، وتخريب سائر ما حولها من الأراضي الزراعية . وفي الأخير قرر قائد الحصن ، أبو الحسن بن أبي علي ،بعد لأ ي أن يتفق مع ملك قشتالة على سحب جنده وتسليم البلدة بالأمان . وهكذا سقطت القلعة وأصبح سائر الحصون الأمامية لإشبيلية من جهة الشرق والشمال والغرب تحت تصرف القشتاليين[1].

إن ما قام به النصارى في هذه المرحلة هو محاولة إجهاد المدينة وإرهاقها ومحاصرتها وقطع كامل السبل التي تصلها بالمدن المحاذية لها وتخريب الأراضي الزراعية التي يقتاتون منها ، وبالتالي إرغام المدينة على التسليم دون سفك لدماء كثيرة.

وفي الخامس عشر من أغسطس سنة 645 هـ ، غادر فرناندو الثالث مدينة القلعة إلى إشبيلية ، وراح ينظم خطته لحصار المدينة ، إذ إن اشبيلية لم تكن سهلة المنال والسقوط نظرا لقواتها الدفاعية ، حيث وضع الأشبيليون في حسبانهم إمكانية مهاجمتهم من قبل القشتاليين . لذلك شحنوا دفاعاتهم بالمؤن واستطاعوا أن يجمعوا محاصيل فحص الشرف قبل قدوم النصارى .

---

[1] ينظر : محمد عبد الله عنان ، 476/6 .

وفي النصف الثاني من الشهر نفسه بدأت قوات النصرانية بمختلف أصنافها تتقاسم مواقعها في حصار المدينة . ولم يأت يوم 20 أغسطس حتى كانت إشبيلية محاصرة من كافة نواحيها البرية والبحرية . ومن الأمور المخزية في هذا الحصار وجود ابن الأحمر أمير غرناطة بقواته التي شاركت هي أيضا في هذه العملية وفاء بتعهداته السابقة لملك قشتالة . وهذا الفعل غير جديد في هذه البلاد ، فقد سبق لملوك الطوائف أن استعان بعضهم بالنصارى على قتال إخوانهم المسلمين . مما جعل من عملية الاسترداد تتقدم بشكل رهيب في هذين العصرين.

ولقد كانت هناك مشادات بين النصارى والمسلمين أبلى فيها المسلمون البلاء الحسن ، حيث كانت لهم الغلبة في كثير من الأحيان . وهو ما جعل المدينة تصمد بضعة أشهر. إلا أنه في ربيع سنة 646هـ وفدت على المعسكر النصراني أعداد كثيرة من الجند الذين قدموا من قشتالة و أراغون وقطلونية ، وقوة من الفرسان البرتغاليين، وفرسان الجماعات الدينية ، وانحاشت هذه الجموع إلى القوات المحاصرة معزِّزة الحصار حول إشبيلية. ولقد دام الحصار قرابة تسعة أشهر، والمدينة صامدة شامخة في وجه النصارى ، تقاتل باستبسال . ولكن عندما انضمت القوات الإضافية إلى الجند المحاصِرين ، بدأت تشعر بالضيق و القلق حيث استشرى الجوع و الحرمان بين ربوعها ولم يبق للإشبيليين ما يسدّ رمقهم إلا القليل ، بالإضافة إلى وجود قلعة طريانة التي كانت تحت سيطرتهم وباتت السبيل الوحيدة للتنفس البطيء[1] .

على أن القشتاليين تفطنوا فيما بعد لقلعة طريانة ، فعمدوا إلى محاصرتها مع المدينة بشدة ، مما أرهق الأندلسيين وشعروا بالضيق الشديد . بل إن النصارى راحوا يركمون المدينة بالآلات الحربية المدمرة ، فنفدت الأقوات وحل الجوع المهلك بالأهالي المحاصَرين . وندع ابن عذارى المراكشي يصور لنا حالة المدينة في قوله : "أحدقت النصارى بمدينة إشبيلية وحاصروهم برا وبحرا وأذاقوا أهلها شرا...وأخذوا خلقا كثيرا من أهلها واختطفوا في الأجفان بعض أطفالها وضيقوا بها

[1] ينظر : محمد سهيل طقوش : تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص 574 .

غاية التضييق ورموا الحجارة بالمنجنيق ... والناس مع ذلك حيارى يمشون سكارى وما هم بسكارى ، ومات بالجوع خلق كثير ، وعدمت الأطعمة من القمح والشعير ، وأكل الناس الجلود ، وفنيت المقاتلة من العامة وأصناف الجنود..."[1] .

وعندما اشتد الضيق على المدينة وفتك الجوع بأهلها ولم يجدوا وسيلة لإنقاذها من السقوط ، قرر زعماء المدينة التفاوض مع النصارى على تسليمهم أجزاء من المدينة ، ولكن القشتاليين رفضوا ذلك ، وأبوا إلا تسليم المدينة كلها وجميع الأراضي التابعة لها ، وأن يخرج منها سكانها مع السماح لهم بأخذ أمتعتهم وأموالهم. وهكذا تم التوقيع على عهد التسليم بين الفريقين في يوم الإثنين الخامس من شعبان سنة646هـ . وبقيت المدينة خالية ثلاثة أيام بعد مغادرة المسلمين إياها . وبعد ذلك دخلها فرناندو الثالث في موكب فخم ، وحوّل جامعها الأعظم إلى كنيسة ، وصارت إشبيلية منذ تلك الأيام عاصمة مملكة قشتالة بدلا من طليطلة [2] .

وهكذا سقطت إشبيلية إحدى القلاع العتيدة التي حمت الأندلس فترة طويلة ، إلى جانب غرناطة . وبسقوطها تقوضت دولة الإسلام في هذا الصقع . وكانت إشبيلية، إلى جانب مكانتها السياسية الهامة ، مركزا حضاريا و ثقافيا ، وتخرج فيها علماء وأدباء كثر كانت لهم اليد الطولى في إضافة لبنات إلى صرح العلم والمعرفة من أمثال عائلة بني زهر، أعظم حكماء الطب والكيمياء في الأرض على عهدهم ، وابن الرومية في علم النباتات والأعشاب ...الخ

وبعد أن سقطت إشبيلية وقبلها قرطبة ، أضحت بلاد الأندلس فريسة سهلة للفرنج ، ولاسيما قواعد الغرب التي صارت معزولة عن باقي القواعد الأندلسية الأخرى ، إذ ما كاد ينتهي فرناندو الثالث من ترتيب أمور إشبيلية ، حتى بعث بعض جيوشه إلى الشرق والجنوب لتفتتح بعض مدنها . واستطاع بالفعل أن يضع عصاه على شريش و شذونة و القلعة و قادس و شلوقة و أركش و البريجة و روطة حيث

---

[1] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص380 .

[2] ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 485/6 .

أخذ بعضها فتحا ، وأخذ البعض الآخر بعقد المعاهدات . وكل ذلك تم في سنة647هـ[1].

ولما توفي فرناندو الثالث سنة 1252م ، ملك من بعده ابنه الفونسو العاشر، وكانت مدينة لبلة تحت حكم ابن محفوظ الذي علم فيما بعد أن ألفونسو العاشر ليس حازما وقويا مثل أبيه . لذلك نقض العهود وامتنع عن دفع الجزية وتحصن بالمدينة ثم اتجه ألفونسو العاشر في قوة من جنده إلى لبلة وأحكم حولها حصارا. ولكن الأمر لم يكن سهلا بالنسبة للقشتاليين ، وذلك لأن المدينة كانت تقع فوق ربوة عالية ، وكانت تحيط بها أسوار منيعة . ومن ثم فقد لبثت صامدة عدة شهور ، كان المسلمون خلالها، يرمون النصارى بالحجارة و يقذفونهم بالنيران من فوق تلك الأسوار بآلات قاذفة شديدة الفتك وأصابت الكثير منهم وأرغمتهم على إطالة الحصار أكثر من تسعة أشهر. ولكن بعد أن نفدت المؤن ، ويئس أهل لبلة من تلقي النجدة ، اضطروا إلى تسليم مدينتهم إلى النصارى بالأمان في سنة 646هـ[2].

12 - سقوط مرسية

كان الفونسو ملك قشتالة قد أوكل مهمة الاستيلاء على مرسية إلى دون خايم، ملك أراغون ، فتحرك هذا الأخير بجيشه عام 1263م إلى اليقنت فاحتلها ، و وقع الأمر نفسه لقرطاجة . وبعد سقوط القينت ، بعث الملك ابنه بيدرو ، بجيش كبير إلى مرسية لكنهم لاقوا مقاومة شرسة من المرسيين حيث دافعوا باستبسال عن مدينتهم وردوا جميع هجمات العدو. واستمر الأهالي والمقاومون على هذا الوضع حتى سنة 1265م والمدينة صامدة . وفي هذه الأثناء كانت جموع أخرى من القشتاليين والأرغونيين تحاول إخضاع المدن الأخرى في منطقة مرسية . وقد تم لهم ذلك . بعدها بدأ ملك قشتالة بإخراج الحاميات القشتالية منها ، ووضع محلها حاميات أرغونية . فشعر صهره ألفونسو بالقلق إزاء هذا العمل ، وشك في أن "خايم" يعمل

---

[1] ينظر : م .س . ص488 .

[2] ينظر: سعدون نصر الله : تاريخ العرب السياسي ، ص355 .

لصالح مملكته ، لذلك اتصل على الفور بابن الأحمر وأمره أن يقنع ثوار مرسية بالعودة إلى ظل الطاعة [1] ، لأنه قبل أن يقبل النصارى على الاستيلاء على مرسية بدأ العرب يشعرون بثقل الحكم الإسباني عليهم نتيجة لعدم السماح لهم بممارسة حرياتهم الدينية . فراح الثوار في صيف عام 1261م ينقضّون على جميع الحصون في المنطقة الممتدة بين مرسية وشريش ، وقضوا على الحاميات الإسبانية فيها ووضعوا مكانها حاميات إسلامية وأعلنوا ولاءهم وانضمامهم لابن الأحمر . لذلك أراد القشتاليون أن يضربوا المرسيين بيد ابن الأحمر لأنه حلقة وصل بينهم[2].

وفي الأخير جرى لقاء بين ابن الأحمر وألفونسو في قلعة ابن الوزير حيث قُرّر مصير مرسية ، إذ تعهّد ابن الأحمر بأن يبذل قصارى جهده لإقناع الثوار بفتح أبواب المدينة للقشتاليين ، وتطبق معاهدة التسليم السابقة قبل قيام الثورة دون انتقاص شيء منها ، وتُضمن للمسلمين حريتهم الدينية ، ويؤدي الأهالي نظام الضرائب المتعارف عليه سابقا . وأخيرا استسلمت المدينة لدون خايم الأراغوني في سنة 1266م[3].

13 - سقوط كثير من الحصون والقلاع:

لقد اشتد عدوان البرتغاليين على الأراضي الإسلامية المحاذية لهم ، حيث خرجت قوة قوامها فرسان شنترين واشبونة ، وتوجه هذا الجيش إلى مدينة "شلوقة" على مصب الوادي الكبير عبر نهر "وادي يانه" وقتلوا الكثير من المسلمين الذين

(1) ينظر : أسعد حومد : محنة العرب في الأندلس ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2 /1988 ، ص 263- 264 .

(2) ينظر : م. ن ، ص 261 .

(3) ينظر: محمد سهيل قطوش : تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص571.

كانوا بالمدينة ، وأسروا وغنموا الكثير أيضا ، ثم استولوا على حصن "القصر" وغيره من حصون تلك الجهة وكان هذا سنة 578هـ [1].

وكان ألفونسو الثامن زعيم القشتاليين هو أيضا قد قويت شوكته حيث توجه صوب قرطبة وربض في ظاهرها ، ثم أرسل بعض جنده إلى "مالقة " و "رندة " و"غرناطة" فأحدثوا بهذا القدوم الاضطراب والقلق بين أهاليها ، حيث ارتفعت الأسعار ، واشتد الضيق . وفي هذه الأثناء ، كان الموحدون قد جمعوا قوتهم للدفاع عن إشبيلية وحمايتها . ومن جهة أخرى كان القشتاليون يعيثون فسادا في الأراضي الواقعة بين قرطبة وإشبلية دون أن يلاقوا أي مواجهة . ثم ساروا إلى منازلة مدينة "استجة" وكادوا يطيحون بها لولا أن واليها استطاع ردهم والدفاع عنها . فغادرها ألفونسو متجها إلى إشبيلية ، وهو يفسد في تلك المنطقة حرقا وتدميرا وإهلاكا . وأثناء ذلك أيضا استطاع القشتاليون الزاحفون نحو الجنوب أن يتغلبوا على بعض حصون "رندة "حيث أسروا ألفا وأربعمائة من المسلمين واستولوا على كثير من أراضي رندة والجزيرة وغنائمهما من الماشية وغيرها[2].

لم يكتف ألفونسو بتلك الحصون التي استردها من المسلمين ، وإنما أضاف إليها أهم حصن وأشده خطرا على أهم مدينتين أندلسيتين هما إشبيلية وقرطبة لأنه كان يقع بينهما ، واسمه حصن "شنتفيلة" . وكان سقوطه في سنة 578هـ ، حيث أسر القشتاليون من كان به من المسلمين وافتداهم من بعد أهل إشبيلية بمبالغ مالية كبيرة جُمعت بالمسجد الجامع . وبعد استرداده قام ألفونسو بتقوية تحصينه ، ووضع به حامية مؤلّفة من خمسمائة فارس وألف راجل . وعززه بالعتاد والسلاح والأقوات وعمَّره بالنصارى[3].

---

[1] ينظر: محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 5/ 102.

[2] ينظر : م .ن ،103/5.

[3] ينظر : ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص 119.

إن الحديث عن سقوط الحصون والقلاع يقودنا أيضا إلى الحديث عن أهم حصن سقط زمن دولة الموحدين وهو حصن "العقاب" الذي سُميت به أهم معركة خاضها المسلمون مع المسيحيين بعد معركة "الأرك" وهي "معركة العقاب " . إن هاته المعركة تحدث عنها أغلب كتب التاريخ الأندلسي بالإسهاب والتفصيل . لذلك سأكتفي بعرض ملخص عنها .

في معركة "الأرك" انتصر الموحدون على النصارى انتصارا كبيرا . ومنذ ذلك الحين والقشتاليون يتهيبون ملاقاة المسلمين ويتحاشونهم لما تركت تلك المعركة في نفوسهم من وقع سيئ . بالإضافة إلى أن ملوك النصارى كانوا متنازعين فيما بينهم حول مدن الأندلس ؛ فكل واحد منهم يريد ضمَّ الكثير منها إلى مملكته . وفي هذه الأثناء لم يسلك زعيم الموحدين طريقا صوابا لكي يزيد من هيبته في نفوس النصارى ويكسر شوكتهم ويضعف قوتهم إلى أمد بعيد ، لأنه لم يستثمر هذه الأوضاع لصالحه ، بل إن قواته بعثرت في القضاء على التوترات التي كانت في بلاد المغرب من قبل بني غانية الذين لم يتركوا ملوك الموحدين يتنعمون بالاستقرار ، لا في الأندلس ولا في بلاد المغرب.

ولقد كانت بين معركة الأرك ومعركة العقاب سبع عشرة سنة ، هيأت لملك قشتالة أن يستعيد فيها قوته ، فبنى الحصون والقلاع التي حمت مملكته مما يمكن أن يطاله من لدن الموحدين والتمس هذا الملك (ألفونسو الثامن) مع ملكي " لاون " و"النافار" الهدنة من أمير الموحدين (المنصور) . ولما توفي هذا الأخير سنة595هـ وقام ابنه "محمد الناصر " بالأمر من بعده ، ضاعت جهود المنصور التي بذلها لتمكين السلطان وإضعاف ملوك إسبانيا . ومن جهة أخرى كان البابا إينوسان الثالث لا يألو جهدا في التوفيق بين ملوك إسبانيا ، وقد استطاع بفضل سلطته الدينية أن

يزيل الشحناء والفرقة التي كانت بينهم واتحدوا جميعهم على مواجهة المسلمين واسترداد المدن الأندلسية[1].

وحدث في سنة 607هـ ، أن نقض القشتاليون الهدنة التي أبرموها سابقا مع الموحدين ، وراح ملكهم يهجم على أراضي الأندلسيين حيث قام بتخريب "جيان" و"بياسة" و"اندوجر" ووصل إلى مشارف مدينة "مرسية" . وعندما بلغ الخبر الناصر استشاط غضبا وكتب إلى الشيخ" أبي محمد بن أبي حفص " ، صاحب إفريقية، يستشيره في الغزو ، فنصحه بعدم فعل ذلك . لكن الناصر كان معجبا برأيه فخالفه وأخذ يستعد للجهاد بدءا بتفريقه الأموال على القواد والأجناد . ثم كتب إلى جميع بلاد إفريقية و المغرب يستنفرهم ويطلب الإمداد والعون ، فأجابه إلى طلبه خلق كثير[2].

وفي اليوم التاسع عشر من ذي القعدة من السنة نفسها عبر الناصر إلى الأندلس ، ولما وصل إلى إشبيلية أقام بها للراحة والاستعداد للغزو ، ثم قسم جيوشه إلى خمس فرق . ولما انتهى من تنظيمها خرج بها في الأولى من سنة608هـ متجها إلى "جيان" فأبدة "وبياسة" ثم سار نحو قلعة "شلبطرة" التي كانت تقع على ربوة عالية وهي أكبر قلاع تلك الناحية وأمنعها ، ودارت بينه وبين ملك قشتالة معركة عنيفة كانت الغلبة فيها للموحدين حيث افتتحوا هذه القلعة واستردوها من أيدي النصارى . ثم رجع أمير الموحدين بعد هذا الفتح إلى إشبيلية [3].

وكان سقوط قلعة "شلبطرة " نذيرا لتفاقم الخطر على إسبانيا النصرانية ، لأن التهديد لم يعد مقصورا على مملكة قشتالة . لذلك توصل ملك قشتالة إلى أن يصبغ هذه الحرب مع المسلمين بصبغة صليبية حيث استجاب البابا لدعوته وكتب إلى الأساقفة لدعوة النصارى في جنوبي فرنسا وغيرها للتطوع لمقارعة المسلمين. واستمرت هذه المحاولات والجهود الصليبية تنشد خلال سنة608هـ حيث كانت الوفود

---

[1] ينظر : بطرس البستاني : معارك العرب في الأندلس . ص 99/98 ؛ حسين مؤنس : موسوعة تاريخ الأندلس ، تاريخ وفكر وحضارة ، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 / 1996 . 125-126.

[2] ينظر: السلاوي :الاستقصا . ص 196.

[3] ينظر: محمود السيد : تاريخ دولتي المرابطين والموحّدين . ص 76-77 .

تتراكم وتتحاش إلى طليطلة التي كانت موطنا للجيوش المسيحية . وفي أوائل سنة 609 هـ اجتمعت وفود كبيرة من المتطوعة الفرنسيين ومن فرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وفرسان الجماعات الدينية وغيرهم . وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من مختلف المدن ويتكفّلون بالإنفاق على حشودهم . وقدمت أيضا مجموعة من أحبار فرنسا يقود كل منهم جماعة من المحاربين وغيرهم من أكابر رجال الدين[1].

ولقد اجتمع في قشتالة عدد غفير من المحاربين الصليبيين ، حيث بلغ عشرة آلاف من الفرسان المقاتلة وحوالي ألفين من البارونات وحاشيتهم ، وخمسين ألفا من الراجلين . وانثال أيضا على قشتالة أكثر من عشرة آلاف فارس ومائة ألف من الراجلين . وألقى البابا بنفسه موعظة صليبية يحث فيها النصارى على أن يدعوا الله لنصرة إخوانهم . يقول المراكشي واصفا هذا الحشد العظيم : "وخرج الأذفنش ـ لعنه الله ـ إلى قاصية بلاد الروم مستنفرا من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة منهم ، فاجتمعت له جموع عظيمة من الجزيرة نفسها ومن ألمان ، حتى بلغ نفيره إلى القسطنطينية . وجاء معه صاحب بلاد أراغن المعروف بالبرشنوني ـ لعنه الله ـ"[2].

أما ابن عذاري المراكشي فيقول على لسان ابن عياش بنبرة أكثر حدّة :"...فإن صاحب قشتالة ...رأى أن يضرع لملوك أهل ملته ضراعة الأسيف ويصانعهم على معونته بالتالد و الطريف ... فبثّ القسيسين والرهبان ...ينادون في البلاد من البحر الرومي إلى البحر الأخضر ؛ غوثا غوثا ورحمى رحمى . فجاءه عُبّاد الصليب من كل فج عميق ، ومكان سحيق ، وأقبلوا إليه إقبال الليل والنهار، من رؤوس الجبال وأسياف البحار... "[3].

---

(1) ينظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 294/5.

(2) عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص 224.

(3) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص263.

وفي العام نفسه ، 609هـ الموافق لـ 20 يونيو 1212 م ، تحركت جيوش النصارى من طليطلة متجهة إلى الجنوب بعد أن توزعت إلى ثلاثة جيوش :- يقود الجيش الأول فارس قشتالة "دون دييجو لويث دي هارو" والجيش الثاني كان بقيادة الملك "بيدرو الثاني " أما الجيش الثالث فكانت رايته بقيادة ألفونسو الثامن "ملك قشتالة"[1].

تقدم جيش "دييجو لويث" إلى "ملجون" واستولى عليها ، وأفنى جميع من كان في المدينة ، ثم واصل سيره إلى قلعة رباح ، والتقى جيش قشتالة وأرغون وضربوا حصارا محكما حول القلعة . فكتب عاملها أبو الحجاج يوسف بن قادس إلى الخليفة يستنجده ، لكن رسائله تلك لم تصل إليه إذ كان وزيره ابن جامع يخفيها عنده . فلما طال الحصار ودبّ اليأس في نفس أبي الحجاج من نصرة الخليفة له ، وخشي على سكان المدينة من الهلاك لنفاد المؤن والأقوات ، اضطُرّ إلى أن يتفاوض مع ألفونسو على تسليمه الحصن على أن يدعوا المسلمين يخرجون منه آمنين في أنفسهم . فوافق ألفونسو على طلبهم رغبة منه في الحفاظ على القلعة سليمة لكي يستخدمها في حربه ضد الموحدين[2] . ثم زحف على "الأرك" واستولى على حصنها وسقطت "كرموبل" و"بنافنتي" وغيرهما في يده.

ولما علم الناصر بسقوط قلعة رباح في أيدي النصارى وخروجهم بقضهم وقضيضهم ، تملكه الغضب الشديد ، وعزم على ملاقاة جيوشهم ، فاستنفر الناس من أنحاء البلاد فأجابوا واجتمعت له جيوش كثيرة . وكان أبو الحجاج يوسف بن قادس قد نزل عنده بإشبيلية ، فأغرى به ابن جامع متهما إياه بالتقصير في الدفاع عن المدينة . ودون أن يستمع الناصر إلى ردود ابن قادس ورأيه أمر بقتله . فأحدث بهذا العمل فتنة بين صفوف الأندلسيين لأنهم لم يستسيغوا هذا القتل إذ كانوا يعلمون بمكائد

---

[1] ينظر : محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، 295/5.

[2] ينظر: السلاوي : الاستقصا ، ص 198 .

ابن جامع المتكررة . وبالتالي كان بقاؤهم مع الناصر كرها لاطوعا ، إذ تغيّرت نياتهم في مجابهة النصارى .

ويُذكر أيضا أن أمير الموحدين قام بعزل قواد الكتائب الأندلسيين . وهو خطأ فادح ارتكبه ، لأن أولئك القادة كانوا متعودين على قتال النصارى ويعرفون خططهم في المعارك . ثم خرج الناصر من إشبيلية في شهر محرم من سنة 609 هـ إلى قرطبة، ثم سار إلى مدينة "جيان" ثم اتجه إلى بياسة و أبدة ونزل في "فحص البلوط" الواقع بين "جيان" و"قلعة رباح"[1].

أما ألفونسو فقد اتجه بقواته إلى الجنوب ، واخترق جبال "سير امورينا" في الثاني عشر من صفر سنة 609هـ ، ثم سار باتجاه أحد الوديان الواقعة بتلك الجبال وهضبة "لينارس" بالقرب من بلدة "تولوسا" ، ويطلق النصارى عليها اسم "نافاس". أما العرب فيسمون هذا الموضع بالعقاب نسبة إلى حصن أموي بالقرب من المكان الذي دارت فيه معركة العقاب[2].

بعد ذلك انتظم الجيشان في ساحة المعركة بكيفية ارتضاها كل قائد لجيشه لا يعنينا تفصيلها . وفي ليلة يوم الإثنين الخامس عشر من شهر صفر سنة609هـ ، استعد الفريقان لخوض المعركة ، وظلّ النصارى يحيون معظم الليل في صلاة ودعاء ، ويتلقون البركة وصكوك الغفران على يد الأساقفة ورجال الدين[3] . بيد أن الرواية الإسلامية لم تذكر لنا ما يشبه هذا بالنسبة للجيش الموحدي من وعظ وبكاء واستغفار وحث على الجهاد ، إذ إن الخليفة الناصر كان واثقا بالنصر نظرا لتفوقه العددي .

وفي صبيحة تلك الليلة اشتبك الجيشان في قتال عنيف ، كانت الغلبة والسيطرة فيه للنصارى . ولا أريد أن أذكر تلك التفاصيل الكثيرة التي حدثت فيها ، بل اكتفي

---

(1) ينظر : عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، ص 824-825 .

(2) ينظر : م .ن ، ص 825 .

(3) ينظر: م .ن ، ص .ن

بما جاء في كتاب الاستقصا حيث يذكر السلاوي أن الناصر ضرب قبته الحمراء على رأس ربوة وجلس أمامها "ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ومعهم السلاح التام، ووقفت الساقات والبنود والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ، وأقبلت جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر فتقدمت إليهم المتطوعة ، وحملوا عليهم أجمعين ، وكانوا مائة وستين ألفا ، فغابوا في صفوفهم وانطبقت عليهم الفرنج فاقتتلوا قتالا شديدا ، فاستشهد المتطوعة عن آخرهم . هذا وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم ، ولم يحرك إليهم منهم أحد . ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حملوا بأجمعهم على عساكر الموحدين منهم والعرب حملة منكرة . فلما نشب القتال بين الفريقيين ، فرت قوات الأندلس وجيوشها لما كانوا قد حقدوه على ابن جامع في قتل "ابن قادس" أولا ، وتهديهم وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وتبعهم قبائل البربر والموحدين والعرب وركبتهم الفرنج بالسيف ، وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت عليه من العبيد والحشم ، فألفوها كالبنيان المرصوص ، لم يقدروا منها على شيء ودفع الفرنج بخيلهم المدرعة على رماح العبيد ، وهي مشرعة إليهم فدخلوا فيها ، والناصر قاعد على درقته أمام خبائه يقول : صدق الرحمان وكذب الشيطان حتى كادت الفرنج تصل إليه، وحتى قُتل حوله من عبيد الدائرة نحو عشرة آلاف "[1].

بعد ذلك ، فرّ الناصر وحوله ثلة من العبيد لحراسته قاصدا إشبيلية ثم عبر الزقاق إلى مراكش . وانهزم المسلمون هزيمة نكراء . واستولى العدو على جميع المحلة وأكثر مضاربها ، ثم لبثوا يومين التماسا للراحة . وفي اليوم الموالي راحوا يتتبعون إسقاط المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب ، فاستردوا "بانيوس" و"كاستر" و "فرات" و "تولوسا" ، ثم استولوا على "بياسة " ثم حاصروا "أبدة" واستولوا عليها وكذا "بسطة"[2].

(1) السلاوي : الاستقصا ، ص199 .

(2) ينظر: معمر الهادي و محمد القرقوطي:جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس، الجزائر: دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، د.ط/2005،ص 233.

وإذ أمعنا النظر في حيثيات هذه المعركة نجد أن هزيمة المسلمين لها أسباب عدة من بينها : قتل الناصر لأبي الحجاج بن قادس وهو ما امتعض منه الأندلسيون، وتغيرت منه نفوسهم تجاه الخليفة . فدخلوا في معركة وهم لها كارهون ، ثم عزيمة ملك قشتالة على أخذ ثأره من الموحدين بعدما هزم في معركة "الأرك" ، ثم تبعثر قوات الناصر وجهوده في إخماد الفتن التي كان بنوغانية يثيرونها في المغرب . هذا ما يذكره أغلب كتب التاريخ . ولكني أعتقد أن السبب الهام هو ما يمكن أن نستشفه من نصّ السلاوي السابق إذ قال :"...فاستشهد المتطوعة عن آخرهم هذا . وعساكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم ، لم يتحرك إليهم منهم أحد..." فنحن نستخلص من هذا الكلام أنه لم تكن للموحدين خطة محكمة يسيرون وفقها لقتال جموع النصارى . أفيعقل أن تزهق أرواح المتطوعة البالغ عددهم مائة و ستين ألفا عن بكرة أبيهم والباقون من الجند ينظرون إليهم دون نصرتهم واستعمال خطة تحميهم وتذود عنهم ، وكأني بالناصر كان يدفع بجنوده أسرابا لكي يُفنوا نفوسهم وهو يستمتع بالنظر إليهم . والأدهى من هذا كله هو قدوم الناصر ووجوده بين عبيده وخدمه الذين استشهد منهم الكثير ، إذن ما حاجة الخليفة إلى عبيد كثر في معركة مصيرية ؟ يذكرنا هذا بموقعه "بطرنة" المشؤومة زمن ملوك الطوائف عندما خرج الأندلسيون في كامل زينتهم وأبهى حلتهم لقتال النصارى . يضاف إلى هذا أن الناصر كان معتدا بقوته وعدد جيشه . ولربما كان هذا الأمر هو الذي أسقط من عينيه إحكام الخطة والتنظيم مثلما فعل النصارى . فلو كانت الكثرة تغني في المعارك لأغنت المسلمين الأوائل في غزوة حنين .

بعد هزيمة العقاب وبوفاة الناصر في شعبان من سنة 610هـ لم تستقل الأندلس بعدها العثرة[1] ، ولم تقم لملوك الموحدين الذين جاءوا من بعد قائمة ، بل ظلت دائمة التوترات وازدادت عمليات الاسترداد الفرنجية حيث بدأت مدن الأندلس تتهاوى مدينة

---

[1] ينظر : ابن الخطيب : أعمال الأعلام . ص270 .

بعد مدينة . والذي ساعد في هذا الوضع هو تولي الحكم من قبل ضعفاء ومنهم من لم يبلغ الحلم بعد ، حيث صاروا ألعوبة في أيدي المستبدين .

ومن هؤلاء الخلفاء الضعاف المستنصر بالله" أبو يعقوب بن محمد الناصر" الذي بويع بالخلافة ولما يتجاوز 16 من عمره ، وقد كان عصره عصر فتن واضطربات . ولما توفي تولى الحكم من بعده عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن. "وفي عهده ازدادت فرقة الموحدين نتيجة لمطامعهم الخاصة ، فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بالأندلس ، وتلقب بالعادل وعمد مؤيدوه إلى قتل عبد الواحد بعد أن خلعوه وقتل العادل هو أيضا ،ونصب مكانه أخوه "أبو العلاء إدريس بن المنصور وتلقب بالمأمون وبويع من قبل الأندلسيين في حين أن المغاربة بايعوا أبا زكريا يحي بن الناصر بالخلافة في مراكش وتلقب بالمعتصم . هذه الازدواجية في الحكم أفرزت تناحرا وصراعات وخلافات عنيفة بين الأندلسيين والمغاربة . ولم ينته هذا الوضع إلا بوفاة أبي العلاء إدريس في سنة 630هـ . وكان هذا الأخير يستعين في قتاله على المعتصم ببعض المرتزقة من النصارى . وبينما كان المأمون "منشغلا بمواجهة المعتصم قام عليه من جهة أخرى أخوه أبو موسى في سبتة وتلقب بالمؤيد ، وعندما توفي المأمون خلفه ابنه الرشيد [1].

وهكذا صارت الدولة في بلاد المغرب مسرحا للصراعات والنزاعات حول الحكم . وكان صداها يترجع بالأندلس ، حيث بقي الأندلسيون يصارعون من أجل بقائهم بين مطرقة النصارى وسندان صراعات المغاربة . هذه الأوضاع تذكرنا بزمن ملوك الطوائف . ولذلك سمي هذا العصر بزمن الطوائف الثاني .

ومن عمليات الاسترداد التي قام بها النصارى بعد معركة العقاب ، الاستيلاء على قصر "أبي دانس" حيث استغل البرتغاليون فرصة وجود أسطول ألماني في مياه "اشبونة" متجها إلى المشرق ، فدعوا القائمين عليه إلى شن حرب صليبية ضد مسلمي الأندلس ، واتجهوا مباشرة إلى قصر أبي دانس وضربوا حوله حصارا من ناحية البر

---

[1] ينظر :عبد العزيز سالم : المغرب الكبير . ص839 ؛ سعدون نصر الله : تاريخ العرب السياسي في الأندلس . ص348.

والبحر . ومع ذلك بقي المسلمون صامدين بقيادة حاكمهم ، عبد الله بن وزير ، الذي طلب النجدة من الخليفة ، فأمر ولاة الأندلس بتلبية ندائه ، فسارت بعض جيوش الأندلس إلى نجدته ، ولكن لتخاذل رؤساء الأندلس واختلافاتهم انهزمت جيوش المسلمين في 14 رجب 614هـ ، ودخل النصارى الثغر وقتلوا من كان بداخله من المسلمين[1] .

[1] ينظر: سعدون نصر الله : تاريخ العرب السياسي في الأندلس . ص344.

ب - ابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم

منذ الفتنة البربرية المبيرة في أواخر القرن الرابع الهجري وأوائل القرن الخامس وما أعقبها من حركة الاسترداد في زمن ملوك الطوائف ، والأندلس تعيش وضعاً حرجاً إذ ظلّت مدنها يُتنازع عليها من قبل المسلمين بعضهم مع بعض ، وبين المسلمين والنصارى المتربصين بهم . ومع أن ملوك الطوائف بذلوا قصارى جهدهم في استقدام الأدباء والعلماء إلى بلاطاتهم لكي يخلدّوا مآثرهم ويكونوا عوناً لهم في استتباب الأمن ، فإن أولئك الأدباء باتوا متنقلين من حضرة ملك إلى آخر. بل إن بعضهم لقي حتفه على أيدي الحكام . ومع أن المرابطين خلقوا شيئا من الأمن والاستقرار في الأندلس فإنهم فتحوا للشعراء والكتاب نافذة أخرى عبروا من خلالها إلى المغرب مؤمّلين أن ينالوا الدرجات الرفيعة بمدائحهم التي كانوا يخلعونها على حكام المغرب ، وظل هذا الأمر إلى سقوط الأندلس ، بل زادت هذه الحركة نشاطا عندما تقلص ظل الموحدين عن بلاد الأندلس ، وصارت إلى سابق عهدها بين فتن داخلية ، وأطماع خارجية ، فتجددت المأساة وعادت حياة الأديب الأندلسي مطبوعة بالقلق والاضطراب . ولم يجد مخرجاً لذلك إلا الترحال من مكان إلى آخر، وبخاصة في أواخر عصر الموحدين عندما ضعفت هذه الدولة في الأندلس والمغرب ، وظهرت دول أخرى في المغرب (الأقصى والأوسط والأدنى) ، وكان أقواها دولة الحفصيين بتونس (المغرب الأدنى) .هذه الدولة تقاطر إليها الكثير من الأدباء من أماكن مختلفة، تاركين وراءهم أوطانهم التي وُلدوا وترعرعوا فيها . ولكنهم ظلّوا كثيري التحنان والشوق إليها ، حتى ملأوا أدبهم بذكرها ، ولا عجب إن وجدنا أن العصر الموحدي غلب على موضوعات أدبه الحنين للأسباب المذكورة أعلاه لذلك . آثرنا ذكر بعض أولئك الشعراء والكتاب المبرّزين الذين ذاقوا مرارة التنقل والترحال . ومثّل أدبهم الاتجاه الوطني الذي نحاول جلاءه في هذه الرسالة . وهذه نتف من أخبارهم.

1 - الرصافي البلنسي :

هو أبو عبد الله محمد بن غالب الرفّاء ، من رصافة بلنسية [1] و إليها يُنسَب غالبا فيقال : الرصافي البلنسي . و في بعض الكتب ينسبونه إلى مهنة " الرفو" التي كان يكتسب بها رزقه ، لأنه تنزّه عن أن يجعل شعره مطية للتكسب [*] ، مع أن كثيرا من شعراء هذا العصر مدحوا الحكام الموحدين و نالوا عطاياهم .

ولم أجد في المصادر التي ترجمت له تاريخ مولده ، إلاّ أن الدكتور فوزي سعد عيسى حاول أن يحدد ذلك التاريخ ، على وجه التقريب ، منطلقا من قول عبدالواحد المراكشي في "المعجب" ، بسنة 535هـ .

ولم يذكر أصحاب التراجم كذلك مشايخه الذين تتلمذ لهم ، واكتفى أكثرهم بالإشارة إلى أنه ترك بلنسية و هو صغير السنّ ، و هاجر مع أسرته إلى مالقة ، و فيها تلقى العلوم و الآداب حتى صار أديبا بارعا" .[2]

ونجد الأستاذ محمد العريس يصنّفه ضمن شعراء الطبقة الثانية لعصر الموحدين [3] . و لا أعرف ما استند إليه في حكمه هذا . مع العلم أن ديوان الشاعر مملوء بالنصوص الشعرية الجميلة . واعتقد أن الشيء الذي احتكم إليه هذا الباحث هو كون الرصافي لم ينظم قصائد كثيرة في المدح . و نحن نعلم أن المدح كان مقياسا لتصنيف الشاعر ضمن طبقة من الشعراء دون أخرى . على أنّ ما قاله الرصافي في شعر الحنين و الوصف يجعله مقدما على كثير من شعراء عصر الموحدين البارعين .

---

(1) ابن الأبار: تحفة القادم ، تحقيق:إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986 . ص 40 .

(*) يقول في هذا المقام :

على أنني لا أرتضي الشعر خطة ... و لو صُيّرت خضرا مسارحي الغبرا

يقول أناس : لـو رفـعت قصيدة ... لأدركت حتمـا في الزمـان بها أمرا

و من دون هـذا غيـرة جاهلية ... و إن هي لم تلـزم فـقد تـلزم الحرا

ديوان الرصافي ، جمعه وقدم له : إحسان عباس ، بيروت : دار الشروق ، ط2 ،1983 . ص 77 .

(2) ينظر : يوسف عطا الطريفي : شعراء العرب ، المغرب و الأندلس ، عمان: الأميرية للنشر و التوزيع ، ط1 /2007 . ص 293 .

(3) ينظر : محمد العريس : موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، بيروت : منشورات دار اليوسف ، ط1 /2005 . ص 158 .

قال عنه ابن الأبار[1] : « و كان شاعر عصره ، مع عدم الانتجاع بشعره ...فصار الأكابر يجزلون منحه و يخطبون مدحه ... و شعره مدوّن يتنافس فيه ... »

وقال عبد الواحد المراكشي في حقه[2] : « و هو من مجيدي شعراء عصره لاسيما في المقاطيع [*] » ، و قال أيضا [3]: « و للرصافي هذا افتنان في الأدب ...لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته في كثير منه » .

ويؤكد هذا الكلاَم أيضا ما رواه ابن سعيد عن أبيه حيث جعل من اسم الرصافي نجما في سماء الأندلس يعرفه الخاصّ و العام يقول [4] : « هو شاعر الأندلس في أوانه ، بما اشتهر عند الخاصّ و العامّ من إحسانه ، ... و كان عمي أبو جعفر بن سعيد يقول عنه : هو ابن روميّ الأندلس ، لما رآه من حسن اختراعه وتوليده ».

و نجد كثيرا من مؤلفي كتب التراجم و السير يذكرون صفات هذا الشاعر، مشيدين بأخلاقه و طيبته و عفذته و وقاره و سمته ، و حسن خُلقُه ، وما إلى ذلك مما يدل على أنه كان فاضلا دَيّنا . جاء في الإحاطة [5] : «... كان فحلا من فحول الشعراء ، و رئيسا في الأدباء ، عفيفا ساكنا ...شاعراً مجيداً ...بارع التشبيهات ، بديع الاستعارات ..كاتباً بليغاً ... متفقها ، عالي الهمة ، حسن الخَلق و الخُلق ...».

ويصفه أحمد بن عميرة الضبي بقوله [6] : «شاعرٌ أديب ».

---

[1] تحفة القادم . ص 41 .

[2] المعجب . ص 163 .

[*] و له أيضا قصائد طويلة أجاد فيها و أحسن كالرائية التي قالها في عبد المومن بن علي ، و الميمية التي قالها في أبي جعفر الوقشي ، و الدالية التي قالها فيه أيضا و غيرها كثير، ينظر: ديوان الرصافي . ص37 وما بعدها ، و ص 58 وما بعدها ، و ص 120 وما بعدها .

[3] م .ن ، ص 165 .

[4] المغرب في حلى المغرب ،حققه وعلق عليه شوقي ضيف ، مصر: دار المعارف ، ط4 / د .ت . ص 342-343 .

[5] ابن الخطيب ، م .س . 356/2 ؛ حسن الوراكلي: ياقوتة الأندلس، دراسات في التراث الأندلسي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، د.ط /1994 . ص 197 .

[6] بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، القاهرة : دار الكتاب العربي ، د.ط /1967 . ص 119 .

قلنا سابقا إن الرصافي وُلد ببلنسية لكنه لم يمكث فيها طويلا حيث خرج منها مع أهله و هو صغير السن [1] . و قد ذكر بلنسية في قصائد كثيرة ، لأنه ظل متشوقا إليها ، متذكرا أيام طفولته بها . و قد توجّه بعد ذلك إلى غرناطة حيث عاش مدة من الزمن ثم راح إلى مالقة [2].

ومن خلال قصائده نلاحظ أنه امتدح ، وهو بمالقة ، بعض الحكام بقصائد جميلة ، لكن الدكتور إحسان عبّاس يثبت العكس ، و هو أنّ الشاعر انتقل من بلنسية إلى مالقة ثم إلى غرناطة ،مورداً بعض الدلائل على ذلك [3] . وربما كان الرصافي يفارق مالقة ثم يعود إليها.

وقد انتقل الرصافي أيضا إلى مكناسة الزيتون بالمغرب كما أشار في قصيدة له ، كما رحل إلى مدينة فاس ، حيث لقيه الشاعر الأندلسي ابن الجنان [4] . وتوفي ـ رحمه الله ـ بمالقة في رمضان سنة 572هـ [5].

---

[1] ينظر: المقري : نفح الطيب . 383/4 .

[2] ينظر : ابن الخطيب : الإحاطة . 356/2 .

[3] ينظر : ديوان الرصافي . ص 13-14 .

[4] ينظر : م . ن . ص 19 .

[5] ابن الأبار : تحفة القادم . ص 41 .

2 - ابن جبير:

هو أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني [1] ، أشهر رحالة بالأندلس .

وُلد سنة 539هـ ببلنسية ، وقيل : بشاطبة سنة 540هـ [2] ، ودرس الفقه والحديث و الأدب حيث أخذ العربية عن أبي الحجاج بن يبق بن يسعون ، وبسبتة عن أبي عبد الله بن عبد الله ابن عيسى التميمي السبتي . و أجاز له أبو الوليد يوسف بن عبد العزيز ابن الدباغ.[3]

كان كاتبا بليغا ، كتب في شبابه عن السيد أبي سعيد عثمان بن عبد المؤمن وغيره . وكان شعره حسنا . وكان كريم الأخلاق عالي الهمة ، ذا خط أنيق[4] .

قال عنه ابن عبد الملك المراكشي [5] :" جرت بينه وبين طائفة كبيرة من أدباء عصره مخاطبات ظهرت فيها براعته و إجادته ، ونظمه فائق " . ثم قال أيضا[6] : "وله ترسيل بديع وحِكَم مستجادة ، دُوّنذلك كله ونُقِل عنه ".

ووصفه المقّريّ بأنّه كان " من أهل المروءات ، عاشقا في قضاء الحوائج والسعي في حقوق الإخوان والمبادرة لإيناس الغرباء " [7].

أما ابن الأبار فقال عنه : " تقدم في صناعة القريض وصناعة الكتابة ، وحُمل عنه شعره في الزهد وغيره ، وهو كثير مُدوّن " [8]

---

(1) ينظر: ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت : دار القافة ، د. ط /1965 ، السفر الخامس ، القسم الأول . ص 595 .

(2) ابن الخطيب :الإحاطة . 146/2.

(3) ينظر: آنخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس ، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، ط2 /2008 . ص 360.

(4) ينظر: م .س . ص .ن .

(5) الذيل و التكملة . ص 607.

(6) م .ن . ص 608.

(7) نفح الطيب . 104/3.

(8)ابن سعيد : المغرب . 384/2 ، الحاشية .

و لابن جبير ثلاث رحلات من الأندلس نحو المشرق ، كانت أولاها يوم الخميس 8 شوال سنة 578 هـ مع صديق له ، حيث مرّ بجَيّان ثم اتجه نحو الجنوب عن طريق "القبذاق" و "استجة" و "أشونة" و "أركش" إلى أن بلغ ثغر "طريف". واجتاز بعدها إلى مدينة سبتة بالمغرب . ووجد هناك مركبا متجها نحو الإسكندرية فركبه ، واتجه بهم من سبتة إلى ثغر دانية ثم إلى جزيرة يابسة فميورقة فجزيرة سردانية إلى أن وصل إلى شاطئ صقلية بعد رحلة شاقة متعبة ، اشتدت فيها العواصف . ثم سار بهم المركب بعد ذلك إلى جزيرة أقريطش ، ومنها إلى مدينة الإسكندرية . وقد استغرق سيرهم من سبتة إلى الإسكندرية ثلاثين يوما.(1)

ولم تكن الإسكندرية محطته الأخيرة ، بل واصل سيره قاصدا الحجّ . وعندما أنهى مناسكه رحل إلى العراق وزار مناطق متعددة فيه ، كالكوفة وبغداد و الموصل ، ثم انتقل إلى الشام وزار حلب ودمشق . وبعدها قفل راجعا إلى الأندلس ونزل بغرناطة(2) . وقد سجّل كل ما رآه في رحلته هذه من غرائب الناس وطبائعهم، والحوادث التي سمع بها أو حدثت له.(3)

وعندما فتح صلاح الدين الأيّوبي بيت المقدس ، سمع - كغيره من أبناء أمة الإسلام - بهذا الفتح المبين ، فتاقت نفسه للمرة الثانية للرحلة إلى بلاد المشرق ، فتحرك من غرناطة يوم الخميس 9 ربيع الأول من سنة 585 هـ قاصدا الحج أيضا . ثم عاد إلى غرناطة يوم الخميس 13 شعبان سنة 587 هـ .(4)

---

(1) ينظر:عبد الله علام : الدولة المرابطية و الموحدية . ص 328-329 .

(2) ينظر : محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي القرن السابع الهجري ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط1 / 2008 ، ص 70.

(3) ينظر: ابن جبير : رحلة ابن جبير، بيروت : دار الكتب العلمية ، د. ط / د .ت . ص16.

(4) ابن‌عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة . ص 605.

ولم يستقر ابن جبير في غرناطة . وكأنه كُتب عليه أن يعيش متنقلا من مكان إلى آخر ، فقد توجه من غرناطة إلى مالقة وسكنها مدّة ، ثم رحل إلى "فاس" بالمغرب، ثم سكن سبتة مدة ، لازم أثناءها سماع الحديث والتصوف والإقراء. (1)

وأما رحلته الثالثة فكانت عقب وفاة زوجته " عاتكة أم المجد" التي أحبّها كثيرا . وهي التي رثاها رثاء حارا في عدة قصائد جمعها في جزء من ديوان شعره سماه : "نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرين الصالح ".

وقد توفيت زوجته سنة 601 هـ ، وقصد مكة سنة 602 هـ (*) ، وحج للمرة الثالثة ، ولزم الحرم الشريف مدة طويلة إلى أن رحل إلى بيت المقدس ، ثم انتقل إلى مصر فاستقر بالإسكندرية بقية حياته ، مقرئا للحديث . وشاع أمره في مصر والشام والأندلس. (2)

وبالإسكندرية توفي ابن جبير ليلة الأربعاء 29 شعبان سنة 614 هـ (3) ، رحمه الله.

---

(1) ينظر: ابن الخطيب : الإحاطة . 147/2.

(*) يذكر آنخل جنثالث بالنثيا في كتابه "تاريخ الفكر الأندلسي" أن ابن جير قام بالرحلة الثالثة في عام 614 هـ . ينظر : ص 361 .

(2) ينظر: المراكشي : الذيل و التكملة . ص 606 .

(3) ينظر: المقري : نفح الطيب . 105/3 .

3 - ابن سهل :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن سهل الإسرائيلي . وهذه النسبة واردة في جلّ المصادر التي ترجمت له[1] . و لكن نميل إلى نسبته إلى مكان ولادته ، إشبيلية ، لأنه أسلم فيما بعد و حسن إسلامه . وقد تعرّض المقري لهذه القضية بالتفصيل في كتاب نفح الطيب[2].

ولد ابن سهل سنة609هـ [3] بإشبيلية من أب يهوديّ . وقد كان اليهود في الأندلس يختلطون مع المسلمين في حلقات العلم . و نبغ بعض منهم وكانوا على قدر كبير في علم العربية . و كان لهم شأن - كما نعلم – في الأندلس ، إذ احتلوا أماكن رفيعة في الدولة .

ونشأ ابن سهل بإشبيلية ، وتعلم الأدب على يد أكابر العلماء . وقد كان في بادئ الأمر يهوديا ثم أسلم ، و تعلم القرآن [4]و علوم الشريعة ، و العربية ، حيث " قرأ على أبي علي الشلوبين و ابن الدباج و غيرهما "[5] .

وكان سريع الحفظ ، ذا ذكاء متّقد ، صاحب بديهة و ارتجال في قول الشعر. قال عنه ابن سعيد: [6] « و كان من عجائب الزمان في ذكائه على صغر سنّه ، يحفظ الأبيات الكثيرة من سمعة . و بلغني أنّه الآن شاعر خليفتهم بمراكش ».

ويقول عنه في موطن آخر ، وكان أعرف الناس به و بأحواله ، مخبرا عن شهرته و مكانته في الشعر منذ صباه [7]: « و عهدي بابن سهل في بلده (أي إشبيلية)

---

[1] ينظر : ابن سعيد : المغرب . 269/1 .

[2] ينظر : 300/4 و ما بعدها .

[3] اختلف في سنة ميلاده . و لكن الراجح هو ما ذكرناه . ينظر : محمد بن شاكر الكتبي : فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت : دار صادر ، د.ط / 1973 . 19/1 .

[4] ينظر : م .ن . ص 20 .

[5] المقري : نفح الطيب . 4/ 300 .

[6] المغرب . 1/ 269-270 .

[7] ابن سعيد:اختصار القدح المُعلّى في التاريخ المُحلّى ، اختصره : محمد بن عبد الله بن خليل ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، القاهرة : دار الكتاب المصري، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ط2 / 1980 . ص 73 .

كالبدر في هالته ، لا يوازيه أحد من أهل عصره في مكنته في هذه الصفة و جلالته ، هذا و ما بلغ عمره العشرين».

و تطرق إليه أحمد ضيف فقال في حقه [1] :« شاعر وصّاف يجيد الوصف ...و مصور بارع لما يرى و يسمع ...مبدع في الأسلوب ، متفنّن في الكلام ... »

وقد هاجر ابن سهل من إشبيلية إلى جزيرة منورقة ثم إلى سبتة ، بسبب الظروف السياسية السيئة و الانقلابات و عدم الاستقرار في بلاد الأندلس .

وكانت جزيرة "منورقة " في هذه الأثناء (أي منذ سنة 631 هـ) تحت حكم " أبي عثمان سعيد بن الحكم" .وكان هذا الرجل عالما باللغة و النحو ، أديبا ماهرا ، متمكنا من الفقه و الحديث ، عارفا بالطب و الحكمة . وكان يشجّع الناس على مدارسة العلم و تدريسه . لذلك أقبل إلى بلاطه خلق كثير ، على اختلاف مشاربهم ، من الأندلس و برّ العدوة ، و حمل إليه بعض التجار أنفس الكتب و المخطوطات ، حتى غدت منورقة آنذاك مركز إشعاع علميّ و أدبيّ [2].

و لقد كان ابن سهل واحدا من أولئك الذين قدموا إلى هذه الجزيرة ، ملتمسا بعض الأمان و الرزق ، فمدح أبا عثمان سعيد بن الحكم و نوّه بسياسته المتميّزة بالحنكة و الدهاء .

و لم يطل مكث شاعرنا في الجزيرة (من سنة 641 هـ إلى 642هـ) عند ابن الحكم ، فقد توجـه من منورقة إلى مدينـة سبتة . و كانت هذه المدينـة ، منذ سنة 635هـ ، تحت حكم الموحّدين ، و صار حاكمها هو الحسن بن خـلاص (من سنة 637هـ إلى سنة 640 هـ) . ثم خرج عن طاعة الموحدين معلنا ولاءه للحفصيين بتونس[3].

---

(1) بلاغة العرب في الأندلس ، تونس : دار المعارف للطباعة والنشر، ط2 / 1998 . ص 233 .

(2) ينظر : ديوان ابن سهل ، قدم له إحسان عباس ، بيروت : دار صادر ، د ط / 1980 . ص 26 .

(3) ينظر : إحسان عباس : محاولات في النقد و الدراسات الأدبية ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 / 2000 . 3/ 187 .

و في ديوان ابن سهل قصائد كثيرة مدح فيها ابن خلاص ، ممّا يدل على أنه مكث عنده بسبته مدة مسخرا نفسه لخدمته ، حيث تولّى عنه السفارة مع ابنه إلى الأمير الحفصي [1].هذا باختصار عن تنقّلات ابن سهل التي لم تكن كثيرة .

وتُوفي شاعرنا حين غرق في البحر سنة 649هـ و عمره يناهز الأربعين سنة. و قيل : إنه جاوز الأربعين .[2]

4 - أبو المطرّف بن عميرة :

هو أبو المطرّف أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن أحمد بن عميرة المخزوميّ [3] . ذكره ابن سعيد ضمن شعراء مملكة بلنسية و على وجه الخصوص في "حلى جزيرة شقر"[4] . فهو إذن بلنسيّ الأصل.

وُلد سنة 580 هـ /1184م [5] . إلا أنّ بعض المصادر[6] يذكر أنّ ولادته كانت في رمضان من سنة 582 هـ . و الظاهر من خلالها أنّ بعضها أخذ عن البعض الآخر.

كان ابن عميرة كاتبا بارعا و شاعرا مفلقا ، أثنى عليه كثير من المؤلفين الذين عاصروه ، كابن الأبّار ، و الذين لم يروه أيضا ، فهو بحق حاز قصب السبق في حلبة الأدب . وقد لا يوجد مصنّف أندلسي يُعنَى بعصر الموحدين لا يأتي صاحبه على ذكر محاسن هذا الأديب ، وعرض جملة من قصائده ورسائله .

نشأ أبو المطرف أحمد بن عميرة في أسرة لم يشتهر أفرادها بوافر العلم ، ولا بالتقدّم في الرياسة [7] . لذلك بنى مجده بنفسه ، و رفع مكانه بعلمه ، حيث نهل من منابع العلم المختلفة الشيءَ الكثير ، و أخذ عن شيوخ يشار إليهم بالبنان ، وعلماء

---

[1] ينظر : عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس ، ط1 / 1990 . ص 306 .

[2] ينظر : المقري : نفح الطيب . 304/4 .

[3] ابن عبد المالك المراكشي : الذيل و التكملة ، تحقيق محمد بنشريفة ، بيروت : دار الثقافة ، د .ط / د .ت ، السفر1 ، القسم 1 . ص 150 .

[4] ينظر : المغرب . 363/2 .

[5] يوسف عطا الطريفي : شعراء العرب المغرب و الأندلس . ص 232 ؛ عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص 281 .

[6] ينظر :أبو العباس أحمد الغبريني : عنوان الدراية ، في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، الجزائر : دار البصائر للتوزيع و النشر ، ط1 / 2007 . ص 142 ؛ ابن الخطيب : الإحاطة . 66/1 ؛ ابن عبد الملك المراكشي : الذيل و التكملة ، السفر1 ، القسم 1 ، ص 180 .

[7] ينظر : ابن الخطيب : الإحاطة . 62/1 .

كانوا مبرّزين في بلاد الأندلس . ولم يكن ابن عميرة مكتفيا بجانب واحد من المعرفة ، و إنما اغترف من بحور متعدّدة ، كالفقه و الحديث و كل ما يدور في حقل علوم الشريعة إلى جانب الكتابة و الشعر. قال عنه ابن عبد الملك المراكشي : [1]"و كان أول طلبه العلم شديد العناية بشأن الرواية ، فأكثر من سماع الحديث و أخذه عن مشايخ أهله ، ثم تفنن في العلوم و نظر في المعقولات و أصول الفقه ، و مال إلى الآداب فبرع فيها براعة عُدّ بها من كبراء مجيدي النظم ؛ فأمّا الكتابة فإنه عَلَمها المشهور ، و واحدها الذي عجزت عن الإتيان بثانيه الدهور".

و لقد أثنى عليه و على علمه الكثير من العلماء و المهتمين بالسير و التراجم . من ذلك ما قاله الشيخ أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني حيث وصفه بأنه [2]"الشيخ الفقيه المجيد المجتهد العالم الجليل الفاضل المتقن المتقّن أعلم العلماء و تاج الأدباء... سكن بلنسية مدّة و كتب عن ولاتها وفاق الناس بلاغة وأربى على مَن قبله و تهادته الدول ..."

أمّا ابن سعيد فاكتفى بقوله فيه : [3] " هو الآن عظيم الأندلس في الكتابة و في فنون من العلوم " . ومع أن ابن سعيد هو من هو في فنّ الكتابة و الشعر فإنه يعترف بعظمة أبي المطرف في هذا الفنّ على جميع أقرانه الأندلسيين في زمانه .

و ابن الأبار – أيضا- صديقه و من اشترك معه في التتلمذ لبعض مشايخه يمدحه فيذكر أنه [4] " فائدة هذه المائة ، و الواحد يفي بالفئة ، الذي اعترف بأمجاده الجميع ، واتّصف بالإبداع فماذا يوصف به البديع... كيف و سبقه الأشهر ، و نطق الياقوت و الجوهر ، تحلّت به الصحائف و المهارق ، و ما تخلّت عنه المغارب والمشارق ، فحسبي أن أجهد في أوصافه ، ثم أشهد بعدم إنصافه ..." إنها شهادة صديق لصديقه يعرف فضله حقّ المعرفة ، فيقدره حق تقديره .

---

(1) الذيل و التكملة . 352 .

(2) عنوان الدراية . ص140-141 .

(3) المغرب . 2/ 364 .

(4) تحفة القادم . ص 132 .

و جماع هذا كلّه ما أورده المقرّيّ عن هذا الرجل حيث قال [1] : " و كان أبو المطرّف بن عميرة المذكور ، كما قال فيه بعض علماء المغرب ، قدوة البلغاء ، وعمدة العلماء ، و صدر الجلّة الفضلاء ... و نكتة البلاغة التي أحرزها و أودعها ، وشمسها التي أخفت ثواقب كواكبها حين أبدعها ... كان ينطق عن قريحة صحيحة ، ورويّة بدرر العلم فصيحة... ".

وإذن فلقد كان أبو المطرف علما من أعلام الأندلس في عصر الموحدين ، أشاد به غير واحد . ولهذا الأديب جولات و رحلات اقتضتها ظروف سياسيّة وأخرى علمية نظرا لسعة علمه و مكانته الاجتماعية بين الأندلسيين . فنراه تارة يرحل من أجل العلم و النهل من معين المعرفة . وكان هذا الانتقال مرة بين مدن الأندلس و تارة أخرى إلى المغرب الأقصى ، بل تعدى الأمر إلى بلاد المشرق .

وكان في مراحله الأولى ، أثناء تكوينه العلميّ ، كثير التنقل بين مدن الأندلس. فعندما بلغ أشده ذهب إلى بلنسية ليتلقى العلم عن شيخها و حافظها آنذاك " أبي الربيع الكلاعي " . و أخذ أيضا عن " ابن نوح الغافقي " أصول العربية و قواعدها النحوية ، ثم انتقل إلى مدينة شاطبة ، و جلس إلى شيخها أبي عمر الشاطبي و قاضيها أبي الخطاب بن واجب ، ثم رحل إلى دانية حيث حلقة ابن حوط الله الأنصاري و سمع من عزيز بن خطاب بمرسية[2] ، إلى غير ذلك من المشايخ الكبار . فلقد كان مولعا بالعلم و العلماء ، كلما سمع بعالم شد الرحال إليه و أخذ مما عنده . لذلك استحق الثناء و الإشادة . وكان متبحرا في شتى العلوم ، و بخاصة العربية .

و لم يكن شغفه بالعلم متوقفا على الأندلس ، بل – و كما يبدو من كلام لسان الدين ابن الخطيب- رحل إلى المشرق حيث أجاز له هناك أبو الفتوح نصر بن أبي الفرج وغيره.[3]

---

(1) نفح الطيب . 248/1 .

(2) ينظر : شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول و الإمارات ، الأندلس ، مصر : دار المعارف ، ط3 / د .ت . ص 414.

(3) الإحاطة . 63/1 .

هذا من حيث الرحلة العلمية . أما من جهة أخرى ، فإن ابن عميرة لما سطع نجمه في الأندلس ، استقدمه بعض الحكام ليكتب لهم . و من بين هؤلاء السيد أبو عبد الله الموحدي أمير بلنسية . ثم انتقل بعد ذلك إلى إشبيلية سنة 617هـ واتصل بولاتها الموحدين ، ثم رجع إلى بلنسية سنة 620هـ كاتبا للسيد أبي زيد ابن السيد أبي عبد الله ، ثم من بعده لأبي جميل زيان بن مردنيش حتى سنة 627هـ ثم انتقل أبوالمطرف من بلنسية ، بعد أن غض الطرف عنه أبو جميل زيان ، قاصدا بلدة "شُقْر" حيث استقر مدة من الزمن [1] .

و في سنة 630هـ رحل أبو المطرف إلى شاطبة عند صديقه ، الرئيس أبي الحسن يحيى بن عيسى الخزرجي والى المدينة من قبل ابن هود الثائر بشرق الأندلس ، و عمل قاضيا فيها و في المدن القريبة منها . و في سنة 633هـ اتجه من شاطبة إلى مرسية و مكث فيها إلى سنة 635هـ ، متقلدا عدة مناصب هامة .[2]

وفي هذه السنوات كان شرق الأندلس قد ساءت أحواله . و قد انعكست تلك الأجواء على حياة ابن عميرة ، كغيره من الأدباء الآخرين ، فلم يستقر له مكان ، فظل متنقلا بين مدن الأندلس . بل إنه لما بدا له سقوط أغلب مدن شرق الأندلس ، غادر مدينة مرسية بعد أن مكث فيها مدة راسل فيها أصدقاءه و إخوانه بكتابات ملؤها التفجع و التوجع و البكاء على مدينته بلسنية .

وتوجه بعد ذلك إلى مدينة غرناطة كما جاء عند لسان الدين بن الخطيب ، راويا عن شيخه أبي الحسن بن الجيّاب حيث قال [3] : "... و الرجل ممّن يُركن إليه في أخباره فيما أحقوا على سبيل الرواية و الإخبار ، من شرق الأندلس إلى غرناطة ، إلى غربها إلى غير ذلك ، عند رحلته ، وهو الأقرب ". و التقى هناك بصديقه أبي الحسن الرعيني .

---

(1) ينظر : عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص 284 .

(2) ينظر : م .ن . ص 285 .

(3) الإحاطة . 64/1.

و لما ضاقت به بلاد الأندلس ، رحل إلى بعض مدن المغرب الأقصى ، فقصد سبتة و نزل عند حاكمها ابن خلاص ، ثم رحل إلى مدينة الرباط حيث الخليفة الموحدي الرشيد الذي رحب به و ألحقه بدواوينه بمراكش ثم انتقل إلى سلا ومكناسة كاتبا و قاضيا .[1]

وفي هذه الأثناء كانت دولة الموحدين تعيش لحظات النزع و الانتهاء ، وبدأ ظهور دول أخرى ورثت دولة الموحدين ، هي دولة بني مرين في المغرب الأقصى ودولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط ودولة بني حفص في المغرب الأدنى . و كان أقواها بنو حفص ، هؤلاء الذين استطاعوا أن يستقدموا إلى دولتهم خيرة الأدباء آنذاك ، و من بينهم أبو المطرف .

ولما ذاع صيت الحفصيّين و جاءتهم البيعة من أماكن مختلفة ، رحل ابن عميرة عبر البحر إلى مدينة بجاية [2] ، و مكث فيها مدّة طويلة مدرّسا ، ثم انتقل إلى تونس حيث الحضرة الحفصيّة ، و حطّ رحله بالقصر الحفصيّ ، و عمل قاضيا في بعض المدن التونسيّة على عهد الخليفة المستنصر ، بعد أن تقلّب في نعماء الخليفة أبي زكرياء .

وقد بقي شاعرنا مرتبطا ارتباطا قويا بدولة الحفصييّن الذين لم يجهلوا قدره و أكرموه إكراما يليق بمقامه . و هناك توفيّ ـ رحمه الله ـ ليلة الجمعة عشري ذي الحجة عام 658هـ [3] .

5 - ابن الأبّار :

هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ، الشهير بابن الأبار [4].

---

(1) ينظر : شوقي ضيف :تاريخ الأدب العربي عصر الدول و الامارات ، الأندلس . ص 415 .

(2) ينظر : الغبريني :عنوان الدارية . ص 142 .

(3) ينظر : المقري : نفح الطيب . 249/1 .

(4) م .س .ص 145 .

وُلد في بلنسية في شهر ربيع الثاني من عام 595 هـ[1] . كان ذا علم جمّ. تتلمذ على يد مشايخ كبار في عصره ، ممّا مكنه من أن يتبوأ مكانة عالية بين علماء الأندلس وأدبائها ، بل إن القاضي أبا بكر بن أبي جمرة أجاز له جميع روايته وهو يومئذ ابن العامين[2] .

واعتقد أنّ ما قام به ابن أبي جمرة كان من قبيل التشريف و توسّم العبقرية في الصبي . وكيف لا و هو ابن عالم متقن ، فقد كان أبوه كان من العلماء المجيدين، فهو أول من تلقى على يده العلم حيث قرأ عليه القرآن و سمع منه الأخبار والأشعار . يقول ابن الأبار عن أبيه[3] : " و كان رحمه الله – ولا أزكيه- مقبلا على ما يعنيه... مقدّما في حملة القرآن ، كثير التلاوة له و التهجد به ...قرأت عليه القرآن بقراءة نافع مرارا ، و سمعت منه أخبارا و أشعارا...".

و من أهمّ شيوخ عصره الذين كان لهم الأثر البالغ في تكوين شخصيّته العلمية الفذة أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميدي الكلاعي ؛ فقد كان هذا الأخير كبير علماء بلنسية على عهده . ثم أخذ الفقه و الحديث و المسائل عن أبي عبد الله محمد بن أيّوب بن نوح السرقسطيّ و محمد بن محمد بن أبي زاهر ، والتاريخ عن أبي الخطّاب و ابن حوط الله ، والنحو و الأدب عن محمد بن محمد بن عبد العزيز الأنصاريّ و أبي عبد الله محمد البكريّ[4] ، وغيرهم خلق كثير وصل عددهم إلى المائتين ، ممّا جعله بحقّ عالما موسوعيّا كتب في كلّ شيء ، وفاق أقرانه و سبقهم في شتى الميادين ، وقد تميز بسرعة الفهم و قوّة الذاكرة .

---

[1] ينظر: ابن الأبار: المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، د.ط / 1967 ، المقدمة . ابن الأبار:الحلة السيراء . 15/1 ، المقدمة . إلا أن أبا العباس الغبريني يذكر أنه وُلد في سنة 575 . و أعتقد أنه تصحيف ، أو وهم منه . ينظر: عنوان الدراية . ص47 .

[2] ابن الأبار: الحلة السيراء . 14/1 .

[3] م. ن ، 15/1.

[4] ابن الأبار: المعجم . ص (ز) المقدمة.

وقد أثنى على ابن الأبّار كثير من الدارسين و كتاب التراجم . فهذا ابن عبد الملك المراكشي يذكر أنّه [1] " كان آخر رجال الأندلس براعة و إتقانا ، و توسّعا في المعارف و افتنانا ، محدّثا مكثرا ، ضابطا عدلا ثقة ، ناقدا يقظا ...مستبحرا في علوم اللسان : نحوا و لغة و أدبا ، كاتبا بليغا ، شاعرا مفلقا مجيدا ، عُني بالتأليف و بخت فيه ، و أُعين عليه بوفور مادّته ، وحسن التهدّي إلى سلوك جادّته... " .

و يؤكد أبو العباس الغبرينيّ ما ذهب إليه المراكشي إذا يصف ابن الأبار بأنه[2] " ممن لا يُنكر فضله ، ولا يُجهَل نبله ، له تآليف حسنة ، ونزعات في علم الأدب بارعة مستحسنة ".

وجاء في "نفح الطيب" أنّالمقّريّ نقل من "المغرب" لابن سعيد قوله في ابن الأبار [3] : " حامل راية الإحسان ، المشار إليه في هذا الأوان ... و هو حافظ متقن، له في الحديث و الأدب تصانيف ..." .

ولكن عند الرجوع إلى المغرب لم أجد لهذا الكلام مكانا ، بل أقصى ما وصفه به قوله[4] : " و رأيته فاضلا في النظم و النثر و التاريخ و مُلح الآداب " و ربما وقع للمقّريّ سهو .

وإذن فلم يكن " ابن الأبار " متخصّصا في علم واحد ، بل وجدناه صنّف في علوم شتى ، كالشريعة و ما يتّصل بها ، و التاريخ ، و الأدب و علومه ، و اللغة وضروبها . لذلك نال الحظو ة عند الحكام فقرّبوه إليهم و أجزلوا له العطاء .

---

(1) الذيل و التكملة ، السفر6 . ص 258.

(2) عنوان الدراية . ص 146.

(3) م .س . 3/193-194.

(4) ابن سعيد . 2/309.

وظل ابن الأبّار في سنوات تحصيله العلميّ متنقلا من مدينة إلى أخرى ، فهو لم يكتف بعلماء بلنسية ، بل قام برحلة طويلة جاب فيها الأندلس[1] ، و حصّل بفضلها علما كثيرا ، مثل صديقه أبي المطرف بن عميرة .

إلا أن نفسه جنحت فيما بعد إلى أمور السياسة ، فاتخذه أمير بلنسية ، السيد أبو عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن بن علي ، كاتبا له ، ثم لابنه أبي زيد من بعده .[2]

ثم صار كاتبا لأبي زيد بن عبد الرحمان ، أمير بلنسية من بعد ، هذا الأخير الذي أنهى حياته في مملكة أرجون النصرانية ، حيث اصطحب معه كاتبه ابن الأبار الذي شعر بالذنب فيما بعد ، ورجع إلى وطنه بلنسية نادما على تركه . وعندها استوزره "أبو جميل زيان بن مردنيش" .[3]

و لكنّ الأوضاع السياسيّة القلقة جعلت أديبنا يغادر بلنسية إلى تونس حيث الحفصيّون ، طالبا المدد لإنجاد المدينة . و لكنها سقطت في الأخير، فشد ابن الأبار الرحال إلى دانية .[4]

ويبدو أنّ القدر خبّأ للشاعر أن تكون نهاية حياته خارج بلاده الأندلس ، حيث رجع إلى بلاد إفريقية بعدما ذاع صيته هناك عند لجوئه للمرة الأولى إلى الحفصيين.

ويذكر الغبريني أنّه نزل في أوّل الأمر في بجاية و استوطنها مدّة ليست بالطويلة ، حيث أقرأ فيها و روى و أسمع و صنّف ، إلى أن استدعاه أمير المؤمنين المستنصر الحفصي إلى حضرته بتونس [5] و قرّبه منه و وصله بجزيل العطايا .

---

[1] ينظر: محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية شرقية و أندلسية . ص343.

[2] ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون . 629/6 .

[3] ينظر : أحمد محمد الشوادفي محمد : شهيد الشعراء ابن الأبار ، دراسة في الخيال ، القاهرة :مكتبة الثقافة الدينية ،ط 1/ 2008 . ص 18 .

[4] ينظر : ابن الأبار: الحلة السيراء . 1/ 36 .

[5] ينظر : عنوان الدراية . ص 146 .

وعاش ابن الأبار حياته كلّها في خدمة الملوك و الأمراء ، و لم يؤثر هذا على إنتاجه العلمي . وقد طبع نفسَه شيء من الكبر و الاعتزاز . و هذا ما وتّر العلاقة بينه و بين الأمير الحفصي الذي أمره بأن يلزم منزله لبيت قاله [*] ، فتدارك الشاعر الأمر و كتب كتابا سمّاه " إعتاب الكتاب " يطلب فيه عفو الأمير فعفا عنه ، ثم أرجعه إلى تونس بعد أن نفاه إلى بجاية . و لكن الوزير أحمد بن إبراهيم الغساني، أوغر صدر المستنصر عليه ، فأمر بإحضار كل كتبه ، فوجد فيها رقعة مكتوب عليها:

طَغَى بِتُونسَ خَلْف   سَمَّوْه ظُلْما خَلِيفَه

فكان هذا المنعرج الأخير لحياته حيث أمر المستنصر بضربه و قتله ثم حرقه مع كتبه . وكان ذلك في شهر محرم من سنة 658هـ[1] - رحمه الله -

6 - أبو البقاء الرّندي :

هو صالح بن أبي الحسن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف الرندي [2].

ولد في محرم من سنة 601هـ في مدينة " رندة" . ينتسب إلى قبيلة " نفزة"[*] التي استوطنت بعض الأماكن بالمغرب الأقصى [3] .

---

[*] البيت هو :

أطلب العز في لظى و ذر الذ   ل و لو كان في جنان الخلود .

([1])ينظر: ديوان ابن الأبار، م س، ص14 ؛ محمد عبد المنعم خفاجة : قصة الأدب في الأندلس بيروت : مكتبة المعارف، دط/1962، 387/1 .

[2] ينظر : عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، بقية السفر الرابع ، القسم الأول . ص136-137 .

[*] هذه القبيلة كان عبد الرحمن الداخل ينتسب إليها هو أيضا ، لأن أخواله الذين ساعدوه في الدخول إلى الأندلس من المغرب كانوا من تلك القبيلة ، ينظر: جودت الركابي : في الأدب الأندلسي . ص 15 ؛ بطرس البستاني :أدباء العرب ، في الأندلس وعصر الانبعاث، بيروت : دار الجيل ، د.ط / د.ت . ص18 .

[3]ينظر : عبد الله محمد الزيات: رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص363 .

تلقى علومه الأولى على يد أبيه (أبي الحسن) ، كما تتلمذ لمشايخ كثر و روى عنهم ، من مثل " ابن الفخار الشريشي" و "الدباج" و " ابن قطرال" و "أبي الحسين بن زرقون" و "أبي القاسم بن الجد " [1] . و عند ابن عبد الملك المراكشي " ابن الجد التونسي "[2] .

كان عالما بالعربية ، متقنا في علم العروض ، أديبا صالحا . و كان يقرئ كتاب سيبويه ، و القراءات السبع ، كما درّس كتب الأدب كالكامل للمبرّد ، و نوادر أبي علي القالي و غيرهما . و كان رجلا لطيف المعشر ، خفيف الروح ، تربطه علاقة حميمة بطلابه [3].

ذكر ابن عبد الملك المراكشي أنه كان : «خاتمة الأدباء بالأندلس ، بارع التصرّف في منظوم الكلام و منثوره ، فقيها حافظا ، فرضيّا متقنا في معارف جليلة ، نبيل المنازع ، متواضعا ، مقتصداً في أحواله ، و له مقامات بديعة في أغراض شتى...»[4].

أما المقّريّ فيكتفي بالقول في حقّه أنّه : «من أشهر أدباء الأندلس »[5] . وقد طارت شهرته في الآفاق بنونيته التي نظمها في رثاء الأندلس التي راحت مدنها تتهاوى مدينة مدينة ، و قد عايش سقوط أكثرها بنفسه .

وكان الرندي كثير التردد على مدينة غرناطة ، يمدح أمراءها ، و يسترفد ملوكها[1] ، لأنّ غرناطة في هذا العصر كانت بمنأى عمّا كان يحدث للمدن الأندلسية الأخرى من عمليات الاسترداد ، فقد نعم الأندلسيون فيها بالأمن مدّة ممّا مكنّ فيما بعد

---

(1) ينظر :فرناندو دي لاجرانخا : مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات ، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم ، القاهرة : دار الثقافة العربية ، د.ط /1985، ص113 ؛ يوسف فرحات ويوسف عيد : معجم الحضارة الأندلسية ، بيروت : دار الفكر العربي ، ط 1/ 2000 . ص143.

(2) الذيل والتكملة . ص 137 .

(3) ينظر : الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، القاهرة : دار المعارف ، ط2 ،1983 . ص 288 .

(4) م .س . ص137 .

(5) نفح الطيب . 375/5.

(6) ينظر : ابن الخطيب . ص276 .

لكثير من الكتاب و الشعراء من اللجوء إلى بني نصر و مَن حكم المدينة يمدحونهم ويجزلون لهم العطاء.

كما أنّه أقام شهرا بمالقة لا يفارق مجالس الإقراء لصديقه " ابن الزبير "[1] .

ويبدو أن أبا البقاء الرندي قد تغرب طويلاً، فعندما ساءت أحوال الموحّدين، راح يتنقّل بين مدن الأندلس . ولم يكن الوضع السياسيّ وحده هو السبب ، بل إنّ أوضاعه المعيشية هي أيضاً ساءت ، حيث عانى الفقر والعوز، وتمنّى الموت على أن يعيش هذه الحياة . فظلّ يتنقّل بين غرناطة وإشبيلية ورندة ومالقة[2].

بل إنّه غادر الأندلس إلى بعض مدن المغرب[3] .وخلال تنقّلاته تلك على كبره عانى الوحدة والغربة الشديدة ، وظلّ يحنّ إلى بلده . وتوفي شاعرنا سنة684هـ[4] ، رحمه الله.

7 - حازم القرطاجني:

هو الشيخ حازم بن محمد بن حسين بن محمد بن خلف بن حازم الأوسيّ الأنصاريّ القرطاجنيّ ، يُكنى بأبي الحسن[5].

وُلد سنة 608 هـ بقرطاجنة ، وهي من أقدم ثغور الأندلس الشرقية[6] . وقد غلب إلحاق هذه النسبة باسمه كثيراً ، فلا يُعرف إلا بها . وكما هو جلي من نسبه "الأنصاري" ، إلى الأوس أو الخزرج ، القبيلتين المشهورتين .

نشأ حازم في بيت ميسور الحال ، وقضى طفولته متقلبّاً في النعم . وكان مع هذا كلّه منصرفاً إلى تلقّي العلم والأخذ من شيوخ عصره، محافظاً على حلق الدرس. حفظ القرآن في صباه . و كان والده خير موجّه له للنهل من علوم الشريعة والعربية . ولما اشتد عوده زاد نهمه في تلك العلوم ، فكان شديد التردد على مدينة مرسية ،

---

(1) ينظر : م . س . 275 .

(2) ينظر : الطاهر مكي : دراسات أندلسية . ص 285.

(3) ينظر: محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي. ص177.

(4) ينظر: ابن الخطيب : الإحاطة . 287/3.

(5) ينظر: يوسف عطا الطريفي . ص327.

(6) ينظر: حازم القرطاجني: الديوان ، تحقيق عثمان الكعاك ، بيروت : دار الثقافة ، د. ط / د .ت . ص (ب) المقدمة.

موطن العلماء ، حيث أخذ عن أشياخها ، أمثال الطرسوني والعروضيّ حتى فاق أقرانه .وكان مالكي المذهب كأبيه، ونحوياً بصرياً كعامّة علماء الأندلس[1].

كما انتقل إلى بعض المدن الأندلسية الأخرى وأخذ عن علمائها ، كالنحوي الشهير أبي علي الشلوبين الذي أوصاه بالاطّلاع على كتب ابن رشد وكتب فلاسفة الإغريق . وقد ظهر هذا الاتجاه في كتابه "منهاج البلغاء"[2].

ولقد أثنى عليه الرحّالة العبدريّ في رحلته بقوله :«حازم وما أدراك ما حازم»[3] . وذكره ابن رُشَيد السّبتي في رحلته كذلك وأثنى عليه ، هو أيضاً ، بقوله: «حَبْر البلغاء ، وبحر الأدباء»[4].

أمّا جلال الدين السيوطي فقدلقّبه بـ "هني الدين" وأثنى عليه، مدرجاً ما قاله أبو حيان فيه . يقول السيوطي عن حازم : «شيخ البلاغة والأدب . قال أبو حيان: هو أوحد زمانه في النظم والنثر والنحو واللغة والعروض وعلم البيان»[5].

ولم يكن حظّحازم في مطلع شبابه حسناً ، لأنّ الظروف السياسيّة التي كانت الأندلس تعيشها أثرت عليه ، كما أثرت على أقرانه وغيرهم إذ كانت قرطاجنة ومرسية وغيرهما من المدن الأندلسيّة ترزح تحت وطأة النصارى . بالإضافة إلى وفاة والده سنة 632 هـ ، وهو في العشرينيات من عمره . كلّ هذا أدى إلى أن يتوجه شاعرنا إلى المغرب ، وبالضبط إلى مراكش ، حيث اتصل بالخليفة الرشيد الموحّدي الذي بقي ملازماً له مدة من الزمن يمدحه ، وهو يقربه منه[6].

---

(1) ينظر: حازم القرطاجني : منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط2 /1981، ص33 ؛ الطاهر بومزبز: أصول الشعرية العربية نظرية حازم القرطاجني في تأصيل الخطاب الشعري، بيروت : الدار العربية للعلوم ، الجزائر: منشورات الاختلاف ، ط 1/ 2007 . ص15.

(2) ينظر: شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات الأندلس . ص249.

(3) المقري : نفح الطيب . 191/3.

(4) المقري : أزهار الرياض في أخبار عياض ، المملكة المغربية و الإمارات العربية المتحدة : صندوق إحياء التراث الإسلامي ، د .ط / 1978 ، 172/3.

(5) بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : المكتبة العصرية ، د .ط / د .ت ،1 /491 ؛ إيمان الجمل: المعارضات في الشعر الأندلسي ،الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط1 / 2007 . ص 190.

(6) ينظر: محمد أحمد دقالي: الحنين في الشعر الأندلسي . ص 133.

وعلى الرغم من أن الرشيد كان يغري الأدباء الذين تعذّر عليهم المكث في بلاد الأندلس بالقدوم إلى بلاطه وإعلاء صوت دولته ، فإن حظ حازم لم يكن أفضل مما كان عليه في الأندلس ، إذ بدأت تلوح في الأفق معالم الانهيار، وتبدو الاضطرابات والفتن ببلاد المغرب . وهو الأمر الذي حمل كثيراً من الأدباء على أن يهاجروا إلى إفريقية حيث دولة الحفصيين التي كانت في أوج قوّتها . وقد سافر حازم مع من سافر إلى تونس ماراً ببجاية[1].

وفي حضن دولة الحفصيّين بزغ نجم حازم القرطاجني، وطارذكره في الآفاق، وكيف لا وهو المرجع في علوم العربية والعروض والبلاغة ؟ لذلك فإنّ الأمير المستنصر الحفصيّ قرّبه منه وأدخله ديوان الإنشاء[2] . وتبوّأ حازم منزلة الشيوخ والعلماء الكبار، وتخرّج على يده الكثير من العلماء.

ولقد ظلّ الشاعر يمدح الحفصيّين بأجمل القصائد إلى أن أدركته المنية ليلة السبت 24 رمضان سنة 684 هـ[3] ، رحمه الله.

8 - علي بن سعيد:

هو عليّ بن موسى بن عبد الملك بن سعيد بن خلف بن سعيد بن محمد بن عبد الله بن سعيد بن الحسن بن عثمان... يكنى أبا الحسن ويعرف بابن سعيد[4].

وُلد في ليلة عيد الفطر من سنة 610 هـ ، في قلعة "يحصب"، أو قلعة "بني سعيد" ، من أسرة رفيعة النسب ، تتصل بالصحابي الجليل ، "عمار بن ياسر"، رضي الله عنهما ، وكان لبني سعيد شأن كبير في قلعتهم تلك و في الأندلس عامة[5].

---

(1) ينظر: عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص351.

(2) ينظر: م . ن . ص352.

(3) المقري: نفح الطيب . 191/3.

(4) ينظر: ابن الخطيب : الإحاطة . 129/4.

(5) ينظر: محمد أحمد دقالي : الحنين في الشعر الأندلسي . ص201.

أخذ العلم عن جملة من العلماء المتخصّصين في شتى العلوم ، وممّن ملأت أسماؤهم بلاد الأندلس ، كأبي علي الشلوبين وأبي الحسن الدباج وابن عصفور وسهل بن مالك وأبي بكر بن هشام وأبي إسحاق الأعلم البطليوسي وأبي الشقندي وغيرهم(1).

وقد تنقل أبو الحسن بن سعيد كثيراً بين مدن الأندلس ، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها ، حيث يذكر قدومه إلى تلك المدن مراراً في كتاب "المغرب" ، تارة مع أبيه وتارة أخرى بمفرده .يقول مثلاً عند ترجمته لأبي نعيم رضوان بن خالد: «من شعراء عصرنا المشهورين، لقيته بمالقة»(2) . وفي موضع آخر يقول: «دخلت مدينة مالقة وأقمت فيها إقامة أرضت الشباب... وكان والدي يفضلها»(3).

وقدذكره المقّري وأثنى عليه بقوله : «الشهير بالمغارب والمشارق، المحلّي بجواهره صدور المهارق»(4).

وقد استثناه ابن الخطيب من عائلته كما ُتستثنى واسطة العقد من العقد، فأشار إليه قائلاً : «هذا الرجل وُسْطى عِقد بيته ، وعَلم أهله ، ودرّة قومه ، المصنّف الأديب، الرحال ، الطرفة الإخباري العجيب الشأن في التجول في الأوطان ، ومداخلة الأعيان ، والتمتّع بالخزائن العلميّة ، وتقييد الفوائد المشرقيّة والمغربيّة»(5).

ونجد ابن فضل الله العمري يأخذ من الطبيعة ما يصف به تفوق ابن سعيد وعبقريته فيقول : «أديب مبدع ، ولبيب ممتع ... كان أجمّ من البحر إمداداً ، وأسجم من القَطْر عهاداً ، وله الكلام الصافي الورود ، الضافي البرود ، وما تسير شوارده، وتنير مثل الكواكب فرائده»(6).

---

(1) ينظر: محسن حامد العيادي : ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، د .ط / 1972. ص81.

(2) ابن سعيد : المغرب . 437/1.

(3) م . ن . 423/1.

(4) نفح الطيب . 386/2.

(5) ابن الخطيب : الإحاطة . 129/4.

(6) ابن سعيد : المغرب . 1/6-7 ، المدخل.

ولابن سعيد - كما يؤكده كلام ابن الخطيب السابق- جولات ورحلات كثيرة، حيث شرّق وغرّب، ومضى متنقّلاً في أرجاء مدن الأندلس وبلاد المغرب وأرض المشرق.

ففي سنة 632هـ ، كانت بداياته الأولى مع الترحال، حيث تنقّل مع والده إلى الجزيرة الخضراء التي ولّاه عليها ابن هود ، فأقاما بها مدّة من الزمن في عيش رغيد، ظلّ عالقاً في ذهن الابن الذي بقي متشوقاً إلى تلك الأيام(1).

وفي سنة635هـ قُتل ابن هود ، واستولى ابن الأحمرعلى كثير من مدن الأندلس . وعندها التجأ أبو الحسن مع والده إلى المغرب ، وبالضبط إلى مراكش .

ثم انتقلا إلى تونس ونزلا بها وأقاما فيها مدة ، ثم ارتحلا إلى مصر بعدما أحسا بالغيرة من قبل ابن عمه محمد بن الحسين ، كاتب أبي زكرياء الحفصي ، لأن ابن سعيد ووالده كانت لهما حظوة عند ذلك الأمير ، فغادرا البلاد قاصدين مصر، وقد وصلاها سنة 639 هـ(2).

ونزل ابن سعيد وأبوه في الإسكندرية ، ثم ارتحل الشاعر إلى القاهرة . ولما توفي أبوه سنة 640 هـ بالإسكندرية حضر مأتمه ثم رجع إلى القاهرة وأقام بها مدّة التقى خلالها علماء مصر(3).

وفي القاهرة التقى شاعرنا عالم الشام ، ابن العديم الذي أكرمه وقربه منه، وحبّب إليه الرحلة معه إلى حلب فاستجاب لدعوته . وقد قدّمه ابن العديم إلى الملك الناصر فأغدق عليه هو أيضاً وافر النعم ، وكان ذلك من سنة 644 هـ ، إلى وقت رحيله سنة 647هـ ، حيث اتجه إلى دمشق ، واتصل بحاكمها السلطان "توران شاه" وأصبح نديمه . و في سنة 648هـ شدّ ابن سعيد رحاله إلى بغداد ، ومنها قصد البقاع المقدّسة حاجاً بيت الله الحرام ، ثم رجع مباشرة إلى تونس عند صديقه أبي العباس

---

(1) ينظر: م .س . 320/1.

(2) ينظر: المقري : نفح الطيب . 446/2.

(3) ينظر: م . ن . 450/2.

التيفاشي في سنة 652 هـ . وقد نال خلال هذه الإقامة المكانة العالية والشرف الرفيع في أحضان الدولة الحفصية أثناء خدمته للمستنصر أبي عبد الله الحفصي[1].

ثم رحل مرة أخرى إلى المشرق في سنة 666هـ وبلغ فيها بلاد إيران ، ثم رجع إلى تونس حيث قضى بقية حياته . وفي سنة 685 هـ[2] تُوفي ابن سعيد ـ رحمه الله ـ

9 - أدباء آخرون:

بالإضافة إلى من سبق ، هناك أدباء آخرون لم تكن لبعضهم الشهرة في سماء الأدب كالذين ذكرناهم سابقاً ، ولكن لهم قصائد يذكرون فيها شوقهم إلى أوطانهم . لذلك سنكتفي بذكرهم دون الوقوف عند سِيَرهم المفصّلة.

من هؤلاء الشعراء أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي روح . وهوينتسب إلى الجزيرة الخضراء ، وقد خرج منها متوجّهاً إلى بلاد المشرق في سنة 570هـ[3] وظلّ متشوّقاً إليها.

ونذكر أيضاً من الشعراء غير المغمورين أبا عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الأنصاريّ، المعروف بابن الجنّان، وهو من أهل مرسية[4] . قال عنه الغبريني : «الشيخ الفقيه الجليل الخطيب الكاتب البارع الحافل الأديب ... من أهل الرواية والدراية والحفظ والإتقان وجودة الخطّ وحسن الضبط... ونثره ونظمه كلّه حسن...»[5].

(1) ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة . 134/04.

(2) يذكر آنخل بالنثيا في" تاريخ الفكر الأندلسي" أنه توفي بدمشق . ص 284 . أما ابن الخطيب في" الإحاطة " فيذكر أنّ وفاته كانت بتونس، 135/4. ويؤكد المقري في" نفح الطيب" ذلك ، 443/2.

(3) ينظر: محمد العريس : موسوعة شعراء العصر الأندلسي . ص151.

(4) ينظر: ابن الخطيب : الإحاطة . 233/2.

(5) عنوان الدراية . ص 170.

وأثنى عليه ابن الخطيب بقوله :«كان محدثاً رواية ... ديّناً فاضلاً ، خيّراً ذكياً... متناسب الخِلقة ، لطيف الشمائل ، وقوراً...»[1] . وقد اشتهر في هذا العصر بأنه حامل لواء المدائح النبوية بلا منازع .

ولمّا ازدادت حركة الاسترداد وسقط كثير من مدن الأندلس ، وكانت من بينها "مرسية" ، خرج شاعرنا مع من خرج في سنة 641هـ متوجهاً إلى مدينة "أريولة" التي استوطنها مدّة من الزمن ، إلى أن استدعاه صديقه أبو علي بن خلاص حاكم مدينة "سبتة" ، فأقام فيها فترة ، ثم رحل إلى بجاية واستقر بها إلى أن تُوفي بها سنة 646 هـ أو648هـ [2] ، رحمه الله.

ومن الشعراء الذين رحلوا عن وطنهم ؛ أبو بكر محمد بن أحمد ابن الصابوني الصدفي . وهو من مدينة إشبيلية . قال عنه ابن الأبّار: « شاعر عصره المجيد، والمبدئ في محاسن القريض المعيد ، الذي ذهبت البدائع بذهابه ، وختمت الأندلس شعراءها به»[3].

وقصد أبا زكرياء الحفصي ، سلطان إفريقية ، في مدينة مليانة ومدحه ، ثم رحل إلى مصر، ومات بالإسكندرية قبل سنة 638 هـ »[4].

وبمالقة نجد الأديب مالك بن المرحل، وهو «شاعر رقيق مطبوع، متقدم، سريع البديهة رشيق، الأغراض، ذاكر للأدب واللغة ... حاز من جيله رتبة التقديم... حامل الراية المعلم بالشهرة ... الجامع بين سهولة اللفظ وسلاسة المعنى وإفادة التوليد وإحكام الاختراع...»[5].

---

(1) الإحاطة . 233/2.

(2) ينظر: محمد أحمد دقالي، الحنين في الشعر الأندلسي . ص110-111.

(3) تحفة القادم . ص147.

(4) ينظر: ابن سعيد: المغرب . 268/1.

(5) ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة . 232/3.

تنقل بين مدن أندلسية كثيرة كإشبيلية وغرناطة لتلقي العلم، ثم رحل إلى مدينة سبتة بالمغرب وسكنها مدة طويلة، وظل متردداُ بين مدينتي سبتة وفاس هذه الأخيرة التي توفي بها سنة 599هـ[1].

وإذن فإن الذي نخلص إليه من خلال ما سبق هو أنّ عملية الهجرة من مكان إلى آخر ظلّت متواصلة ، وتختلف من أديب إلى آخر، فبعضهم كان يرحل من أجل العلم رغبة في الاستزادة منه والارتواء من معينه ، فكلما سمع أنّ عالماً في مدينة من المدن شّد الرحال إليه ، ومنهم من وُشي به من قِبل آخرين حسدوه على مكانته وقربه من الحاكم ، فأدّى هذا إلى هجران ممدوحه والبحث عن آخر ، ومنهم من دُمّرت مدينته وأ ُخذت من قِبل النصارى ، ففرّ منها باحثاً عن الطمأنينة . كل هذه الأمور وغيرها جعلت هؤلاء الأدباء ينظمون يكتبون نصوصا في الحنين فاقت في كمّها وكيفها نصوص المشارقة . والحق أنّ هذا الوضع الذي عاشه الأديب الأندلسيّ في هذا العصر كان سبباً في زيادة محبته لوطنه الذي فارقه ، فظَلّ الوطن ساكنا في خياله ،متأججاً في نفسه ، لا يفارقه لحظة واحدة .

---

[1] ينظر: رجب عبد الجواد إبراهيم : معجم علماء اللغة و النحو في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ط1/ 2004 ، ص 359 .

الفصل الثاني

الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي
على عهد الموحّدين

لم تكن حركة الشعر الأندلسيّ على عهد الموحـدين بأقل مما كانت عليه في زمن ملوك الطوائف والمرابطين على الرغم من أنّ الشعر في عصر ملوك الطوائف توفرت له أسبـاب كثيـرة جعلـت من ذلك العصـر عصـرا ذهـبيا . إلا أنّه في زمن المرابطين تراجع ذلك الازدهار لأسباب معروفة عند الدارسين ، كتقويض حرية الفكر ، وحظر الفلسفة ، وانشغال المرابطين بالفتوحات والجهاد ضدّ النصارى، وتقديم المذهب المالكي على غيره من المذاهب الأخرى . وعندما ألقت دولة الموحدين بظلالها على الأندلس ، أعادت للحضارة الإسلامية وميضها البراق ، وانتعشت الثقافة وازدهر الشعر بتشجيع كثير من الحكام . فظهرت كوكبة من الشعراء حملوا لواء الشعر وأبدعوا فيه.

ولقد كان للخلفاء الموحدين اليد الطولى في ازدهار الأدب شعره ونثره ، حيث كانوا يتذوّقونه ويعقدون للشعر مجالس خاصة للاستماع إليه ومناقشة قضاياه ونقده. بل إنّ بعضهم كان يقرضه ، مثل المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي . وكان الخليفة أبو العلاء بن المنصور الموحدي إماما في العربية والمعرفة بالأدب وأيام الناس، كاتبا بليغا له التوقيعات العجيبة" [1] . إلا أنّهم لم يكونوا ينظمون القصائد الطوال ذات الغرض الخاصّ ؛ فالمهدي مثلا له أبيات أنشدها قبل وفاته بقليل ، وله بيتان أيضا قالهما في عبد المؤمن بن علي . أما هذا الأخير فله أبيات استنفر بها الناس للجهاد ، وله أنصاف أبيات أجاز بها أبياتا لوزيره أبي جعفربن عطية في وصف أحد المتنزهات[2].

وإذا ما عدنا إلى الظروف السياسية التي كانت بلاد الأندلس تعيشها على أيام الموحدين ، وطبيعة البلاد الخلابة ، و ذلك النتاج الشعري الغزير الذي تركه الشعراء وغيرهم آنذاك ، أثار انتباهنا تجلّي الاتجاه الوطني بشكل بارز في جلّ الأغراض الشعرية المعروفة . وذلك بصفة متفاوتة في الكثرة والجودة . وأهم تلك الأغراض:

---

(1) ابن سعيد : المغرب . 287/2.

(2) حكمة علي الأوسي : الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، د. ط / د .ت ، ص 44-45.

رثاء المدن ، والاستنجاد ، و الدعوة إلى الجهاد ، وصف محاسن الأندلس وفضائلها ، والحنين إلى الوطن ، وشعر الفتوحات ومدح الفاتحين . فكيف تجلى الاتجاه الوطني في هذه الأغراض ؟ ذلك ما سنحاول بيانه في هذا الفصل .

1- رثاء المدن

لقد كان لسقوط المدن الأندلسيّة الأثر البالغ في نفوس الشعراء . فنظموا كثيرا من أشعارهم لوصف ما َوقع لمدنهم من خراب ودمار من قبل المعتدين . والحقّ أنّ هذا اللون من الشعر لم يكن وليد هذه البلاد ، وإنّما كانت أصوله الأولى مشرقية . من ذلك ما قيل في مدينة بغداد ، عاصمة الدولة العباسيّة ، على عهد الأمين و المأمون عندما نشبت بينهما الفتنة المشؤومة التي خرّبت المدينة ومحت محاسنها وكثر فيها الهدم والتدمير، بعد أن كانت آية في البناء والعمران ، وذلك سنة 197هـ.

ومن الذين رثوا بغداد عمر بن عبد الملك الوراق حيث يقول[1] :

من ذا أصـابك يا بغداد بالعين ألم تكوني زمـانا قرة العين

ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم و كان قربهم زينا من الزين

وإذا كان عمرو بن عبد الملك يُرجع ما أصاب المدينة إلى العين ، فإنّ أبا يعقوب الخزيمي يرجع أسباب ذلك إلى اقتراف الكبائر ، شأنه شأن كثير من الشعراء الأندلسيين في زمن ملوك الطوائف . ولكن قصيدته أكثر حدة من القصيدة الأولى. ففيها وصف دقيق للمدينة حتى كأنها تبدو أمام أعيننا ، يقول من تلك القصيدة [2]:

يـا بـؤس بغداد دار مملـــــكة دارت علـى أهلها دوائـرها

أمـهلـها الله ثم عـاقبـــــــــها لمّا أحاطـت بــها كبـائـرها

رقّ بها الدين واستخفّ بذي الـ فضل وعز الرجال فاجرها

ومن القصائد التي اشتهرت في رثاء المدن في المشرق ميمية ابن الروميّ التي رثى فيها مدينة البصرة عندما اقتحمها الزنج في ثورتهم البائسة سنة 277هـ حيث قتلوا وأسروا الكثير من الأهالي ودمروا المدينة عن آخرها . وبلغ عدد ضحايا هذه المأساة أكثر من نصف مليون شخص ، يقول ابن الرومي من مرثيته[3]:

ذاد عن مقلتـي لذيذ المـنام شغلُها عنه بالدموع السـجام

---

[1] الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، ص 201 .

[2] م .ن ، ص202 .

[3] ديوان ابن الرومي ، تحقيق : حسين نصار ، القاهرة : مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ط3 / 2003 ، 6 / 2377 .

أي نوم من بعدما حلّ بالبصـ ـرة ما حلّ من هنات عظام

....كم فتاة بخـــاتم الله بكـــــر فضحوها جهرا بغير اكتتام

وعلى الرغم من هذه النماذج ، فإن ما قيل في رثاء المدن المشرقية لا يرقى إلى تلك القصائد الأندلسية ، لا من حيث الكمّ ولا الكيف . زيادة على أن شعراء هذا اللون في الأندلس كانوا يعايشون في أغلب الأوقات الأحداث التي كانت تقع في مدنهم، فيأتي وصفهم لها حقيقيا كمن يصور مشهدا بآلة فتوغرافية . أما الشعراء المشارقة فالغالب أنّ الأحداث كانت تتناهى إلى مسامعهم . وكانوا كمن يرسم لوحة من خياله . فابن الرومي في القصيدة التي سلفت يبكي مدينة سمع عن خرابها ولم يعش فيها ولم تلفحه محنتها ولا ماأصابها . وشتان ما بين الحالتين . لذلك وجدنا أنّ قصائد رثاء المدن الأندلسية نالت اهتمام كثير من الدارسين لهذا الموضوع مقارنة بما قيل في المشرق .

لقد أدّت حركة الاسترداد في الأندلس إلى سقوط العديد من المدن الأندلسية. وإذا كان بعضها استُرجع من قبل المسلمين ، فإن بعضها الآخر سقط في يد النصارى إلى الأبد .

وكما هو معروف ، فإن هذه الحركة بدأ نشاطها منذ عهد الفتنة وازدادت في زمن ملوك الطوائف ، وواصلت السير إلى عصر الموحدين ، ممّا أدى إلى ظهور كثير من القصائد التي رثت تلك المدن . وسنقف عند بعضها بشيء من التفصيل.

ولكن قبل هذا يجب أن نشير إلى أن هذا اللون من الشعر كان على قسمين : قسم اختص برثاء المدينة الواحدة ، وآخر عُني بسقوط الكثير من المدن في قصيدة واحدة ، أو ما يسمى برثاء الأندلس . وقد جاء هذا اللون أحيانا ضمن شعر الاستنفار أو الاستنجاد .

فمن رثاء المدن ما قاله أبو القاسم عبد الرحمان بن عبد الله السهيلي الأعمى (508هـ- 581هـ) . وهو من قرية سهيل التابعة لمدينة مالقة . فقد أغار الرنج على تلك القرية وخرّبوها وقتلوا من فيها . وكان بينهم أهل " أبي القاسم عبد الرحمان "

وأقاربه ، وهو يومئذ خارج المدينة . فلما بلغه ذلك استأجر من يوصله على دابة إلى القرية . فلما وصل إلى المكان ووقف بإزائه ، قال المقطوعة التالية :[1]

يــا دارُ أين البِـيض و الآرام ؟ أم أين جِيـران عليّ كِـرام ؟

رابَ المُـحبّ مِن المنازل أنه حيّ فلم يـرُجَع إليه سـلام

لمّا أجابني الصّدى عنهم ولـم يلج المَسامع لِلحبيب كـلام

طارحتُ وُرق حَمامها مُترنّما بمقال صبّ والدّموع سِجـام

يــا دارُ ما فـعلتْ بكِ الأيّـــام ضَامتْـك والأيّام ليس تُضام

وعلى الرغم مِن أنّ ابن سعيد وصف أبا القاسم السّهيلي بالعالم المتقن، المشهور في علم النحو وفنون الأدب ، فإننا لم نلمح في هذه المقطوعة رثاء بديعا يمثل الطريقة التي نهجها أغلب الأندلسيّين في مراثيهم لبلدانهم . والملاحظ من خلال هذه الأبيات أنه لولا البيت الأخير لما استطعنا أن ندرجها ضمن غرض الرثاء ، فليس فيها ما يوحي بالتقتيل والدمار ، بل هي حديث عن غائب رجع إلى الديار التي أقفرت من البيض والآرام والجيران ، وراح يسائلها عمّن فقد من الأهل والأحباب . وفي البيت الأخير يذكر الشاعر أن الأيام هي التي عدت على الديار فأصابها الضيم ممّا جعلها خالية قفرة .

وما يمكن استنتاجه هو أن بعض الشعراء كانت لهم إشارة في بعض المقاطع أو الأبيات تومئ إلى وجود رثاء مدينة ما مخلوط بالحنين إليها ، ولم يفردوا لها قصيدة أو أبياتا مستقلة يذكرون فيها ما ألم بالمدينة من خراب وسوء مصير .

وهناك مقاطع قصيرة تحتوي على رثاء مختصر للمدن كقول أبي المطرف أحمد بن عميرة المخزومي في جزيرة "شُقر" مسقط رأسه ، مخاطبا الدهر[2] :

يادهرُ ليْتك كنتَ عنّا مُعرضا إذ لا نَرى لَك غير وجْه كالح

أولـدت أيـّام المَكاره ثمّ لا نرجوك في مِيلاد يَوم صالح

---

[1] ابن سعيد : المغرب . 448/1.
[2] عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص 667-668 .

وأبيت غَير ضغينة مِن كاشر وحميت إلا مِن سَخيمة كاشِح
وأزحْتنا عَن مَنزل كنّا به في ظلّ عيش بالأمَاني طَافِح
شُقْر وما شُقْر و أيْك حَوله تسلي النّفوس بصائِح أو صادح
أرض تخيّرَها لِطيب هَوائها عَبقون مِنْ أرج الثّناء الفَائح
وأرَى النّعِيمَ وكلّ ما يغدو له يوما يَصير إلى زَوال رائح

فإذا كان ابن خفاجة جنّان الأندلس في عصر ملوك الطوائف والمرابطين قد عبق قصائده بجمال جزيرة شقر واصفا ومادحا إياها لما تتمتع به من مناظر خلابة، وكان كثير التحنان إلى الأيام التي عاشها فيها ؛ فإن ابن عميرة يرى أنّ ذلك النعيم الذي كانت هذه الجزيرة تحظى به قد صار إلى الزوال ، وأنّ تلك الأيام الصالحة ستصير إلى المكاره . وقد كان بعض الشعراء الأندلسيين في رثائهم للمدن أيام ملوك الطوائف يرجعون ما حلّ بأوطانهم إلى ارتكاب الذنوب والمعاصي ، ونرى ابن عميرة في هذه القصيدة يرجع السبب إلى الدهر الذي طالت يده عليهم وعلى أوطانهم.

وبنغمة أكثر حدّة ، يرثي الشاعر جزيرة شقر وشرق الأندلس بأبيات نتبيّن فيها معالم رثاء المدن ، وذلك عندما تقاذفتها يد الخطوب وتركتها بلاقع ، هذه الخطوب و الدواهي التي أحدثت بينا و نأيا . ونلاحظ أن البيت الأخير الذي يتساءل فيه الشاعر عن "شُقر" ينبئ عن نهاية غير تامة ، ربما لأنّ الأبيات التي تلت ضاعت أو لأن الذي نقل النص لم يتمّه على عادة كثير من مدوني* الشعر الأندلسي . يقول في ذلك النص[1] :

تذكر عهد الشّرق والشّرق شاسِع وذابَ أسى لِلبرق والبرقُ لامِع
وأتبَع ذِكر الجَزع أنّة مُوجع له أبدا قلبٌ علَى الجَزْع جازع
كفَى حزَنا نأيٌ عن الأهل بَعدما نَأينا عَن الأوطَان فهْيَ بَلاقع
نَوى غُربة حتّى بِمنزل غُربَة لقد صنع البَيْنُ الذي هُو صَانع

* كابن بسام في "الذخيرة" ، والمقري في "نفخ الطيب".
(1) م .س ، ص 688 .

أحِنّ إلى أرض تقـادم عهدُها   ومِنْ دُونها أيدي الخُطوب المَوانع
وكيف بشُقر أو ِبـزُرقة مائه ؟   وفيه لِشُـقر أو لـزرق مشَـــارع

وإن كانت بداية هذه الأبيات تبدو من خلالها ملامح الحنين ، نتيجة تذكر الماضي والبعد عن الوطن ، فإنها تُدرَج ضمن غرض رثاء المدن ، حيث كانت الفواجع والمصائب التي حلت به هي سبب هجرة الشاعر وخروجه منه .

وله أيضا أبيات رائعة في رثاء وطنه يقارن فيها نفسه بالذين تغربوا عن أوطانهم وأحبابهم ، إذ يرى أنّ غربته أشدّ من غربة أولئك الذين شدّهم الحنين إلى أوطانهم وتملكتهم الصبابة نحوها وأمامهم فرصة الرجوع إليها ؛ فهو ومَن معه مِن الذين أُخرجوا من تلك الدّيار يصدّهم عن الرجوع إليها تملكها من قبل المشركين الذين طردوهم منها ، إذ لا سبيل للعودة إليها ، يقول فيها [1] :

زدنا على النّائيـن عن أوطانهـم   وإن اشتركنا في الصّبابة والجوى
إنّا وجدناهـم قد اسـتسقوا لــها   من بعد أن شطّت بهم عنها النّـوى
ويصدّنا عن ذاك في أوطـانـنا   مع حبّها الشّـركُ الذي فيــها ثوى
حسناء طاعُتـها استقامت بـعدنا   لعدونا ، أفيستـقيـم لها الهـــوى

ويعلق المقرّيّ على هذه الأبيات قائلا : " ما رأيتُ ولا سمعتُ مثل هذه الأبيات في معناها ، العالية في مبناها ، فإنّ فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى – دمّرهم الله – على تلك الدّيار ، وثبوت قدمهم فيها على طِبق ما حصل لهم فيه اختيار، مع إدماج حبه لها ، الذي لا يُشَكّ فيه ولا يُرتاب ، واشتمالها على المحاسن التي هي بغية الرائد ونجعة المنتاب ، ولكل أجل كتاب ، وإذا نفذ سهم المقدور فلا عتاب "[2].

---

[1] ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، السّفر الأول ، القسم الأول ، ص 173.
[2] نفح الطيب .245/1.

ونجد أيضا قصائد متوسطة الحجم بين الطول والقصر، نذكر منها قصيدة قالها أبو المطرف بن عميرة في بكائه بلنسية ، حيث غلب عليه الحنين إلى تلك الربوع والأماكن الجميلة التي صارت أثرا بعد عين ،يقول فيها (1) :

ألا أيّها القلبُ المصرّح بالوجد — أما لك مِن بادي الصّبابة مِن بُد؟
وهل مِن سلو يرتجى لمتيّم — له لوعةُ الصّادي وروعةُ ذي الصّد؟
يحنّ إلى نجد وهيهات حرّمت — صروف الليالي أنْ يعود إلى نجد
فيا جبل الرّيان لارَيّ بعدما — عدت غِيَر الأيّام عن ذلك الورد
ويا أهل وُدّي والحوادث تقتضي — خلوي عن أهل يُضاف إلى الود
ألا متعة يوما بعارية المُنى؟ — فإنّا نراها كلّ حين إلى الرّد
أمن بعد رزء في بلنسية ثوى — بأحشائنا كالنار مضرمة الوقد
يرجّي أناس جُنّة من مصائب — تطاعن فيه بالمثقفة الملد
ألا ليت شعري هل لها من مطالع — معاد إلى ما كان فيها من السعد؟
وهل أذنب الأبناء ذنب أبيهمُ — فصاروا إلى الإخراج من جنّة الخلد؟

لقد كانت بلنسية من أهم المدن في الأندلس ، إذ عمد الحكام إلى تشييدها وتحصينها من كامل النواحي . وقد شُغف كثير من الشعراء بها وتغنوا بجمالها ، وذاد عنها الأبطال الشجعان بكل استبسال . لذلك كان سقوطها كارثة لا مثيل لها ، فأخرج أهلها منها مكرهين . ولكنهم ظلوا كثيري التحنان إليها . لقد جاءت هذه القصيدة التي قيلت في رثائها ممزوجة بشئ من الغزل والحنين ، كما يظهر في قوله (الوجد، الصبابة ، سلو، متيم ، لوعة ، الصادي ، الصد ، يحن ، جبل الريان) .

ونورد في هذا الموضع أيضا قصيدة تقارب الطوال للقاضي أبي المطرف نفسه الذي كان وفيا لمدينة بلنسية ، فلم يأل جهدا في رثائها وتبيان ما أصابها ، فلما " بلغ الكتاب أجله ، كانت المراوضة على إسلام البلد ، والخروج عنه... بعد سنة المنازلة . وخرج الأمير أبو جميل والشهود ، وعقد الصلح بعدها على دانية وقلبيرة،

---

(1) ابن سعيد:اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلى ، ص48

وكان الرزء على المسلمين في أخذ بلنسية عظيما والخطب فيها أليما"[1] ، وفي ذلك يقول[2]:

ما بال دمعك لا ينِي مِدراره	أم ما لقلبـك لا يقــرّ قرارُه؟
أ َلِلوعة بين الضُّلوع لظاعـن	سـارت ركائبُه وشطّت دارُه
أمْ للشّباب تـقاذفـــت أوطانُـه	بعد الدُّنــو وأخلفت أوطـارُه
أم للزّمان أتى بخــطـب فادح	مِن مِثل حادثة خَلتْ أعصاره
بَحْـر مِنَ الأشجَان عبَّ عبابه	وارتَـجَّ ما بين الحَشَى زخّاره
في كل قلـب منــه وجد عنـده	أسف طويـل ليس تخبو ناره

يبدو من خلال هذه الأبيات أنّ الشاعر لم يكن في وطنه ، بل كان بعيدا عنه يعيش غربة ولدّت له لوعة واشتياقا ، وصار قلبه منفطرا ،وعيناه لا تكفّان عن سكب الدموع الغزيرة . ثم يقول بعد وصف هذه الأحزان والأشجان :

أمّا بـلنسيـة فمثـوى كافـــر	حفّتْ به في عُقرها كفــاره
زرع مِن المكروه حلّ حصادُه	عند العدوّ غداة لجّ حصاره
وعزيمة لِلشّرك جَعْجع بالهدى	أنصارُها ، إذ خانه أنصـارُه
قُل كيف تثبت بعد تمزيق العِدا	آثاره ؟ أم كيف يُـدرَك ثاره؟
ما كان ذاك المِصرُ إلا جـنَّة	لِلحُسن تجري تحْـته أنهاره
طابتْ بِطـيبِ بَهـاره آصالـــه	و تعطّرتْ بنسيمه أشجـاره

فقبل أن يرثي الشاعر مدينته ، حاول أن ينقل إلينا كل تلك الآلام والأوجاع التي كان يحس بها نتيجة لكثرة الترحال والتنقل بين مدن الأندلس ، وخاصة مدينتي شاطبة ومرسية . فعندما سقطت بلنسية وجزيرة شُقر وسائر مدن الشرق الأندلسي ، استقر به المقام بين ربوع مرسية ، ومنها كتب رسائله الإخوانية المشهورة ، والتي ضمّنها كثيرا من تلك القصائد الرثائية.

---

[1] ابن الخطيب : أعمال الأعمال ، ص 273.

[2] عبد العزيز عبد المجيد : ابن الأبار حياته وكتبه ، تطوان : معهد مولاي الحسن للأبحاث ، د. ط / 1951 ، ص 148-149.

ولقد كان الشاعر في هذه القصيدة يُكثر من الاستفهامات لتي حاول من خلالها أن يُبرز حالة المدينة خربت من قِبل النصارى . وفي هذا المقطع - أيضا- إشارة إلى أن الغزاة لم يُلاقوا مواجهة عنيفة من لدن المسلمين ، وكأنّها استسلمت للعدو وهو ما تذكره بعض كتب التاريخ . وكانت هذه الصورة الشنيعة التي مُحقت بها المدينة غير مستساغة عند الشاعر ، فحاول أن يلفظ بها في هذه القصيدة إلى أحد إخوانه . يقول أبو المطرّف :

أمّا السّرار فقد غداه وهل سوى ... قمر السّماء يزول عنه سرارُه
قد كان يشرق بالهداية ليلُه ... و الآن أظلم بالضلال نهاره
ودَجا به ليل الخُطوب بصبحه ... أعيا على أبصارنا إسفاره
إيهٍ أبا عبدِ الإله وإنّه ... نبأ يُرَجّع لوعتي تذكارُه
عاطيتَني ذكرَ الجلاء و إنّه ... لجلاء أنسي إذ أتتْ أخباره
وقدحْت زند آسى له بين الحَشى ... عمل تلاقى مرخُه وعفاره
ولقد نطقتُ بمقتضى الرّد الذي ... راقتْ نظارته وطاب نضاره

إذن الشاعر في هذه القصيدة يقارن بين زمنين ، ماض وحاضر ، بين أيام كانت فيها بلنسية جنّة الله في أرضه ، ذات حسن وجمال تجري من تحتها الأنهار ؛ وأيام صارت فيها دارا للكفار الذين أبدلوا ذلك النعيم خطوبا والنهار ظلاما مدلهما. هذه المقابلة في الحقيقة نجدها في كثير من مراثي البلدان الأندلسية ، حيث نجد الشعراء يحنون فيها إلى ذلك الماضي الزاهر وينقمون على الحاضر المر.

وهناك قصائد طويلة تجلّى فيها هذا النوع من الرثاء كقصيدة لأبي المطرّف التي مدح بها أبا عثمان سعيد بن الحكم القرشي ، وضمّنها مقطعا قصيرا رثى فيه بلنسية ، يقول فيه في معرض غزلي :[1]

...ومالي استسقي الغمام لتربة ... أغصت لحيّات الصليب لصابها
وشردت التّوحيد تشريد ساخر ... به، وعلى التّثليث أرخت حجابها

[1] عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص 685-686 .

و كنّا صدقناها المحبّة جهدنـــا   فماذا الذي منّا مع الحُـبّ رابـها
أذاك لأنّ الشيـب كـرّه قــربنـــا   إليها ، و لمّا تـنض عنها شبـابـها
ودِدْنا وأبصرنا لها الشّرك عامرا   لو أنّا رأينا قبلَ ذاك خرابَـــها

ولكن هاته الأماني و الرغائب التي كان يمني بها نفسه يبدوا أنها لم تتحقق فبقيت في نفسه مجرد ظلال ،لأن الأيام جعلت بينه وبينها قطيعة ، فيبدو الشاعر مثل الرجل الحكيم الذي اشتعل رأسه شيبا ، وغدت له الأيام بعد أن خبرها كتابا مفتوحا ، فيقول:

وكم مِن مُحبّ تمـــنى لـــنفس من   يُحبّ إذا يخشى عليها ذهابـــها
ألا لَيْت شعري و الأمــــاني ضلّة   و أكثرها قد عوّدتنا كذابــــها
أواصــلتي الأيّام بـعد قطيعــــة   أطلّت عليها لَـومَها و عتابَـــها
وهل مرّة الشكوى تُريني انقصاءها   وأسباب ما أشكو أرجو انقضابـها
مُنى هنَّ في صدري كمِثل حقيقـــة   مضتْ وببطن الطّرس أبقت كتابها

ثم يشرع بعد ذلك في مدحه المطول لأبي عثمان سعيد بن الحكم القرشي . والظاهر من خلال هذه القصيدة أن بلنسية في هذه الأثناء أُخذت من المسلمين دون رجعة ، إذ إن بعض المدن التي سقطت في أيهي النصارى استُرجعت من قبل الموحدين . ولكن بلنسية جثم على صدرها الصليب وأبُدل التوحيد بالتثليث. لذلك كانت تلك الظروف السيئة مدعاة للشعراء لأن يستنجدوا الناس للجهاد ويستنفروهم .

ويبدو كذلك أنّ مراثي أبي المطرف كانت مُترعة بالجانب الديني ، حيث نلحظ فيها حديثا عن مصرع التوحيد في المدينة التي سقطت ، وإحلال الشرك والصليب والتثليث مكانه ، وهذا مبالغة في وصف المصيبة والكارثة العظيمة التي شيبت الشاعر.

ومن المدن الأندلسية التي لا تقل كذلك أهمية عن بلنسية ، والتي رثاها بعض الشعراء الأندلسيين عندما سقطت في أيدي النصاري في زمن الموحدين ، مدينة إشبيلية، التي كان لها الدور الفعال في المحافظة على جوانب كثيرة من الحضارة

الأندلسية ، وظهر بها عدد كبير من الشعراء النابغين ، وتوالى عليها حكام كثر جعلوا منها مدينة تنبض بالحياة من شتى النواحي ، ولا سيما من ناحية الفنون . ولكن أغلب هاته المحاسن والمزايا أتى عليها التعصب الصليبي في عملية الاسترداد التي قام بها النصارى في هذا العصر .

ومن الشعراء الذين كانوا أوفياء لهذه المدينة ورثوها رثاء حارا وبكوها بكاء مفجعا أبو موسى هارون بن هارون . فقد أنشأ قصيدة طويلة تتضمّن موضوعين متقاربين هما: رثاء المدن ، والدعوة إلى الجهاد . وسأقتصر على القسم الأول منها.

إن رثاء الشاعر لإشبيلية أخذ القسط الكبير من هذه القصيدة ، حيث بلغ عدد الأبيات فيه سبعة وثلاثين ، يقول منها[1]:

يا حمصُ أقصَدك المقدورُ حين رَمَى ... لم يـرْع فيكِ الرّدى إلاّ ولا ذممـا
جَـرتْ عليـكِ يد للدّهــر ظـالمـــة ... لا يعدل الدّهرُ في شيء إذا حكما
ما كـنـتُ أحسـب أنّ الحادثـــات إذا ... همّت بك السوء لا تُلقي لك السّلما
ولا تـوهّمت ذاك الحُسن يطـــمسه ... ريبُ الزّمـان و يكسو نورَه الظّلما
قد كان حُسنك فتـان الشّبـــاب فمُذ ... أصُبت عوّضت منه القبح والهرما
يا جنّـــةً زحزحتـنا عن زخـارفـها ... ذنـوبُـنا فـلزمنـا البثّ والنّدمـــا

يتحدث الشاعر في هذه المقدمة عن حال حمص (إشبيلية) قبل أن تخرب وتدمر، حيث كانت جميلة حسناء ، وقد فتن بها الشاعر أيما افتتان . ومن شدة حبه لها وإعجابه بها، اعتقد أنّ هذا الحسن لن يُطمس أبدا ولن يزول . ولكن يد الدهر طالتها وغيرت ما كان بها من جمال .

ثم ينتقل ابن هارون إلى ذكر المصائب التي لحقت بإشبيلية ، دون تفصيل، فيقول:

يا سائِـلي عن مُصاب المسلمين بها ... أصِـخ لتسمع أمرا يورث الصّممـا

---

[1] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص 381.

لَمَّا تفرَّقت الأهواء واضطـرَمت نارُ البُغـاة فقامت للرَّدَى علمـا

ونُـوزِعَ الأمر أهلـوه و قـام به مَن لم يجد قُدما فيـه ولا قَدمـا

ثارت حفائظُ للتثـليث فابتـدروا وأيقظوا من سُبات الغفلة الهمـما

وأنشروا ميِّتَ الأحقـاد بينـهم ولو أطاقوا لَعَمري أنشروا الرِّمما

ويمَّموا حِمص في جَمْع يضيق بـه ذرعُ الفضاء فسوَّى الوَهْد والأكما

فالبحـر بالمُنشآت ارتجَّ مِن ذعـر والبَرُّ بالمُرهفات الماع فاكتـتما

واستوطنوا القبر في الوادي وقام لهم جسر من الفلك لا تشكو به السَّأما

إذا كانت بائية أبي المطرف السابقة مملوءة بالجانب الديني ، فإن ابن هارون يرى في هذا المقطع بأن سبب سقوط المدينة ورثائها ، هو جانب سياسي واجتماعي . بمعنى أنه لما شاعت الفرقة والتشتت بين المسلمين ، وثار بعض المتمردين على الحكام ، انكسرت شوكة الأندلسيين ، وثار المشركون في كل مكان ينشرون الرعب والتقتيل ، واستسلمت المدينة لهم ورفعو رايتهم فوقها .

وهناك بعض الشعراء من رأى بأنّ الذي أصاب بعض المدن الأندلسية قضاء وقدر، أوهو عين حاقت بها ، إلا أن شاعرنا يرى أنَّ سبب ذلك هو تولية أمور المسلمين من لا يستحقها وعدم إسنادها إلى أهلها . وهو دليل على تلك الفوضى التي كانت قائمة بين الحكام أنفسهم والمحكومين ، لذلك فهو عصر شبيه بزمن ملوك الطوائف. إنّ هذا الجو السياسيّ المضطرب جعل من النصارى ينشرون الرعب والخوف بين أهالي المدينة ، وقد أظهروا الفساد في البر والبحر . كل هذا والمسلمون متفرقون لا يجتمعون على رأي واحد.

وبعد ذلك يقوم الشاعر بتعداد جرائم الصليبيين بالتفصيل فيقول:

فكم أسُارى غدتْ في القيد موثـقَةً تشكو مِن الذّل أقداما لها حطـما

وكم صريعٍ رضيع ظلّ مختطَـفا عن أمّه فهْو بالأمواج قد فُطـما

يدعو الولـيدُ أباه و هُو في شُغـل عن الجواب بدمع سالَ وانسجـما

فكم ترى والِها فيهم و والــهَةً لا يرجع الطّرف إن حاورته الكلما

إنّا إلى الله قد حل المُصاب ومــا   مِن حيلة في الذي أمضى ولاحـتـما
في كل حين ترى صرعى مجـدّلـة   وآخـرين أسُـارى خطبهم عظـــمـا
وقد أحاطـت بنا الأعـداء فاغــرةً   أفواهَـها تبتـغي أرواحَنا طـــــعـما
عادت سوارا على سور المدينـة قد   أفناه عضا وكم من معصم قصـما؟
عفت يدُ الشِّرك ما شاد الخلائفُ مِن   قصر ومِن مصنع ضخم حكى إرما
مَن يبصر المنزل الأعلى يقل ولَهاً :   ما خُـطّ قـطّ لِـذا أسٌ ولا رُسِـما
أين القِـباب التـي كـانـت مُـحـجّبَـة   فيها الملوك تفيض الجود و الكرما

في هذه الآبيات عدة صور ولوحات تعبر عن براعة ابن هارون ، فهو يضع أمامنا المأساة كأننا نراها بأعيننا ، شأنه في ذلك شأن المصور الفوتوغرافي . وقد استعان في تعداد هذه المآسي بـ "كم" الخبرية على عادة شعراء رثاء المدن . ومن تلك الصور حالة الأسرى الذين يجُرُّون أقدامهم بسبب الأغلال التي أوثقوا بها ، والذل يحيط بهم من كل جانب . ومنها أيضاحالة الرضيع الذي حقُّ ه أن يُفطَم في عائلته مع أمه ، ولكن لبشاعة النصارى خطفوه وفطموه في البحر بعد أن ألقوه فيه ، وأبوه لا يملك لنفسه حولا ولا قوة لإنقاذه . وليس له إلا الدموع للتعبير عن الألم الذي يعصر قلبه.

ومن الصور المؤلمة أيضا التي تدل على تفاقم المأساة وبشاعتها هو أن العلوج طوقوا المدينة من كل جانب وبقوا ينتظرون الفرصة الملائمة للانقضاض على أهلها، فبعد أن كانت الأسوار والقلاع والجدران العالية تحيط بها لحمايتها ، صار هؤلاء الأوغاد المعتدون في محلّ يهددون منه أمن المدينة ، ويبثون الرعب والهلع في قلوب الناس .

وهؤلاء المشركون لم يكتفوا بالبشر ، وإنما طالت أيديهم الشجر والحجر والقصور والمصانع و الدور، تلك المباني التي شُيّدت على مَرّ العصور، والتي كانت آية في العمران ، شأنها شأن ديار إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد . كل

هاته المباني الشامخة هُمت وذُسفت من أساسها وكأنها لم تكن أصلا ، فقد ذهبت وذهب معها الجود والكرم الذي كان يفيض بين جنباتها.

ثم يمضي الشاعر في قصيدته متذكرا أيامه بإشبيلية فيقول:

وكَمْ بطــرْيانة أبقى الأسى ندبــا   في القلب يبعث وَجْدا كُلمّا كُلما

ياحُسنهاغُرفا للحسْن جامعــــة   ما طار قَطُّ لها إلّا التَّعيــم جما

أيَّام غضْر التَّصافي محض طاعتها   ولا تُبالــي إذا ما لائم لومــــا

كَمْ ليـلةٍ قصرتها القاصراتُ فمـا   تـزال تستنطق الأوتارَ و النَّغما

سقى عيشها الغــرّ التي انصرمت   صوب الغمام إذا ما أسبل الدّيما

عيش تقضّــى وأبقى بعده أســفا   كأنّ ما كان منه في الكَرَى حُلما

وإذا كان أبو المطرف في رثائه لبلنسية يذكر في بداية قصائده حنينه إلى المدينة ، فإنّ أبا موسى هارون جعله في هذه القصيدة وسطا ، حيث يذكر في هذه الأبيات ما كانت عليه إشبيلية من الحسن ، والأماكن التي كان ينعم فيها باللهو والاشتغال بالملذات ، والليالي الملاح حيث الجواري والغناء وما يُروّح عن النفس . كل هاته النعم والأيام الجميلة انقضت وولّت وكأنها ما كانت حتى في الحلم .

ثم يواصل بكاءه على المدينة فيقول :

يا عينُ فابكي على حِمص وقل لها   منك البكـاء إذا ما ترسليه دمــا

فقد أصيبت بها الدُنيا و ساكنـــها   حقّ ا،وأصبح ركنُ الدّين قد ثلمـا

سطا بها الكفرُ إذ قَلَّ التّصير بهــا   فمن مـعزّ بها الإسلام ما سلمــا

لم يكن بكاء الشاعر على المدينة فقط لأنها سقطت في أيدي النصارى ، بل لأنّ الدنيا كلها أصيبت بها ولأن أساس الدين قد تصدع . وبما أن الأمر كذلك فهو يطالب بنصرة المدينة وإنجادها في الأبيات الموالية.وتذكرنا هاته القصيدة بهمزية ابن العسال في رثائه لبربشتر زمن ملوك الطوائف عندما وصف معاناة المرأة في تلك المحنة الأليمة .

و خير ما نختتم به هذا الرثاء ، قصيدة طارت شهرتها في الآفاق ، وهي تتضمن رثاء الأندلس بكاملها ، بل ما من كتاب يُعنى بالشعر الأندلسي إلا وتُدرَج فيه . وهذه القصيدة هي نونية أبي البقاء الرندي . يشير بعض الدراسيين [1] إلى أن شهرة الرندي بين الشعراء لم تكن إلا بهذه القصيدة على الرغم من أنّ له ديوان شعر لم يصل إلينا ، وله أيضا بعض القصائد في "الإحاطة" و"نفخ الطيب" ، بالإضافة إلى بعض الكتابات النثرية وبعض المؤلفات.

إلا أنّ الغريب في الأمر هو عدم وجود هذه القصيدة في المصادر القديمة عدا "الذخيرة السنية " لمؤلف مجهول ، وفي كتابي " نفخ الطيب " وأزهار الرياض " للمقري التلمساني . ولا ندري سبب ذلك.

وترجع مناسبة هذه القصيدة فيما يذكر صلاح جرار فيما نقله عن الذخيرة السنية إلى أن " محمد الغالب" سلطان غرناطة منح الفونسو ملك قشتالة الكثير من القواعد والحصون سنة 665 هـ ، من بينها شريش والمدينة والقلعة ، وورد أن عدد ما سلمه ابن الأحمر لألفونسو من تلك المدن والحصون المسوّرة مائة مسور وخمسة مسورات من بلاد شرق الأندلس[2] . فلما وصل الأمر إلى هذه الدرجة راح أبو البقاء الرندي يبكي تلك المدن والحصون ويستنفر لها من بالعدوة الأخرى .

بدأ أبو البقاء نونيته بموضوع لا يخلو منه أغلب القصائد التي تناولت رثاء المدن والممالك أو رثاء الأشخاص ، ألا وهو موضوع الحكمة . وهو الأنسب لمثل هاته الأغراض ، حيث يحتاج الراثي إلى توظيف العقل الذي هو مناط الحكمة للتخفيف من المصاب الجلل ، وحتى لا يزرع القلق والفزع في نفوس المتلقين . وقد سبق إلى هذا التوظيف في زمن ملوك الطوائف ابن عبدون حين رثى مملكة بني الأفطس في رائيته التي مطلعها :

الدّهر يفجع بعد العَين بالأثر   فما البكاء على الأشباح والصّوَر

---

[1] محمد مجيد السعيد : الشعر في عهد المرابطين و الموحّدين في الأندلس، الجمهورية العراقية : دار الرشيد للنشر ، د .ط / 1979 ، ص 322.

[2] ينظر : صلاح جرار: قراءات في الشعر الأندلسي ، الأردن : دار المسيرة للنشر و التوزيع ، ط1 / 2007 ، ص 117.

ولكن أبا البقاء بدأ نونيته بمطلع اختصر فيه الماضي والحاضر والمستقبل حيث يقول[1] :

لكلّ شيء إذا ما تمّ نُقصــان   فلا يُغـرَّ بطيـب العيش إنسان

فلفظ (كل) يجعل من الأمر الذي يتحدث عنه أبو البقاء قاعدة تنسحب على كل جوانب الحياة . وبالتالي فإن الذي أصاب الأندلس لا يُستثنى من هذه القاعدة ، فتكون إذن الفواجع التي سيذكرها ذات وقع أقل على النفس . فما من حضارة أو دولة إلا وتبدأ فتية ثم تبلغ ذورتها في القوة والنماء (وهو ما عبر عنه بـ "تمّ") ثم تؤول إلى الانحدار فالضعف أو الزوال (وهو ما عبر عنه بـ "نقصان") . وهذا أمر يقرره علماء العمران والحضارات.

وبعد هذا المطلع الحِكمي يورد الشاعر أبياتا صبّ فيها مشاهداته وخبراته التي اكتسبها من الحياة أو بمطالعاته للكتب ، ويبدو متأثرا بقصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس لأنّها تتفق مع قصيدته كثيرا في هذه المقدمة التي تساءل فيها عن الأمم التي أبادها الدهر . يقول في ذلك :

هيَ الأمـور كما شاهدْتـها دولٌ   مَنْ سـرّه زمـنٌ ساءتـه أزمـــانُ

وهذه الـدَّار لا تُبـقـي على أحد   ولا يـــدومُ على حـال لها شـانُ

يُمـزِّق الدَّهـرُ حتماً كلَّ سـابغة   إذا نَبـتْ مشـرفيَّـات وخـرْصـان

وينتَضـي كلّ سيـف للفنـاء و لو   كان ابن ذي يزَن و الغِمد غمْدان

فعندما يدرك القارئ أنّ الأمور التي تجري في الكون لا تستقرّ على حال ، وأنّ هذه الحياة الدنيويّة ستفنى في يوم من الأيام ، وأنّ على الإنسان ألا يغترّ بالسرور والفرح لما سيعقبهما من حزن وقرح ، سيكون وقع المصاب الذي ألمّ بالأندلس على نفسه غير أليم . لذلك يفصل الشاعر الحديث في الآبيات التي تلي عن بعض ما فعله الدهر بالذين مضوا في غابر الأزمان . يقول متسائلا :

أين المُلوك ذوُو التّيجان مِن يَمن   وأين مــنـهم أكـالـيـل وتِيـــجَـان

---

[1] المقّري : نفح الطيب ، 373/5 .

وأيْــن ما شـــادَه شـــدّاد في إرَم　　وأين ما ساسَه في الفرُس ساسان

وأين ما حــازه قــارونُ مِن ذَهَب　　وأين عــاد وشـــدّاد وقَحْـطـان

أتى على الكـلّ أمــرٌ لا مَـردّ له　　حتّى قَـضوا فكأنّ القومَ ما كانوا

...دار الزّمـانُ على دارا وقاتـلِه　　وأمّ كـسرى فـما آواه إيــوان

...فَجـائع الدّهــر أنـواع مُنوّعة　　ولِلزّمــان مَســرّات وأحْـــزان

ولِلحــوادث سلْوان يُسهّـــلـها　　وما لِمَـا حلّ بالإســلام سلــوان

وفي هذا المقطع حاول الرندي ضرب الأمثال ، وتساءل عن تلك الأمم والحضارات والقبائل التي عفى عليها الزمن مثل ملوك اليمن أصحاب الحضارات التالدة ، وعاد ، وارم ذات العماد ، وأموال قارون العجيبة ، وقبائل شداد وقحطان ، كل هؤلاء لم يبق من أمرهم شيء . ونلاحظ أن أبا البقاء اختار من أحداث التاريخ ومن أبادهم الزمان " ما يجسّم العبرة ويجلب العظة دون أن يستغرقه السرد التاريخي"[1] . على أن المطّلع على قصيدة ابن عبدون في رثاء بني الأفطس يرى أن الشاعر حشد فيها أحداثا كثيرة من التاريخ وأسماء شخصيات عديدة وأمم كثيرة مما جعل تلك المقدمة طويلة جدا . وكل من ذكرهم أبو البقاء يتميزون بالقوة والبأس الشديد وطول البقاء ، وكثرة الأموال والجاه والمنعة . إن كل هاته الأمور التي تجعل الحياة طويلة لم تمنع الموت من مفاجأتهم ومن سطو الدهر عليهم . وعلى الرغم أيضا من أنّ هذه المصائب لها سلوان فإن الذي أصاب الأندلس لا عزاء له ولا سلوان. يقول الرندي في وصف تلك المصائب :

دهى الجـزيرةَ أمـرٌ لا عــزاءَ له　　هـوَى له أحُد وانــهدّ ثهْلان

أصابها العَيْن في الإسلام فارْتزأت　　حتّى خَلَتْ منه أقطارٌ وبلـدان

فاسألْ بلـنسية ما شأن مُرســيَة　　وأين شاطِـبـة أم أين جيّـــان

و أين قُرطــبة دار العلــوم فكـــم　　مِن عـالِم قد سما فيها له شان

وأين حِمــص و ما تحـويه مِن نزَه　　ونـهرها العذب فيّاض وملآن

---

[1] فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط1 / 2007 ، ص188.

قـــواعـدٌ كُـنَّ أركـــانَ البــــلاد فما　　　عسى البقاء إذا لم تَبْق أركان

يحدثنا الرندي عن بعض المدن التي سقطت ، كـ "بلنسية" و"مرسية" و"شاطبة" و"جيان" ، ثم يخص منها قرطبة (دار العلوم) التي كانت في زمن عبد الرحمان الثالث تنافس بغداد على جميع مستويات السلم الحضاري ، وكذا إشبيلية (حمص) وما تتميز به من متنزّهات وحدائق جميلة ، ونهرها العظيم بمياهه الوفيرة المتدفقة . كل هذه المدن كانت قواعد عتيدة ترسو عليها بلاد الأندلس . ولكنها سقطت في الأخير بسبب المدّ النصراني ، فتقلص عنها ظل الإسلام .

ثم يلتفت الشاعر إلى بعض المعالم الدينية التي كانت معقلا للإسلام فيصف كيف أصبحت من بعد ، وذلك كغيره من الشعراء الذين سبقوه في هذا الفن حيث يقول:

تبكي الحنيـفيّة البـيضاء مِن أسـف　　　كما بكى لِفراق الإلف هيـمـان

على ديــار مِن الإســـلام خالـــيةٍ　　　قد أقفرت و لها بالكفر عِمـران

حيث المساجدُ قد صارت كنائس ما　　　فيهـنّ إلا نواقـيس وصُــــلبان

حتّى المحاريب تبكي وهْيَ جامـدة　　　حتّى المنابر تَرثي وهْيَ عيدان

يا غــافلاً و له في الدّهـر موعظة　　　إن كنتَ في سِنة فالدّهر يقظان

و ماشــياً مـرِحاً يُلهـيه موطـنه　　　أبَعد حِمص تغرّ المرءَ أوطان

تلك المصـيبة أنســتْ ما تقـدّمها　　　و ما لها مع طول الدّهر نسيان

فالإسلام يبكي لفراقه تلك الربوع التي عاش فيها ردحا من الزمن وحلّ مكانه الكفر، و المساجد حُولت إلى كنائس ، و أبدل الأذان فيها ناقوساً ، و المحاريب تبكي، و المنابر ترثي . وكل هذه الصور نلمح فيها أن الشاعر خلع على الأشياء الجامدة صفات الكائن الحي . ثم يقوم بوعظ و إرشاد لأولئك الغافلين في أوطانهم عما أصاب الأندلس .

ولست أرى رأي الدكتور"فوزي عيسى" حين تعرّض لهذه الأبيات و التي قبلها فقال[1] : " و يتكئ الرندي على العاطفة الدينية التي تنبثّ في القصيدة كلها

---

[1] م .س ، ص .ن

وتهيمن على أبياتها ، فيتوارى ذلك الشعور الوطني..." فهذا الرأي أراه مجانباً للصواب؛ ففي الأبيات حديث عن الفجائع التي حدثت لبلنسية و مرسية و سائر المدن التي ذكرها ، و حديث عن الإسلام الذي خلت منه تلك الديار ، و المساجد والمحاريب و المنابر . وليست هذه إلّا أجزاء من الوطن ، ثمّ إننا نجد أنّ أكثر الرّاثين يرتكزون في هذا الغرض على هذا الجانب في حديثهم عمّا أصاب أوطانهم ، بالإضافة إلى أن الشاعر كان فقيها و قاضياً في بلدته . فلا غرو أن يكون ندبه لوطنه مفعماً بالروح الدينية ، تلك الروح التي كانتتزيده ولاء شديداً لوطنه المكلوم .

ثم يتوجه الرندي إلى أولئك المقيمين وراء البحر، فيقوللهم معاتباً مستنجداً :

يا راكبــين عِتاق الخَيل ضامــرة	كأنّها في مجال السّبق عقبان
و حاملــين سـيوف الهِند مرهَـفة	كأنّها في ظلام النّقع نِـــيران
وراتِعــين وراء البـحْر في دَعــة	لهم بأوطانـهم عـزٌّ و سُلــطان
عِنــدكم نـبأ مِن أهــل أندلـــــس	فقد سرَى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيثُ بنا المستضعَفون وهم	قتلى و أسرَى فما يهتزّ إنسان
ماذا التّـقاطع في الإسـلام بيـنكمُ	وأنتــمُ يا عــبادَ الله إخـــوان
ألا نـــفوس أبِـــيّـات لــها هِـممٌ	أمَا على الخير أنصارٌ وأعوان

إن ما جاء في البيتين الأولين يتوجه به الشاعر إلى المغاربة الذين كانوا في قوة و منعة من العدو . وعلى الرغم من امتلاكهم للخيول القوية السريعة و السيوف الصلبة اللامعة الحادّة ، فإنهم لم يستثمروا هذا في نصرة إخوانهم بالأندلس ، وينتهي هذا المقطع بالدعوة إلى نبذ الخلاف و الفرقة ، والحث على نجدة المسلمين.

ثم يعيد الشاعر تلك الصورة الأليمة للأندلس الجريحة ، مصوراً ما أوقعه العدو بأهلها . و هي صورة يكاد جميع شعراء هذا اللون من الرثاء يتفقون عليها ، فيذكر بالماضي الجميل ثم الحالة التي آل إليها الناس بعد ذلك ، ويشير إلى الوضع المأساوي للمرأة التي هي محور أساسيّ في مثل هاته القصائد . يقول الرندي مصوراً هذه الأحداث :

يا مَن لِــذلَة قَــوم بــعد عِـــزِّهِمُ		حــالَ حالَــهم كـفـرٌ و طغيــان
بالأمس كانوا مُلـوكاً في مـنازلِــهِمْ		و اليومَ هـم في بلاد الكُفر عبْدان
فلوْ تَـراهم حيَـارى لا دلــيلَ لــهمْ		عليــهِمُ مِن ثيــاب الـذل ألــوان
و لو رأيتَ بُكـــاهم عــنـد بَيْـعهمُ		لهــا لَك الأمـرُ واستهْـوتك أحْزان
يا رُبّ أمّ وطـفـلٍ حِيـل بيـــنهما		كمَـا تفُـــرّقُ أرواح و أبْـــدان
وطفلةٍ مثل حُسن الشّمس إذ طلعتْ		كأنّــمـا هِي يـاقـوت و مَـــرجـان
يقــودها العـلـج للمـكروه مُكرهَةً		و العيــنُ بـاكيَةٌ و القلبُ حـيران
لِمْثـل هذا يــذوبُ القلبُ مِـن كـمَد		إنْ كـان في القلب إسلامٌ و إيمانٌ

فقد حاول في هذا المشهد الأخير أن يثير عاطفتين و قضية ، أما العاطفتان فهما: الدينية وتتجلى حين يذكر أن المسلمين في الأندلس قد صاروا عبيداً يباعون في بلاد الكفر، بعدما كانوا ملوكاً أعزة في بلدانهم ، و العاطفة الإنسانية وتبدو عندما أشار إلى تلك الصورة المؤلمة للأطفال الذين يُنتَزعون من أمهاتهم ؛ أما القضية فهي محاولة إثارته الحمية بوصفه للفتاة الناعمة الجميلة و هي تُساق بالقوة إلى ما تكرهه النفس . إن كلّ هاته المشاهد و الصور تثير ولاشك في النفوس الأسى و الحزن . وقد اختتم القصيدة بحقيقة مرّة وهي أنّ القلوب خلت من الإيمان الذي يُعدّ الوقود المحرّك للنفوس ؛ والذي كان يبعث الرجل على أن يأتي من المشرق إلى المغرب والأندلس فاتحاً و مناصراً لإخوانه .

والملاحظ أن أجزاء القصيدة مرتبط بعضها ببعض ارتباطاً وثيقاً فقد ابتدأ الشاعر بالحكمة (لكل شيء إذا ما تم نقصان) ، ثم انتقل إلى ندب ما سقط من المدن الأندلسية و الحديث عن الفجائع و المصائب التي ألمّت بالشعب الأندلسي ، ثم حث على إنجاد الأندلسيين ، ثم ختم مقرراً أن القلب يذوب حزناً على الأندلس إن كان فيه إيمان و إسلام .

إنّ هذه القصيدة كُتِب لها من الذيوع و الشيوع ما لم يُكتَب لغيرها في هذا الفن. وتبدو معانيها مطروقة ، و لم يأت فيها الشاعر بجديد ، ومع هذا فإنها رجحت غيرها

من القصائد لأن صاحبها قالها و هو مكلوم ، و عاطفته كذلك صادقة إذ لم يتوجّه بها إلى بلاط حاكم لينال بها أعطية ، و لأنه كذلك شاهد بعض تلك المآسي التي وصفها و حاول أن يتخذ وصفها سبيلاً لإثارة حمية المسلمين في الداخل و الخارج.

و لشهرة القصيدة و حبّ الناس لها ، تأثر بها وعارضها الكثير من الشعراء قديماً وحديثاً[1] ، و نسِبت أحياناً إلى غير الرندي ، بل زيد إليها بعض الأبيات التي ليست منها . و في ذلك يقول المقري [2] :" ويوجد بأيدي بعض الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أُخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف " أي الرندي .

---

(1) مثل أحمد شوقي ، والشاعر الإسباني خورخي منريكي .

(2) نفح الطيب ، ص 375 .

2- الاستنجاد والدعوة إلى الجهاد:

لمّا بدأت مدن الأندلس تسقط مدينة إثر مدينة ، راح بعض الشعراء يرثون تلك المدن في قصائد . فمنهم من وقّف رثاءه على مدينة واحدة ، ومنهم من رثى الأندلس بشكل عام . ولكن لم يكن هذا الرثاء مقصورا على ذكر ما وقع لها ، أو وصف ما آل إليه حال الأندلس ، ولكنهم ألحوا في بعض تلك القصائد على طلب النجدة والنصرة، والدعوة للجهاد في كافة أرجاء البلاد . وقد وجهوا أصواتهم أيضا إلى القبائل العربية بشمال إفريقيا ، وبعض ملوك الموحدين في المغرب الأقصى ، وملوك الحفصيين في المغرب الأدنى .

بعد وفاة المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، جاء عبد المؤمن بن علي ، الذي أرسى قواعد هذه الدولة في المغرب ، وحاول القضاء على الفتن الداخلية التي كانت تهددها ، ثم انتقل بعد ذلك إلى بلاد الأندلس ليجبر المناوئين من المرابطين على الطاعة ، و لقمع النصارى وردعهم . وأثناء عبوره إليها ، أمر الشاعر الحكيم ابن طفيل بأن يبعث إلى قبائل قيس عيلان من العرب بالمغرب الأدنى(تونس) حاثّا إياهم على الجهاد في الأندلس ، لأنّ أفراد هذه القبائل كانوا شجعانا ، و ليخفّف من حدّة التوتر الذي كانوا يحدثونه بالمغرب . يقول ابن طفيل في هذا الشأن[1]:

أقيموا صدورَ الخيل نحو المَغارب لغزوِ الأعادي و اقتناءِ الرّغائب
ألا فابعثوها هِمّةً عربيّةً تحفّ بأطراف القَنا والقواضب
أفرسانَ قيس مِنْ هلال بن عامر وما جمعت مِنْ طاعن و مضارب
لَكُم قبّة للمجد شدّوا عمادها بطاعة أمر الله مِنْ كلّ جانب
وقوموا لنصر الدّين قومة ثائر وفِيئوا إلى التّحقيق فيئة راغب

وقد أراد ابن طفيل أن يثير في تلك القبائل عواطف العروبة ، فقام بتذكيرهم بأصلهم المنحدر من هلال بن عامر ، وراح يشيد بفروسيتهم وشجاعتهم وبإجادتهم

(1) محمّد سعيد محمد : دراسات في الأدب الأندلسي ، ليبيا : منشورات جامعة سبها ، د .ط / د .ت ، ص 62-63 .

الطعن والضرب في المعارك ، ثم حثّهم بعد ذلك على نصرة الدين لأنه يعلم بأن هاته القبائل متى دُعيت لنصرة دين الله استجابت . وقد ألح ابن طفيل على تحريك الحس الديني في عملية الاستنجاد فقال :

بكُم نُصر الإسلام بدءا فَنصرُه عليكم و هذا عوده جدّ واجب

فقوموا بما قامت أوائلكم به ولا تغفلوا إحياء تلك المناقب

وقد جعل الله النّبي وآله ومهديّه منكم بلا عيب عائب

فلم يكتف شاعرنا بتذكيرهم بأصلهم العربي وما يتّسم به ، بل ذكّرهم بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم عربي ، وقد نصر هو هذا الدين ، فحقٌّ عليهم أن ينصروه هم ، كما نصره هو وأجدادهم الأولون . وبذلك يتحقق لهم الشرف العظيم في هذا العمل بإكمالهم ما بدأه أسلافهم .

بعد هذا التذكير يحذرهم من أن يتقاعسوا عن نصرتهم ، ويحثهم على أن يأخذوا الأمر مأخذ الجدّ والحزم فيقول :

حذار فإعراضُ الفتَى عن نجاته وتضييعُه للحزم إحدى المَعايب

وما الحزم إلّا طاعة الله إنّها هِي الحَرم المتّاع مِن كلّ طالب

وما خُلقُ الأعراب إخلاف موعد و لكن صدق الوعد خلف[1] الأعارب

سنعلم مَن أوفى ومَن خاس عهده ومَن كان من آت إلينا و ذاهب

وتظهر أحوال يَروق سماعها فيرغب في أمثالها كلٌّ راغب

ففي هذا المقطع يظهر الجانب الأخلاقي المُكمل للجانب الديني و الاجتماعي المذكورين في القصائد السابقة . لأنه قبل ظهور الإسلام ، كان للأعراب أخلاق وشيم تميزوا بها ، وظلوا يتفاخرون بها في أيامهم ، كالنجدة ، والإباء ، والوفاء بالعهود ، والشجاعة ، فلربما يستيقظ هذا الحس الأخلاقي في نفوسهم قبل الوازع الديني .

والملاحظ على هذه القصيدة أنها لم تجر على سنن قصائد الاستغاثة والدعوة إلى الجهاد . وأعتقد أن السبب في ذلك يعود إلى شخصية ابن طفيل ، إذ لم نجد فيها

[1] هكذا وردت ، والصواب : خلق بالقاف لا بالفاء .

البكاء و الحزن على المستنجَد له ، بل أكثر ما فيها تذكير وتحذير وحِكم ،لأن الشاعر فيلسوف وحكيم

وقد تغلب جانب العقل عند ابن طفيل على جانب القلب ؛ فليس في القصيدة إحساس مرهف ولا عاطفة قوية . لذلك فإنّ هؤلاء الأعراب أبطأوا في نجدة عبد المؤمن بن علي . وذلك ما جعله يبعث إليهم قصيدة أخرى عهد بنظمها إلى ابن عياش[1] ، داعيا إياهم إلى الجهاد بالأندلس ، يقول في أولها[2]:

أقيموا إلى العلياء هُوج الرّواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصّواهل
وقوموا لنصر الدّين قومة ثائــر وشـدّوا على الأعداء شدّة صـائل
فما العِزّ إلا ظهر أجْرد سابـــح يفوت الصّـبا في شـدّه المتواصـل
وأبيض مأثـــور كــأنّ فرنْـــده على المـاء منسـوج وليـس بسـائل

إنها المعاني نفسها التي طرقها ابن طفيل ، حيث نوّه بما يتميز به العرب عن غيرهم من شجاعة وإقدام ونصر للدين . إلا أن ابن عياش أضفى على ألفاظ هذه القصيدة الجزالة والفخامة ، ونحا بها منحى العرب الأوائل ، وإن كنا نلاحظ عليها بعض التكلف أحيانا .

وبعد ذلك يحاول الشاعر أن يُرغِّب هؤلاء الأعراب ويُمَنّيهم بما سوف يلقونه من نعيم بفضل هذه الغزوة ، فيقول :

بني العـمّ مِن عَلْيا هـلال بن عامـر وما جمعت مِن باسل وابن باسـل
تعالوا فقد شـدّت إلى الغـزو نِيّــة عواقبُـــها منصـورة بـالأوائـــل
هِيَ الغزوة الغرّاء و المـوعد الذي تنجـز مِن بعد المـدى المُتطاول
بِـها تُفتـح الدّنيـا بِـها تبــلـغ المُـنـى بها ينصف التّحقيق مِن كلّ باطل
أهَبْـنا بكـم للخـير و اللهُ حسبُـــنا وحسبُكـمـو واللهُ أعـدل عــــادل

---

[1] جاءت نسبة هذه القصيدة في كتاب : "تاريخ الأدب العربي في الأندلس" لإبراهيم علي أبو الخشب ، إلى الرصافي البلنسي . أما في كتاب :"المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة فعزاها المؤلف إلى ابن عياش ، والصواب ما ذكره ابن صاحب الصلاة ، لأن ديوان الرصافي ليست فيه هذه القصيدة.

[2]ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة ، ص 328..

فما همُّنا إلّا صلاح جميعِكم | وتسريحُكم في ظلّ أخضر هاطل
وتسويغكم نعمى ترفّ ظلالها | عليكم بخيرٍ عاجل غير آجل
فلا تتوانَوا فالبِدارُ غنيمةٌ | ولِلمدلج السَّاري صفاءُ المناهل

ويبدو أنّ هذا الصوت مبحوح ، فليس فيه سوى التّرغيب وشدّ النّفوس إلى شيء لم يقع بعد ، وهو أنّ السماء سوف تفتح لهم أبوابها فتمطرهم ذهبا وفضة ، والأرض ستنبت لهم من كل طيب أخضر . وهي المعاني نفسها التي جاءت في خطبة طارق بن زياد ، حين كان يرَغب جنده في عمليّة الفتح ، ويعدهم بما ينتظرهم من خيرات البلاد . ويرجو الشاعر منهم عدم التّواني والتقاعس عن نصرتهم بحكمة جميلة وهي : "وللمدلج الساري صفاء المناهل".

وفي سنة 640 هـ ، أمر عبد الله بن أبي عمران بن عميرة ـ أمير عرب المعقل في شمال إفريقية ـ والي إشبيلية أن يخاطب عرب المعقل الذين لم يقبلوا إلى الأندلس بكتاب يدعوهم فيه إلى إنجاد البلاد ، فنظم إبراهيم بن سهل في هذه المناسبة قصيدة ضمّنها ذلك الكتاب ، يقول منها :[1]

وردا فمَضمون نَجاح المَصْدر | هِي عزَّة الدّنيا وفَوْزُ المَحْشَر
نَادى الجِهادُ لِنصْر مضمر | يبدُو لَكُم بَين العِتاق الضُّمَّر
خُذُوا الدّيار لِدار خُلد واركبوا | غمْر العجَاج إلى النّعيم الأخْضر
...وتجشّموا البحْر الأجاج فإنّه | سبَب بِه تَردون نهْرَ الكوثر
وتحَمّلوا حَرّ الهجير فإنّه | ظِلٌّ لكُم يومَ المَقام الأكبَر

وعلى الرغم من أن ابن سهل كان إسرائيليا ثم أسلم من بعد فإنه استطاع أن يستصرخ هذه القبائل بنبرة أشد حدة من سابقتها . واللطيف في هذه القصيدة هو أنه لم يبدأها بمدح أولئك الأعراب ، ولا بذكر خصالهم ومناقبهم ، ولكنه صدرها بحديث عن الجهاد والمسارعة إلى ترك ديارهم ، لأن الدار الحقيقية هي دار الخلد في الآخرة ولا سبيل لذلك إلا بركوب ثبج البحر وتحمل حر الهجير. فهو قبل أن يستميل عواطف

---
[1] ديوان ابن سهل ، ص140-141-142 .

عرب المعقل ويثير فيهم نخوة العروبة وما يمتازون به من شيم ، حاول أن يمهد لهذا بالمعاني الدينية حتى يكون وقعه في أنفسهم حسنا مثل :(نادى الجهاد ، فوز المحشر، دار الخلد ، النعيم الأخضر ، نهر الكوثر ، المقام الأكبر) . وبعد أن هيأ نفوسهم للمدح قال :

يامعشرَ العرب الذين توارثوا　　شِيَم الحميّـة أكبـراً عن أكبـر
إنّ الإله قد اشـترى أرواحَـكم　　بِيعـوا ويهنكـمُ ثواب المشتـري
أنـتـم أحقّ بنصـر دين نبيِّكم　　وبكُـم تمهّـد في قديـم الأعصُر
أنتم بنَيتم ركنَـه فلتدعمـــوا　　ذاك البنـاء بكـلّ ألعَس أسمـر
لكمُ صرائم لوركبتم بعضَـــها　　أغنتكمُ عن كلّ طـرف مضمر

وبعد استجداء الشاعر لهؤلاء العرب والثناء عليهم بمبالغة وإفراط ، راح يذكر ما حدث للأندلس ، مؤكدا لهم أن المصيبة الحقيقية هي التي حلت بالدين الإسلامي، لذلك يجب عليهم نصرته دون تفكير أو تردد ، كما فعل أسلافهم . فهو دائما يذكرهم بهذه الثنائية لعلها تؤتي أكلها ويكون لهم بذلك الربح الوفير في الآخرة ، لأنه بقتالهم الكفار يشتري الله منهم أنفسهم التي تُزهَق في سبيل نصرة دينه . يقول متحدثا عما حدث للجزيرة وللدين فيها :

...الدّين ناداكم فوق سروجكــم　　غوث الصّريخ وبُغية المستنصِر
لَمْ يبـق للإسـلام غيـر بقـيَّة　　قد وطَّنـت للـحادث المتـــنكـر
والكـفر ممتدّ المـطالع و الهدى　　متمـسِّك بذنـاب عيـش أغبَـــر
...كمْ نكّروا مِنْ مَعْلم كمْ دمّروا　　مِنْ معْشر كمْ غيّروا مِنْ مَشْـعر
كمْ أبطـلوا سُنن النّبيّ وعطّـلوا　　مِنْ حِلْيـة التّوحيد ذروة مِنــبـر
أين الحفـائظُ مالَـها لم تـنبعِث ؟　　أين العـزائمُ مالهـا لا تـنبـري ؟
أيـهزُّ منكـم فـارسٌ في كــفِّ ـه　　سيفـاً وديـن محمّـد لم يُنْـصَـر؟
...هزُّوا معاطفَكم لسعي تكتسي　　فيـه ثيــابُ مثـوبـة أو مفْــخـر
جدُّوا و نـمُّوا بالجـهاد أجورَكـم　　ما خـاب قصدُ مشـمِّر ومشـمِّر

وعلى الرغم من هذه الأصوات التي اختلفت مشاربها وتفاوتت حدتها فإن عرب المعقل لم ينقذوا شبرا من إشبيلية . ومن ثَمّ كان سقوطها محتوما.

ثم إن الملاحظ على هاته القصائد التي كانت تستنفر جموع هذه القبائل أنّها لم تكن رجتها قوية ، لأن شِعر الاستصراخ عند قراءته يُخيَّل إلينا أن صاحب القصيدة تنهمر دموعه مدرارة ، لأن هذا النوع من القصائد هو من الشعر المبكي ، إذ يكون مشحونا بالنّدب والأسى والتفجع ليستثير أصحابه عواطف المؤمَّلين ، ويكثر فيه الحديث عما أصاب تلك الأماكن من دمار و خراب . إلا أنّنا لم نجد سوى النزر اليسير من هذه المعاني في هاته القصائد . وتعليل ذلك أنّ هؤلاء الشعراء كانوا يعلمون بأن عرب المعقل شغلوا أنفسهم بتلك الفتن التي كانوا يثيرونها في الضفة الأخرى حتى أنهكتهم ، أو أنّ " تلك الروح القديمة التي كانت تدفعهم لصنع الأمجاد قد ولّت وتلاشت "[1].

أو ربما لأنّ هؤلاء الأعراب كانوا ينتظرون الفرصة السانحة حتى تضعف دولة الموحدين فيحتلوا مكانها مكونين دولة أخرى قوية ، وقد كان لهم الفضل الكبير على دولة الموحدين حيث شكلوا نسبة هامة في جيشهم . وهكذا لم تكن صيحة هؤلاء الشعراء مثل صيحة من سنقف عندهم أمثال ابن الأبار وأبي البقاء الرندي وغيرهما.

ويبدو أن عرب المعقل كان لهم شأن كبير في شمال إفريقيا ، إذ أمطرهم الشعراء بكثير من القصائد التي جاء بعضها خاصّا بهم وأخرى في رثاء بعض المدن، وذلك لما كانوا يعرفون عن هؤلاء من أنهم كانوا أصحاب بأس وشدة.

ولم ييأس هؤلاء الشعراء المخلصون من توجيه دعواتهم إلى إخوانهم في العدوة الأخرى ، لأن واجبهم تجاه وطنهم ظلّ يتأجج في نفوسهم حاثّا إياهم على طلب النجدة والعون ، واستنفار المسلمين من كامل الأرجاء ، ومن وراء البحر.

ومن هؤلاء الشعراء " أبو موسى هارون بن هارون " في قصيدته الميمية المذكورة سابقا ، والتي تناولنا منها الجانب الذي رثى فيه مدينة إشبيلية ، ثم تخلص

---

[1] يوسف عيد : أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي ، بيروت : دار الفكر اللبناني ، ط1 / 1993 . ص 42.

بعد ذلك إلى استمالة قلوب المغاربة ، لتتحرك عواطفهم وتتقد شعلة الإسلام في نفوسهم ، فيمدّونهم بيد تخلصهم من الغرق ، يقول [1]:

يا أهل وادي الحِمى بالعدْوة انتعشوا هذا الذّماء فقد أشفى به سقما
ماذا يُبطِّئكم عنّا و حقّ لكم أن تبصروا دار قوم أصبحت رِمما
وحقّنا واجب فالدّين يجمعنا مع الجِوار الذي ما زال مُنتظَما
وقد دعَوْنا فأسمَعنا على كثب بما قدِ استنفد القرطاسُ و القلما
فزعم أذفونش أنّ الحصر يهلِكها و الله يكذب ماروى وما زعما
إنْ تنصرونا فإنّا منشدون له لا يرغم الله إلا أنف مَنْ رغِما
فتْحُ الجزيرة مِمَّا سنَّ أوَّلُكم فلْتبْتِوا للهُدى في أرضنا قدما
كانوا لها خلفا منهم وإنْ نفدوا ولا تُبالوا أطال العهدُ أم قدما

ويبدو من خلال هذا المقطع أنّ المدينة لم تكن سقطت بعد ، بل ظلّت تصارع الحصار الذي طُوّقت به . وكان الأندلسيون يؤملون في قدوم الدعم لهم من العدوة الأخرى . ويبدو أن هارون بن موسى كان على علم باستنجادات الشعراء قبله لقبائل شمال إفريقيا ، والتي لم يُستجب لها ، لذلك نعى على من كانوا هناك استبطاءهم . ويرى أنه من الواجب عليهم نصرتهم لأخوة الدين وحق الجوار.

ثم يزيد الشاعر من استصراخه بكثير من الندب والبكاء لما آلت إليه البلاد جراء سطوة النصارى عليها فيقول :

لا عُذر في تركها لِلكفر مسلمة إنّ الزمان و أنتم فيه ما عقما
كم صارخ فزع كان الصّراخ له قرعَ الظنابيب حتّى لم يدع ألما
هل مِنْ مُجيب لداعينا فيُركبنا فُلْك النّجاة فبحر الحادثات طَما
لم يبق فينا سوى الأنفاس خافتة فكلُّنا في وجود يُشبه العدما
كم تستغيث و لا إنسان يصرخنا ونستطبُّ لِداء طال ما حسما
وقد شقينا وأشقينا و حقّ لنا بما به الكفر و الإسلام قد نعما

---

[1] ابن عذاري : البيان المغرب ، ص382 .

ياحســرة الدّين والدّنيـا لأندلـــس مهما استطال بها التثليث واجترما

لم يبـقَ للحقّ في شتّى مطالـعـها نورٌ فأصبح ليل الكفر مرتكـــمـا

والغالب أن شعر الاستنفار يتضمن رثاء المدن ، حيث يصف الشاعر حال المدينة التي تتعرض للاعتداء ، فقوله(كم نستغيث ولا إنسان يصرخنا) ، وقوله (ياحسرة الدين ...) ، وقوله (لم يبق للحق في شتى ...) يناقض قوله فيما سبق (فزعم أذفونش أن الحصر يهلكها ...) ، وهو دليل على أن الشاعر كان مضطربا يعيش قلقا رهيبا وحالة نفسية لا تستقر . لذلك عندما يئس من نجدة البلاد ذهب في الأخير يتضرع إلى الله ويدعوه أن يفرج عنهم كربهم ، ويأمر نفسه بأن تلتزم الصبر والرضا بما قسم الله . ثم وجه نداءه إلى الخليفة المعتضد بالله السعيد عله يرجع البسمة إلى وجوه الأندلسيين ، فقال:

يا نفس لا تذهبي للحادثـات أســى وجاملي الصبر وارضي بالذي قُسما

...فالمَفزَع الله ،والذّخر العتاد أميـ ـر المؤمنــين وحسبي في النجاة همـا

...خليفةَ الله لولا التّأيْ عنك لَمـا خُذلتُ في ردّ دهـر جـارَ إذ حكـمـا

وكنتَ كاشف كُرب لا انكشاف له وقمـتَ دوني منه الأعـداء منتــقمـا

...فاصدع بحقك إنّ الدّهـر ممتثل فرُبّ دهـر عبوس عـاد مُبتـــسمـا

لقد توجه الشاعر باستصراخه هذا إلى الخليفة وكافة المسلمين في العدوة . ولكن لم يجد لكلامه سميعا ولا لدعوته نصيرا . ومع ذلك فإن هذه القصيدة تعد من الأشعار التي " يرق لها القلب القاسي ، وتأتمر لها الجبال الرواسي " [(1)] .

ونذكر من الشعراء الذين استغاثوا بملوك الموحدين أبا جعفر الوقشي البلنسي، نزيل مالقة ، الذي مدح أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن بن علي في أبيات صدر بها قصيدته الدالية حيث يقول[(2)]:

...ألا ليت شعـري هل يُمَدّ ليَ المـدى فأبُصِر شمل المشركيـن طريدا

[(1)] ابن عذاري : البيان المغرب ، ص 380 .

[(2)] المقري : نفح الطيب . 363/5 -364 .

وهل بَعْدُ يُقضى في النّصارى بنصرة تغادرهم للمرهفات حصيدا

ويغزوا أبو يعقوب في شَنْتَ يَاقِب[1] يُعيد عميدَ الكافرين عميدا

ويُلقي على إفرنجهم عبْءَ كَلكل فيتركهم فوق الصّعيد هُجودا

يُغادرهم جرحى و قتلى مبرّحا ركوعا على وجه الفَلا وسجودا

ويفتكّ مِنْ أيدي الطّغاة نواعما تبدّلن مِن نظم الحجول قيودا

وأقبلن في خشن المسوح وطالما سحبن مِن الوشي الرّقيق برودا

وغبّر منهنّ التّراب ترائبا وخدّد منهنّ الهجير خدودا

بعد أن ذكر الشاعر الملك يوسف بن عبد المؤمن بن علي ، مشيرا إلى بعض فضائله وشمائله ، كالجود والشجاعة ، راح يعرض عليه حال الأندلس ليعيد إليها بعض ما فقدته ، ويتمنى أن يطال في عمره ليرى النصارى وهم يُطرَدون من البلاد ، ويرغب في أن يغزو أبو يعقوب "شنت ياقب" ويخلصها من الإفرنج بعد أن يكثرفيهم الطعن والتقتيل . ثم يظهر صورة المرأة الأندلسية التي عانت الإذلال والسبي ، و يطالبه بتحريرها من هذا الأسر الذي بدّل حياتها من النعيم إلى الجحيم . وبعد ذلك تفيض دموعه الحارة فيقول متأسفا ومتأوها :

فحقّ لدمعي أن يفيض لأزرق تملكها دعج المدامع سودا

ويا لهف نفسي مِن معاصم طفلة تجاور بالقدّ الأليم نهودا

ويا أسفي ما إنْ يزال مردّدا على شمل أعياد أعيد بديدا

وآها بمدّ الصّوت منتحبا على خلوّ ديار لو يكون مفيدا

دموع مدرارة ، وتحسّر على نساء حسناوات ، وأسف على أعياد كانت تلم الشمل ويعم بها الفرح والسرور، فتبددت ولم يعد لأفراحها ذكر ، وتأوه على ديار خلت من الأحباب وأقوت من ساكنيها . كل هاته المعاني تدل دلالة قطعية على مدى الحال التي آلت إليها بلاد الأندلس ، وإن كان المقري حرمنا من أبيات كثيرة من هذه

---

(1) على الرغم من ذكره لهذه المنطقة فإن القصيدة في الأندلس كلها ، لأن المقري قال :" ومنها يصف حال الأندلس " . ينظر: م.س ، ص .ن ، وصاحب كتاب "رثاء المدن في الشعر الأندلسي" عنون لها بـ: "رثاء الأندلس للوقشي" . ص676 .

القصيدة ، فإن ما أورده استطاع أن يبرزلنا المآسي والآلام التي عاشها الأندلسيون آنذاك .ثم اختتم الشاعر هذه القصيدة بمدح الخليفة ، فكان هذا الرثاء بين مدحين لكي يثير عاطفة الممدوح ويهز من أريحيته لنصرة البلاد ونجدتها ، وهو الملك الذي جال في الأندلس ، وأصاب رقاب النصارى . ثم قال في نهاية قصيدته مشيدا بها :

حملتُ إليه مِن نظامي قلادة يقّ بها أهلُ الكلام قصيدا

غدتْ يوم إنشادالقريض وحيدةً كما قصدتْ في المعلـُوات وحيدا

وهناك بعض الشعراء ملأوا دواوينهم حديثا عن بعض المدن التي أكثروا من ذكرها وصفا ومدحا ورثاء ...كابن الأبار البلنسي الذي نجد له أشعارا في رثاء بلنسية لما سقطت وأخرى يستنفر بها الحفصيين لإنجادها . وقد ضربت صفحا عما قاله في رثاء بلنسية ، لأنه عبارة عن مقطعات لا تزيد أبياتها على الستة ، وأود الحديث عن شعره الذي يخص الاستنجاد .

توجد في ديوان ابن الأبار الذي حققه عبد السلام الهراس ستّ قصائد موضوعها الاستنجاد والدعوة إلى الجهاد . وسأختار بعضا منها شارحا إياها على سبيل التمثيل .

ليس في هذا العصر من يضارع ابن الأبار ـ الكاتب والشاعر المقتدرـ في شعر الاستغاثة كما وكيفا ، وما من مصنَّف أندلسي يذكر هذا اللون من الشعرإلا ويشير صاحبه إلى ابن الأبار .

وسأتناول من قصائد ابن الأبار في هذا الغرض قصيدتين فقط ، لأن الباقي منها يغلب عليه الغزل و مدح الحفصيين.

بعد معركة "العِقاب" المشؤومة بدأت قوة الموحدين تضعف ، و شوكة النصارى تزداد حدة ، حيث تقاسم ملوك النصارى جبهات الأندلس ، وكان الملك "جاقمة" كما أشرنا في الفصل التاريخي قد استولى على بعض مدن شرقي البلاد، وكانت بلنسية أهم قاعدة في شرق الأندلس . لذلك عندما أحس أميرها أبو جميل زيان بالخطر يحدق بها ، عزم على أن يبعث الشاعرَ أبا عبد الله بن أبي بكر

القضاعي المشهور بابن الأبار إلى أبي زكرياء ، رأس الدولة الحفصية بتونس ، وكانت يومئذ دولة في أوج قوتها و بأسها . بالإضافة إلى أن موقع هذه الدولة كان قريباً نسبيا من شرق الأندلس.

وقد آثر ابن الأبار" أن يكون حديثه عن بلده وطلب الغوث من صاحب إفريقية شعراً ، وأفرغ في قصيدته كل ما يملك من شاعرية و فن ليثير نخوة الأمير، وليبرهن في نفس الوقت على أنّ ما في الأندلس من شعراء ليسوا دون الآخرين قامة[1]". بل إن هذا اللون من الشعر لم يشتهر إلا في بلاد الأندلس ، و ذلك لما اقتضته ظروفهم السياسية آنذاك من جهة ، و لموقعهم الجغرافي قرب بلاد المغرب (الأوسط و الأدنى و الأقصى) من جهة أخرى.

وأول ما نتطرق إليه في هذا المقام هو سينيته المشهورة التي ابتدأها بفعل اختصر فيه كل ما أصاب المدينة ، فهو يطلب من حاكم الحفصيين أن يسارع إلى إدراكها ونجدتها حيث يقول [2]:

أدْرك بخيـــلك خيـــل الله أنـــدلـــسا   إنّ السّبيل إلى منجاتها درســـا

وهب لها مِن عزيز النّصر ما التمست   فلم يزل منك عزّ النّصر ملتمسا

و حـــاش ممَّا تعـــانيه حشاشـــتـها   فطالما ذاقت البلوى صباح مسا

فقوله "أدرك" دليل على أن المُدرَك على شفير الانهيار. لذلك طلب منه إنجاد البلاد بخيل الله حتى يصبغها بالصبغة الدينية ، و يثير في نفسه الحماس، لأن خيل الله لا تُهزم أبداً ، ثم أعلمه بأن السبب الذي جعل الأندلسيين يرجون في نجدته هو أن كل السبل إلى نجاة المدينة قد انمحت ، ثم إن رايات النصر على أعدائه لا تزال خفاقة فوق بلاده ، حيث كانت له جولات مع النصارى النورمانديين انتصر فيها عليهم و فرض هيبته على حكامهم . ثم وصف ما تعانيه بلاد الأندلس من مآسي بسبب تكالب الفرنج عليها كل صباح و مساء .

---

[1] الطاهر أحمد مكي : دراسات أندلسية ، ص266 .

[2] ديوان ابن الأبّار ، ص 408 .

وبعد هذه المقدمة القصيرة ، راح يصف فظائع الأعداء في الجزيرة و ما أحدثوه في بلنسية و قرطبة على جميع المستويات ، إذ يقول :

يا للجزيرة أضحى أهلُها جزراً   للحادثات وأمسى جدّها تعسا
في كلّ شارقة إلمام بارقة   يعود مأتمها عند العدا عرسا
...تقاسم الرّوم لا نالت مقاسمهم   إلّا عقائلها المحبوبة الأنسا
وفي بلنسية منها و قرطبة   ما ينسف النّفس أو ما ينزف النّفَسا
مدائن حلّها الإشراك مبتسِما   جذلان ، وارتحل الإيمان مبتئِسا
و صيّرتها العوادي العائثات بها   يستوحش الطّرف منها ضعف ما أنسا

ففي هذا المقطع يعطينا ابن الأبار صورة مجملة دون تفصيل لما جرى في الجزيرة ، حيث الذبح و التقتيل . و لو اكتفى العدو بهذا لكان الأمر أهون ، ولكن راح يسبي النساء الحرائر اللاتي كن محجوبات عن الأعين و يتقاسمهن . ثم إن تلك المدن التي كان الإيمان يشع منها قد حلّها ـ قسراً ـ الإشراك و الكفر.

ثم يزيد ابن الأبار في التوضيح و التفصيل لما حل بتلك المساجد و الربوع و الرياض ، فيصف كيف كانت و كيف أصبحت لكي يضع أمام أبي زكريا الصورة بكل ما تحمل من معنى المأساة لعله يعطف عليهم وتتحرك نفسه غيرة على المسلمين لنجدتهم يقول :

فمِن دسَاكرَ كانت دُونها حرسا   ومِن كنائس كانت قبلها كُنُسا
يا للمساجد عادت للعِدا بِيَعاً   و للنّداء غدا أثناءَها جَرَسا
لهْفِي عليها إلى استِرجاع فائتِها   مدارساً للمثاني أصبحت دُرسا
و أربعاً نمْنَمت أيدي الرَّبيع لها   ما شئت مِن خلع مُوشيَّة وكُسا
كانت حدائقَ للأحداق مونقة   فصوّح النّضر مِنْ أدواحها وعسا
سُرعان ما عاث جيشُ الكفر واحربا   عيث الدّبا[1] في مغانيها التي كبسا

---

[1] الدبا : الجراد .

يوم أن كان المسلمون في موضع قوة ، و الإسلام هو الشريعة التي لا تعلو عليها شريعة أخرى، احترم المسلمون مقدسات غيرهم من الشرائع السماوية الأخرى، لأن الإسلام أمرهم بذلك ، على الرغم من تحريف أولئك لتلك الشرائع السماوية . وعلى الرغم من الضلالات ، و ما كان يحمله أولئك للمسلمين من كره و حقد ، فإن المسلمين أمِروا بأن يعاملوهم بإحسان ، و يُبقوا على كنائسهم و بيعهم لأنه لا إكراه في الدين . ولكن لما صار المسلمون مغلوبين على أمرهم و صارت قوتهم إلى الضعف عوملوا بعكس ما عاملهم غيرهم . فلقد حوّل النصارى الحاقدون مساجد الأندلسيين إلى كنائس ، و أبدلوا الأذان فيها ناقوساً ، و تلك الحدائق و الربوع التي أحسن الربيع زركشتها و خلع عليها ثياباً فائقة الجمال ، سرعان ما طُمست محاسنها ، و عاث فيها الكفار كما يعيث الجراد في البساتين النضرة.

وبعد رسم هذه الصورة القاتمة للمدينة ، حاول ابن الأبار أن يقدم بعض الأسباب التي جعلت المدينة على هذه الحال فقال :

محا محاسنَها طاغ أتيح لها ... ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا

ورجّ أرجائها لمّا أحاط بها ... فغادر الشُم من أعلامها خُنُسا

خلا له الجوّ فامتدت يداه إلى ... إدراك ما لم تطأ رجلاه مُختلسا

وأكثر الزّعم بالتّليث منفرداً ... و لو رأى رايةَ التوحيد ما نَبسا

فلقد صارت الغلبة للمشركين على الموحّدين بعد أن تربصوا بهم و المسلمون في غفلة من أمرهم ، ثم أحاطوا بالمدينة من كل جانب و ضيقوا عليها و لم يتركوا لها متنفساً ، فغابت راية التوحيد و حلّ مكانها التثليث.

وقد حاول ابن الأبار في ما سبق ، أن يرسم لأبي زكرياء صورة هذه المدينة بشكل ينفطر له القلب و تصطك له الآذان ، و جاعلا ذلك تمهيداً لدعوته إلى الإسراع في عونها ، حتى يحيي بها من معالم الإسلام ما طمس المشركون ، و يصل حبلها الذي انقطع . يقول :

صِلْ حبلَها أيّها المَولى الرّحيم فما أبْقى المراسُ لها حلاً، ولا مرسا
وأحي ما طمست منها العداةُ كما أحيَيْتَ مِن دعوة المهديّ ما طُمسا
أيّام صرتَ لنصر الحقّ مستبِقا وبِتَّ مِن نور ذاك الهدي مقتبِسا
...هذي وسائلها تدعوك مِن كثب و أنتَ أفضل مرجوّ لِمن يئِسا
وافتك جارية بالنّجع راجية منك الأمير الرّضى،والسّيّد النّدسا

ثم يقول :

مَلِك تقلدت الأملاك طاعتَه دينا و دنيا فغشّاها الرّضى لبسا

لقد ظل بعض الشعراء الذين كانوا يمدحون حكام الدولة الموحدية ، أو الذين يُعَدّون ورثتهم بالمغرب الأوسط أو الأدنى يُلحّون على بعض الأفكار التي كانت العصب الحساس لهذه الدولة ، و من ذلك قضية المهدية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان كالإمامة ، و العصمة ، و العدل ، و التوحيد الصحيح، وغيرها مما له صلة بعقيدة الإمام المهدي المنتظر. فكانوا يُلبسون أولئك الحكام كل هاته المعاني محاولين إثارة الحَميّة في نفوسهم و دفعهم لنجدة أهل الأندلس ، لأن أيّ حاكم توفرت فيه هذه السمات أولى بالنصرة من غيره . و هو ما قام به فعلا ابن الأبار في هذه الأبيات تجاه أبي زكرياء ، إذ إنه لما ضعفت الخلافة الموحّدية في الأندلس و ساد الاضطراب بالمغرب الأقصى ، ارتفعت الأصوات تنادي ببعثها و رفع رايتها في ربوع دولة الحفصيّين ، " فاستبد أبو زكرياء بإمارة إفريقية سنة 632 هـ و بويع على ذلك ، ثم ضم إليه قسنطينة و تلمسان و بجاية ، واتجهت إليه الأنظار بالمغرب الإسلاميّ فجاءته البيعة من ملوك الأندلس ، و خطبوا له و استغاث به بعض هؤلاء الملوك لرد كيد النصارى" (1)

هذا الحديث كله ـ في الحقيقة ـ كان تمهيداً لمدح أبي زكرياء ، حيث إن القصيدة بكاملها تدور حول الرثاء و الاستنجاد و المدح ؛ فما يقرب من ثلاثة وعشرين

(1) محمد العروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق و المغرب ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، د.ط / 1982 ، ص134.

بيتا في رثاء بلنسية ، ووصف سوء أحوالها و هي في قبضة النصارى ، وحوالي خمسة و أربعين بيتا في مدح الأمير الحفصي و استنجاده . وإذن فلقد أطنب ابن الأبّار في مدح أبي زكرياء و أثقل القصيدة بذكره . وهي عادة جميع الشعراء الذين يستغيثون بالملوك و الأمراء .

ولست أُجانب الصواب إن قلت بأن هذا المدح الذي تخلل قصائد الاستصراخ له علاقة مباشرة هو أيضاً بالنزعة الوطنية ، و سأخصص لهذا العنصر مبحثاًمستقلاً فيما سيأتي.

وفي الأخير يعاود الشاعر مناداة ممدوحه لنصرة البلاد وتطهيرها من الشرك فيقول :

يا أيّـها المَـلك المنصـور أنـت لها	عليـاء توسع أعداء الهُدى تـعسا
وقد تــواتــرات الأنــبـاء أنـك مَــن	يُحِـي بقتـل ملوك الصُّفر أندلـسا
طهّـر بلادك منـــهم إنّـــهم نـــجس	ولا طهــارة مالم تغسل النّجــسا
وأوْطِـئ الفَيلـــق الجرّار أرضـهم	حتى يُطأطئ رأسا كلّ مَن رأسَا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت	عيونهم أدمعا تهمي زكا وخسا
هم شيعة الأمر وهي الدّار قد نهكت	داء متى لم تباشر حسمَه انـتكسا
فاملأ هنيئا لك التّمكين ساحـــتَها	جردا سلاهب أوخطّية دعـسا
واضرب لها مَوعدا بالفتح ترقـبه	لعلّ يوم الأعادي قد أتى و عسى

يؤكد ابن الأبار في هذه الأبيات رجاءه بأفعال الأمر(طهر، أوطئ ،انصر، املأ ، اضرب) لحث السلطان الحفصي على الإقدام إلى البلاد ، وبخاصة شرقها، وذلك لتخليصها مما تعانيه ، دون إبطاء ولا تراخ ، عسى أن يكون الفتح على يديه .

إنّ هاته القصيدة تُعدّ من أفضل القصائد الأندلسية التي تجلّى فيها الاتجاه الوطنيّ في عصر الموحّدين ، لأن الشاعر كان يتحدث فيها عن وطن مكلوم على شفير من السقوط ، ينهشه الأعداء من كل جانب ، وقد يئس الأندلسيون من الخلاص والنجدة ، وكل ذلك بعاطفة صادقة قوية . بالإضافة إلى أن ابن الأبار، وهو يتحدث

عن مصائب بلاده ، لم يذكر أن سبب ذلك هو كثرة الذنوب وارتكاب السيئات كما فعل سابقوه من أمثال الشاعر المجهول الذي رثى طليطلة ، وإنما جعل من الأندلس كتابا مفتوحا فيه الكثير من الصفحات الملطخة بأيادي الإسبان الذين أزهقوا الأرواح وهدموا المنازل وحولوا المساجد إلى كنائس ، بل إنه نعى أيضا حلَق العِلم التي تعطلت ، وقد كانت عامرة بالعلماء وطلاب العلم . كما ذكر المكتبات التي كانت زاخرة بالكتب النفيسة . لذلك فإن الأمير الحفصي استجاب لنداء ابن الأبار، ولو أن حملته أرست ببلنسية لخلصتها في تلك الأثناء من أنياب العدو . ولكن جرت المقادير بأن يرجع الجيش وتسقط المدينة.

يقول المقري منوهاً بهذه القصيدة : " الفريدة التي فضحت من باراها ، وكبا دونها من جاراها "[1] ، ويذكر أنها هزّت " من الملك عطف ارتياح ، وحرّكت من جنانه أخفض جناح . ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها ، فجاوبها غير واحد "[2] . وقد علّق عليها "دي شاك" بقوله : "إنها لا تعوزها القوة ولا الحماس ، ولا التألق ولا البلاغة المتّقدة "[3].

وبعد أن سقطت بلنسية بسبب الحصار المشؤوم ـ الذي لم يتداركها أثناءه الحكام الأندلسيّون الذين كانوا مجاورين لها ـ لم تفتر عزيمة الشعراء عن البكاء عليها، لعله أن يستجيب لندائهم بعض من بقيت في نفسه مروءة أو محبة للمدينة . لذلك فإن ابن الأبار نفسه جدّد العزيمة فاستغاث الأمير الحفصي مرة ثانية بقصيدة همزية طويلة حمّلها كلّ ما يملك من حماس وعاطفة . وما ذلك إلا للإخلاص الصادق والحب الصافي اللذين كان يكنّهما لوطنه وشعبه .

وبما أن هذه القصيدة تحمل المعاني نفسها التي جاءت في السينية ، فسأكتفي بالإشارة إلى بعض الأبيات .

---

(1) المقري : نفح الطيب ، 346/5 .

(2) م .ن ، 350/5 .

(3) حكمة علي الأوسي : الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين ، ص 137.

بعد أن حث ابن الأبار أبا زكرياء في القصيدة السينية على أن يدرك الأندلس قبل أن تسقط ، هاهو في الهمزية يناديه بلسان الأندلس نفسها ، ويستصرخه مؤملا أن يستجيب الأمير لها ، ويُذكره بأن الأندلس هي بلاده على الرغم من بعدها عنه ، وأن أهلها هم عبيده ، حيث يقول[1]:

نادتك أنــدلــسٌ فَلَـبِّ نـــداءَها   واجعل طواغيتَ الصّليب فدائها
صرخثْ بدعوتك العليّة فاحبـها   مِن عاطفـاتـك ما يقـي حوباءَها
واشدد بحبلك جُردَ خيلك أزرَها   تـــردُ على أعــقـابـها أرزاءها
وبها عــبيـدُك لا بقاء لهم سوى   سبل الضّراعة يسلكون سواءَها

وبعد هذه الدعوة وهذا الطلب ، يتجه الشاعر إلى عرض حال بلنسية في أبيات طويلة ذكر فيها ما أورده في سينيته السابقة حيث عطّل الأعداء المدارس من العلم وتركوها كالطلول البالية ، ونصبوا فوق المساجد النواقيس في مكان النداء (الأذان) إلى غير ذلك مما أجرى الدموع من العيون . يقول :

إيهٍ بـلنســية و في ذكـــراكِ مـــا   يمري الشّؤون[2]دماءها لا ماءها
كيف السّبيل إلى احــتلال مـعاهد   شبّ الأعــاجـم دونـها هيْــجاءها
...بأبي مدراس كالطّلول دوَارس   نسـخثْ نواقيـسُ الصّليب نداءَها
...وكفـى أسى أنّ الفــواجع جمّة   فمـتى يقــاوم أســوها أســواءَها

ويدعو الشاعر الأمير الحفصي بعد رسم هذه الصورة المؤلمة إلى نصرة المدينة مع شيء من المدح حتى يقوي من عزيمته . وسأكتفي بما يدل على دعوته هو ومن وراء البحر لتخليص المدينة من المأساة ،وقد ورد ذلك في الأبيات التي مطالعها: "جرد ظباك لمحو" ، "استدع طائفة الإمام" ، "أرسل جوارحها" ، "هبوا لها يا معشر التوحيد" ، " أولوا الجزيرة نصرة" ، "خوضوا إليها بحرها" ، "جوبوا نحوها"...

---

[1] ديوان ابن الأبّار ، ص 33 .ولم يذكر المقرّي صاحب القصيدة واكتفى بقوله : " فمن القصائد الموجهة في ذلك قول بعضهم ..." . نفح الطيب ، 365/5 .

[2] يمري الشّؤون : أي يستخرج الدموع.

ثم ينتقل الشاعر إلى مدح أبي زكرياء والإشادة بجيشه في أبيات طويلة أيضا تشوبها الصنعة والتكلف في كثير من الأحيان ، حيث يضفي على الممدوح أغلب الصفات والشيم التي ورد ذكرها في السينية ، فيقول مثلا:

بشـــرى لأندلس تـحـبّ لـقــاءَه ويحـــبّ في ذات الإله لقـــاءَها
... فكـأنْ بِفَيلـقـه العـرمْرم فالِــقا هـامَ الأعــاجم ناسفا أرجـاءها
... ملِك أمـدّ النّيّـرات بـــنــوره وأفـــادهـــا لألاؤه لألاءَهـــا
خضـعَتْ جبابـرةُ المـلوك لعـزّه و نضتْ بكفّ صغارها خيلاءَها
...سلْ دعـوةَ المهــديّ عن آثـاره تنْبـئك أنّ ظـبـاه قمـــن إزاءها
فغـزا عداها واسـترقّ رقـــابها وحمى حمــاها واسـتردّ بـهاءها
قبضَـتْ يداه على البسيطة قبضة قــادت له فـي قـدّه أمـــراءهـــا
... وسع الزّمان فضاق عنه جلالة والأرض طرا ضنْكها وفضاءها
... دانت له الدّنـيا وشـمّ ملـوكها فاحـتلّ مِن رتـب العُـلى شمّاءها

ثم يعتذر إليه في الأخير اعتذارا جميلا إن هو قصر في مدحه بقوله:

صفحـا جمـيلا أيّها الملِك الرّضي عن مُحكمات لم نطقْ إحصـاءها
تقِــف القـوافي دونــهنّ حسيـرةً لا عيّـــها تخـفـي ولا إعيـــاءها
فلعـــلّ عـليـكم تـسامح راجـــيا إصغـاءها ومـؤّملا إغـضـاءها

وعند النظر إلى ما قاله ابن الأبار في هذا الجانب ندرك أنه خالف أولئك الشعراء الذين ذكرتهم سابقا عندما استنجدوا بقبائل عرب المعقل ، إذ ابتدأ استصراخه ببسط الحال الذي آلت إليه البلاد وبكائها بكاء حارا ورثائها رثاء محزنا ، وبعد ذلك أتى إلى مدح من يستصرخه . إلا أن بعض الشعراء الآخرين ساروا على عكس ما فعل ابن الآبار . وسبب ذلك ـ في اعتقادي – أن ابن الأبار جعل قضية وطنه هي الأولى ، ولأن المدينة كانت على شفا جرف من السقوط . و تبدو الروح الوطنية عند ابن الآبار أكثر من غيره على الرغم من أن قصائده في الاستغاثة ذهبت أدراج الرياح.

ويرى الدكتور "يوسف عيد" أن شعر الاستغاثة أو الاستنجاد ، بدأ "مع انحلال دولة المرابطين وقيام الثورات والدويلات التي لم تكن تتمتع بالقوة القادرة على الصمود في وجه التحديات الإسبانية "[1] . فهو يجزم بأن هذا اللون من الشعر بدأ عندما اتجهت دولة المرابطين إلى الانحلال . ولكن الحقيقة أن قصائد الاستنجاد ظهرت قبل تلك الظروف ، وذلك على عهد ملوك الطوائف ، لأن شعر الاستغاثة تسبقه عملية الاسترداد التي ينجرّ عنها سقوط المدن الأندلسية ، فترتفع أصوات الشعراء عالية ، مطالبة بالدفاع عنها . وكما نعلم فإنّ عملية الاسترداد كانت نشيطة في عصر ملوك الطوائف بدءا بسقوط مدينة بربشتر، حيث دعا بعض أدباء الأندلس لإنقاذ المدن الأندلسية التي كانت تسقط بشكل رهيب ، وراح الأندلسيون يستنجدون بالمرابطين الذين شكلوا دولة قوية على الضفة الأخرى ، لكي ينقذوهم . والحقيقة أنّ تلك الدعوات آتت أكلها ، لأنّ المرابطين استعادوا أغلب تلك المدن وأرجعوا الأندلس موحَّدة لفترة زمنية.

ولكن شعر الاستنجاد ازدهر بحق ـ كما قال الدكتور "يوسف عيد" ـ في عصر الموحّدين ، وكان "يتخذ في معظم الأحيان طابعا رسميّا عندما يكلّف الحاكم شاعرا بنظم قصيدة يطلب فيها النجدة عند الضرورة "[2].

ولقد أفرز لنا هذا العصر غرر القصائد التي استغاثوا بها المرينيين والحفصيين الذين أنشأوا بعد ضعف الموحدين دولتين قويتين ، لذلك فإن هذا الفن انتعش وانتفض انتفاضة قوية في هاته الأثناء . وكانت صيحة أولئك الشعراء قوية ومدويّة ، لأنهم كانوا يتوقعون أن المدن التي كانت تسقط لن ترجع إلى المسلمين، وأن سقوطها سيكون أليما . وهو ما حدث من بعد ، حيث سقطت المدن الأندلسية تباعاً، إلا مدينة غرناطة التي استطاع بنو الأحمر أن يحافظوا على بقائها ، مع مدن أخرى ، ردحا من الزمن .

---

[1] الشعر الأندلسي وصدى النكبات ، بيروت : دار الفكر العربي ، ط1 ،2002 . ص38.

[2] م.ن ، ص .ن .

3- ذكرمحاسن الأندلس وبيان فضائلها

أ- وصف محاسن الطبيعة:

إذا كان الحديث عن تلك المدن الأندلسية التي سقطت ، يدور في فلك الأحزان و الأوجاع و البكاء و الأسى ، فإنّنا سنتحدث في هذا العنصر عن جمال هذه الجنة ومحاسنها . وقد بسط الله تبارك و تعالى عليها من الحسن ما جعلها تفضل غيرها من الأماكن ، حيث الأنهار و الجبال و المياه العذبة و أنواع الورود والأزهار الجميلة والهواء النقي والمتنزهات والقصور والدور التي افتتن الشاعر الأندلسي بها، وصوّرها بأدق الصّور و التعابير. كل هذا أعطىانطباعاً حسناً في نفس الأندلسي الذي عاش في ربوعها ، أو في نفس الذي قدم إليها من مناطق أخرى . وقد أشارالحجاري إلى براعة الأندلسيّين و تفوقهم في وصف طبيعة بلادهم ، ممّا جعلهم يحرزون قصب السبق حتى على المشارقة ، حيث يقول : " وهم ـ أي الأندلسيون ـ أشعر الناس فيما كثّره الله تعالى في بلادهم ، و جعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار و الأطيار و الكؤوس ؛ لا ينازعهم أحد في هذا الشأن"[1] .

و لم يكن وصف الأندلسيّين لتلك الطبيعة الخلابة على سبيل المتعة الأدبية ، أو اللهو و العبث بألفاظ اللغة ، وإنّما كان يعكس شدّة ارتباطهم " ببيئتهم و تعلقهم بمظاهر الجمال في بلادهم ؛ فالشاعر لا يفتأ يتغنّى بحب الأندلس ، و يُفيض في وصف محاسنها، و يعبّر عن التصاقه بها ، ويفضّلها على سائر البلدان . وكان هذا الاتجاه إلى عشق الطبيعة و الالتصاق بالبيئة الأندلسية انعكاسا للشعور الوطنيّ في نفوس الأندلسيين ،و تعبيراً عن نزعة أندلسية قوية تأصّلت في نفوس الشعراء ، و ظهرت

---

[1] المقري : نفح الطيب ، 155/3 .

في شعرهم بشكل واضح"[1] .

ومما يدل على هذا الهيام ببلاد الأندلس ومحاسنها قول حازم القرطاجني في مدينة مرسية [2] :

بجنّة الأرض همتُ ياصاح فليس عنها الفؤاد بالصّاحي
تلك محلُّ التّهور مُرسية موطن أنسي ودار أفراحي
مُرسيَ كم ناعِمٍو كم جذلٍ بين الرّياحين فيك و الرّاح
هابطة النّهر منك أذكرها من شطّ أعلاه جسر و ضّاح
فكلّ حُسْن ما بين قنطرتي طَبيرة منهما و سبّاح
سبعون ميلاً كنّا نجول بها بيْن جسور و بيْن أدواح

لقد عدّد حازم القرطاجني بعض الأماكن والأشياء التي زيّنت مدينة مرسية، و جعلته يهيم بها ويفرح ، ويشبهها بجنة الأرض ، كالأنهار والرياحين والجداول والجسور و قنطرتيها و أدواحها . وهو بهذا يرسم لنا لوحة فنية جميلة متناسقة الألوان متّسقة الأجزاء.

وإذا كان حازم القرطاجني خصّ مرسية بهذا الوصف الجميل ، فإنّ ابن سِفر المريني جعل من أرض الأندلس كلها موطنا للذّة و السرور، و العيش الرغيد ، يقول[3]

---

[1] فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين . ص 127 .

[2] ديوان حازم القرطاجني . ص 36.

[3] المقري : نفح الطيب . 173/1- 174 .

وإنّمـــا أرَج النّـــد استـــثار بـــها   في ماء ورْد فطـــابت منهُ أرجَــاء
و أيْن يبـــلغُ منـــها مـا أصنِّـــــُه   وكيـف يحْـوي الذي حـازَته إحصاء
قد مُيّزت مِن جهات الأرض حين بدَت   فـريـــدةً و تـــولى ميـــزَها المـــــاء
دارتْ علـــيها نِطـــاقاً أبحـــرٌ خفـقتْ   وجْـداً بـها إذ تـبدّت وهْيَ حـسـناء
لِذاك يبْـسِم فـيـها الزّهــر مِن طـرب   والطّيـر يشْدو ولِلأغـصان إصـغاء
فيها خلــعْتُ عِذاري ماٍبها عِـوض   فهْيَ الرّياض وكلُّ الأرض صحراء

ولقد صدق المقري عندما مهّد لهذه القصيدة بقوله : [(1)]"ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قول ابن سفر المريني، و الإحسان له عادة " ، لأن ابن سفر بهذه القصيدة جمع محاسن الأندلس كلها . بل فصّل ما أجمله حازم القرطاجني سابقاً على الرغم من أنه لم يذكر في قصيدته أن الأندلس هي الجنة أو الفردوس على عادة كثير من الشعراء الأندلسيين . إلا أن المتمعن في الأبيات يدرك أن الشاعر راح يضفي على تلك البلاد أوصافاً اختصَّت بها الجنة السماوية كما في قوله:

في أرض أنــدلس تُلتذ نعـــماء   و لا يُـفـارق فيــها القـلب سـرّاء
و ليس في غيْرها بالعيش منتفع   ولا يقــوم بـحـقّ الأنــس صـهـباء
وأين يعدل عن أرض تحضُّ بها   على المُــدامـة أمـــواه و أفـــيـــاء
و كيف لا يبهج الأبصارَ رؤيتُها   وكلّ روض بها في الوَشي صنعاء
أنـهارها فـضّـة والمِسك تُربـتها   والخـــزُّ روضتُـها و الدرّ حصـباء
ولِلهـــواء بهـا لــطـف يــرقُّ به   مَن لا يـرقّ وتبـــدو منــه أهـواء
ليس النّسيم الذي يهفو به سحراً   و لا انــتـثـار لآلـي الطَّــلّ أنـــداء
أنهـارها فضّة و المسك تربــتها   والخــــزُّ روضـتـها والـدر حصـباء

(1) م .س ، 173/1 .

إن هذه القصيدة تنطق بحق عن مدى إعجاب الشاعر بطبيعة بلاده ، هذه الطبيعة الساحرة التي أخذت بمجامع قلبه ، بحيث لا يرى العيش في غيرها صالحا . فهذه الجنة تفرّدت بالجمال والحسن بأنهارها وتربتها و رياضها و هوائها و نسيمها ، وكل العناصر الطبيعية المكونة لها . مما يبهج البصر و يؤنس النفس ، حتى أن الشاعر بات قاصراً عن تعداد ما حازته من فضائل ، كيف لا و هي الجزيرة الفريدة من نوعها تحيط بها المياه من شتى النواحي، فليس هنالك أرض تشبهها و لا وطن يفوقها ، فهي الرياض و كل الأرض صحراء .

و قد استطاع الشاعر أيضاً أن يبثّ الحركة في الساكنة و يخلع عليها صفات هي للإنسان ، فجعل الزهور تبتسم و الطيور تغنّي و الأغصان تستمع إليها ، ومثل هذه الصور كثير في الشعر الأندلسي .

إن افتتان الشعراء الأندلسيين بجمال طبيعتهم جعلهم يربطون هذا الموضوع بكامل الأغراض الشعرية الأخرى ، حيث وجدنا الشاعر الأندلسي إذا تغزل مزج غزله بوصف الطبيعة ، وإذا أراد المدح افتتح بعض قصائده بتصوير تلك الطبيعة ، وكانت في الحنين هي المتكأ والمرجع ، بل حتى في الرثاء إذ نجد من الشعراء من أخذ صوره وأدواته من الطبيعة . وهكذا صارت الطبيعة بكامل عناصرها ملاذاً وقطباً يدور حوله الكثير من الشعراء الأندلسيين ، بل إننا لنجد قصائد و مقطعات مستقلة أشاد فيها أصحابها بطبيعة الأندلس ومحاسنها .

ولما كانت الطبيعة الأندلسية عبارة عن مجموعة من المكونات و العناصر المشكلة لها ، مثل المتنزهات والرياض و الأنهار و الورود...؛ فإننا سنفرد لكل عنصر منها شيئاً من الدراسة و التحليل و نقف عند ولوع الشعراء الأندلسيين بتلك المظاهر .

فممّا قيل في متنزهات غرناطة الجميلة أبيات لأبي جعفر بن سعيد في وصف متنزه "حور مؤمل" ، وهو من أحسن الأماكن في المدينة ، يقول فيها [1]:

---

[1] م . س ، 296/4 .

عـرّجْ على الحـور و خـيّم بــه حَيث الأمـاني ضافِيات الجَناح
واســبقْ له قبـل ارتـحال النّدى و لا تـــزُرْه دون شـــادٍ و راح
و كُن مقـيما منه حـيث الصّـــبا تَمْـتـار مِسكاً مِنْ أريج البِـطـاح
و القضْب مالَ البعض منها على بعض كما يْثـنـي القْدود ارتياح
و شـقّ جيـب الصّـبر قصـف إذا شقّـت جُيوب الطلّ منـها الـرّياح
لم أحــصِ كــمْ غـاديــته ثابــتــاً و استرْقصَتني الرّاح عند الرّوَاح

كانت مدن الأندلس تعج بالمتنزهات التي أنشأها الأمراء والملوك ، و بخاصة تلك التي بناها أمراء بني أمية وخلفاؤهم ، ثم من جاء بعدهم من ملوك الطوائف والموحدين ، حيث كانوا يقضون راحتهم و يقصدونها عند رجوعهم من المعارك والفتوحات . وكانت مدينة غرناطة إحدى تلك المدن الجميلة التي ازدادت بهاء و سناء بتلك المتنزهات "كحور مؤمل" الذي أعجب به الشاعر وتغنى به ، ووصف لحظات الأنس التي قضاها في أجوائه ، حيث يتراقص بالرّاح ، و يطرب بالغناء ، وتسحره تلك المناظر الخلابة .

ولابن شهاب المالقي أبيات يشيد فيها بمتنزه "السُّد" بقرطبة التي هي أيضاً كانت كثيرة المتنزهات الرائعة كـ "مرج النضير" [1] و " فحص السرادق" [2] وغيرهما . يقول ابن شهاب في "السُّد"[3] :

ويَــوم لـنـا بالسّــدّ لـو رُدّ عَـيـشُـه بـعـيـشـة أيّــام الـزّمـــان ردذْنـــاه
بكرنا له و الشّمس في خِدر شَرقها إلى أنْ أجابتْ إذ دعا الغربُ دعواه
قطـعنـاه شـواً و اغـتِباقاً و نشـةً ورجْـع حديث لو رَقى المَيت أحياه
على مِـثـله مِنْ مَنزه تُبتغى المُنى فلِلّه مــا أحـــلـى و أبـــدع مَــرْآه
شدتْنا به الأرحا و ألقت نـــثارَها عــلينا فأصغَـينا لــه و قـبِلـناه

---

(1) م .س ، 16/2 .
(2) م. ن ، 2/ 17 .
(3) م. ن ، 18/2 .

فبعد أن ذكر الشاعر تلك الأيام السعيدةالتي عاشها مع أصحابه في متنزه السد، راح يشيد بحسن هذا المكان ، ويذكر ما لقيه فيه من الراحة والسرور .

ومن الواضح أن الشعر صدى للبيئة الاجتماعية والطبيعية على حد سواء ، والشعر الأندلسي على وجه الخصوص يعتبر صورة أمينة ودقيقة لبيئة الأندلس . وشعر الطبيعة الأندلسي خاصة ، هو مرآة صادقة لطبيعة الأندلس وسحرها وجمالها . وهو عبارة عن لوحات بارعة الرسم ، أنيقة الألوان ، محكمة الظلال . وهي لذلك تشد انتباه القارئ في قوة ، وتستوقف نظره ، وتثير انتباهه ، وتستقطب إعجابه .

ويحكي المقري في نفخ الطيب أن أبا عبد الله محمد بن غالب الرصافي شاعرعصر الموحدين ، و محمد بن عبد الرحمان الكتندي الشاعر و غيرهما من الفضلاء ، عزموا على أن يخرجوا إلى متنزه "نجد" أو "حور مؤمل" ليتفرّجوا ويصقلوا الخواطر بمشاهدة ظاهر البلد ، فكتب أولئك قصيدة لأبي جعفر ابن سعيد الشاعر يدعونه لصحبتهم قائلين له (1) :

بعـثـنا إلى ربّ السَّمـاحة والمجْد	و مَن ما ـه في ملّة الظّرف مِن ند
لِيُسـعدنا عـند الصّبـيـحة في غـد	لنسعَى إلى الحُور المؤمّل أو نـجد
نسـرّح منّا أنـفساً مِن شـجـونـها	ثوَت في شجون هُنّ شرٌّ مِن اللّحد
...على جدْول ما بين ألفاف دوحة	تهزّ الصّـبا فيـها لـواء مِن الرّنــد
...فمـاذا تـراه لا عدِمناك ساعة	فنــحـن ِبما تبـديه في جنّة الخلد

و كان الرصافي في تلك السنين قد أظهر الزهد و الصلاح ، و ترك المجون والخلاعة ، فأجابهم أبو جعفر بن سعيد بقوله (2) :

هُوَ النول منظوماً أو الدّر في العِقد	هُوَ الزّهر نـّاح الصّبا أم شـذا الودّ
أتاني و فكري في عقال مِنَ الأسى	فحلّ بنفْـث السّحر ما حلّ مِن عـقد
و مِن قـبل علمي أين مبعث وجـهه	علمتُ جناب الورد مِن نفَس الورد

---

(1) م .س . 292/4 .

(2) م .ن . 293/4 .

وبعد ذلك يلتفت إلى أصحابه و يخاطبهم خطاباً يستجيب من خلاله لندائهم ، ثم يذكر تلك الأماكن الجميلة التي يزدان بها ذلك المتنزه ، كالحديقة الموشية البرد و"قبة الكمامة " ، وكل سبل الراحة و التلذذ بالعيش السعيد ،قائلاً :

فيا مَن بِهم تزهى المَعالي و مَن لهم ... قياد المعالي ما سِوى قصدِكم قصدي
فقوموا على اسم الله نحو حديقة ... مُقلّدة الأجياد مُوشيّة البرد
بها قُبّة تُدعى الكمامة فاطلعوا ... بها زهراً أذكى نسيماً مِن النّد
وعندي كل ما يحتاج مؤمّل ... مِن الرّاح و المعشوق والكتب والنّرد
ضَمنتُ لِمن قد قال إني زاهد ... إذا حلَّ عندي أن يحول عن الزّهد
فإن كان يرجو جنّة الخُلد آجلا ... فعندي له في عاجِل جنّة الخُلد

وبما أن الشاعر لم يتغن كثيراً بتلك الأماكن الجميلة في هذا المنتزه فإنه أشاد بحديقة أشجارها المنتظمة و أزهارها المرتّبة ، حيث تبدو هذه الحديقة كثوب جميل مزركش بالألوان الزاهية ، و أبدى الشاعر أيضاً إعجابه بقبة الكمامة التي تحوي أزهاراً رائحتها مميزة . و في تعقيبه على مذهب الرصافي في اعتزال الشراب واللهو و التوجه إلى الزهد و اعتزال الناس ، يشير أبو جعفر بن سعيد إلى تحفيز الرصافي للقدوم معهم ، لأنه في عمله ذاك يبتغي جنة الخلد ، ولكن يفاجئه الشاعر بدخول الجنة الموجودة في ذلك المتنزه . و هو دليل واضح على أن ابن سعيد قد أعجب بجمال ذلك المكان وحسنه .

أما الرياض و الأزهار فكان حب الشعراء لها في هذا العصر ظاهراً ، حيث إنهم " لم يكتفوا بوصفها وصفاً خارجياً ، بل عمدوا إلى إضفاء الحياة عليها ، و لقّوها بألوانهم النفسية الآنية . و لم يكونوا في ذلك مبدعين كل الإبداع ، ولا مقلدين كل التقليد ، و إنما أخذوا من كل بطرف ، و سكبوا ذلك كله في نفس القوالب الشرقية التقليدية، فجاء أدبهم معبراً عن بيئته في كثير من الأحيان[1]".

---

[1] حكمة علي الأوسي : الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين ، ص65 .

إن الشعر الأندلسي مليء بالقصائد و المقطعات التي ذكرت فيها الرياض والأزهار ، فلا يخلو ديوان أندلسي من هذا اللون الشعري أبداً ، حتى سميت هذه الأشعار قصائد الروضيات و الزهريات .

ومن بين تلك الأشعار قصيدة لابن سهل الإشبيلي ، قال عنها ابن سعيد في كتابه "اختصار القدح المُعلّى" : "إنها معارضة لرائية ابن عمّار : أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى[1]" ، يقول فيها [2] :

الأرض قد لبست رداء أخضرا ... والطّلّ ينثر في رباها جوهرا

هاجت فخلت الزهر كافوراً بها ... وحسبت فيها الترب مسكاً أذفرا

وكأن سوسنها يصافح وردها ... ثغرٌ يقبل منه خداً أحمرا

والنهر ما بين الرياض تخاله ... سيفاً تعلّق في نجاد أخضرا

وجرت بصفحته الصبى فحسبتها ... كفاً تنمّق في الصحيفة أسطرا

و كأنه إذ لاح ناصح فضة ... جعلته كفّ لشمس تبراً أصفرا

أو كالخدود بدت لنا مبيضة ... فارتدّ بالخجل البياض معصفرا

والطير قد قامت عليه خطيبة ... لم تتخذ إلاّ الأراكة منبرا

إنّ كثرة الصور و التشبيهات في هذه الأبيات تجعل كل عنصر من الطبيعة شيئاً متحركا ، و يؤدي وظيفة هي من خصوصيات الإنسان ، فالأرض لبست رداء أخضرا، والسوسن يصافح الورد ، وثغر السوسن يقبل خدّ الورد ، و الطير من كثرة حركتها فوق الأراكة المجاورة للنهر تشبه بالخطيب يوم الجمعة فوق منبره . إن هذا المشهد الطبيعي الذي وصفه الشاعر يعبّرعن مدى إعجابه بهذا المكان الساحر الذي أنطقه فسكب فيه كل أحاسيسه و مشاعره .

و يبدو أن ابن سهل قد أولع بوصف أنهار الأندلس الكثيرة الجميلة ، فها هو يصرّح في بداية مقطوعة قصيرة بأنه ما رأى أجمل و لا أحسن من نهر "مرج

---

(1) م .س . ص 74.

(2) ديوان ابن سهل . ص 163 .

الفضة" الذي شبهه بنهر الكوثر الموجود في جنة السماء حيث أنّ من يشرب منه لا يظمأ بعد ذلك أبداً ، يقول في ذلك النهر [1] :

لله نهــرٌ ما رأيــتُ جمَـــالــه	إلّا ذكـرتُ لـديه نهرَ الكوثر[2]
و الشّمس قد ألـقتْ عليه رداءَها	فتـراه يرفلُ في قمـيص أصفر
و الطّير قد غنّت لشطح رواقص	فوق الغدير جررْن ثوب تبختُر
وكأنّــمـا أيـدي الرّبـيع عشـيّة	حلّين لبّات الغصـون بجــوهر
و كـأنّ خـضْر ثـماره و بـياضه	ثغــرٌ تبسّم تحـت خـدّ مــعذر

ومن أروع ما قيل في شعر الروضيات قصيدة جميلة لابن مرج الكحل في عشية بنهر "الغنداق" الذي يقع في خارج بلدة "لوشة" ، حيث يصف لنا جمال الطبيعة و حسنها هناك فيقول [3] :

عرّج بمنعـرج الكثيب الأعفر	بَيـن الفُـرات وبيْـن شطّ الكــوثر
و لتغـتبِـقـها قهـةً ذهبـــيّة	مِن راحتَي أحْوى المراشِف أحور
وعشيّـة كم كنتُ أرقب وقتها	سمــحتْ بها الأيّـام بعد تعـــذّر

وبعد أن يصف لنا الجو العام لهذا المكان حيث الموقع الجميل وتناول الشراب من راحتي حسان الوجوه ، في هذه العشية مع الأحباب و الأصحاب ، يبدأ بوصف جمال المكان الطبيعي الذي يقضون فيه راحتهم و يمتّعون بمحاسنه نواظرَهم فيقول :

فـلنـا بـهـذا ما لـنا في روضـــة	تهــدي لناشـقـها شميمَ العنـبر
...و الوُرق تشدو والأراكة تنثني	والشّمس ترفلُ في قميص أصفر
و الرّوض بين مفضّض و مُذهّب	والزّهــر بين مُــدرهم ومُدنّــر
و النّــهر مرقـوم الأبـاطح و الرّبا	بمُصــنـدل مِن زهـره ومُعـصفر
و كـأنّـه وكـــأنّ خُضـرة شـــطّـه	سيـف يُسـلّ على بســاط أخضـر

[1] م .س . ص 166 .
[2] هذا البيت ينفي مزاعم أولئك الذين شككوا في إسلامه .
[3] فوزي عيسى : ابن مرج الكحل ، حياته و شعره ، الإسكندرية : منشأة المعارف . د.ط / د.ت ، 53-54.

وكــأنّــما ذاك الحُـبـاب فـــرَنـده مَهما طفا في صفحة كالجوهر
و كـــأنّـه وجــهاتـه محــفـوفـــــة بالآس و النّعـمـان ، خدّ معـذّر
نهـــر يَهــيـم بحُسـنـه مَنْ لم يـهـم و يـجيد فيه الشّـعرَ مَن لم يشعر
مااصفرّ وجهُ الشّمس عند غروبها إلا لِفـرقة حُـسن ذاك المنــظر

يعلق المقري على هذه الأبيات قائلا[1] :" و لاخفاء ببراعة هذا الشعر". ثم يقول ابن مرج الكحل[2] :

... مل بلَـغـنـاه بهضب حديقة قد طــرّزته يدُ الغـمـام المُمـــطر
فكــأنّـه و الزّهــر تـاج فـــوقـــه ملِك تجـلّى في بســاط أخـضـر
راق النّـواظر منـه رائق منـظر يصـف النّضارة عن جنان الكوثر
... لو لاح لـي فيما تقادم لم أقل (عـرّج بمُـنعرج الكثيـب الأعْفـر)

ولشهرة القصيدة وجمالها ، عارضها بعض الشعراء مثل شمس الدين الكوفي الواعظ بقصيدة احتفى فيها بضروب البديع وجنح فيها إلى التصنع[3] .

إن أغلب قصائد الروضيات تناول أصحابها الحديث عن الأنهار التي هي في الغالب تكسب الحياة لتلك الرياض الحياة . و الأندلس بلد كثير الأنهار والوديان ؛ قال الشيخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي [4] : " بلد الأندلس... كريم البقعة ، طيب التربة، خصب الجناب ، منبجس الأنهار الغزار و العيون العذاب" . لذلك فإنّ النهر هو قطب الرحى في هذه القصيدة ، حيث أسبغ عليه ابن مرج الكحل كل الصفات والتشبيهات . و اللافت للانتباه أن الشاعر ذكر لنا معنى خرج به عن المألوف ، و هو أن الشمس غادة حسناء تنثني في قميص أصفر زاه . و كان من عادة الشعراء أن يذكروا اصفرار الشمس عند المغيب للدلالة على الحزن و الأسى . ثم يعود في نهاية المقطع الأول إلى تعليل ذلك الاصفرار الذي يرجعه إلى فراق ذلك المشهد الجميل.

---

(1) نفح الطيب ، 43/6 .
(2) م .ن ، ص 44 .
(3) ينظر : فوزي سعد عيسى : ابن مرج الكحل ، حياته و شعره ، ص31-32 .
(4) م .س ، 120/1 .

وإذن فلقد صرح بحسن ذلك النهر الذي يهيم بجماله من لم يهم ، و يقرض فيه جيّد الشعر من لم يشعر. إن هذه الطبيعة الساحرة فتنت قلوب الشعراء و جعلتهم لا يرون منابع الجمال و الحسن إلا في عناصرها المكونة لها و قد أَثْرَت معجمهم الشعري بكل الألفاظ الرقيقة العذبة التي تعكس واقعاً لا يوجد إلا في وطنهم .

ب- محاسن المدن ومصنوعاتها

لم يقف الشعراء الأندلسيّون عند ذكرهم لطبيعة بلادهم وحدها ، ولم تكن محاسنها هي التي قصروا عليها إشادتهم ، وإنما راح بعضهم يذكر محاسن المدن الأندلسية وما تستأثر به من جمال ، ويفضل بعضها على بعض . وإنّ منهم من أشاد بفضل الأندلس كلها ، وجعلها جنة الله في أرضه . وسنحاول الوقوف على بعض القصائد التي تمثل هذا الاتجاه باعتباره وطنيا ،لا ذكراً للمدن أو الأندلس فقط .

على الرغم من أن أبا المطرف بن عميرة شاع أمره في رثاء المدن والاستنفار، إنْ في قصائده أو رسائله ، فإن له أيضا أشعارا في وصف بلاد الأندلس وتصوير جمال طبيعتها . كان ذات مرة مع صديقه ابن الآبار في نزهة خارج مدينة إشبيلية ، وذلك في سنة 617هـ ، فاقترح عليه ابن الآبار أن يصف إشبيلية فقال في أول قصيدة:[1]

لو غيرُ طرفِكَ مُوهنا يأتيــني   ما كان في عقب الصّبا يصْبيـني
وافي وقد هجَع الخليط فبات في   ثـوبِ الدُّجى أدُنيه أو يُدنـيـنـي

ونلمح من خلال هذين البيتين طريقة العرب الأوائل حيث بدأ الشاعر القصيدة بغزل لم يتكلف فيه ولم يتصنع ، بل جاء به مطبوعا يبرز قوة السبك والنظم عنده ويبيّن اتجاهه في هذا الغرض . ثم قال :[2]

---

[1] أبو إسحاق إبراهيم البلفيقي :المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، القاهرة : دار الكتاب المصري ، بيروت : دارالكتاب اللبناني . ط3 / 1989 ، ص197 .

[2] م .ن ، ص 198 .

يا حمصُ[1] إنّكِ في البلاد فريدةٌ ببـديع حُسـن جَلَّ عن تحسـين
أحببْ بنـهـرك حين يزخـر مدُّه فيـروق منه تحـرُّك كـسـكون
...مْثل الخريدة إنْ تقلّص ثوبُها خجلت لشيء تحته مدفـون
فـكأنّما هـو عاشـق ذو زفّـرة تعتـادُه في الحـين بعد الحـين
أو مثل ممتلِئ الجوانح والحَشا غيظاً طـواه الحِلم بالتـسـكين

وعندما نمعن النظر في هذه القصيدة نخلص إلى أنّ الشاعر وصديقه وقفا ـ وهما في نزهتهما ـ على نهر إشبيلية العظيم ، فأثار في نفس أبي المطرف الإعجاب والانبهار فقام بوصف هذا النهر الذي قال فيه ابن سفر [2] :

شقّ النّسيمُ عليه جيبَ قميصـه فانساب مِن شطّيه يطلب ثاره
فتضاحكت وُرْق الحمام بدَوْحها هُـزُأ فضـمّ مِن الحيـاء إزاره

ويذكر المقري أنّه قيل لأحد الأندلسيين زار مصر والشام : أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان أم إشبيلية؟ فقال بعد تفضيل إشبيلية : شرفها غابة بلا أسد ، ونهرها نيل بلا تمساح.[3]

ويبدو أن ابن عميرة لم يقصر خياله على وصف النهر، بل جنح به إلى وصف طبيعة المدينة بشكل عام . إلا أن النهر ظل قطبا متحركا في القصيدة يذكره من حين إلى آخر، يقول أيضا [4] :

ياحُسنـها من ذات أجنـحة لـها عـملٌ يـبذّ جنـاحي الشّـاهيـن
تُثـنى الجَموح فلا يَـريم مكـانه منها وترجع صوت كلّ حَرُون
عطفـتْ وأرهـف جسمها فكأنّها قـمـرٌ إذا ما عـاد كالـعرجون
جُلْـنا بها في النّهـر نرتع للمُـنى ما بـين أصـنـاف لها وفــنون

---

[1] سمّيت إشبيلية " حمص " لأنه عند الفتح نزلها جند حمص الشام ، ولما يوجد بين المدينتين من شبه في الموقع والخطط والتربة . ينظر: محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام في الأندلس ،الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، القاهرة : مكتبة الأسرة ، د.ط / 2003 ، 45/8 .

[2] المقري : نفح الطيب ، 137/1 .

[3] ينظر: م.ن ، ص .ن .

[4] البلفيقى : المقتضب ، ص198 .

إلى أن يقول واصفا كل مكان زاراه في هذه النزهة ، وقد حطا بشنتبوس، وبهرهما ما رأياه من مشاهد جميلة شدت إليها نفسيهما :

حتّى بلغنا شنْتَبُوس ويَالـه — مِن مشهد بِهوَى النّفوس قمِين
حيث القصور البِيض يُرمَق حُسنها — فيكون قيدَ نواظر وعيون
بهرتْ جمالا في الدُّجى حتّى ترى — معها عمود الصّبح غير مُبين
فهيَ النّجوم بل البدور لأنّها — تزداد حُسنا في اللّيالي الجُون
قد ألّفت أجزاؤها فتناسبت — كتناسب النّغمات في التلحين
طاب الزّمان بها فما نِسيانُها — أندى ندى مِنْ آب أو كانون
فسقى الغروس مع الخليج حياله — صوب بِوَيٍّ ربوعها يرضيني
فلقد مضت لي ثَمَّ ساعةُ لذّة — عن ذكر تلك الأولي تسليني
وجنيتُ من ثمر المُنى ما شئته — وأخذتُ منه فوق ما يكفيني

وكانت ظاهرة وصف القصور كثيرة ومنتشرة في عصر ملوك الطوائف ، نتيجة لما وصل إليه العمران آنذاك في كل من قرطبة و الزهراء والزاهرة ، حيث كان الملوك يشيدون تلك الدور والقصور ليستريحوا فيها من عناء الحرب . ومنها ما بُني خصيصا لرؤساء الجند وكبار الدولة ، وكذلك غرناطة و إشبيلية ؛ فهذه الأخيرة حوت قصوراً كثيرة بنى معظمها بنو عباد . وقد كان ابن حمديس أشهر من وصف القصور والدور في زمن ملوك الطوائف ، وهو ما يُعرف عند الباحثين بوصف الطبيعية الصناعية.

وقد كان هذا الفن منتشراً في الأندلس على طول فتراتها ، ثم قلَّ في زمن الموحدين . وربما يعود ذلك إلى أنّ الحكام في هذا العصر كانوا منشغلين بالأحداث الكثيرة التي كانت تعتري بلاد المغرب والأندلس ، حيث حركة الاسترداد النصرانية التي صارت من يوميات الشعب الأندلسي . وكما أن الدولة الموحدية بقيت تجابه الفتن والقلاقل على مستويين (المغرب والأندلس) ومن ثَمَّ فإن الشاعر الأندلسي وجد

أمامه قصوراً ليست من صنع حكام عصره في الغالب . على أنه لمّا استتب الأمن في زمن بني الأحمر انتعش العمران وشاع بناء القصور في مدينة غرناطة .

وليس معنى كلامنا هذا أنّ عملية التشييد عُطّلت في عهد الموحدين ، ولكن هذه العملية مقارنة بالعصور السابقة والعصر اللاحق كانت ضئيلة ، وانطلاقا من هذا فإن هناك بعض الأشعار التي قيلت فيها في هذا العصر. وكانت في الغالب عبارة عن مُقطّعات.

ففي الأبيات السابقة يبدو أن أبا المطرف أعُجب بجمال قصور شنتبوس ذات اللون الأبيض . وفي اعتقادي أنّها كانت مبنية بالرخام الأبيض الذي أعُجب به الحكام الأندلسيون حيث كانوا يجلبونه من الممالك النصرانية ويبنون به آيات من الحضارة التي ما زالت شاهدة على ذلك الزمن الغابر حتى قال بعضهم لحاكم رآه يتلذذ بالعمران ، مذكراً إياه بقوله تعالى : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخْلُدُونَ).

ولذلك فإن وصف القصور والدور الشاهقة في عصر الطوائف وبني الأحمر كان يبتدأ به ـ في الغالب ـ في قصائد مدح الملك أو السلطان ، حيث إن بعض الشعراء استبدلوها بالمقدمات التي كانت تُعنى بوصف الطبيعة المتحركة . إلاّ أنّ الملاحظ في عصر الموحدين هو أنّ وصف القصور جاء ضمن قصائد في وصف الطبيعة بشكل عام أو عبارة عن مقطّعات أو قصائد قصيرة.

ففي المقطع السابق يذكر الشاعر أنّه من شدة جمال هذه القصور تنكسر أمامها طلائع نور الصبح ، وهي من شدة بياضها تلمع كالنجوم في الليالي الحالكة ، ولم يكن ذلك إلاّ لأنّها بُنيت بإتقان ورُصفت بإحكام ، كما تتناسق النغمات في التلاحين . إنّ هذه المناظر الحسنة التي مُلئت بها مدينة إشبيلية كانت بحق مرتاداً لكثير من الشعراء الذين هاموا بحبها وصوروها في قصائدهم وأمضوا فيها أمتع اللحظات وأحلى الأيام .

وممّن أعُجب أيضا بقصور شنتبوس الشاعر أبو الحسن بن فضل الذي كانت الصورة عنده متقاربة مع ما جاء به أبو المطرف سابقا إذ يقول:[1]

هيَ القصـور البِيضُ لا ماحدّثوا ... عـن إرم وغيـرها مِن البِـــنا
تختـطـف الأبصـار مِن لألائــها ... والليّل قد أرخى القناع الأدْكنا
كأنّــما النّـهر الخـضـمّ تحـتـها ... مــجـرّة الأفــق امتدادا وسنا
وهْيَ علـيـه كالنّـجـوم سحـــرا ... بـين جـموع وفُرادى وثـنا

إلا أن أبا الحسن تكلف في رسم صورته ، فلم يكتف بأنها تتلألأ في الليل لشدة بياضها ، بل إنها تخطف بصر من ينظر إليها . وهي كالنجوم التي يسطع بريقها فوق ماء النهر الذي يجري من تحتها .

ولم يكن وصف القصور مقصورا على أيام التنزه وسط طبيعة الأندلس الخلابة ، وإنّما وُجد أيضا في تلك القصائد التي كان الشعراء يستقبلون بها الملوك ؛ فهذا مثلا عبد المؤمن بن علي عندما ثبّت الحكم في المغرب وقضى على المرابطين هناك ، جاز إلى الأندلس ليفعل ما فعله بالمغرب ، وعند جوازه ذاك استقبله الشعراء وراحوا ينشدونه أشعارهم فيه . وكان من بين هؤلاء الشعراء أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد حيث وقف بين يديه ينشده رائيته وهو بقصره في جبل الفتح فقال[2]:

تكلّم فقد أصغى إلى قولكَ الدّهرُ ... وما لسواك الآن نهيٌ ولا أمر
...ألا إنَّ قصرا قد بدا لي بأفقه ... محيّاك أهل أن يخـرّ له البـدر
أطلّعلى البحر المحيط مرقّـعا ... فختّمه الشّعرى و توَّجـه النّسر
ووافت جيوش البحر تلثم عِطفه ... مرادفـــة لمَّا تـنـاهى به الكـــبر
وما صـــوتها إلاّ سـلام مــردّد ... وفي كل قلب مِن تصعّدها ذعر
ألا قـل لـه يعــلو الثّـريا فإنّـه ... أطـلّ علـى بحـر وحلّ به بحـر
محـيطان بالدّنيا فليس لفخره ... إذا لم يكـن طـلق اللّسان به عـذر

---

[1] فوزي عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، ص141 .

[2] ابن سعيد : المغرب ، 165/2.

والظاهر أن أبا جعفر بن سعيد كان مولعا بوصف القصور؛ فهاهو مرة أخرى يجتاز على قصر من قصور الخلافة فيقول فيه[1] :

قصر الخلافةلا أ ُخليتَ من كرم　　　وإن خَلوتَ مِن الأعداد والعدد

جُزنا عليه فلم تنـقـص مهابتُه　　　والغيل يخلو وتبقى هيبةُ الأسد

ومن الأمثلة على وصف المدن ما قاله حازم القرطاجني في مدينة مرسية التي لا تقلّ شأنا عن سابقتها إشبيلية ، إذ غدت عنده جنة الأرض فهام بها قلبه:[2]

بجنّة الأرض هِمتُ يا صاح　　　فليـس عنها الفؤاد بالصّـاح

تلك مـحـلّ التّـهـور مُرسـية　　　موطـن أنُسي ودار أفـراحي

مُرسـيَ كـم ناعـم وكم جـذل　　　بيـن الرّياحـين فـيك والرّاح

هابـطـة التّـهر منك أذكـرُها　　　من شطّ أعلاه جسر وضّاح

فكلّ حُسـن ما بيـن قنطرتي　　　طَـبـيـرة منـهـما و سـبّاح

سبـعون مَـيلا كنّا نجـول بها　　　بيـن جسـور وبـيـن أدواح

كان سحر الأنهار وما يندفق منها من مياه مما يلفت انتباه كثير من الشعراء ، إلا أن القرطاجني في هذه المقطوعة جاء ذكره للنهر عرضا ، حيث أُعجب بجسور مرسية وقنطرتيها ، على الرغم من أن هذه المدينة تقع على نهر كبير، إذ يجتاز الناس إليها بواسطة قنطرة مصنوعة من المراكب ويخرج من نهرها جدول على مقربة من قنطرة إشكابة ، وجدول آخر يسقي جوفيها.[3]

ويتجلى هذا الاتجاه كذلك في قصيدة أوردها المقري ولم يذكر صاحبها . وأرجح أنه تكون لشاعر أندلسي من العصر الموحدي ، لأن الذي ذكره الشاعر المجهول في هذه القصيدة هو تلك الأنواع الكثيرة من الورود والأزهار، و في هذا العصر أولع الشعراء الأندلسيون كثيرا بهذه النباتات وعقدوا بينها حوارا مفضلين ما

---

[1] م .س ، 167/2 .

[2] ديوان حازم القرطاجني ، ص 36 .

[3]) ينظر : الحميري : الروض المعطار ، 181-184 .

شاءوا منها على غيرها ، حتى ظل هذا الفن شائعا عندهم . ومما جاء في تلك القصيدة قول صاحبها:(1)

يا حُسنَ أندلس وما جُمعتْ لنا	فيها مِن الأوطار والأوطان
تلك الجزيرة لستُ أنسى حُسنَها	بتعاقُب الأحيان والأزمان
نسج الرّبيع نباتها مِن سندس	مُوشيّة ببدائع الألوان
وغدا النّسيم بها عليلاً هائماً	بِرُبوعها وتلاطم البحران
يا حُسنها والطلّ ينثر فوقها	دُررا خلال الوَرد والرّيحان
و سواعد الأنهار قد مُدّت إلى	نُدمائها بشقائق النّعمان
وتجاوبت فيها شوادي طيرها	والتفّت الأغصان بالأغصان
ما زرتُها إلا وحيّاني بها	حدقُ البهارِ و أنمل السُّوسان
مِن بعدها ما أعجبتني بلدة	مع ما حللت به مِن البلدان

لقد كرّر الشاعر ألفاظاً عديدة تدل دلالة قاطعة على إعجابه ببلاد الأندلس ، ونلمح في البيت الأخير أن الشاعر كان كثير الترحال ، وهي السّمة التي غلبت على شعراء عصر الموحدين أو على من حلوا بالأندلس على عهدهم . ومما يلاحظ في الأبيات أنّ الشاعر نفث الروح في العناصر المكونة للطبيعة الأندلسية حيث الربيع ينسج ثياباً بديعة الألوان ، والنسيم عليل هائم ، والطلّ ينثر درراً فوق الورد والأنهار لها سواعد ، والطيور تغني ، والبهار يحيِّي بأحداقه ، والسوسان بأنامله ، كل ذلك جعل من الأندلس جنّة ساحرة ، وحُقّ للشاعر أن يهيم بهذا الحسن ويفضل هذه البلاد على سائر البلدان .

وقد يعبّر بعض الشعراء عن افتتانهم ببعض أماكن الأندلس في بضعة أبيات ، ومثال ذلك أبيات أنشأها ابن سعيد مع والده أبي عمران موسى عندما مرّا بـ "نارجة" وهي قرية بها بساتين وأنهار تفتن الناظرين ، فأمر الوالد ابنه أن يكمل قوله : بنارجة حيث الطراز المنمنم

(1) المقري: نفح الطيب ، 186/1.

فقال ابن سعيد : أقم فوق نهر ثغره يتبسم .

إلى أن بلغ أبو عمران قوله : أيا جنّة الفردوس لست بآدم .

فقال ابن سعيد : فلا يك حظي من جناك التندم .[1]

فهما قد ذكرا الأنهار والرياض ، ولكن مبلغ الإعجاب وتمام الحسن اختُصرا في بيت القصيد وهو : " أيا جنّة الفردوس ..." ، وهو تعبير صريح عن أنّه ليس هناك مكان يرقى إلى نارجة جنة الفردوس . ولم يكن هذا في قصيدة مستقلة بل جاء في حوار قصير دار بين شاعرين .

إن الوضع السياسي المتردّي الذي كان كثير من المدن الأندلسية يعيشه في أواخر هذا العصر انعكس سلبا على الحياة الاجتماعية ؛ فكثرة الحروب وازدياد حركة الاسترداد نَجَم عنهما انتشار الغلاء وظهور الفقر ، بعد أن كان الشعب الأندلسي يعيش في رفاهية تحت ظلّ الاستقرار. هذا الوضع الاجتماعي أقلق كثيرا من الناس ولم يحتملوا شدّة الجوع فراحوا ينزحون إلى أماكن أخرى ينشدون فيها ما افتقدوه في المدن التي كانوا فيها . ولكنّ هذا الأمر لم يؤثر على بعض الشعراء ، بل ظلوا أوفياء لأوطانهم . حيث وعلى الرغم مما أصابها باتت في أعينهم موطن الحسن والجمال وجنة الخلد التي لا يبغون عنها بديلا ، لأن هذا الحب ظل متأصلا في نفوسهم ، متمكنا من قلوبهم . يقول أبو الحسن بن حريق مخالفا ابن عياش[2] الذي تنكر لوطنه:[3]

بلنسـية قـرارة كلّ حُسـن   حديث صحَّ في شرق وغرب

فإن قالوا: محلّ غـلاء سعر   ومسقط ديمَتَيْ طـعن وضرب

فقلْ : هي جنّة حُفَّـت رُباها   بمكروهَـيْن مِن جوع وحرب

---

[1] ينظر : م .س . 1/ 150 – 151 .

[2] يقول ابن عياش رافضا بلنسية لما أصابها :

بلنسِـية بِـيني عن القلـب سَـلوة   فإنّـك روض لا أحِنّ لزهـــرك

وكيف يحِبّ المرء دارا تقسّمت   على صارمَي جوع وفتنةِ مُشرك

م . ن . 148/1 .

[3] م . ن . 1/ 153 .

4-الحنين إلى الوطن:

لقد كان شعر الحنين من البواكير الأولى للشعر العربي في بلاد الأندلس ، فعندما قدم عبد الرحمان الداخل من المشرق إلى هذه البلاد ، كانت القصائد الأولى التي قالها هي تلك الزفرات التي ظل يحن فيها إلى بلاده المشرق . بالإضافة إلى كثير من الشعراء الذين طرأوا على الأندلس ، هم أيضا كانوا يتشوقون إلى وطنهم الأصل . ومع مرور الزمن لم يقصر هذا الغرض عن باقي الأغراض الشعرية الأخرى ، بل وجدناه فاقها في بعض الفترات ، وذلك لأسباب كثيرة لا ندخل في تفاصيلها .

فهذا المقّري - مثلا - يورد بابا خاصا ذكر فيه كثيرا من الشعراء والكتاب الذين خرجوا من الأندلس إلى أقاليم أخرى ، وأورد بابا آخر ذكر فيه طائفة من الأدباء الذين طرأوا على بلاد الأندلس . ولا شك أن هذه الهجرة تولدّ في نفوس أولئك الشعراء أروع قصائد الحنين .

ولقد عاشت الأندلس مراحل متقطعة من الأمن والاستقرار ، تخللتها فترات انتثر فيها عقد الأندلس ، وسقطت معظم المدن في أيدي النصارى ، فرحل كثير من الأندلسيين من وطنهم وفارقوا أهلهم وأحبابهم ، وخاصة في عصر الموحدين ، حيث عاش بعض الشعراء مرحلة من التنقل والترحال . فاضطر الكثير منهم إلى الالتجاء إلى بلاد المغرب (الأوسط والأدنى والأقصى) ، وراح البعض الآخر ينشد الاستقرار في بلاد المشرق وبقيت قلوبهم جميعا مشدودة إلى الأندلس ([1]) ، وكان حنينهم إلى وطنهم "من أصدق ما قيل في هذا الباب وأبلغه على مر العصور " ([2]). فهذه الأوضاع الخاصة كانت إحدى الأسباب التي أثرت شعر الحنين حتى إنه ليُخيَّل للقارئ " أن الشعر الأندلسي شعر غربة وحنين " ([3]) .

([1]) ينظر : نافع عبد الله : الشوق والحنين في الشعر الأندلسي ، بيروت : دار الوسام للطباعة والنشر ، ط1 / 2003 ، ص 68 .
([2]) فوزي سعد عيسى : في الأدب الأندلسي ، مصر : دار المعرفة الجامعية ، د.ط / 2004 ، ص 43
([3])فاطمة طحطح : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، الدار البيضاء : مطبعة النجاح الجديدة ، ط1 / 1993 ، ص 9.

فهذا الرصافي البلنسي الذي خرج من مدينته بلنسية وهو صغير السن ، يحن إلى موطنه ،ويتشوق إلى الأماكن التي ترعرع فيها فيقول :([1])

خلِيليّ ما لِبِلِيـد قد عبـقتْ نشرا   وما لِرؤوس الرّكب قد رنّحت سُكرا
.... بلادي التي ريشت قويدمتى بها   فـريـخا وآوتــــني قـرارتـها وكـــرا
لبسـنا بها ثوب الشـباب لباسـها   ولكــن عرينا من حــلاه ولم تعــرى
أمنـزلنا عصـر الشبيـبة ما الذي   طوى دوننا تلك الشبيبة والعـصـــرا
محـل أغـر العهد لم نبـد ذكـره   على كـبد إلا امـتــرى أدمعا حـمرا

أكل مكان كان في الأرض مسقطا لرأس الفتى يهواه ماعاش مضطرا

فالملاحظ على هذه الرائية أن الشاعر كان شديد الأسى على فراقه لوطنه ، وسكب من أجله دموعا حمراء . وقد عدد فيها بعض المحاسن التي ظلت لصيقة بذهنه ، وبعض الأماكن التي كانت نفسه تهفو إليها . ويذكر ما تأتيه به الأخبار من الركبان السائرين الذين كان يسألهم عن أحبابه ، وما حلّ بوطنه ، فيخبرونه بواقع يقصم ظهره فيقول:([2])

ولا مثل مدحـو من المسك تربـة   تمـلي الصبا فـيها حـقيـبـتها عـطرا
... أنيـق كريـعان الحـياة التي خـلت   من طليق كزيان الشباب الذي مــرا
كـفى حزنا أني تباعـدت عنهـم   فلم ألـق من أسـرى مخـفا ولا ســرا
وإنـي متى أسأل بهـم كـل راكــب   ليُـظــهـر لي خيــرا تأبـط لي شـــرا
وما دعوتي للمزن عذرا لدعوتي   إذا ما جعلت البعد عن قربه عذرا
معاهـد قد ولـت إذا ما اعتـبـرتها   وجدت الذي يحلو من العيش قد مرا

ونجد حازم القرطاجني الذي لم ينسه العيش الرغيد الذي ذاقه في حضرة الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى تذكر المعاهد والمرابع التي عاش فيها ، وقد صارت من بعد موحشة قفرا ، نتيجة لما أصابها من خراب . وقد عدد هو أيضا أماكن طبيعية

([1]) الرصافي : الديوان ، ص 68- 69 .
([2]) م.ن ، ص 69-73 .

تربى في أحضانها ، وكان شديد الحزن والبكاء على عهد لن يرجع أبدا . يقول الشاعر:([1])

ما أنْسَ لا أنْسَ تِلك العِيسَ إذْ بَكرتْ بِمِثل عينِ المَها عَون وأبْكار
فأوحشَتْ بعد إيناس وصار بِها صَرفُ الحَوادث طلابا بأوْتار
كانتْ نَوائب أدْنى ما جَنتْه نوى أدْنى جِنايَاتها تهْيِيج أفْكار
وعضّ ظفْر بأسْنان عَلى زمَن قدْ عضّ أوقَرع أسْنانه أظْفار
... أبكِي لمعْرفة العَهد القَديم ومَا أنكرت مِن خَطْب دهر طَارق طَار

وهناك من الشعراء من يذكر في قصائد الحنين ريح الصبا ، فيعتبرها رسولا بينه وبين الأحباب ، وتُذكّره بأيام الطفولة المُترعة بالمرح والسعادة . لذا فهو يأتمنها على كل ما يُحمّلها من أخبار، ولايستأمن غيرها من الواشين والحساد . من هؤلاء الشعراء أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد ، الذي له قصيدة قالها بإشبيلية ذاكرا وادي الطّلح ، وهو مكان جميل ، ملتف الأشجار ، كثير الطيور، كان مرتادا للأحبة والأزواج . يقول فيه مبتدئا بذكر ريح الصبا :([2])

سائِلْ بِوادي الطّلّح ريحَ الصَّبا هل سُخِّرتْ لي في زمَان الصِّبا
كانتْ رسُولا فِيه ما بَينَنا لنْ نأمَن الرّسل ولنْ نكتُبا
... يا قاتَلَ اللهُ أناسا إذا ما استُؤمِنوا خَانوا فما أعْجَبا
... واذكُرْ بِوادي الطّلْح عَهدا لنا لله ما أحْلَى ومَا أطْيَبا
بِجانِب العَطْف وقدْ مَالتِ الأغْـ صانُ والزّهرُ يبُثّ الصَّبا

وعلى الرغم من أن حازماً القرطاجني تبوأ مكانة عالية في سماء الدولة الحفصية، فإنّه في مقصورته ينصح بعدم الاغتراب عن الأوطان ، ملمّحاً إلى بعض الشخصيات القديمة التي عانت كثيراً من الغربة ، كابن مضاض ، وبلال ، وعمرو بن الوليد ، الذين

([1])حازم القرطاجني : الديوان ، ص 46 - 47 .
([2]) المقري : نفح الطيب ، 2 / 408 .

حزنوا حزناً شديداً لفراق الأوطان التي تنعموا فيها ، لأن المرء ـ كما قال حازم ـ إذا فارق أرضه لا يصبر أبداً . يقول في هذا من مقصورته [1] :

إنّ ثَــوَاءَ المَــرْءِ في أوطَــانِــه   عِــزٌ ، ومَا الغُربة إلاّ كالثّوى
وقلّما بَان امْرؤ عَـن أرضِـه   إلاّ وبَـان الصَّــبرُ عنه ونَــأى
فقَدْ تشكى ابنُ مَضاض مَضَضا   مِنْ شَوقه إلى الحجُون والصّفا
وكـابَد الشّـوْقَ بِـلال وبَــرَى   جُـثـمَانـه مِنَ السّقام ما بَرَى
وظَـلّ مِنْ شَـوق إلـى مجَـنّـة   وشَامـة يشيم إيمَـاض المُنى
وحَـنّ عمْرُو بنُ الوليد إذْ نَأى   عن يثْرب فمَا صَحا ولا سَلا

وإذا كان حازم ينصح في أبياته بعدم الاغتراب عن الوطن ، فإن ابن جبير الرحالة ينهى عن ذلك ، وذلك بعد أن "دخل مدينة بغداد وقطع غصناً نضيراً من أحد بساتينها فذوى في يده" [2] ،فقال مبيناً أثر الغربة عن الوطن على الإنسان [3] :

لا تَغتربْ عَن وطنٍ   واذكرْ تَصاريفَ النّوَى
أمَا ترى الغُصنَ إذا   ما فَارقَ الأصْلَ ذَوَى

فالإنسان إذا اغترب عن وطنه كواه الشوق إليه ، وبراه تذكاره إيّاه ، كالغصن الذي إذا قُطع من الشجرة ذبل وذوى .

إن الغربة وهجرة الوطن يولدّان حنيناً إليه ، لذلك فإن بعض الشعراء عبّر عن حبّه لوطنه بعدم فراقه والنزوح عنه لأي سبب من الأسباب، مصوراً ما يصيب الغريب في بلدان الناس من رفضه وعدم الترحيب به ، حتى وإن أحسن إليهم . يقول ابن هشام القرطبي في هذا المعنى واصفا تعلقه بقرطبة بلده [4] :

يا مَن يُزيّن لي التّـرحال عَن بلَدي   كمْ ذا تحَاول نَسلاً عند عنّين
وأين يَعدلُ عنْ أرجَاء قُرطُبَة   مَنْ شاء يَظفر بالدّنيا وبالدّين

---

[1] حازم القرطاجني ، تحقيق : مهدي علام ، مصر : مطبعة مصر ، د .ط / 1953 ، ص 96-97 .

[2] المقري ، نفح الطيب ، 3/ 12.

[3] م .ن ، ص .ن.

[4] م . ن ، 2/ 69 – 70.

...يا آمري أنْ أحثَّ العِيس عن وطـَني	لمّا رأى الرّزقَ فيه ليس يُرضيني
نصــحتَ لكنّ لـي قـلباً يُنازعُـني	فـلَو تــرحّــلتُ عــنه حلـّه دونــي
لألــزمَنْوطـَني طـَورا ً تـُطاوعُـِي	قـودُالأماني وطـَورا ً فيه تعْصيـني
مذللا ً بَين عرفَـاني وأضــربُ عَن	سَـير لِأِض بِـ ها مَنْ ليس يدْريني
هذا يَـقولُ غَــريبٌ سَاقــُطَ ــمَع	وذاكَ حِيــن أرُيـهِ البرَّ يجــفـُوني

بهذا الأسلوب السهل والعبارات البسيطة يوصل إلينا الشاعر رسالة واضحة لا تعقيد فيها ، وهي أنّ الإنسان إذا اغترب عن وطنهيبقى منبوذا ً مهما فعل ، وخيرٌ له أن يقيم في وطنه بين أهله وعشيرته ، حتى وإن كانت سبلُ العيش فيه عسيرة.

ومن الذين أكثروا من البكاء في غربتهم واعظ من وعّاظ مدينة بلنسية ، اسمه أبوالمعالي الإشبيلي . ويبدو أنّه ندم على تركه وطنه وأحبابه ، فراح يبكي في غربته . واعتقد أن الشاعر لم يعان في بلاد الغربة ، ولم يكن هناك ما ينغّص عليه حياته سوى أنه تغرّب عن وطنه وتذكره فأبكاه ذلك . يقول أبو المعالي (1) :

أنا في الغُـربَة أبكي	ما بكتْ عَينُ غَريب
لمْ أكنْ يوَمَ خُروجي	مِنْبِلادي بِـ مُصـيب
عَجباً لِي ولِـتَـرْكي	وطَنَاً فِيه حَبِـيبِـي

ولننظر أيضا ً إلى ما قاله الرّصافي البلَنسي وهو يتحدث عن وطنه بلنسية الذي خرج منه صغيرا فبكى عليه بكاء مُرا ً، وذرفعليه دمعا ً سخينا ً، ومن كثرة هذا البكاء صارت دموعه حمراء تسيل كلـّمّا تذكر موطنه . يقول الرصافي (2) :

أمَـنــزلَنا عَصْر الشّـبيـبة مَا الذي	طـَوَى دُونَا تِلك الشّـبيبَة والعَصْرا
مَـحـلّ أغرّ العَـهد لَمْ نـبْـد ذِكــرَه	على كَبد إلاّ امْـتَـرى أدْمُعا ً حُمرا
أكلُّ مكَان كَان في الأرض مَقطاً	لِرأس الفتَى يَهواه ما عاش مُضطرّا ً

(1) المقري: نفح الطيب ، 5 / 56.

(2) الديوان ، ص 68-69 .

وأبو الحسن علي بن سعيد الذي إن صحّ أن أسميه "جوّالة الأندلس" عندما خرج من بلاده ولبث في مصر، قال ، وقد أدركته وحشة ، متسائلاً عمّا أصاب "إشبيلية"، باكياً على "مُرسية" لا بالدموع ، ولكن بالدم :[1]

أين حِمْص؟ أين أيّامِي بها؟ بَعْدها لَمْ ألق شيئاً يعْجِب
كم تَقضّى لي بِ ها مِنْ لَذّة حَيث للنّهر خَرير مُطرب
... بَل على الخَضراء لا انْفكُّ مِنْ زفْرة في كلّ حِين تُلهب
حَيث لِلبحر زئير حَولها تبْصر الأغصَان مِنه ترْهب
... وعلَى مُرسِيَة أبْكي دَماً مَنزلٌ فيه نَعيم معْشب
مَعَ شمس طلَعَتْ في ناظِري ثمّ صارتْ في فؤادي تَغْرُب

فهو يتحسر على أيّامه الخوالي في "إشبيلية" حيث اللذة والعيش الحسن . كل هذا ذهب وانقضى وبقيت الذكريات أنيسه الوحيد .وهي تثير له شجوناً وزفرات وحسرات.

وبما أنّ ابن سعيد كان كثير الحركة والترحال ، فإنّ حنينه لم يقصره على مدينة واحدة ، ومن ثمّ جاء بكاؤه على جلّ تلك المدن ، حيث يقول[2]:

وإلَى الحُور حَنيني دائماً وعلَى شنتّيل دَمْعي صَيِّب
وإلَى مَالَقَة يَهفُو هَوى قلب صبّ بالنّوى لا يقّلب
وعلى مُرسِيَة أبْكي دماً مَنزل فيه نَعيم معْشب

والملاحظ على قصائد الحنين إلى الوطن التي قيلت في زمن الموحدين ، أنّها مُزجت بأغراض شعرية أخرى ، ولاسيما القصائد الطويلة ، فقلّما نجد قصيدة تفرّدت بشعر الحنين خالصا . وفيما يلي بيان حال هذا النوع من الحنين وعلاقته بالأغراض الشعرية الأخرى .

كثيراً ما كان الشعراء الأندلسيون يمزجون حنينهم إلى الوطن بوصفهم لجمال طبيعته ، لأنّه في الغالب يعدّ الأرضية التي ينطلق منها شعراء الحنين ، فهم يصفون

---

[1] المقري : نفح الطيب ، 2 / 404 – 405 – 406.

[2] م . ن ، 405/2 .

تلك المغاني التي وُلدوا وترعرعوا فيها ، ولهم فيها قصص وذكريات تعود إلى أيّام الطفولة التي لا تُنسى .

ولقد وصف الرصافي البلنسي ـ على سبيل المثال ـ مدينته بلنسية أجمل وصف في رائيته البديعة المشهورة ، حيث يذكر مبادئ العيش اللين أيّام اللهو واللعب، متوقفاً عند أركان الطبيعة التي شكلت من المدينة لوحة فريدة وجعلت منها زبرجدة تسيل عليها المياه كاللآلئ . ولقد أكثر من التشبيهات على عادة كثير من شعراء الطبيعة الأندلسيّين، وجعله ذلك الجمال يُفضّل جنّة بلنسية على جنّة الفردوس . يقول الشاعر:[(1)]

مبادئ لِين العَيش في ريّق الصِّبا   أبَى الله أنْ أنسَى لها أبداً ذِكراً

...ولا مِثل مَدْحو مِنَ المِسك تُربة   تُملي الصَبا فيها حقِيبتها عِطرا

نبات كأنّ الخدَّ يَحمل نَوْرَه   تخال لُجينا في أعاليه أو تِبْرا

وماء كتَرصيع المَجرّة جلّلت   نَواحيَه الأزهارُ فاشتبكتْ زهرا

أنيق كرَيعان الحَياة التي خلَتْ   طلَيق كريّان الشّباب الذي مَرّا

وقالوا هل الفِردَوس ما قد عَلمته   فقلتُ وما الفردوس في الجنّة الأخرى*

بلَنْسية تلك الزَّبرْجَدة التي   تَسيل عليها كلُّ لُؤلؤة نَهرا

... وإنْ كان قد مدّتْ يد البَيْن بَيننا   مِنَ الأرض ما يهْدي المجدّ بِه شهرا

ثم يمضي ذاكرا مرة أخرى عناصر الطبيعة التي ازدانت بها المدينة ، وبخاصة الأنهار التي كانت عامرة بها وكذا البحيرات الجميلة . ولم يقتصر على تشبيه بلنسية بالزبرجدة، وإنما شبهها كذلك بالدّرة البيضاء المتوهّجة التي فاق نورها نور البدر، ويختم هذا المقطع بإعلان حبّه لها لأنّها وطنه :[(2)]

تُؤبَد فيها شَعْشَعانِية الضّحى   إذا ضَاحك الشّمْس البُحَيرة والنّهْرا

---

(1) الديوان ، ص 68 – 69 – 70 .

* -جرى الرصافي على مذهب ابن خفاجة في هذا المعنى ، حين جعل جنّة الخلد في الأندلس ، يقول ابن خفاجة:

يا أهل أندلس لله درّكم   ماء وظل وأنهار وأشجار

ما جنة الخلد إلاّ في دياركم   فلو تخيّرت ، هذا كنت أختار

ديوان ابن خفاجة تحقيق عبد الله سنده ، بيروت : دار المعرفة ،ط2006/1 ، ص133.

(2) م.س ، ص70-71.

تراجـــمُ أنـفـاس الرِّيَاح بـِزهْـرها رُجوماً فلا شَيــطان يَقربها ذُعْرا

هِيَ الدُّرة البَيضاء مِنْ حَيث جِئتَها أضاءتْ ومَن لِلدّر أنْ يُشـبِه البَدْرا

خَلِيــليَ إنْ أصْــدِر إلَيها فإنّـــها هِيَالوطَن المَحبُوب أوْكلتُه الصّدرا

أمّا حازم القرطاجني فإنّه يتحدث عن قلبه الذي مافتئ يذكر "مرسية" و"قرطاجنّة" ويشتاق إليهما بلوعة فيقول : [1]

مَنْ ناشــد قَلْبــي عِـنـد شَـادِن إذا انْتَوى حَلّ وإنْ حلّ انتــوى

... يُـمارس الشّــوقَ إلى مُرْسِـية إذالاَقى الظِّـلّ فيهَا والجَـنى

حتّى إذا مَا بَارق الوَسْمـي مِنْ أرجَـاء قرطَـاجـنّة بَـدا، بَـدا

وأصْـحَر الحَادي بِـه في أفْـيَح قَد اكتسى مِن الرّبيع مَا اكتَسى

ونجد بعض الشعراء ، وهم يمزجون بين حنينهم إلى أوطانهم ووصف طبيعتها، يذكرون أماكن بعينها ، وربّما فعلوا ذلك لأنّهم ترعرعوا في أحضانها أو لأنّ لهم فيها ذكريات جميلة مع الأحباب والخلاّن تعود إلى أيّام الصِبا . لذلك يظهرون مدى ارتباطهم بها . بل إن عامر بن هشام القرطبي يدعو الله أن لا يُبعد عن عينيه متنزهات "قرطبة" ، وذلك بعد أن ذكر وحشته وشوقه إليها ، فيقول:[2]

وخـلتُ مِن طَـمع أنّ اللـقاءَ عَلى إِـثْر النّسيم و أضْحى الشّوقُ يَحْدوني

...مَسارح كَمْ بِـها سَرّحتُ مِن كَمد قَلْبي وطَـرفي ولا سُلْـوان يُـثنِـيـني

بَينَ المُصلّى إلى وَادي العَقيق ومَا يَـزال مِـثـل اسمِـه مُذْ بَان يُـبـكِـيـني

إلى الرُّصافَة فالمَـرج النّضيـر فَوَا دِي الدّير فَالعَطف مِنْ بَطحاءِ عَبدُون

...لا بَاعَـد اللهُ عَيـنـي عَنْ مَـنازهِــه ولا يُـقــرّبْ لَها أبْــواب جـــيــرُون

وفي الغالب عندما يربط الحنين بوصف الطبيعة يعمد الشعراء إلى ذكر محاسنها وجمالها وما كان يتميّز به بعض المناطق والأماكن . وقد مرّ بنا أنّ أبا الحسن بن سعيد عندما كان بمصر، أدركته بها وحشة ، فلم يبهره سوى جمال طبيعة إشبيلية والمرج

---

[1] مقصورة حازم ، ص60 - 61 .

[2] المقري: نفح الطيب ، 2/ 69.

والنواعير الكثيرة بها ، ومُنية شنتبوس وأزهار بلاد الأندلس وأشجارها وأنهارها وطيورها . يقول ابن سعيد :(1)

ولكَم بِ المَرج لِي مِنْ لَــذّة | بَعدَها مَا العَيشُ عندي يَعْـذب
والنّواعِـيو التِي تِـذكّارُها | بالنّوى عَن مُهجَتي لا تسْـلب
و لكَم في شَنْتَبوس مِنْ مُنى | قَد قَضــيناه ولا مَـنْ يَعـتـب
حَيث هاتِيك الشّراجيبُ التِي | كَمْ بِها مِنْ حُسن بَدر مُعصب
..يلْ ــدةُط َــابتْ ورَبٌ غافِــر | ليْــتَني مازلــتُ فِــيها أذنِــب
أيّ حُسْن النّيل مِنْ فَهر بِها | كُـلّ نــغُـمات لَـدَيه تطْـرب
... لــذّة النّـاظِـر والسّمْع عَـلى | شـمّ زهْـر وكُـؤوس تـشْـرب
... كَطُ يور لَم تَجد ريّاً لَــها | فَبَدا لِلـعَـين مِـنها مَشرَب

وإلى جانب الحديث عن الطبيعة الخلابة لبلاد الأندلس ، هنالك من الشعراء من مزج بين الحنين إلى الوطن ورثائه (أي رثاء الوطن) ؛ فها هو أبو المطرف بن عميرة ، بعد أن تذمّر من الوضع الذي آلت إليه مدينة بلنسية وبكاها بكاء حارا، ورثاها رثاء تتفطر له القلوب ، يتذكر الماضي الجميل الذي كانت عليه ، ويحنّ إلى زمان كان فيه عقد الجزيرة نضيدا ، ويتذكر الأيام التي عاشها هناك قبل أن يرحل عن بلاد الأندلس ، بين الملاعب والمعاهد والمغاني والجنان المزدانة بالورود وشتى أنواع الأزهار . يقول أبو المطرف : (2)

أقُولُ لِسَاري البَرْق فِي جُنُح لَيلة | كِلانا بِها قَدْ بَات يَبكي ويسْهَر
...كفَى حَـزَنا أنّا كأهْـل مـحَصّـب | بِ كُـلّ طَـريق قَدْ نَفَرنا ونَنْفر
وأنّ كِلَيْنا مِنْ مَشْوق وشَــائِق | بِ نَار اغْتِـرلب فِي حَشَاه تـسعّر
ألا لَيتَ شِـعْري والأمَـاني ضلّة | وقَوْلي ألا يَا لَيْتَ شِعْري تحَـيّر
هَل النّـهْر عِقدُلِلجَزيرة مِثلَما | عَهدنا؟وهَلْ حَصباؤه وهْيَ جَوْهر؟

(1) م . س ، 2/ 404 – 405.
(2) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص 679 .

..وتِلك المَـغَاني هَل عليَها طَـلاوة؟ بِ مَا راق فِها، أو بِ مَا راق تسْـحر؟
مَلاعِبُأفْ راس الصّبابة والصِـبا تَـــرُوح إلَــيـها تَــارة وتـــبكّر
وقَبْلِيَ ذاكَ النّـهرُ كانت معـاهـد بِ ها العَـيش مَطْلول الخَمِيلة أخُضَر

وممّا يذكر أيضا في هذا الغرض ما قاله ابن الأبّار الذي رحل عن وطنه نتيجة لما أصابه ، فاكتوى بنارين ، نار البعد ، ونار المصائب والعوادي التي حلّت بوطنه ، لذلك فإنه في القصيدة الهمزيّة المعروفة التي ابتدأها باستنفار الحفصيين لنجدة بلنسية ، راح يعرض على أبي زكرياء الحفصي حال المدينة وما آلت إليه في نكبتها ويرسمها له كتابا مفتوحا لإثارة عواطفه وأحاسيسه تجاهها . وفي هذه الأثناء يشدّه الحنين إلى المدينة حيث معاهد الصِبا والرّبى والأباطح التي زيّنها الربيع بشتى أصناف النباتات في الصيف والشتاء مما جعلها حللا موشية ، ثم يرجع إلى بكاء المدينة مرة ثانية . يقول ابن الأبّار : (1)

إيـهٍ بلـَنْـسِـية وفي ذِكْـراكِ مـــا يمْري الشّـؤونَ دمَاءها،لا مَاءها
كَيف السّبيلُ إلَى احْتِلال مَعَاهد شبّ المعاجم* دُونَـها هَـيجَـاءها
وإلَى رُبى وأباطِـح لَمْ تَعْـر مِنْ حُلَل الرّبـــيع مَصِيفـها وشِـتاءَها
طَـابَ المعَـرّس والمقيل خِلالها وتَطَـلـّعتْ غُـرَر المُنَى أثـناءها

وإذا وقفنا عند أبيات أبي المطرف بن عميرة فإننا نجده يسترجع الأيام الجميلة الماضية والعهد الذي قضاه في بلنسية ، تلك الجنّة الضائعة ، بشيء من التلهف والحسرة ، لأنّ رياح العدى عصفت بها وبأهلها ومضى ذلك العيش الأخضر، وخلَت الديار وأقفرت المنازل فتساءل عنها وما آلت إليه ، ولم ينس نهر "شقر" ، ملهم الشعراء ومبعث الجمال في مدينة بلنسية . يقول ابن عميرة : (2)

يَالَك عَـهدا مَضـى ومرتَـعًا كان بِ ه العَيشُ مِثله أخُـضَــر

(1) ديوان ابن الأبار ، ص 36 .

* - اعتقد أنّ الصواب هو : الأعاجم .

(2) فاطمة طحطح: الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي ، ص249 .

و جِيرَة مِنهُمُ الدّيارُ خَلتْ ... ومَنزل الصّبر بَعدَهم أفقر

جمّعَهُم دهرُهم فكَان كمَن ... شحَّ، وألقَى بهم كَمنْ بَذر

وعَاد قلبِي مِنْ شَرق أنْدلُس ... عِيد أسى فتّه وما فَتَر

فأيْن مِنّا منازل عَصفتْ ... ريحٌ عَليها مِنَ العِدَى صَرْصر

ودُون نهْر، ودُون زُرقَته ... أزرقُ يَحكي قَناه أو أشقَر

وهكذا نلاحظ ، من خلال هاته النماذج ، أنّ هؤلاء الشعراء حاولوا المزج بين الحنين إلى الوطن ورثائه . إلا أنّ العملية لم تكن من حيث القيمة الفنية والجمالية مثل مزجهم بين هذا النوع من الحنين وذكر محاسن طبيعة الوطن .

وهنالك من الشعراء من أدرج الغزل في قصائد الحنين ، فلم يقتصروا على حنينهم إلى المكان الذي رحلوا عنه ، بل ظلّ ذلك المكان مثل المرأة الحسناء التي تهفو إليها القلوب في حال الابتعاد عنها . فإذا نُزعت هذه الأبيات من القصيدة يُعتقد أنها قيلت في امرأة ، كما نجد هذا الأمر عند بعض شعراء التصوف في حديثهم عن المحبة الإلهية.

فها هو الرّصافي البلنسي الذي وقف حنينه على مدينته الجميلة ، بلنسية ، يشبهها بالعروس الحسناء التي أبدع الله صنعها حيث يقول : [1]

كأنّ عروسا أبدَع اللهُ حُسْنَها ... فصَيّر مِنْ شَرْخ الشّبابِ لَها عُمْرا

ويقول في قصيدة أخرى مستعملا بعض ألفاظ الغزل : [2]

إيهٍ عَن الكُدْيَة البَيضاء إنّ لَها ... هَوَى بِ قلب أخِيك الوَالِه الوَصب

رَاحِ بِ نا السّهل مِنْ أكنَافها وأرحْ ... ركَابنا لَيلها هَذا مِنَ التّعب

... يا عَذْبة الماءِ والظّل انْعمي طفَلا ... حُيِّيتِ مُمسِية مَيّادة القُضُب

ماذا عَلى ظِلّك الألمَى وقَد قلصتْ ... أفْيَاؤه لوْ ضَفا شَيئا لمغْتَرب

... من المقاري التي سَالتْ لِمُبصرها ... مِنْ فضّة وعَشاياهُنّ مِنْ ذَهب

---

[1] ديوان الرصافي ، ص 70 .

[2] م . ن ، ص 44 - 47 - 48 .

بِ يــضِ مُـولّـعة الأسْـدَاف عاطِـرة   أشْهَى مِنَ اللعَس المَضْوخ بِ الشّنَب

فـ"الواله" ، و"ميادة القضب" ، و"الألمى" ، و"اللعس" ، و"الشنب" وغيرها من الألفاظ الكثيرة الاستعمال عند شعراء الغزل ، وظفها الشاعر هنا ليبيّن مدى جمال المدينة وحسنها ، وليعبّر عن مدى ارتباطه بها وشغفه بحبها .

وتبدو الصورة واضحة في قصيدة صفوان بن إدريس التي ساجل بها رائية الرصافي السابقة الذكر، حيث فضل فيها مدينة مرسية على غيرها من البلدان الأخرى. فبعد أن ذكر حنينه إلى مُرسية ، أضفى عليها هو كذلك صفات الحسن والجمال ، بل إنّه صرّح بتغزّله بها . والأبيات يظهر فيها ـ بحق ـ مدى براعة الشاعر في التصوير والتشبيه . والملاحظ أيضا على تلك الأبيات كثرة التشخيص الذي زادها روعة وجمالا، وكأن المقول فيه امرأة حسناء لا مدينة . يقول صفوان بن إدريس : [1]

خَليليّ أعْني أرضَ مُرسِية المُنَى   ولَوْلا تَوَخّي الصّدق سمّيتُها الكُبرى

... أيَا زَنَقات الحُسْن هَلْ فِيك نَظرَة   مِنَ الجُرف الأعْلى إلَى السِّكة الغرّا

فأنْظُ ـرُ مِنْ هَـذي لِتِـلك كأنّـما   أغـاير إذْ غازلـتُها أخـتَها الأخــرى

هِيَ الكَاعِب الحَسناءُ تُمِّم حُسنُها   وقـدّت لها أوْراقــها حُـلَلا خُـضْرا

إذا خُطِبت أعْطتْ دَراهِم زهْرها   ومَـا عَادةُ الحَسـنَاء أنْ تَنْـقدا المـهْرا

وقامـتْ بِـعرس الأنْس قِينَة أيْكِها   أغَاريدها تَسْتَوْقِص الغصُن النَّضْرا

فهو يصف المدينة بأنّها كاعب حسناء ، كاملة الجمال ، نُسجت ثيابها من الأوراق الخضراء . ومن كثرة ما يوجد بها من أزهار و ورود جميلة ومتنوعة صارت هي التي تعطي الخاطبَ المهر . وقد أنطق الشاعر أيضا قيان الأيك التي غرّدت الأغصان وأرقصتها . كل هذا كان في عرس بهيج أقيم بمدينة مُرسية.

وتذكر فاطمة طحطح أنّ حازماً القرطاجنّي له قصائد عديدة في التشوق إلى الأندلس [2] . وعندما تتبعتُ ديوانه لم أجد لهذا الشاعر قصائد منفردة بالحنين سوى

---

[1] زاد المسافر وغُرّة مُحيّا الأدب السافر ، أعدّه وعلّق عليه : عبد القادر محداد ، بيروت : دار الرائد العربي ، د.ط / 1980 ، ص 25 - 26 .

[2] ينظر : الغربة و الحنين في الشعر الأندلسي ، ص 253 .

بعض الأبيات التي جاءت في قصائد أخرى نظمها حازم في مدح الحفصيين والاستنجاد بهم أو أتت في رثاء المدن . ولكن لا تشكل هذه الأبيات في الغالب شعرا حنينيا كغرض قائم بذاته .

5- شعر الفتوحات ومدح الفاتحين

أ- شعر الفتوحات :

صارت الأندلس في نهاية عصر المرابطين بلادًا ممزّقة ينهشها الصليبيون من كل جهة ، وتسود المسلمين الفرقة والنزاعات الداخلية . ممّا جعل البلاد مسرحًا للاضطرابات وعدم الأمن و الفوضى وقد أدى ذلك إلى ازدياد حركة الاسترداد . كما استدعى قدوم الموحّدين وإعادة فتح المدن الأندلسية التي كانت ترزح تحت وطأة المرابطين والنصارى الحاقدين . وقد تتبع شعراء الأندلس هذه الفتوحات ، فمجّدوها ومدحوا أبطالها . وفي القصائد التي نظموها يتضح جليًا الاتجاه الوطني في هذا العصر. ونقف فيما يلي عند بعض تلك القصائد مبينين ما حوته بشيء من الشرح والتوضيح .

إن أول ما يمكن أن يسترعي انتباه الباحثين في هاته القصائد ، هو مجيئها في الغالب متضمنة لمدح الموحدين ، الذين رأى الأندلسيون فيهم كل صور البطولة وعوّلوا عليهم في تخليص بلادهم من النصارى والحكام الفاسدين . مما كان سببا في دفع الموحدين إلى أن يعيدوا فتح تلك المدن . على أننا نجد بعض القصائد التي قُصرت على ذكر تلك الفتوحات والإشادة بها.

ومن تلك الأشعار قصيدة لابن أبي خالد الكاتب (ت.612) يهنئ فيها بفتح ميورقة يقول منها : [1]

و غِربان يَمّ قابلتْه بَوارحًا ... فأدبر لا يرجُو لهُ متيمَّما

بكلّ كَمِيّ في اللّقاء مدجَّج ... إذا كلح اليومُ العَماس تبسّما

سحَائب جُون أرْعدتْ بصليلها ... وأبدت برق البِيض كالوَشي معلما

ثم يذكر عملية الفتح وينوّه بالآلات المستخدمة فيها ، ويتعجب من هولها وما تقوم به فيقول:

---

[1] البلفيقي : المقتضب . ص173.

ويا حُسنَ ما تبدو خلال دُروعها أسنّتها تحكي السّماء وأنجُما
وقد عانقتْ سُمْر الّذوابل سُمرُها كما ضمَّ روضُ الحزن غُصنا وأرقما
ويا لِلجواري المُنشآت و حُسْنها طَوائر بين الماء و الجّو عُوّما
إذا انتشرت في الجوّ أجنحةٌ لها رأيتَ بها روضاً ونوراً مُكمَّمًا
وإن لم تهجْه الريحُ جاء مُصافحا فمدّت له كفاً خضيباً ومِعصما
مَجاذيف كالحيّات مَدَّت رُؤوسها على وجَل في الماء كي ترويَ الظّما
...هِي الهدْب في أجفان أكحل أوْطف فهل صُبِغتْ مِن عَندَم أو بكتْ دما

ويلاحظ في هاته الأبيات كثرة التشبيهات و التصاوير الفنّية التي ساعدت على وصف الأسطول البحري الفاتح . ولأن ميورقة جزيرة في البحر الأبيض ، هيّأ الموحّدون لها هذا الأسطول الضخم المدجّج بأنواع الأسلحة . وقد شبّه الشاعر ذلك الأسطول بالغربان في يَّم مصوراً سُفن الأسطول الجارية في الماء رافعة أشرعتها والرياح تدفعها إلى الأمام ، وشبّه الألواح التي يجذفون بها بالحيات حين تمدّ رأسها في الماء للشرب.

والحق أن مثل هاته الصور ليست جديدة ، وليست من إبداع ابن أبي خالد، فأمثالها موجود عند أبي تمام الذي كان بعض الشعراء الأندلسيين يحتذونه ويقلدونه[1]، بل وُجد من شعراء الأندلس من عُرف بتوظيفه لهذه الصُّور قبل ابن أبي خالد ، كابن هانئ في وصفه لأساطيل الفاطميين ، وابن الحداد الوادي آشي في وصفه لأسطول المعتصم بن صمادح .

هذه بعض النماذج التي عثرتُ عليها ، جاء فيها الحديث عن عملية الفتح دون مدح الفاتح ، على عكس الكثير من القصائد التي ذُكرت فيها الفتوحات ولكنها تناولت بإطناب مدح الفاتحين .

ب - مدح الفاتحين:

[1] ينظر: إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة ، بيروت : دار الثقافة ، ط6 / 1981 ، ص49-50.

كان الشعب الأندلسي يتطلع بحماس إلى من يُرجع إلى حياته الأمن والاطمئنان في ظل حكم راشد يسوده العدل والرخاء . لذلك ما إن بدت طلائع الموحدين في هذه البلاد حتى راح كثير من الشعراء الأندلسيّين يمدحونهم ، كما مدحوا قبلهم المرابطين عندما كانوا يرون فيهم المنقذ لبلادهم والمُوحِّد لشتاتهم . ولمَّا دَبَّ الضعف في دولة الموحدين ، وقويت شوكة الحفصيين في المغرب الأدنى ، ظهر بعض الشعراء الذين أشادوا بهم راجين منهم إنقاذ بعض مدنهم من السقوط في عملية الاسترداد النصراني . وكان من أهم تلك المدن مدينة بلنسية . ونقف فيما يلي عند أمداح الشعراء الأندلسيين في الموحدين والحفصيين .

1- مدح الموحّدين:

لقد نال الموحدون القسط الكبير من مدائح شعراء الأندلس ، ففي رثاء المدن نجدهم يُمدحُون وكذلك في قصائد الاستنفار والاستغاثة . ولقد كان عبد المؤمن بن علي وابنه أبو يعقوب يوسف ، أكثر الذين نالوا احترام الشعراء الأندلسيين لحزمهما في الأمور ولِلجدية التي كانا يتّصفان بها . ولقد تغنّى ببطولاتهما الكثير من الشعراء وذلك على عكس المتأخرين من حكام الدولة الموحدية الذين كانوا ضِعافاً كملوك الطوائف ، وفي عهدهم ازدادت حركة الاسترداد النصرانية وانحسرت دولة الإسلام . لذلك سأركز على الخليفتين المذكورين سابقاً.

1-1- مدح عبد المؤمن بن علي:

عندما تمكن الموحّدون من القضاء على المرابطين في معاقلهم بالمغرب الأقصى ، ولوّا وجوههم شطر الأندلس ليقضوا على الفلول المرابطية هناك . وقد اجتاز عبد المومن إلى الأندلس لاستكمال الأمر . وكان لهذا العبور الأثر البالغ في نفوس الأندلسيين . و لما استقر عبد المؤمن بجبل الفتح (مرفأ طارق بن زياد) ، جاءه الناس من كل صوب يهنئونه ، وقدم إليه أيضاً أشياخ الموحّدين، وجدّدوا له البيعة ، وأقبل عليه القضاة والخطباء وألقوا بين يديه خطباً تليق بمقامه فاستحسنها ، وأذن

للشعراء في الإنشاد والمدح ، فكان من بينهم الشاعر أبو بكر بن المنخل الشّلبي (ت.560هـ) الذي قال ، مهنّئاً مادحاً :[1]

فَتحتم بلاد الشّرق فاعتمِدوا الغربـا | فإنّ نسيـمَ النّصـر بالفـتـح قد هَــبَّا
أ َ صـرْتم إلـيه الخيـلَ و هْيَ أجَــادِل | فسالتْ بِكُم بحرا ً وطارتْ بـكُم ركبا
ودسْـتُـم بـهـا هامـاتِ كـلّ مضــلل | ولم تـتـركوا عُجماً هـناك ولا عُـربا
رمَيتم بها مثـل السّـهام فأصبـحتْ | رُماتُــهـمُ صـرعـى وأمــوالهم نَهـبا
أتَــوكـم يجـرُّون الـحـديدَ سـوابِـغـا | كأنّـهـمُ البـحـرُ الـغـمــالِطُ قد عَــبّا
...فلـمّا تلاقَـيْتم وبـينهت الوغـى | تـولـّوا و قد طارتْ قـلـوبُهمُ رُعـــبا
و قادتْـهمُ تلك السيوفُ إلى الـرّدى | وما غادرت سهلَ القياد ولا صعْــبا
...وخــرُّوا جـميعاً هامِـديـن كأنّهم | ندامى تَساقوا بينهم أكؤوسَ الصّـهبا

إن الخطة التي كان الشعراء يسلكونها ـ في الغالب ـ في هذه القصائد تقوم على ثلاثة محاور هي : وصف عملية الفتح ، ثم الإشادة بفضائل الحاكم أو الفاتح ، ثم تهنئته . وليس من الضروري الترتيب بين هذه العناصر، لأنه قد يُقدَّم عنصر ويؤخر آخر.

وواضح من بداية هذه القصيدة أن الشاعر يصف لنا فتوحات عبد المؤمن بن علي وما فعله المسلمون بالنصارى ، إذ لم يزل هذا الرجل«بعد وفاة ابن تومرت يطوي الممالك مملكة مملكة ويدوخ البلاد، إلى أن ذلّت له البلاد وأطاعته العباد .»[2]

لقد كان عصر عبد المؤمن عصر فتوحات وتوسعات . وقد أرجع إلى الأندلس هيبتها، وقضى على تشرذمها . وكان لعبوره إلى الأندلس وجلوسه بجبل الفتح هيبة في نفوس الأندلسيين ، بل عُدَّ ذلك أيضا فتحا . لذلك جاءه الشعراء يمدحونه بعقائل أشعارهم .

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة . ص95.

(2) عبد الواحد المراكشي : المعجب . ص 151.

وفي قصيدة ابن المنخّل الشلبيّ نلاحظ أنّه ، بعد أن قدّم الشاعر بين يدي الخليفة إنجازاته وأعماله في البلاد وما فعله بالنصارى ،التفت إليه مادحاً فقال:

مليكٌ كأنّ الأرض قبضـة كفّه فلا بُـعدَ فـيما يَـنـتحيـه ولا قُـربا

لِكفَّيه فضلٌ بان عن كلّ فاضل إذا شدَّ عقد السّلم أو بعـث الحـربا

إذا أجدبت أرضٌ نحاها بجوده فما أغزرَ السّقيا وما أكثر الخَصبا

فالشاعر يذكر في هذه الأبيات بعض صفات ممدوحه ومن ذلك صفة الكرم التي ليست مقصورة على بني الإنسان ، وإنما قد تصير الأرض ، إذا أصابها الجدب ، خصبة بفضل ما يمسها من كرم عبد المؤمن . ثم يواصل الشاعر مدحه قائلاً:

وقد كان هذا الدّين ولّى شبابُه فلـمّا تـولّى الدّيــنُ لم يَـعْـدُ أنْ شَـبّا

إذا ما ذكرناه وقد ضاق أمرُنا تفـرَّج حتى صـار مُـتّـسـعا رحْـبـا

كذلك مَن يلـقى الخلـيفةَ تـلقـه بشائرُ يستجلي بها السّهل والرّحبا

وعلى الرغم من أن دولة المرابطين ارتكزت في نشأتها على ركيزة دينية ، فإنها لم تكن كذلك ـ على الأقل ـ بعد وفاة يوسف بن تاشفين ، حيث كان للنساء دور هام في السياسة ، وهو ما أثار فتناً وقلاقل عند المحافظين . وقد ظهر في البلاد فقهاء مراؤن يستغلون الدين لأغراض مادية ، وذلك ممّا أثار موجة سخط على هذا الوضع من قبل الأندلسيين الشرفاء . على أنّه لمّا استوثق الأمر للموحدين في الأندلس أرجعوا إلى الدين شبابه بعد أن شاب ، وأحيوا سنة الجهاد في أوساط الشعب . وهذا الذي أشار إليه الشاعر في البيت الأول . وقد نلاحظ أنّ الشاعر مغال في البيت الثاني عند وصف عبد المؤمن بوصف لا يليق إلا بالله عز وجل ؛ فمفرّج الكروب والضيق هو الله . على أنّ مثل هذه المعاني موجود قبل ابن المنخل الشلبي ، فعندما مدح ابن هانئ المعز لدين الله الفاطمي خلع عليه من الأوصاف ما جعل بعض العلماء يُخرجونه من ربقة الإسلام .

ولأحمد بن سيّد الإشبيلي قصيدة أجاد فيها مدح عبد المؤمن . ويبدو من خلال القصائد التي قيلت في هذا الخليفة أن الشعراء انبهروا بأخلاقه وأفضاله على الأندلس

مما فرض على الناس هيبته واحترامه ، حتى إن لم يجزل للشعراء العطاء . وكان عبد المؤمن يقول الشعر ويتذوقه وينقده مبديا رأيه فيه . لذلك فإن مادحيه كانوا يصعدون به إلى مراتب عليا حتى بالغوا في ذلك يقول . ابن سيد اللص في عبد المؤمن[1] :

خليــفــةُ الله ما جــاء الزّمــانُ به ... إلا لِـيـرفـُـوَ ما فــيـه مِـن الخَــــلل
تـغـنى بـعـزمتـه الأقـدارُ مُجليـة ... عن حــادث جَـلل في الحــادث الجلل
مَلِك إذا تـشـغل الدُّنـيـا أخا تـرَف ... ألـفَيـتَـه بالمـعــالـي جـدّ مشـتـغـل
وإنْ نـظـرْتَ إلـيـه وهْـوَ مُـنـفــرد ... رأيـتَ فـيـه جـمـيـع النّاس في رَجُـل
ما زال يُغضي فيُعطي صافحاً كرما ... والصّفح قد يحمِل العاصي على الزّلل

إن عادة كثير من الشعراء في مدائحهم أن يظهروا ـ ابتداء ـ شمائل الممدوح التي يتميز بها ، ثم بعد ذلك يذكرون صنائعه وأعماله في البلاد . وعبد المؤمن فريد في الزمان ، وكأنّ الله خلقه للملمّات الصعبة والخطوب الجليلة لا لسفاسف الأمور وترهاتها، فهو أ ُمة لوحده ، بالإضافة إلى سعة كرمه ، وصفحه عن المخطئين . كل هذه الخلال تجمعت في ممدوح الشاعر. وكأن الشاعر بذكر هذه الصفات غير الملموسة يمهد لذكر صفات أخرى ملموسة حيث يقول :

وكــم له وقــعـة في كلّ طـاغــيـة ... عَلتْ على وقعات الأعصُر الأوُل
يغْـرو المُحـدّق في تـردادها نظراً ... ما ليس يعروه من صفّـين والجَمَل*
فدوّخ الأرض لم يعْتص له مِلكٌ ... إلاّ وصـــيّرهُ أعــفـى مِن الطّــلل
ولا تمَـتّــع جـــيـش أنْ يَديـن له ... إلا تـــوزَّع بـيـــن القـــتـل والنّـفل
حتّى إذا اسْتَوسَق الأمرُ العلِيُّ له ... بالشّرق كرَّ لنصر الغرب في عَجَل
أضحى بِكرَّته الإسلامُ في جـذل ... والمشـركون و أهل الكفر في جدل
أبلِغ ذوي الشّرك والإلحاد قاطبة ... أنْ ما لــهـم مِــن جنـود الله من قِبل

---

[1] ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة . ص 99.

* ـ إشارة إلى الحادثتين المشهورتين في التاريخ الإسلامي ، الواقعتين على عهد الإمام عليّ رضي الله عنه .

أتاكـمُ الجـيــشُ محفـوفا جوانـبه   بالـمَــشـرفــيّـة والخــــطـي الـتّبُل
ريـعـوا إلى السّـلم والإسلام ويحـكمُ   لا تحــسـبوا دولة التّــوحيـد كالدُّول
...والله يُـخلِـد مـــولانـا و سـيِّـدَنـا   حتّـى يـبـلـّغ فـــيكم غايـة الأمــل

بهاته الفتوحات والانتصارات التي دوَّخ بها عبد المؤمن شرق البلاد وغربها، وبتلك الشمائل التي تميز بها ، كالحزم والشدة تجاه المناوئين ، فرض مكانته في نفوس الشعب ، وهرع إليه الشعراء يمدحونه . ولولا الروح الدينية التي بعثته على التعاطف مع الشعب الأندلسي لما أتعب نفسه في إرجاع الأمن والسلام إلى وطن ليس بوطنه.

و تزداد الصورة وضوحاً في قصيدة الأصم المرواني المعروف "بالطليق" حيث تبرز سمات المدح الملوكي وخصائصه الفنية ، وتتضح فيها فتوحات عبد المؤمن وخدمته للدين والوطن ، يقول المرواني الطليق [1] :

حـدّث عـن الرُّوم في أقـطـار أنـدلـس   والبحـر قد مـلأ العبـرين بالعـــرب
...يرمي بهم ظَهر طرف بطنَ سابحة   فالبَـرُّ في شغُـل والبحـرُ في صخب
...منــه يــعــاود هــذا الفــتـحَ ثانـيــة   أضعاف ما حدّثوا في سالف الحِقب
ويُـلــبسُ الدّيــن غضـّـا ثــوب عـزّتــه   كـــأنّ أيّام بـــدر عــنــه لم تــغِــب

والقصيدة في مجملها حماسية تحدّث فيها الشاعر عن فتوحات عبد المؤمن في بلاد الأندلس والمغرب ، وخدمته بهذا العمل الدين والدنيا . والملاحظ أن الشاعر اعتمد بشكل كبير على إنجازات عبد المؤمن وذلك ليدعم مدحه لصاحبها ، يقول المرواني الطليق :

إنْ آب مِن غـــزوة أفـنــت أعـاديـه   كان الإياب لأخرى أعظم النّسب
سما إلى الشّــرف الأقـصى بِهمّتـه   دين مُـريح وعــزم دائم التّـعـب
...مَلِك إذا ما دعته الحربُ مِن بُـعُد   طار السّفين أمام الجحفل اللّجـب
...والجيش تختطف الأرواح راحتُه   مِـن سـابق زبـد أو عائـــم درب
كــتــائب صفـّـــها و الآل أرديـــة   بِيض فأشبهت الأسطار في الكُتب

[1] م . س . ص 102 .

ثم يذكر شمائله المعروفة : كالتبسم ، والجود ، والعلم ، والأدب ...

جــمُّ المـواهـب للــزّوار مـبـتسم — يستغرب النّاس وقـتا فيه لم يهـب

ما بيـن راحتـه الطُّولَى وخاطره — يفـيض بحرُ النّدى بالعلـم والأدب

كأنـما بِـشـره والوجـود متّصـل — برْق تألّق فـوق الرّاكب السّــرب

خليـفـة الله بـادي العِـلم مـبتـسم — عن جوهر مِن بديع النّظم منتخب

وقد وفّق الشاعر في مدحه ؛ فقد ذكر ابن صاحب الصلاة ما أحدثته هذه القصيدة في نفس الممدوح ، إذ « تهلل وجه أمير المؤمنين رضي الله عنه لها ولحسن أغراضها وهزته أريحية المعارف لما فيها من الأوصاف وتبلج فلق مجده عن هبة جزلة للقرشي الطليق ، أبدت لقوله القبول وسفرت له عن وجه طليق .»[1]

وجاء في المعجب أنه عندما أكمل قصيدته ، قال عبد المؤمن : « بمثل هذا تُمدح الخلفاء»[2].

و آخر ما نختم به المدائح التي قيلت في الخليفة عبد المؤمن قصيدة مشهورة للرصافي البلنسي تصل أبياتها إلى اثنين وستين بيتاً ، أنشدها الشاعر في المناسبة نفسها ، أي عند نزول عبد المومن بجبل الفتح . والغريب في الأمر أن الشاعر لم يتجاوز عمرُه آنذاك العشرين سنة . ولكنه ألقى بين يدي الخليفة قصيدة فاقت كثيرا من القصائد التي أُنْشدت يومئذ وهي قصيدة وقع للرصافي فيها إحسان كبير . وإذا كان هذا الشاعر من « من مجيدي شعراء عصره ، لاسيما في المقاطيع كالخمسة الأبيات فما دونها »[3] ، فإنه أجاد كذلك في المطولات ، لاسيما في الحنين والمدح وفي بعض مراجعاته ومكاتباته لإخوانه و أصدقائه ، يقول الرصافي في مستهلّ تلك القصيدة :[4]

لو جئتَ نار الهُدى مِن جانب الطّور — قبسْتَ ما شئتَ مِن عِلم ومِن نُور

---

[1] م .س ، ص 105.

[2] عبد الواحد المراكشي . ص 158.

[3] م . ن ، ص 163.

[4] ديوان الرصافي . ص 87.

مِــن كـلّ زهـراء لم تُـرفَع ذؤابـتـها ليلاً لِسار ولم تـشبب لِمـقْرور
فـيْضِـيّـة القـدْح مِن نــور النّبوة أو نــور الـهداية تـجلو ظلمـة الزّور
ما زال يقضـمـها التّـقوى بمـوقدها صــوّامُ هاجــرة قــوّام دَيــجور
حتّى أضـاءت مِن الإيـمان عن قبَس قد كان تحت رماد الكُفر مكفــور
نُــور طـوى الله زنْد الكون منه على سـقـطٍ إلى زمــن المهدي مَذخور

لم يكن المدح السياسي في ظلّ الدولة الموحّدية مقصورا على وصف المواجهات مع الأعداء والانتصارات عليهم ، ولم يُقصَر أيضا على الإشادة بأخلاق الموحدين وصفاتهم ومعاملاتهم ، وإنما وجدنا في بعض القصائد المدحية آثار الفكر الذي قامت عليه هذه الدولة التي يرجع أمرها إلى المؤسّس المهدي بن تومرت ، وتدور في مجملها حول المهدية وعصمة الإمام والتوحيد والنور و غير ذلك من المعاني وفي هذه القصيدة شيء من ذلك .

وشاعرنا الرصافي البلنسي له موقف[1] واضح وصريح من المدح التكسبي ، فقد أنف أن يُوجه قصائده إلى الحكام بُغية النيل من عطاياهم لأنه اكتفى بحرفة الرّفو للاسترزاق منها . ومن ثمّ فإن مدح الرصافي للحكام الموحدين هو اعتراف بفضلهم على بلاد الأندلس ، وقد بعثه على نظمه حبه لوطنه .

وكان بعض الشعراء ـ ومن بينهم الرصافي ـ يراعون في مدائحهم السياسة التي ينهجها الممدوح والعقيدة السائدة آنذاك .

ومن خلال الرائية السابقة يتبين لنا أن الشاعر كان يعزف على هذا الوتر حيث تحدث عن نور ليس كالأنوار التي عهدها الناس لهداية السارين ليلا ، وليس كمثل النار التي تصطلى ليتدفأ بها الضيف ، وإنما رُفع هذا النور لهداية البشرية

---

[1] يقول الرصافي من قصيدة ، مبينا هذا الموقف:

على أنني لا أرتضي الشعر خطة ولو صُيِّرتْ خُضرا مسارحي الغبرا
...يقول أناس لو رفعتَ قصــيدة لأدركتَ حــتما في الزمان بها أمْرا
ومن دون هذا غَيْرة جاهــليّــة وإن هي لم تلـزم فقد تلــزم الحُــرا

ديوان الرصافي . ص 77 .

وإخراجها من ظلمات الضلال والغواية . وفي البيت الأول إشارة إلى ما جاء في قصة سيدنا موسى ، إذ وقف عند جبل الطور وطلب من الله ـ تبارك و تعالى ـ أن يتجلى له . وعبد المومن بن علي هو أيضا نزل عند جبل الفتح المذكور سابقا ، والذي كان منطلقا لفتوحات كثيرة في بلاد الأندلس .

ولأن بعض الأحاديث النبوية تتحدث عن أنه سيظهر في آخر الزمان رجل اسمه المهدي من آل البيت ، يخرج إلى الناس فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيم الشريعة ويهتدي به الناس ، وهو ما حاول فعله المهدي بن تومرت عندما جاب كثيرا من البلدان واتبعه كثير من الخلق ، حاول الشاعر في هذا المقام الانطلاق من هذه المعاني العقدية ليهز أريحية الممدوح ويعطي قصيدته صبغة من الأصول التي نشأت عليها دولة الموحدين.

ولما نزل عبد المؤمن بجبل الفتح بنى به مدينة ذات قصور ودور عظيمة ، لذلك فإن الرصافي في تلك المقدمة التي أبدى فيها الفكر المهدي راح يصف دار أمير المؤمنين وينعتها بأجمل الأوصاف ، فهي دار عز وملك ، وأساسها القدس والتطهير ، وهي عامرة بالتسبيح والتكبير، والتقى والدين ، وكل ما من شأنه أن يجعل عبد المؤمن شخصية كاملة ، يقول الرصافي :

يا دارُ دارَ أمـيـر المـؤمنين بسفـ ... ح الطَّود،طود الهُدى،بوركتِ في الدور
ذات العمـادين مِـن عزّ ومـملـكـة ... على الأسـاسـين مِـن قُدس و تطهـيـر
... مواطئ مِن نبي طال ما وصلت ... فـيهـا الخُـطـى بـين تـسبـيـح وتكبيـر
... وحيث قامت قناة الدّين ترفّل في ... لـواء نـصـر على البـرّين منـشـور
في كفّ مُنـشمـر البردين ذي ورع ... على التّـقـى و صـفـاء التّـفس مـفطور

والظاهر أنّ الشاعر كان معجبا بجبل الفتح ، فوقف عنده طويلا متأملا واصفا ، كما وقف ابن خفاجة عند الجبل في قصيدته المشهورة" مقيم وذاهب" ، بل كان الرصافي البلنسي عندما يذكر جبل الفتح يردفه بذكر صفات الممدوح , وكأنه يريد أن يقارن بين الجبل وعبد المؤمن في القوة والصلابة والشموخ والرفعة والعظمة .

فبعد أن وصف ـ باختصار ـ عملية العبور من المغرب والنزول بجبل الفتح الذي أصبغ عليه عدة صفات ، ها هو يفضل ـ على الرغم من تلك الصفات ـ الممدوح على الجبل قائلا :

لله ما جــبل الفـتحَـين مِـن جبل　　　مُعظَّم القدر في الأجبال مذكور

...أخلِق به وجبال الأرض راجفة　　　أن يطمئنّ غدا مِن كلّ محـذور

كـفـاه فضلاً أن انـتابت مواطئة　　　نعلا مليك كريم السّعي مشكـور

مستنشِـئا بهـما ريح الشّـفاعة مِن　　　َثرى إمام بأقصى الغرب مقبور

فهو يدّعي أنّه إذا أصابت جبالَ الأرض رجفةٌ ، فإن جبل الفتح سيكون بمنأى عنها ، لأن بركة عبد المؤمن بن علي الذي نزل به ستمنعه من تلك الرجفة ، كذلك فإن هذا الجبل سيستنشق ريح الشفاعة التي تأتيه من قبر الإمام المهدي .

ثم يذ كر الشاعر في الأخير بطولات الممدوح ودفاعه عن بلاد الأندلس وجيشه القوي الذي دحر به جيوش العدو، مركزا على قصة سيدنا موسى عليه السلام عند ما ضرب البحر بعصاه فانشق نصفين ، وقصته مع فتاه يوشع عندما وقفت له الشمس ، مشبّها ، في ذلك ، المهدي بن تومرت بموسى وعبد المؤمن بن علي بيوشع يقول :

ملِـك أتى عـظـما فـوق الزّمـان فـما　　　يــمرّ فـيه بــشيء غـير محقور

ما عـــزَّ في الــدّين والدّنـيا لـه أرَب　　　إلا تــأتى لــه مِــن غـير تـعذيـر

... مميّـز الجيـش ملـتقّا مـواكـــبـه　　　مِن كل مثلول عرش المُلك مقهور

مِن الأولى خـضعوا قسْرا له وعـنوا　　　لِأمــره بيـــن مَـــنهـيّ ومـأمـــور

... بقيّـــة الحــرب فاتـوها وما بـهـمُ　　　في الضّرب والطّعن سيماء لتقصير

... إذا صـــدعتَ بأمـــر الله مـجتهدا　　　ضربتَ وحدَك أعـناق الجماهـير

...فالبحر قد عاد مِن ضرب العصا يَبَسا　　　والأرض قد غرقتْ مِن فَور تنّور

وإنّـــمـــا هـو سـيـف الله قلـّـــــده　　　أقوى الهداة يدا في دفـع محـــذور

والشّمس إنْ ذ كرتْ موسى فما نسيَت　　　فـتــاه يــوشـــع قـمَّـــاع الجبـابير

وعلى الرغم من بعض المبالغات في هذه القصيدة فإنّها تدلّ على مدى معرفة الشاعر – وهو صغير السن – بفن المدح . وذلك ممّا مكنه من صياغة هذه القصيدة الجميلة ووضع الممدوح في مكانه الذي يستحقه .

1-2- مدح أبي يعقوب يوسف :

لقد كان أبو يعقوب يوسف كأبيه عبد المؤمن بن علي حيث سار على نهجه في القوة والحزم ، وسخر قوّته لافتتاح كثير من المدن الأندلسية والحصون و القلاع ، فأكمل ما ابتدأه أبوه من قبل . لذلك فإن أغلب القصائد المدحية التي قيلت في هذا الحاكم كانت بمناسبة غزواته وفتوحاته .

ولمّا انجلى الأعداء عن مدينة بطليوس ، وفتح الموحدون هذه المدينة « سُرّ بذلك أمير المؤمنين وشكر الله كثيرا على لطفه وصنعه ، فامتدحه الشعراء على ذلك الصنع الأجمل واللطف الأكمل »[1]

والملاحظ أن هناك بعض القصائد التي قيلت في أبي يعقوب بمناسبتين ، فمثلا بعد وفاة عبد المؤمن بن علي ، أخذ البيعة من بعده ابنه أبو يعقوب ، وقد كان هذا الأخير قبل ذلك أميرا افتتح على عهد أبيه عددا من المدن الأندلسية ، وفي هذه المناسبة وفد إليه الشعراء لتهنئته بالخلافة فذكروا انتصاراته و إنجازاته في بلاد الأندلس ، يقول أبو الوليد إسماعيل بن عمر المعروف بالشواش الشبلي [2] :

عزمات منصور العزائم غـالِـب ضمنتْ فتُوح مَـشارق و مَـغارب
يا سـعدَ ديـن الله أفـلح حـزبُــه وهَـوتْ عداه في عـذابٍ واصِـب
...يمضـي لِأمـر الله غير مُعـرّج متوجّـها بالنّـصـر ضـربة لازب
... أمـنـتْ كتـائبُه مكيداتُ العِدى واستصحبتْ لِلنّصر ألزم صاحب
واستـنـجدتْ بـنـجـاحه و بـيُـمنـه فقطعن عرض البِيد غير لواغب
بِسـوابـق كـبـوارق ومـواكـب ككـواكـب ، وجـنـائب كـخـبائـب

---

[1] ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب . ص107 .
[2] ابن صاحب الصلاة :المن بالإمامة . ص 143 .

طلعَتْ على الأعداء سحْبا للرّدى		سـالــتْ دَمـا بأبـاطــح و مـذانــب
تـلك المـخـايل أغـدقتْ وكـافـة		فحذار مِن زجل الرّواعد صائب
تلك السّيول تغول مَن تسطو بـه		فاطلـبْ أمانا مِن هِـزبْـر غاضب

وتمضي القصيدة على هذا النمط الحماسي في أبيات كثيرة تبيّن سطوة أبي يعقوب وفتكه بالمناوئين . وقد اختار الشاعر ألفاظا توضح قوة الجيش الفاتح ، واستعمل تشبيهات تصور تلك القوة وذلك البأس .

ولقد خالف الشواش الشبلي كثيرا من الشعراء في بناء قصيدة المدح السياسي التي كانت في الغالب ما تبتدأ بذكر صفات الممدوح ثم تتخلص إلى ذكر المناسبة ، لكن شاعرنا بدأ بذكر فتوحات الخليفة ثم ذهب بعد ذلك إلى التذكير ببعض مناقبه ، وممّا قاله فيه:

الحقّ عـنـد إمـام حـقّ مُـجـتـبَى		يهدي الأنام إلى الطّريق اللاّحب
يقضي فـيـمضي كلّ حـقّ واجب		إلاّ إذا أعَطَى فـفَـوق الواجــب
يَغـنـي و يُـغْـنى راضيـا أو ساطيا		و يـفي بـبذل مـواهـب و نـوائب
ضمــن الإلــه لكفِّــه ولســيــفـــه		رزقَ الأنيس وكلَّ وحش ساغب
...تحوي نداه الطّير في وُكناتها		فـتـرنّ تـرجـيـعا بشُـكـر دائـب
عرفـتْ عـوارفه فتشكر فضلَـه		و تدين إعـظامـا بحُـكـم الواجـب

والملاحظ أن الشاعر خلع على ممدوحه صفات المثالية كما خُلعت على أبيه عبد المؤمن ، فهو المجتبى والمصطفى من الخلق ، والهادي إلى الطريق المستقيم ، وهو الإمام القائم بالقسط والحق ، ثم ذكر جوده ومعاملته لغيره التي لم تكن مقصورة على بني الإنسان ـ وهذا معنى آخر أضافه الشاعر إلى قصيدة المدح السياسي ـ بل تعدى جوده وإحسانه إلى الوحوش والطير . ثم يعود إلى مدح جيش أبي يعقوب مشيدا ببطولاته ، ويختتم قصيدته بالدعاء للخليفة بطول البقاء والغبطة ، والحفظ من كل خطب وبتهنئته بطالع السعود ، حيث اقترنت البيعة ـ كما قلناـ بالفتوحات .

وقد اقترن هذا المدح أيضا بمناسبة بعض الأعياد الدينية ، فبعد تلك الانتصارات التي حققها أبو يعقوب ، ينظم الشواش الشبلي قصيدة ثانية يهنئ فيها الخليفة بعيد الفطر ، و يمدحه فيها مدحا خالصا إلا في بعض الأبيات القليلة المتناثرة التي يشير فيها إلى فتوحاته و الملاحظ في هذا المدح أن الشاعر أكثر الحديث عن جود أبي يعقوب وكرمه ، وكأن الشاعر أراد التكسب بهذه القصيدة . وتحدث أيضا كالعادة عن أخلاقه وصفاته المعروفة ، كالعدل و الشجاعة والهدى والحلم والسماحة والعلم والديانة ، بل ذكر أنه دواء لكل داء أعيا الطبيب ، و به صح الزمان من كل الأدواء ، يقول الشبلي[1] :

بأمرك أسمع الدّاعي المهيب	وسعدك يُسِّر الفتح القريب
وملكك مهّد الدّنيا فقرّت	وقد قلقتْ بمضجعها الجُنوب
...تمادت مِن سماحتك العطايا	وعاذت مِن بسالتك الحروب
قتلتَ صروفها قسرا فمنها	على شفق الدّجا عْلق صبيب
...إمام الدّين و الدّنيا بجد	وجد لا يميل و لا يخيب
به رُعبتْ رعايلها وكانت	سُدى وأريح سارحها الغريب

2- مدح الحفصيين :

لما آل شرق الأندلس إلى السقوط ، وخاصة بلنسية ، أصبح الأندلسيون يطلبون النجدة من الضفة الأخرى ، و على وجه الخصوص من المغرب الأدنى الذي كان تحت سلطة الدولة الحفصية التي كانت أقوى دولة في المنطقة .

وقد أشرت في الفصل السابق إلى أن كثيرا من الشعراء و الكتاب الأندلسيّين هاجروا إلى بلاط هذه الدولة ، ملتمسين الأمان ولكنهم ظلوا يكابدون الشوق و الحنين إلى بلادهم . وقد بقي هؤلاء الشعراء مخلصين لوطنهم ، فلم تُلههم الحياة المطمئنة التي وفّرها لهم الحفصيون . ولذلك راحوا يطلبون منهم بعث نجدات إلى الأندلس

[1] م .س . ص144 .

لتخليصها من حركة الاسترداد النصرانية . وكانوا يمدحونهم بقصائد كثيرة علهم يلبّون طلبهم .

و الملاحظ أنّ مدح أولئك الشعراء للحفصيّين كان يأتي ـ في الغالب ـ ضمن قصائد الاستغاثة أو التي نُظمت للتهنئة في بعض المناسبات الخاصة .

و لا أجد مِن أولئك الشعراء مَن مدح الحفصيين اعترافا بالفضل أو دعوة للاستنفار مثل ابن الأبار البلنسي و حازم القرطاجني ، فلهما قصائد طوال أغرقا فيها الحفصيين مدحا ، و لم يكن هذا المدح تكسبيا بل كان صادقا ، نظمه أصحابه شحذا للهمم لإنقاذ الأندلس ، بلادهم .

ومن تلك القصائد حائية نظمها ابن الأبار في مدح أبي زكرياء الحفصي. وقد تحدث في مستهلها عن وداعه لأهله و إقباله على الأمير الحفصي ، طالبا من أبنائه الدعاء للأمير ، ووصف حنينه إلى وطنه ، ذلك الحنين الذي سطا على قلبه فبرّحه . ثم تخلص إلى مدح أبي زكرياء فقال :[1]

أحـدّ لسـان الشـكـر جلـب المنائـح	فلا غَـرو أنْ غارت عـيونُ المدائح
...ومَن يرْج يحيى المرتضَى لحياته	ينـلْـها على رغم اللّيـالي الشحائح
فبَـرق النّـدى منه بـغـرّة ضاحـك	و زنْـد الـوغـى منـه بـراحة قـادح
إمــام هُـدى تـقـفو الأئـمّـة نهـجه	فيأتمّ منـهم صالـحـون بصـالــح
... مِــن المــلأ الأعـلـى تـذلّ لـعزّه	و تخضـع أعناق الملوك الجـحاجـح
...هو المَلِك لا ترقى الملوك مـكانـه	و أين مِن الإصباح ضوء المصابـح

ولقد اعتمد ابن الأبار في هذه القصيدة على مبدأ المقارنة ، حيث قارن بين أبي زكرياء و الملوك الآخرين ومقررا تفوقه عليهم . و يبدو أن هذه القصيدة من أوائل ما قاله الشاعر في ممدوحه .

(1) ديوان ابن الأبار . ص130 .

ولابن الأبار قصائد أخرى في هذا الغرض كرائيته التي نوّه فيها بقوة أبي زكرياء ، و التي يقول في مطلعها [1] :

يقرّ بعيني أنّ قلبي ما قرّا   نزاعا إلى مَن لو سَرى طيفها سِرا

وهذه القصيدة جرى فيها الشاعر مجرى الشعراء الأقدمين حيث ابتدأها بمقدمة غزلية طويلة ، ثم تخلص إلى مدح الأمير الحفصي مركزا على جوانبه البطولية ، وانتصاراته في البر و البحر ، وفتوحاته المختلفة . وذكر أنه ناصر الدين و الدنيا ، وقاهر الأساطيل البحرية النصرانية ، كما أشاد بسفنه القوية . وإذا كان الأستاذ عبد السلام الهرّاس يذكر أنّ هذه القصيدة يمدح فيها الشاعر أبا زكرياء ، ويحثه على استرداد الأندلس ، فلسنا نجد فيها حثا على الاسترداد . ولعل هذا الأمر ضمني لا بالتصريح كما فعل الشاعر في قصائد أخرى ، مثل القصيدة المشهورة التي مطلعها "نادتك أندلس فلب نداءها" . يقول ابن الأبار في هذه القصيدة :

ولُذتُ بيحيَى المُرتضَى أستعينه   فأحدقَ بي أنجاده جحفلا مجرى
أحقّ ملوك الأرض رأياً و راية   بفوز ونصر،لا عدا الفوز والنّصرا
إليه انتمَى فضل الأئمّة وانتهى   مساعي للدّنيا تقدّم للأخرى
...جريئا حريّا بالخلافة مجمَعا   عليه فبُشرى الدّين بالأجرإ الأحرى
حَبا و حَمى طولا و صولا تكافآ   فما أسأرتْ علياه عسرا ولا ذعرا
إذا دعت الحرب العوان بعزمه   ولبّى صداها فارقب الفتكة البكرا
تسنّى له في البَرّ و البحر ما نوى   سعادة جدّ أخدم البَرّ و البحرا
تُفاتِحه الأعوامُ بالفتح خدمة   ويسبق في مرضاته العجُز الصدرا

ولابن الأبار قصيدة أخرى فيها دعوة صريحة إلى إنقاذ بلاد الأندلس . وجاءت هذه الدعوة في ختام القصيدة . وقد حوت هذه القصيدة نفس ما تحدث عنه

[1] م . س . ص 216 .

الشاعر في الرائية السابقة ؛ فالمعاني معادة ، والصفات التي ألبسها ممدوحه مكرورة، والحديث عن بطولاته وجيشه وما فعله بالروم معاد . يقول في آخرها :[1]

فـأخـلــق بـه ألا يـع متـوّجـا   إذا لــم يـنــل مــنـك الأمــان مُعمّـما
سيأتي برأس الكافر الكافرُ الذي   يـطــمّ علـيـه المـنـشـآت إذا طـــما
يغزى جناب طال بالغزو عهـده   ويُفتَـح باب كــان للـكـفـر مُــبـهَــما
فــدُم أيّـها المـولى مُـعانا مـؤيّدا   متى رمْتَ مغنى حازه السّيف مغنما
وسُلَّ على العادين سيفك مُنـدِما   وسُحَّ عـلـى الـعافـيـن سـيفـك مُنعـما

أما حازم القرطاجي فله قصائد كثيرة في مدح الحفصيين . واعتقد ـ بناء على ديوانه ـ أنّه لم يمدح حكاما آخرين غير الحفصيين ؛ فله مثلا رائية مدح فيها أبا يحيى بعد فتح مدينة سبتة .ولم يكن الشعور الوطني إقليميا أو جهويا ، بل كان يعم المنطقة بأكملها ؛ فإذا فُتحت مدينة في المغرب الإسلامي (أدناه أو أوسطه أو أقصاه) ارتفعت أصوات الشعراء داعية إلى فتح مدن الأندلس . لذلك فإن حازما طلب في هذه القصيدة من الأمير إعادة فتح مدن الأندلس . وفد كان للأمير موقف بطولي في قضية مدينة بلنسية ، فهو وإن لم يحررها ، بعث إليها جيشا كان أوله في الأندلس وآخره في تونس.

وقد افتتح الشاعر قصيدته هذه كذلك بالنسيب على طريقة الشعراء الجاهليين ثم تخلص إلى المدح ، فذكر فتح مدينة سبتة ، وانتهى إلى حث الأمير الحفصي على فتح الأندلس فقال[2]:

وفـتّـح سبـتة، قد وافـاك يقـدمـها   كما اقـتـفـتْ أثر الحادي بها العيـر
فاهنأ بغـرّ فـتـوح طـالعـتـك كما   تفتّحت في ُذرى الرّوض الأزاهير
كم للجـزيرة مِن بشـرى و تـهنئة   عنها عــيون الأماني نحوها صور
فجدّدوا مِن رسوم للهُـدى دُرستْ   هناك يستــنّ فـيـها الرّوم والمـــور

---

[1] م .س . ص 285 .

[2] ديوان حازم القرطاجني . ص 61.

... يرمي العدا بهواديها إمام هدى لله مسـتنـصـر، بالله منـصـور

و فرع مجد زكا طيبا ولا عجب مِن طيب فرع زكتْ منه العناصير

و أشهر ما قاله القرطاجني في هذا الجانب مقصورته الرائعة التي حوت موضوعات متعددة ، كرثاء المدن ، و الحنين إلى الوطن ، ووصف الطبيعة ، والاستنجاد . إلا أن المدح ظل سائدا فيها . ويكفي للتدليل على هذا المدح أن نورد مقتطفا واحدا منها ، لأن الشاعر كان يمدح الأمير في مقطعات متباعدة ، تفصل بينها الأغراض المذكورة سابقا . يقول حازم من مقصورته[1]:

فلو تجود قدْر ما ضنتْ حكتْ جود أمير المؤمنين المرتجَى

خليفة الله المُسمّى المُكتنى خير الأسامي السّاميات والكنى

...لم يعدم الوحي، ولا الهدى بهم ليثا بما يسمى به الشّبل اكتنى

...وكان للمهديّ منهم صاحب في حِلية التوحيد جلّى و شأى

ذاك أبو حفص الذي إلى علا سميِّه الهادي أبي حفص نما

... مستنصر بالله ، منصور به مؤيّد بعونه على العِدى

...جرى مِن العليا إلى أقصى مدى ما بعده لمختطّ من مختطى

واللافت للانتباه أن بعض القصائد التي قيلت في الحفصيين لم تخل من الإشادة بالدعوة المهدية و الأفكار التي جاء بها المهدي بن تومرت والتي لم يتنكر لها الحفصيون بعد أن تجاوزها الموحدون .

وإذن فلقد أخذ المدح السياسي الذي نُظم في الحكام الموحّدين و الحفصيين حيزا واسعا في الشعر الأندلسي . وقد كان في الغالب ، إن لم نقل في الكل ، بمنأى عن التكسب و الاستجداء ، لأن السبب الرئيس الذي دفع أولئك الشعراء إلى نظمه هو رجاؤهم تحرير المدن الأندلسية التي كانت ترزح تحت وطأة النصارى .

---

(1) حازم القرطاجني .ص24 – 26 .

و بشكل عام نقول بأن إحساس الشاعر الأندلسي تجاه وطنه هو الذي بعثه على مدح أولئك الحكام حثا لهم على تخليص وطنه من قبضة الأعداء ، أو شكرا لهم على صنيعهم .

الفصل الثّالث

الاتّجاه الوطني في النّثر الأندلسي

على عهد الموحّدين

يُعد النثر جزءاً مهمّا من الأدب الأندلسيّ ، احتفى به الأدباء و الحكام احتفاءً كبيراً . لذلك كُثر الناثرون .وقلّما نجد في بلاد الأندلس شاعراً لا يجيد الكتابة أو ليس له مكان في ديوان الانشاء . وقد كان لكاتب الرسائل « حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس ، و أشرف أسمائه : الكاتب . وبهذه السِّمة يخصّه من يعظّمه في رسالة»[1] .

فمنذ خطبة طارق بن زياد التي قيل عنها الكثير، والخطب والرسائل وكلّ ألوان النثر تترى في هذه البلاد ؛ فلا يأتي عصر من العصور إلاّ ويعجّ بطائفة من النّاثرين الذين بزُّوا المشارقة ، كمنذر بن سعيد البلوطي وابن حزم القرطبيّ وابن شُهيد وابن زيدون وأبي حفص الهوزني وابن أبي الخصال وغيرهم كثير.

ولمّا جاء عصر الموحّدين ظهر كُتّاب كُثر. بل إنّ المؤرخين كانوا في مؤلفاتهم يضفون على كتاباتهم فنّيات الكتابة الأدبيّة وجمالياتها ، حتى لكأننا نقرأ نصّاً أدبياً لا نصّاً تاريخياً ، ومن أبرزهم في ذلك ابن صاحب الصلاة في مصنّفه : "المنّ بالإمامة" .

وعلى الرغم من أنّ النثر الأندلسي كانت روافده من المشرق ، فإنّه أحدث نقلة نوعية في التطور والتميُّز، وبخاصة في القرنين الخامس والسادس الهجريين[2] ، أي من عصر ملوك الطوائف إلى عصر الموحّدين حيث اكتسح موضوعات كانت حكراً على الشعر، كالوصف ، والمفاخرات ، والمنازعات التي سكب فيها الأندلسيّون من روحهم ، وتسرَّب إليها من طبيعة بلادهم و بيئتهم ما جعلها أندلسية .

---

(1) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة . ص 325 .

(2) ينظر : أيمن محمد ميدان : الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب ، المتنبي والمعري نموذجين ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، د .ط / د .ت ، ص 165 .

ويُضاف إليها بعض الرسائل والكتابات النثريّة الأخرى التي شاعت في هذه البلاد مثل الزرزوريات [1] ، والكتابة الخيالية [2] ، كمناظرة السيف والقلم لابن شهيد ، والمطريات [3] ، والمعتضديات [4] .

وعند تتبعنا لهذا النتاج النثريّ في عصر الموحّدين وجدنا أنّ حظّ الاتجاه الوطني منه ، مقارنة بالشعر ، كيف كان حال الاتجاه الوطني في النثر الأندلسيّ في هذا العصر ؟ .

من خلال استقرائي لما عثرت عليه من كتابات نثريّة رأيت أن الاتجاه الوطني انحصر في أنواع أذكر منها : رسائل المفاخرات والمناظرات ، ورسائل في بيان فضل الأندلس ومحاسنها ، ورسائل الدعوة إلى الجهاد وطلب الإغاثة ، وما كُتب في رثاء المدن ، ورسائل الفتوحات والغزوات ، وما كُتب في الإشادة بمحاسن المصنوعات.

---

[1] ينظر : فوزي سعد عيسى: الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د .ط / 2002 ، ص 87 ؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط2001/1 ، ص 237 .

[2] ينظر : ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ليبيا ، تونس :الدار العربية للكتاب ، د.ط / 1970 ، 2/1 /--435 ؛ فرناندو دي لاجرانخا : مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات ، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم ، ص 33 .

[3] ينظر : أيمن محمد ميدان :الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب ، ص188 .

[4] ينظر: م .ن ، ص 190 .

1- رسائل المفاخرات والمناظرات

لم يكن هذا اللون النّثري وليد البيئة الأندلسيّـة ، إذ وُجِدَ ـ من قبل ـ في بلاد المشرق وعُرف بها . ومن أمثلة ذلك المناظرة التي وقعت بين النعمان بن المنذر وكسرى الفرس حيث راح كل واحد يفتخر بجنسه وأمته وينتقص شأن الآخر[1] بأسلوب أدبي بديع ينمّ عن بلاغة كلّ منهما وحكمته . ويلاحظ على المفاخرات والمناظرات في هذا العصر ـ أي الجاهلي ـ أنها كانت شفوية خطابية . ثم تحوّلت في العصر العباسي على يد الجاحظ إلى فنّ نثري قائم بذاته . ومن أمثلة ما جاء عنده: مفاخرة الجواري والغلمان ، ومفاخرات بين أنواع الحيوانات ، ومفاخرات بين البلدان، وأخرى بين الصيف والشتاء[2]...إلى غير ذلك من الأنواع التي جعلت الجاحظ يتبوأ المكانة العليّة في هذا اللون الأدبي ، والأمر نفسه بالنسبة إلى الكاتب سهل بن هارون .

وبعد ذلك انتقل هذا اللون الأدبي إلى بلاد الأندلس ، وراح الكتاب الأندلسيّون يقلّدون المشارقة فيه ويضيفون إليه ما اشتهر في الأندلس ، وصبغوه بصبغتهم ، فلم يبق الأندلسيون رهن التقليد بل كانوا أندادا للمشارقة. بل فاقوهم في بعض الأنواع ، كالمفاخرة بين ألوان الطبيعة ، « حتى غدت ميداناً يتسابق فيه الكتّاب ويعارض فيه بعضهم بعضاً» [3].

وأشهر ما عُرف عند الأندلسيين في هذا الجانب : رسالة لابن برد الأصغر في المفاخرة بين الأزهار[4] ، وأخرى بين السيف والقلم ، و مفاخرة بين قصرين من قصور المعتمد بن عبّاد كتبها أبو جعفر بن أحمد الداني ، وغير ذلك .

---

[1] ينظر: أحمد الهاشمي: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د .ط / 2007 ، ص 136 .

[2] ينظر: صالح بن رمضان : الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم ، بيروت : دار الفارابيّ ، ط 2007/1 ، ص 434 ؛ الجاحظ : الحيوان ، تحقيق يحيى الشامي ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، د .ط / 2003 ، 312/2 – 319 .

[3] علي بن محمد : النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس ، مضامينه و أشكاله ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1990/1 ، 1/ 443 .

[4] ينظر : أيمن محمد ميدان : دراسات في الأدب الأندلسي ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ط1 /2004 ، ص 80 .

ولكن الذي يهمّنا في هذه الدراسة هو تلك المناظرات والمفاخرات التي نلمح من خلالها الاتجاه الوطني في عصر الموحّدين . وعند التنقيب في بطـون الكتب المتيسّرة وجدت رسالة واحدة في المفاخرة بين مدن الأندلس لصفوان بن إدريس التجيبي وسنعرض مضمونها فيما يأتي .

رسالة صفوان ابن إدريس في المفاخرة بين مدن الأندلس :

لقد بلغ العصر الموحّدي أوْجَه فـي الحضارة والعمران ، حيث اعتنـى الحكام ببناء الجوامع والمساجد والحمامات والقصور والنوافير ، ونضَّدوا البساتيـن، وعَمَّرُوا القرى وأصبحت المدن الأندلسية آهلة بالسكان وغدت مقصداً لكثير مـن الناس ، حتى صارت كل مدينة تحوي كثيراً من المرافق وتتوفر على ضروريات العيش الحسن .

ولقد أُعجب الكُتّابُ ـكما أُعجب الشعراء ـ بهذه المدن ، وأشادوا بهـا وما فيها من سمات الحضارة ، بنثر هو وليد أمزجتهم وثقافتهم ، بل إنّ هذا اللون من التعبير يُعد « مظهرا من مظاهر التمهر في صناعة القول والتفوق فيه ، وفيه نزعة قومية وطنية للأندلسيين عامة » (1) . ومن الأمثلة على هذا اللون الرسالة المشهورة التي أنشأها الأديب الكاتب صفوان بـن إدريـس التجيبي مُجرياًفيها حواراً بين مدن الأندلس حيث راحت كل مدينة تذكر مناقبها وتفتخر على الأخريات .

ويبدو من خلال مقدّمة هذه الرسالة أنّ صفوان كتبها مخاطباً بها أحد الأمراء الموحدين . وكأنّ هذا الأمير وقع في حيرة فلم يدرأ َيّ هاته المدن خليقة باستقبالـه . فراح الكاتب يبرز ، على لســان كلّ مدينة ، خصائصها ومميزاتها ، ويتـرك الأمر في الأخير للأمير لكي يختار ما أعجبه من تلك المدن وما استحسنه منها. وكأنّهذا النص النثري تمثيلية أُعطي فيها الدور لكل مدينة لتتحدّث عن نفسها وتفصح عن جمالها في شيء من التعصب والمبالغة .

---

(1) مصطفى السيوفي : تاريخ الأدب الأندلسي ، القاهرة : الدار الدولية للاستثمارات الثقافية ، ط1 /2008 ، ص 124 .

والخطاب – كما جاء على لسان المقرّيّ – كان موجّهاً إلى الأميرعبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن عليّ . يقول صفوان بن إدريس[1]: «مولايَ أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه ، كما ضمّ على حبّك أحناءهم وأحناءه ، وأوصل إليك ما شئت من المنّ والأمان ، كما نظم قلائدَ فخرك على لبَّة الدهر نظم الجُمان ،فإِنَّك الملك الهمام ، والقمر التمام ، أيامك غُررٌ وحُجُول ، وفِرِنْدُ بهائك على صفحات الدَّهر يجول ، ألبستَ الرعية بُرود التأمين فتنافستْ فيك من نفيس ثمين ، وتلقتْ دعوات خَلَدِك لها باليمين ، فكم للناس ، من أمن بك وإيناس ، وللأيام ، من لوعة فيك وهُيام ، وللأقطار ، من لُبانات لديك وأوطار، وللبلاد ، من قراع على تملُّكك لها وجلاد ، يتمنّون شخصك الكريم على الله ويقترحون ، ويغتبقون في رياض ذكرك العاطر بمُدام حبّك ويصطبحون ، كلّ حزب بما لديهم فرحون».

ويبدو من مقدّمة هذه الرسالة الاتجاه الوطني بوضوح ، إذ بعد أن دعا الكاتب للأمير بطول البقاء وحبّ الناس له ، وبالمن والأمان ؛ أشاد به وبخصاله الحميدة ومدحه مدحا كالذي نجده في القصائد ، فهو الملك الهمام ، الجميل كالقمر في ليلة التمام . ثم ذكر أنّ الذي جعل أفراد رعيّته يحبّونه ويجلّونه هو بسطه لهم الأمان في أرجاء البلاد . ونخلص أيضاً إلى أنّ هذا النص وثيقة تاريخيّة تبيّن الوضع الذي كانت الأندلس تعيشه ، حيث أنّ الناس كانوا يطلبون الأمان من حكامهم . فلمّا حقّق الأمير هذا الأمر، تنافست المدن في استقدامه . وقد عبَّر كذلك عمّا حظي به الأمير من حبّ ، وناله من نصر فقال:« محبة من الله ألقاها لك حتى على الجماد ، ونصراً مؤزَّراً تنطق به ألسنة السيوف على أفواه الأغماد ، ومن أسرَّ سريرة ألبسه اللهُ رداءَها، ومن طوى حسن نية ختم الله له بالجميل إعادتها و إبداءَها ، ومن قدَّم صالحاً فلا بُدَّ أن يُوازيَهُ ، ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيَه» .

ثم يذكر سببَ إنشائه هذه الرسالة فيدّعي أنَّ مدن الأندلس تخاصمت في الأمير لمّا علمت بقدومه ، وهي التي شُغفت به حباً ، وتنتظر من زمن بعيد اليوم

[1] المقري : نفح الطيب ، 145/1 ؛ صفوان بن إدريس : زاد المسافر ، ص 14.

الذي يكون لها شرف استقباله ، فقال :« ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصارُ ، وطال بها الوقوف على حبّك والاقتصارُ ، كلّها يُفصح قولاً ، ويقول : أنا أحق وأولى، ويُصيخ إلى إجابة دعوته ويُصغي ، ويتلو إذا بُشِّرَ بكِ : ذلك ما كُنّا نبغي ».

وبعد مقدمة الرسالة يبدأ الجدال ، حيث تبدي كلّ مدينة تُبدي للأمير الموحّدي محاسنها وفضائلها ، لعلها تحظى بالحظوة عنده . ويترك صفوانُ الحديثَ يجري على ألسنة تلك المدن مبتدئاً بحمص (إشبيلية) فيقول : « تنمّرت حِمصُ غيظاً ، وكادت تفيظ فيظاً ، وقالت : ما لهم يزيدون وينقصون ، ويطمعون ويحرصون، إن يتّبعون إلا الظنّ وإن هم إلّا يخرُصون ، لي السَّهم الأسدّ ، والساعد الأشدّ ، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزْر والمدّ ، أنا مصر الأندلس ، والنيل نهري ، وسماء التأنُس والنجوم زهري ، إن جاريتم في ذلك الشرف ، فَحسبي أن أفُيض في ذكر الشّرف ، وإن تبجّحتم بأشرف اللَّبوس ، فأي إزارٍ اشتملتموه كشنتبوس ، لي ما شئت من أبنية رحاب ، وروض يُستغنَى بنظرته عن السحاب ، قد ملأت زهراتي وِهاداً ونجِاداً ، وتوشّح سيفُ نهري بحدائقي نِجاداً ، فأنا أولاكم بسيدكم الهُمام وأحقّ، الآن حصحص الحقّ».

و يمكن أن ندرج هذه الرسالة ضمن الرسائل التي أشاد فيها الكتّاب بمحاسن الأندلس وفضائلها ، والتي أفردت لها مكانا خاصاً . ولكني أوردتها في رسائل المفاخرات والمناظرات ، لأنّ مبدأ المناظرة هو السائد فيها .

وكما هو معلوم فإنّ اشبيلية ، التي استهلّ بها صفوان هذه المناظرة ، مدينة هامّة ، وطبيعتها ساحرة ، وموقعها جميل . وأوّل ما يلفت النظر إليها نهرها العظيم الذي أشاد به الكثير من الشعراء ، بالإضافة إلى شنتبوس .

وعلى الرغم من أنّ ابن سعيد لم تعجبه القاهرة عندما نزل بها حيث قال : « ومن عيوب القاهرة أنّها في أرض النيل الأعظم ويموت الإنسان فيها عطشاً لبعدها عن مجرى النيل ... وجوُّها لا يبرح كدراً ممَّا تثيره الأرض من التراب الأسود ... » ثم يورد بيتين يقول فيهما :

« يقولون :سافر إلى القـاهـرهْ ومالي بها راحـةٌ ظاهـره

زِحَام وضـيق وكـربٌ ومــا تثـيــر بهــا أرجل سائـره

وعندما يُقبل المسافر عليها يـرى سـوراً أسود كـدراً...» [1] . فإنّ بعض الأندلسيين بقوا محافظين على ولائهم للمشرق ، حيث كانوا يرون فيه المثل الأعلى ويقلّدونه ويشبّهون بعض ما في الأندلس به ، كما فعل صفوان ، حيث ابتدأ الحديث رأساً بحمص . وكان عليه أن يسمّيها باسمها الأندلسي (إشبيلية) ، ثم شبّهها بمصر الأندلس وجعلها تحاول أن تقطع طمع المدن الأخرى في الظفر بالأمير بمـا تحويه من محاسن وأماكن جميلة .

ثم ينقل الكاتب الحديث إلى مدينة كانت في عصور مضت عاصمة بلاد الأندلس ، حيث استحسنها كثير من الخلفاء . ولا أدري لـم قدّم عليهـا إشبيلية ، وهي مدينة قرطبة . إذ إنّها لمّا سمعت قول إشبيلية نظرت إليها نظرة استنكار ، وبدأت بتقريعها والتهكم بها قبل أن تذكر ما تفرّدت به هي من فضائل . قال صفوان : «فنظرتها قرطبة شزراً ، وقالت : لقد كَثُرتِ نَـزْراً ، وبذرت في الصخر الأصمِّ بذراً، كلام العدى ضرب من الهذيان ، وأنّى للإيضاح و البيان ؟ متى استحال المستَقبَحُ مستحسناً ؟ ومن أودع أجفان المهجور وسنا ؟ أفمن زُيِّن له سوء عمله فرآه حسنا . ياعجباً للمراكز تُقدَّم على الأسِنَّة ، وللأثفار تُفَضَّل على الأعنة . إن ادّعيتم سبقا ، فما عند الله خيرٌ وأبقى ، لي البيت المطهَّر الشريف[2] ، والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف ، في بقيعي محلُّ الرجال الأفاضل ، فليرغم أنف المناضـل ، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسبي من نباهة القدر ، فما لأحد أن يستأثر علـيَّ بهـذا السيد الأعلى ، ولا أرضى له أن يُوطِئَ غير ترابي فعلاً ، فأقِرُّوا لي بالأُبُوَّة ، وانقادوا لي على حكم البُنوة ، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوةٍ ، وكفوا عن تباريكم ، ذلك خير عند باريكم ».

---

[1] المقري : نفح الطيب ، 2 / 459 .

[2] يقصد به المسجد الجامع .

إن أعظم ما افتخرت به مدينة قرطبة هو مسجدها الجامع الذي بدأ بناءه خلفاء بني أمية قبل عصر صفوان بِنْ إدْرِيس ، وهذا الجامع كان بحق مفخرة قرطبة والأندلس كلها ، حيث فاق كثيراً من مساجد المسلمين في المشرق والمغرب . وهو اليوم دليل على حضارة كانت في إسبانيا ، يحُجُّ إليها كثير من الناس . ولو لم يكن في هذهالمدينة إلاّ جامعها لأَغناها . ولم يذكر من فضائلها ، كإشبيلية ، غيره، على الرغم من وجود كثير من المحاسن التي تُقدم قرطبة على غيرها من المدن . قال عنها والد ابن سعيد : « هي من أحسن بلاد الأندلس مباني وأوسعها مسالك ، وأبرعها ظاهراً وباطناً... ومن محاسنها ظرف اللباس ... وتعظيم أهلها لجامعها الأعظم ... وهي أكثر بلاد الأندلس كُتباً ... »[1].

ثم يأتي دور غرناطة التي لم تعبْ من كلام قرطبة شيئاً بل دخلت الموضوع مباشرةً ، ذاكرةً ما اشتهرت به من الحصون والقلاع والمعاقل قائلةً : « لي المعقِلُ الذي يمتنع ساكنه من النجوم ، ولا تجري تحته إلاّ جيادُ الغيث السَّجوم ، فلا يلحقني من معاند ضررٌ ولا حيف ، ولا يهتدي إليَّ خيالٌ طارقٌ ولا طيف ، فاستسلموا قولاً وفعلاً ، فقد أفلح اليوم من استعلى ، لي بطاح تقلّدت من جداولها أسلاكاً ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً ، ومياه تسيل على أعطافي كأدمع العشاق ، وبرد نسيمٍ يردّ ذماءَ المستجير بالانتشاق ، فحُسنِي لا يُطمع فيه ولا يُحتال ، فدعوني فكل ذات ذيل تختال ، فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وما له بي من عوض ولا بدل ، ولم يعطف عليَّ جنان مجده ويثني ، وإن أنشدَويماً فإِيَّايَ يعني :

بلادٌ بهاعقَّ الشبابُ تمائمي وأول أرض مسَّ جلدي تُرابها

فما لكم تعتزون لفخري وتنتمون ، وتتأخرون في ميداني وتتقدمون ؟ تَبَرَّأُوا إليَّ ممّا تزعمون ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون».

---

(1) م.س ، 2 / 8.

ولقد كان بغرناطة حصون وقلاع كثيرة احتمت بها مدّة من الزمن من إغارة العدو عليها وإن مسَّها بعض الضرر ، إلّا أنها حافظت على وُجودها إلى آخر رمق من وجود الإسلام بجزيرة الأندلس ، ومع أنّ كثيرا من المدن الأندلسية سقط في آخر هذا العصر الموحدي فإنَّ غرناطة لم تسقط ؛ فقد احتوت دولة أخرى بعد الموحدين وهي دولة بني الأحمر ، زهاء قرنين ونصف ،وأ ُعيد للمسلمين وميض أمل في البقاء بعد أن فقدوه ، بل حتى في عصر الموحدين اعتنى بها حكام هذه الدولة لقربها من بلاد المغرب ، فأقاموا فيها الجنّات وجلبوا إليها المياه الكثيرة ، وهو ما افتخرت به هذه المدينة على مثيلاتها في هذه الرسالة .

ولكن مدينة مالقة كانت أصْمَتَ المدن وأقلهنَّ كلاماً ، ومع ذلك لم تصبر على ما كان يقال في هذا المجلس ، لأنها أحسَّت أنّهنَّ أهملنها ، وهي الكثيرة الجنان والسبل الفِجاج ، وذات الفواكه والخضر المتنوعة فقالت :« تتركونني بينكم هَمَلاً ، ولا تعطونني في سيدنا أملاً ، ولِمَ ولِيَ البحر العجَّاج ، والسُّبل الفِجاج ، والجنات الأثيرة ، والفواكه الكثيرة لديَّ من البهجة ما تستغني به الحَمام عن الهَديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشي إلى تعويض عنه ولا تبديل ،فما لي لا أ ُعْطَى في ناديكم كلاماً ، ولا أنشر في جيش فخاركم أعلاماً ؟ (فكأن الأمصار نظرتها ازدراء ، فلم تر لحديثها في ميدان الذكر إجراء ، لأنها موطن لا يُحْلَى منه بِطَائل ، ونظن البلاد تأوَّلَتْ فيها قول القائل :

إذا نطق السفيه فلا تُجبه فخيرٌ من إجابته السكوتُ) ».

ولم تتوان المدينة التي ينتمي إليها صفوان ابن إدريس في أن تفتخر هي أيضاً بمآثرها . وأعتقد أن الكاتب ما كان متعصباً لمدينة دون أخرى . لأنه لو كان كذلك لانتصر لمدينته مُرسية و جعل حديثها في الأخير مُجمِلاً فيه كل المحاسن والفضائل . وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على أن الرجل كانت لديه نزعة وطنية شاملة لبلاد الأندلس . والذي فعله إنما هو تعريف القارئ بما تحويه تلك المدن من المآثر والجمال .

قالت مدينة مُرسية:« أمامي تتعاطون الفخر ، وبحضرة الدُّر تُتفقون الصخر، إن عُدَّت المفاخر فلي منها الأول والآخر ، أين أوشالكم من بحري ، وخَرزُكم من لؤلؤ نحري ، وجعجعتكم من نفثات سِحري ؟ فلي الرّوض النّضير، والمرأى الذي ما له من نظير، وزنقاتي التي سار مثلها في الآفاق، وتبرقع وجه جمالها بغُـرَّة الإصفاق ، فمن دوحات ، كم لها من بُكر ورَوَحات ، ومن أرجاء ، إليها تمتَدُّ أيدي الرجاء ، فأبنائي فيها في الجنة الدنيوية مودعون ، يتنعّمون فيما يأخذون ويدعون ، ولهم فيها ما تشتهي أنفسهم ولهم فيها ما يدَّعُون ، فانقادوا لأمري ، وحاذروا اصطلاء جمري ، وخلوّا بيني وبين سيّدنا أبي زيد ، وإلاّ ضربتكم ضربَ زيد ، فأنا أولاكم بهذا الملك المستأثر بالتعظيم ، وما يُلَقّاها إلاّ ذو حظٍ عظيم ».

لقد أجملت مُرسية جميع محاسنها في قولها : « فأبنائي فيها في الجنة الدنيوية مودعون» . وهذا المعنى كان متداولاً كثيرا عند الشعراء الأندلسيين عندما شَبَّهُوا الأندلس بالفردوس وجنة النعيم وجنة الخلد .ويذكر المقّري في ترجمة ذي الوزارتين أبي بكر بن رُحَيْم ، أنَّ هذا الأخير كان مع ابن وضّاح ، وابن جمال الخلافة صاحب صقلية ، ودخلوا إحدى جَنّات مُرسية « فحلوا منها في قبة فوق جدول مُطرد ، وتحت أدواح طيرها غَرد »[1] .فهي إذاً جنات لا جنة واحدة .

ثم آل الحديث إلى مدينة بلنسية ، أعظم قواعد شرق الأندلس ، والتي تحدث عنها الشعراء كثيراً وذكروا محاسنها ، وحنُّوا إليها لما فارقوها ، وعندما سقطت بكوها بكاء مُرّاً . وها هي أيضاً تريد الاستحواذ على الأمير الموحدي ، فتقول مخاطبة غريماتها :« فيم الجِدال والقِراع ، وعلام الاستهام والاقتراع ؟ إلاَمَ التعريض والتصريح ، وتحت الرغوة اللبنُ الصريح ؟ أنا أحوزُه من دونكم ، فأخمدوا نـارَيْ تحرّككم وهدوئكم ، فليَ المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنّات التي تُلقي إليها الآفاقُ يدَ الاستسلام ، و برصافتي وجسري أُعارض مدينةَ السلام ، فأجمعوا على الانقياد لي

---

[1] م . س ، 2 / 165 .

والسلام، وإلا فعضُّوا بناناً ، واقرعوا أسناناً ، فإذا حيث لا تُدركون وإنّي ومولانا لا يهلكنا بما فعل السفهاء منا» .

لمّا دخل بنو أمية بلاد الأندلس أنشأوا فيها بعض المعالم التي تشبه تلك الموجودة في المشرق ، فعبد الرحمن الداخل لمّا استقرّ في قرطبة ، اختطّ في شمالها مدينة الرصافة على شاكلة رُصافة الشام التي كانت لجده هشام [1] . والظاهر من قول بلنسية أن رُصافتها كانت على مثيلة رصافة بغداد (دار السلام) التي أشاد بها علي بن الجهم في رائيته المشهورة عندما مدح الخليفة العباسي المتوكل . وكان الحكام الأندلسيون يُنشئون هذه الأماكن – في الغالب – للإستراحة من الغزوات ، والترويح عن النفس بقضاء أوقات ممتعة فيها . هذا ممّا يلفت النظر في حديث بلنسية .

وفي الأخير يُنهي الكاتب هذا الحوار الشّيّق على ألسنة المدن بهجوم مباشر لتُدمير على بلنسية والانتقاص من قيمتها ، وهجائها على الرغم من أنّ حديث بلنسية كان مُختَصَراً . وكأنّ تُدمير أرادت فقط الحطّ من شأن هذه المدينة بكلام طويل جاء فيه : « فعند ذلك ارتمت جمرةُ تُدمير بالشرار ، واستدتْ أسهُمُها لنحور الشّرار، وقالت : عِش رجبا ، تَرَعجبا ، أَ بْعَدَ العصيان والعقوق ، تتهيَّئِين لرُتب ذوي الحقوق، هذه سماء الفخر فمن ضمَّك أن تعرجي ، ليس بعشك فادرجي . لك الوصب والخَبْل ، الآن وقد عصيت من قبل ، أيتها الصانعة الفاعلة ، من أدراك أن تضربي وما أنت فاعلة ، ما الذي يُجْديك الروضُ والزهر ، أم ما يُفيدك الجدول والنّهر ، وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ هل أنت إلا محَطُّ رحل النّفَاق ، ومنزل ما لسوق الخصب فيه من نَفَاق ، نَرَاك لا يكتحل الطَرف فيه بهجوع ، وقِراك لا يُسمن ولا يغني من جوع ، فإلام تَبرُز الإماءُ في منصة العقائل ، ولكن اذكري قول القائل :

بلنسية بيني عن القلب سُلوةٌ فإنّك روض لا أحِنُّ لزَهرك
وكيف يحب المرءُ داراً تقسمت على صارمي جوع وفتنة مُشرك

---

[1] ينظر : جودت الركابي : في الأدب الأندلسي ، ص 16 .

بَيْد أني أسأل الله تعالى أن يوقد من توفيقك ما خمد ، ويسيل من تسديدك ما جمد ، ولا يطيل عليك في الجهالة الأمد ».

ولا ندري من خلال هذا النص ما الذي جعل تُدمير تتحامل على بلنسية وتنعتها بأشنع الأوصاف ، مع أنّها أشهر من نار على عَلم ، وذِكرها على ألسنة الشعراء والكتاب والمؤرخين أكثر من ذكر تُدمير ، والذين أنجبتهم هذه المدينة يفوق ما أنجبت تدمير . وأمَّا الرياض والبساتين والطبيعة الساحرة فذاك ما يفوق الخيال . لكن يبدو أنَّ الظرف الذي تحدَثتْ فيه عنها ، هو تلك السنون التي مسَّتْهَا فيها الضراء، وأصابتها الفتن فمحت شيئاً من محاسنها ، وهو ماأُشير إليه في البيتين السابقين . لكن تبقى بلنسية من أجمل مدن الأندلس وأعظمها .

ثم إن تُدمير لم تذكر شيئا من محاسنها ، بل اكتفت بالتهكم والسخرية والقدح في بلنسية والنيل منها .

وفي الأخير تُختتم الرسالة بالدعاء للأمير كما ابتدأت به ، مع الرجاء من المولى - تبارك وتعالى - أن يحميه من أعداء الدين والوطن ، ويُمكنه من رقابهم، ويُسعده في الدنيا بملكه . وقد يكون هذا الدعاء على لسان تُدمير أو لصفوان بن إدريس . يقول صفوان : « وإياه سبحانه نسأل أن يرد سيدنا ومولانا إلى أفضل عوائده ، ويجعل مصائب أعدائه من فوائده ، ويُمَكّن حسامه من رقاب المُشعِّبين ويبقيه وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين ،ويصل له تأييداً و تأْبيداً ،ويمهد له الأنام حتى تكون الأحرارُ لعبيد عبيده عبيداً ، ويَمُدُّ على الدنيا بساطَ سعده ،ويهبه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده .

آميـن آمين لا أرضى بواحدة حتى أُضيف إليها ألفَ أمينـا

ثم السلام الذي يتأنق عبَقاً ونشراً ، ويتألق رونقاً وبشراً ، على حضرتهم العلية ، ومطالع أنوارهم السنية الجلية ، ورحمة الله وبركاته».

إن ما يمكن أن نلاحظه في هذه الرسالة هو أنّ مبدأ المفاخرة يرتكز في بعض الأحيان على إنكار الغير ، ثم إثبات الذات دون إيراد حُجج تثبت الإنكار ، بل

يكتفي الكاتب بالتلميح والإشارة . ومع هذا فإنّ هذه الرسالة « برهان على حسن وإبراز الشخصية الموحّدية والنزعة الوطنية والدينية»[1] ، وذلك في رغبة كل مدينة في ضم الأمير إليها ، لمحبتها له . والمدينة ليست فقط بساتين وطبيعة وإنّما هي كذلك الناس الذين يسكنونها . بالإضافة إلى أنّ الرسالة أبرزت لنا بعض جمال الطبيعة الساحر الذي تتميّز به تلك المدن ، وإن كان الكاتب أغفل مدناً أخرى هامّة في الأندلس .

2- رسائل في بيان فضل الأندلس ومحاسنها

كانت رسالة الفقيه الظاهري ، الإمام ابن حزم القرطبيّ ، خيرَ ما كُتب في بيان فضل الأندلس ومحاسنها وذِكر علمائها وغيرهم من رجالها . و كانت الرسالة ردّاً على ما جاء في رسالة ابن الرّبيب القيروانيّ التي عاب فيها على الأندلسيّين عدم جمعهم لمحاسن بلدهم ، فذكر ابن حزم كوكبة من العلماء الأندلسيّين الذين برعوا في مختلف العلوم ، وذَكر ما للأندلس من فضل وسبق على العدوة المغربية في تلك العلوم.

ومثل هذه الرسائل يلقي الضوء على الحركة العلمية بالأندلس ، ويُعين الباحث على معرفة العلوم التي نبغ فيها الأندلسيّون ، ويُبيّن من ألّف فيها منهم ، فبدلا من أن يذهب القارئ إلى كُتب التراجم ويبحث عن سير الأعلام ومؤلّفاتهم ، يكفيه الوقوف على مثل هاته الرسائل ليعرف العلوم التي كانت شائعة وليقف على أسماء أبرز العلماء . وقد ظهر في عصر الموحّدين ، بعد عصر ابن حزم بكثير ، ابن سعيد الذي ذيَّل رسالته وأتمها . وتوجد كذلك رسالة الشقندي المشهورة التي بيَّن فيها هو أيضاً ، فضل الأندلس والأندلسيّين .

---

[1] رضا عبد الغني الكساسبة : النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، د. ط / 2004 ، ص 179 .

أ- تذييل ابن سعيد لرسالة ابن حزم في فضل الأندلس :

ذكر ابن حزم في رسالته بعض العلماء الأندلسيّين الذين كانوا قبله أو في عصره ، ثم أتى ابن سعيد فذكر بعض العلماء الذين جاؤوا بعد ابن حزم إلى عصر الموحّدين قبل وفاة ابن سعيد ، فغدا مثل هاته الرسائل حلقات يصل بعضُها البعض الآخر ويُتمّه .

قال ابن سعيد في مستهلّ رسالته : «رأيتُ أن أ ُذيّل ما ذكره الوزير الحافظ أبو محمد بن حزم من مفاخر أهل الأندلس بما حضرني . و الله تعالى ولي الإعانة». [1]

وواضح من هذا التقديم أنّ ابن سعيد أراد فقط أن يُضيف أسماء بعض العلماء الأعلام الذين لم يذكرهم ابن حزم ، ولم يأت فيها بذكر لفضل الأندلس بشكل عام ، وإنما قصر الحديث على مفاخر رجالها ، وهو جزء من الفضائل متمم لذكر الكل ؛ لأنَّ المنطلق الذي انطلق منه ابن سعيد هو إعجابه برسالة ابن حزم ، لا إنشاء رسالة مستقلّة يتحدّث فيها عن مفاخر أهل الأندلس على نحو ما فعل ابن حزم والشقنديّ .

و سأقتصر على ذكر بعض الأعلام في كل علم ، ذكرهم ابن سعيد في رسالته . والملاحظ أنّه لم يتقيَّد بالترتيب الذي سار عليه ابن حزم ، حيث قدَّم علوماً وأخَّر أخرى ، وذلك بعد ذكره لعلم الفقه .

يقول ابن سعيد[2]: «أمّا القرآن فمن أجلّ ما صُنّف في تفسيره : كتاب "الهداية إلى بلوغ النهاية" ، في نحو عشرة أسفار ، صنّفه الإمام العالم الزاهد أبومحمد مكيّ بن طالب القرطبيّ . وله كتاب" تفسير إعراب القرآن"...» .« وأما القراءات فلمكيّ المذكور فيها كتاب : "التبصرة "... وأمَّا الحديث فكان بعصرنا في المائة السابعة الإمام أبو الحسن عليّ بن القطّان القرطبيّ ... وإليه كانت النهاية والإشارة في عصرنا » .

---

(1) المقري: نفح الطيب ، 4 / 22.

(2) م .ن ، 23/4 .

وهذا الاستشهاد بالعلماء الذين عاصرهم الكاتب ورد عنده كثيراً كقوله :« وقد ذيَّلَ كتاب الصّلة في عصرنا هذا أبو عبد الله بن الأبّار ... ولأبي العباس بن الروميّة الإشبيلي من علماء عصرنا بهذا الشأن كتاب في الأدوية المفردة ... وكان مطرق الإشبيلي في عصرنا قد اشتغل بالتصنيف في هذا الشأن (أي علم التنجيم) » .

وفي بعض الأحيان يُشير ابن سعيد إلى مكان إقامة صاحب التأليف كقوله:« وقد ذَيَّل عليه (أي كتاب المقتبس) أبو الحجاج البياسي ، أحد معاصرينا . وهو الآن بإفريقية في حضرتها تونس عند سلطانها... وقد جمع أبو محمد المالقي الساكن الآن بقاهرة مصر كتاباً في هذا الشأن أي علم الطب ».

ويُشير ابن سعيد في رسالته أيضاً إلى بعض القضايا التي كانت سائدة في الأندلس مثل منع الاشتغال بعلم الفلسفة وزُهد الناس فيه ومحاربته من قِبل الحكام ، على الرغم من وجود علماء لهم باع طويل فيه . يقول ابن سعيد: «وأمّا كُتب الفلسفة فإمامها في عصرنا أبو الوليد بن رشد القرطبي . وله فيها تصانيف جحدها لمَّا رأى انحراف منصور بني عبد المؤمن عن هذا العلم وسجنه بسببها . وكذلك ابن حبيب الذي قتله المأمون بن المنصور المذكور على هذا العلم بإشبيلية . وهو علم ممقوت بالأندلس ، لا يستطيع صاحبه إظهاره . فلذلك تخفى تصانيفه ».

ب- رسالة الشّقندي في فضل الأندلس والأندلسيين :

قبل تتبّع هذه الرسالة لابدّ أن نذكر مناسبتها . وهي لا تختلف عن مناسبة رسالة الإمام ابن حزم . إلاّ أنّ المتناظِرَيْن هنا التقيا في مجلس واحد بخلاف ما حدث مع ابن حزم وابن الربيب القيرواني . ثم إن العدوة المغربية وبلاد الأندلس كانتا تشتركان في كثير من الجوانب التاريخية والثقافية والسياسية على عكس ما كان بين الأندلس والمغرب الأدنى اللذين كان التقارب بينهما محدوداً .

ينقل لنا ابن سعيد على لسان أبيه (وقد روى عنه كثيراً من العلم) ما وقع في مجلس أبي يحيى بن أبي زكريا ، حاكم مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، حيث

اجتمع أبو الوليد الشقندي وأبو يحيى بن المعلم الطنجي في مجلس الحاكم المذكور ، وجرى بينهما اختلاف في التفضيل بين البَرَّيْن ، فقال الشقندي الأندلسي مبتدئاً : «لولا الأندلس لم يُذكر بَرُّ العُدوة ولا سارت عنه فضيلة ، ولولا التوقير للمجلس لقلت ما تعلم . فتدخل الأمير أبو يحيى لكونه مغربيا فقال : أتريد أن تقول كون أهل برِّنَا عرباً وأهل برِّكم بربراً ؟ فقال : حاش لله ! فقال الأمير : والله ما أردتَ غَيرَ هذا . فقال ابن المعلم : أتقول هذا وما المُلك والفضل إلا من بَرّ العُدوة . فقال الأمير : الرأي عندي أن يعمل كل واحد منكما رسالة في تفضيل بَرِّه ، فالكلام هنا يطول ويمرُّ ضياعاً ، وأرجو ، إذا أخليتما له فِكْرَكُمَا ، أن يصدر عنكما ما يحسن تخليده . ففعلا ذلك ».[1]

وتجدر الإشارة إلى أمرين ، هما :

- تَعمّد أبي يحيى بن أبي زكرياء إثارة الشقنديّ ، وهي عادة كانت عند الحكام ذوي الحس النقدي والذوق الأدبي في مجالسهم التي يحضرها الأدباء .

- لم يُرد الحاكم أن تكون هذه المفاخرة بين الأديبين صادرة عن بديهة وسُرعة إلقاء ، بل ترك لهما فُسحة من التفكير والتَرَوِّي ، حتى يكون حديثهما عن بَرِّيهما ممتعاً و يأتي فيه كل واحد منهما بما يتفوق به ، ويبقى أثراً خالداً . وتهمّنا رسالة الشّقندي لأنّها نص أندلسيّ ظهر فيه الاتجاه الوطنيّ .

يقول الشقندي في مقدمة رسالته [2] : « الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بالأندلس أن يتكلّ م مِلْءَ فيه ، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا مَنْ يَثْنيه ، إذ لا يُقال للنهار: يا مظلم ، ولا لوجه النعيم : يا قبيح :

وقد وجَدْتَ مكان القول ذا سَعَةٍ   فإن وجدتَ لساناً قائلاً فقـُل

[1] م . س ، 4 / 27 .

[2] م . ن ، ص . ن .

أحمـده على أن جعلني ممَّن أنشأته ، وحباني بأن كنت ممَّن أظهـرته ، فامتدَّ في الفخر باعـي ، وأعانني علـى الفضل كـرمُ طباعي ، وأصلي على سيدنا محمد نبيّه الكريم ، وعلى آلـه وصحبه الأكـرميـن وأسلم تسليمـاً ».

ثم شرع في الحديث عن الأمر الذي وقع بينه وبين ابن المعلم في البداية ، ضارباً بعض الأمثلة التي ينتزع بها الأفضلية للأندلس على المغرب ، نافياً عن هذا الأخير كل ما من شأنه أن يفخر به على الأندلس ، مجملاً الحديث في ذلك غيـر مُفصِّل ، لكي يكون لكلامه وقعٌ حسن على السامع وقبول في نفس القارئ ، فقال[1]: « أمَّا بعـدُ فإنَّه حرَّك منّي سَاكناً ، وملأ منّي فارغاً ، فخرجتُ عـن سجيتي في الإغضاء ، مكرهاً إلى الحميّة والإباء ، منازعٌ في فضل الأندلس أراد أن يخرق الإجماع ، ويأتي بما لم تقبله النواظر والأسماع ، إذ من رأى ومن سمع لا يجوز عنده ذلك ، ولا يُضلُّه من تَاهَ في تلك المسالك ، رام أن يُفضِّل بر العدوة على بـر الأندلس ، فرام أن يفضّل على اليمين اليسار ، ويقول : الليل أضوأ من النهار ، فيا عجباً كيف قابل العوالي بالزِّجاج ، وصادم الصفاة بالزُّجاج ».

ثم يتحامل الشقندي على ابن المعلم ويسخر منه ، موظّفاً كثيراً من الأبيات الشعـرية فيقول [2] : « اقن حياءَك أيُّها المغرّد بالنحيب ، المتزيّـنُ بالخَلف المتحبِّبُ إلى الغواني بالمشيب الخضيب ، أين عَزَب عقلك ؟ وكيف نكص على عقبه فهمُكَ ولـُبُّك ؟ أبلغت العصبية من قلبك ، أن تطمس على نورَيْ بصرك ولـُبّك ؟».

وممّا يلاحظ في هذه الرسالة أنَّ الشقندي حاول إبراز تفوق الأندلسيين على المغاربة في مجالات شتى لها علاقة بالوطن وهي :

1- الجانب السياســـي :

يبرز هذا العنصر في كثير من أجزاء الرسالة ، كقول الكاتب [3]:« أمَّا قولك "الملوك مِنّا" ، فقد كان الملوك منَّا أيضا ... إن كان الآن كرسيُّ جميع بلاد المغرب

---

(1) م . س ، 28/4 .
(2) م . ن ، ص . ن .
(3) م . ن ، ص .ن .

عندكم بخلافة بني عبد المومن – أدامها الله تعالى – فقد كان عندنا بخلافة القرشيين الذين يقول فيهم مشرقيّهم :

وإنـّيَ مـن قـــوم كـــرامٍ أعـــزَّة لأقدامهم صِيغتْ رؤوسُ المنابر
خلائفُ في الإسلام في الشرك قادةٌ بِهم وإليـهـم فَـخـرُ كُلِّ مُـفاخِـــر

ويقول مغربيهم :

ألسـنا بنـي مـروانَ كيف تبدَّلت بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدَّوائرُ
إذا وُلـد المـولـودُ مِنّا تـهلّـلت له الأرضُ واهتزَّت إليه المنابـرُ

وقد نشأ في مُدَّتهم من الفضلاء والشعراء ما اشتهر في الآفاق ، وصار أثبتَ في صحائف الأيام ، من الأطواق فـي أعناق الحمام ... ».

و الغريب في الأمر أنّه عندما ذكر الأمويين الذين حكموا في الأندلس وأشاد بهم ، نَكر دولَةَ طمست ملكهم فترة من الزمن ، وهي دولة العامرين التي حجبت الملك عنهم ، وراح يذكر مآثر منشئها المنصور بن أبي عامر . وكان عليه أن يشيد بعبد الرحمن الثالث الذي بلغت الأندلس على عهده أوْجَها في الرقي والازدهار والتغلّب على الفرنجة ,ونحن لا نُقلّل بهذا أبداً من شأن العامرين ، ولكن لا يليق في باب هذا الفخر أن يُذكر من أدال دولة المروانيين . ثم يشير الشقندي إلى عصر ملوك الطوائف الذين كثـُرت فيهم الأمداح ، وصار كل بلاط يحوي جملة من الشعراء والكتاب النابهين الذين خلدوا مآثر ملوكهم . يقول الشّقندي [1] :« ولم تزل ملوكهم في الاتساق ... إلى أن حكم الله بنثر سلكهم ، وذهاب مُلكهم ، فذهبوا وذهبت أخبارهم ، ودرسوا ودرست آثارهم ... فكم مكرمة أنالوها ، وكم عثرة أقالوها ... وكان من حسنات مَلِكِهم المنصور بن أبي عامر ، وما أدراك ، الذي بلغ في بلاد النصارى غازياً إلى البحر الأخضر ، ولم يترك أسيراً في بلادهم من المسلمين ...وقد قيل فيه من الأمداح ، وأُلِّف له من الكتب ، ما سمِعْتَ وعلِمْتَ... » ثم يقول [2] : « ولمّا ثار

([1]) م . س ، 29/4 .
([2]) م . ن ، ص . ن .

بعد انتشار هذا النظام ملوكُ الطوائف...فما كان أعظم مباهاتهم إلاّ قولُ : العالم الفلاني عند الملك الفلاني ، والشاعر الفلاني مختص بالملك الفلاني...».

ويغلب على ما سبق الجانب التاريخي ، وسرد بعض الأحداث التي وقعت في الأندلس ، ممّا يُخرجُ هذه الرسالة الأدبية عن فنّيتها . وقد يسترسل الكاتب – في بعض الأحيان – في الإطناب والتطويل حتى يغدو مؤرخاً لا أديباً ، فهو يريد أن يقول كل شيء يقنع به خصمه في أفضلية الأندلس على المغرب ويزيده شرحاً . يقول[1]: «وإن كان كل ملوك الأندلس المعروفين بملوك الطوائف قد تنازعوا في مُلاءة الحُضْر ، فإني أخص منهم بني عباد ... فإنَّ الأيام لم تزل بهم كأعياد ، وكان لهم من الحنو على الأدب ، ما لم يقم به بنو حمدان في حلب» . وهو في هذه الجملة الأخيرة يريد أن يثبت تفوق الأندلسيين على المشارقة أيضا .

ثم يقول بعد أن يُثني خيراً على بني عباد ، مُستهزئاً بحكام المغرب [2]: «وبالله إلاّ سمَّيتَ لي بمن تفخرون قبل هذه الدعوة المهدية ، أبسقوت الحاجب ؟ أم بصالح البرغواطي ؟ أم بيوسف بن تاشفين الذي لولا توسّط ابن عباد لشعراء الأندلس في مدحه ما أجروا له ذكراً ، ولا رفعوا لملكه قدراً » . ثم يوظف العنصر الحِكائي ، فيورد بعض الأخبار المشهورة التي نُسجت حول يوسف بن تاشفين والشعراء الذين كانوا يمدحونه . ويتضمن فحواها مدى قصور المغاربة عن فهم اللغة العربية .

ب – الجانب العلمي والأدبي :

في هذا الجزء من الرسالة يضع الشقندي جملة من الاستفهامات نافياً وجود علماء عند المغاربة يشبهون أولئك الذين اشتهروا في بلاد الأندلس ، و يذكر علماء أندلسيين كان لهم الباع الكبير والشهرة الذّائِعةِ في سَماء الأندلس والمغرب ، بل في المشرق كذلك . يقول متحدّثاً عنهم [3]:«وإنّك إن تعرَّضتَ للمفاضلة بالعلماء فأخبرني: هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعملُ بأقواله إلى الآن ، ومثل أبي

---

(1) م . س ، 30/4 .
(2) م . ن ، ص . ن .
(3) م . ن ، 31/4 .

الوليد الباجي ، ومثل أبي بكر بن العربي ، ومثل أبي الوليد بن رشد الأكبر ، ومثل أبي الوليد بن رشد الأصغر ؟ وهو ابن ابن الأكبر . نجوم الإسلام ومصابيح شريعة محمد عليه السلام . وهل لكم في الحفظ مثل أبي محمد ابن حزم الذي زهد في الوزارة والمال ومال إلى رتبة العلم ... ومثل أبي عمر بن عبد البر صاحب : "الاستيعاب" و"التمهيد " ، ومثل أبي بكر بن الجد حافظ الأندلس في هذه الدولة ؟ » .

ثم ينتقل من علماء الدين إلى علماء العربية ذاكراً أشهرهم فيقول[1] : «وهل لكم في حُفّاظ اللغة كابن سِيدَهْ صاحب كتاب " المحكم " وكتاب " السماء والعالم " ، الذي إن أعمى الله بصره فما أعمى بصيرته ، وهل لكم في النحو مثل أبي محمد بن السيد و تصانيفه ؟ ومثل ابن الطراوة ، ومثل أبي علي الشلوبين الذي بين أظهرنا الآن ، وقد سار في المغارب والمشارق ذكرُه ؟» .

وينتقل من علم اللغة العربية إلى علوم أخرى متنوعة تبرز مدى نبوغ الأندلسيين في شتى العلوم فيقول [2] :«وهل لكم في علوم اللحون والفلسفة كابن باجة ، وهل لكم في علم النجوم و الهندسة والفلسفة مَلِكٌ كالمقتدر بن هود صاحب سرقسطة ... ». وعدَّد علماء مشهورين في مختلف العلوم .

ثم انتقل إلى بعض الأدباء الذين خلدوا قصائد وأبياتا نالت إعجاب الكاتب فأورد بعضها في هذه الرسالة . وكان يُقسم في بعض الأحيان على جودة تلك القصائد والمقطعات التي اختارها لما فيها – حسب نظره – من جمال وإبداع . يقول في هذا الشأن [3] : « وهل عندكم في رؤساء علم الأدب مثل أبي عمر بن عبد ربه صاحب " العقد " ؟ وهل لكم في الاعتناء بتخليد مآثر فضلاء إقليمه والاجتهاد في حشد محاسنهم مثل ابن بسام صاحب " الذخيرة " ؟... وهل لكم في بلاغة النثر كالفتح بن عُبَيْد الله الذي إن مدح رفع ، وإن ذم وضع ... ومثل ابن أبي الخصال في ترسُّله ،

([1]) م . س ، 4/31-32 .
([2]) م . ن ، 4/32 .
([3]) م . ن ، ص . ن .

ومثل أبي الحسن سهل بن مالك الذي بين أظهرنا الآن في خطبه ، وهل لكم في الشعر مَلِكٌ مثل المعتمد بن عباد في قوله :

وليـــلٍ بِسُدِّ النهر أ ُنساً قطعـتُه بذات سِوار مثل منعطف النــهـر

نَضتْ بُردَها عن غصن بانٍ مُنعِّمٍ فيا حُسنَ ما انشقَّ الكمامُ عن الزَّهر »

إلى أن يقول [1] :«وهل لكم مثل شاعر الأندلس ابن دراج الذي قال فيه الثعالبي " هو بالصقع الأندلسي كالمتنبي بصقع الشام " ، الذي إن مدح الملوك قال مثل قوله :

ألم تعلمي أنَّ الثَّواء هو التوى وأن بيوتَ العاجزين قبورُ

وأنَّ خطيراتِ المهالِك ضُمَّنٌ لراكِبِها أنَّ الجزاءَ خطيرُ

تُخوِّفني طولَ السّفار وإنه بتقبيل كفّ العامريّ جدير [2]»

وهي أبيات اختارها الكاتب من قصيدة طويلة لابن دراج مدح بها المنصورَ بن أبي عامر . وبعد أن ذكر منها ثلاثة عشر بيتاً ، علَّق عليها وأبدى إعجابه بها قائلاً [3] : «وأنا أ ُقسمُ بما حازته هذه الأبيات من غرائب الآيات ، لو سمع هذا المدح سيّد بني حمدان (يقصد سيف الدولة الحمداني) لسلا بِه عن مدح شاعره (يقصد المتنبي) الذي ساد كل شاعر ، ورأى أن هذه الطريقة أولى بمدح الملوك من كل ما تفنن فيه كل ناظم وناثر ».

ثم راح ينتخب بعض المقطوعات الشعرية التي استحسنها ، فنجده يقف عند أبيات في الغزل العفيف وأخرى في المنادمة وفي وصف الرياض والأزهار والفرس، ووصف الغلمان و وصف الخال ، وذكر اقتدار الأندلسيين في الهجاء والذم والمدح ، وتفوُّق العُميان في الشعر ، وبراعة استخدامهم للتشبيه الذي زاد تلك المقطوعات جمالاً وحسناً . ونراه في بعض الأحيان يقارن بين هؤلاء الأندلسيين وبعض الشعراء المشارقة ، كامرئ القيس وعمر بن أبي ربيعة ، ويعطي الأولوية في الأخير لأبناء

([1]) م.س ، 33/4 .

([2]) ديوان ابن دراج القسطلي ، حققه وقدم له وعلق عليه : محمود علي مكي ، الكويت : منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، ط2 / 2004 ، ص 420 .

([3]) م. س ، ص. ن .

وطنه ، وكأن عُقدة التفوق لم تكن بينهم وبين المغاربة فقط ، وإنما تعدت إلى المشرق الذي كان في زمن مضى الأنموذج المحتذى في الأندلس ،أو لأن الشقندي قلّل من وُجود شعراء مغاربة يمكن أن يُقارن بهم شعراء أندلسيين .

جـ - محاسن المدن :

يختم الشقندي رسالته الطويلة هذه بذكره لمحاسن بعض المدن الأندلسية لئلا يترك لابن المعلم أي باب يمكنه المفاخرة من خلاله والتطاول على الأندلسيين . على أنّ ذكره لمحاسن المدن هو تحصيل لما سبق ، وتأكيد لما جاء في رسالة صفوان بن إدريس السالفة الذكر ، وقد اقتدى الشقندي برسالة ابن إدريس ، لأن ترتيب المدن الذي جاء في الرسالة الأولى هو نفسه الذي جاء في الرسالة الثانية .

يقول لكاتب مواصلاً حديثه في مفاخرته بمدن الأندلس [1]:« وإنْ تعرضتَ إلى ذِكر البلاد وتفسير محاسنها ، وما خصَّها اللهُ تعالى به ممَّا حرَّمه على غيرها ، فاسمع ما يميت الحسود كمداً : أمَّا إشبيلية ، فمن محاسنها اعتدال الهواء ، وحُسن المباني وتزيين الخارج والداخل وتمكن التمصّر ، حتى إنَّ العامة تقول : لو طُلب لبنُ الطير في إشبيلية وُجد ، ونهرها الأعظم الذي يصعد المدّ فيه اثنين وسبعين ميلاً ثم يحسر... وزيادته على الأنهار كون ضفتيه مطرَّزتين بالمَنَازه والبساتين والكروم والأنسام ، متصل ذلك اتصالا لا يوجد على غيره» .

ثم يُورد بعض الأخبار والحكايات حول هذا النهر العظيم الذي لا تُذكر مدينة إشبيلية إلا ويُذكر معها ، ويُقارن به بعض الأنهار الأخرى المعروفة كالنيل بمصر ، وبعض أنهار الشام ، ومفضّلا هذا النهر . وواضح أيضاً أن إشبيلية تكمن محاسنها في الجانب العمراني والموقع الجغرافي والجانب الطبيعي الجميل .

([1]) م . س ، 47/4 .

وذكر أيضاً ما تتضمَّنه من ثمار يانعة كالتين القوطي والشعري اللذين لا يوجدان إلاّ فيها، كما ذكر أنواعاً كثيرة من أدوات الطرب . ويشير إلى وجود علماء وشعراء ووشّاحين وزجّالين «لو قُسِمُوا على بَرِّ العدوة ضاق بهم »[1] .

ثم يجمل في الأخير الحديث عن فضائلها التي هي من فضائل الأندلس كلها قائلاً [2] : « وما من جميع ما ذكرتُ في هذه البلدة الشريفة إلا قصدي به العبارة عن فضائل جميع الأندلس ، فما تخلو بلادها من ذلك ، ولكن جعلتُ إشبيلية ، بل الله جعلَهَا أُمَّ قراها ، ومركز فخرها وعُلاها ، إذ هي أكبر مُدنها ، وأعظم أمصارها» ومازالت هذه المدينة تحتل المكانة نفسها في أغلب المجالات إلى يومنا هذا .

ويُواصل حديثه بعد ذلك منوّها بقرطبة فيقول [3] : « وأمّا قرطبة فكرسيّ المملكة في القديم [4] ، ومركز العلم ومَنَار التقى ومحل التعظيم و التقديم ، بها استقرت ملوك الفتح وعظماؤه ثم الملوك المروانية ... وأن ملوكها كانوا يتواضعون لعلمائها ، ويرفعون أقدراهم ، ويصدرون عن آرائهم ، وأنهم كانوا لا يقدِّمون وزيراً ولا مشاوراً ما لم يكن عالماً...».

ثم أورد بعض القصص التي حدثت بين حُكام قرطبة وعلمائها ، فَحْواها يدور حول تعظيم العلماء والفقهاء وإعطائهم المكانة اللائقة بهم من قبل الحكام .

ومن أفضل ما وصف به هذه المدينة من محاسن ما ذكره في الأخير حين تحدّث عن الجانب العمرانيّ فقال [5]: « ويُحكى أنّ العمارة في مباني قرطبة والزهراء اتّصلت إلى أن كان يُمشَى فيها بضوء السُّرُج المتصلة عشرة أميال ، وأمَّا جامعها الأعظم فقد سمعتُ أنَّ ثُريَّاته من نواقيس النصارى ... وقد سمعتُ أيضاً عن قنطرتها العُظمى ... ونهرها إنْ صغر عندها عن عظمه عند إشبيلية ، فإنَّ لِتقارب

---

(1) م . س ، 48/4 .
(2) م . ن ، 48/4-49 .
(3) م . ن ، 49/4 .
(4) يقصد بهذا الكلام أن قرطبة كانت العاصمة في العصر الإسلامي ، ولا يقصد ما قبل هذا العصر ، لأن عاصمة إسبانيا قبل الإسلام كانت طليطلة .
(5) م .ن ، 50/4-51 .

بَرَّيهِ هنالك وتقطُّع عُذُره ومُرُوجه معنى رِخوحلاوة أُخرى ، وزيادة أُنس وكثرة أمان من الغرق ، وفي جوانبه من البساتين والمروج ما زاده نضارة وبهجة».

ويذّكر هذا الكلام ببيتين لابن عطية المحاربيّ يقول فيهما منوّها بقرطبة[1]:

بأربع فاقتِ الأمصارَ قرطبةٌ   منهُنَّ قنطرةُ الوادي وجامِعُـهَـا

هاتان ثِنْتَان والزهـراء ثالـثة   والعلم أعظم شيء وهْو رابعُها

ثمّ يتحدث باختصار عن مدينة جيَّان التي لم يَرِد ذِكرُهَا في رسالة صفوان بن إدريس، قائلاً [2] : «وأمَّا جيان فإنها لبلاد الأندلس قلعة ، إذ هي أكثرها زرعاً ، وأصرمها أبطالاً وأعظمها منعة ، وكم رامتها عساكر النصارى عند فترات الفتن فرأوها أبْعَدَ من العَيّوق ، وأعَزّ منالاً من بَيض الأنُوق ، ولا خَلَتْ من علماء ولا شعراء ، ويُقَال لها : " جيان الحرير " ، لكثرة اعتناء باديتها وحاضرتها بدود الحرير».

ثم ينتقل إلى مدينة هامّة من مدن الأندلس ، وهي غرناطة آخر ما سقط من معاقل المسلمين ، حيث يشيد بطبيعتها الخلابة الجميلة ، وهوائها النقي ، ويذكر نبوغ أدبائها ، وعلى وجه الخصوص الشواعر كنزهون القلاعية ، وحفصة بنت الحاج التي كان بينها وبين الشاعر المعروف في عصر الموحدين ، أبي جعفر بن سعيد ، مطارحات شعرية ؛ استحسن الشقنديّ جواباً لها ردّت به على الشاعر عندما كانا بـ" حور مؤمل " يَدُلُّ على أن شواعر هذا العصر كُنَّ على قدْر عالٍ من قول الشعر ، جارَيْنَ به الشعراء الرجال . يقول الشقندي في هذه المدينة العريقة [3] : « وأمّا غرناطـة فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ، لها القصبة المنيعة ، ذات الأسوار الشامخة والمباني الرفيعة . وقد اختُصت بكون النّهر يتوزَّعُ على ديارها وأسواقها وحمَّاماتها... وزانها الله تعالى بأن جعلها مُرَتَّبَة على بسيطها الممتد الذي تفرعت فيه سبائك الأنهار بين زبرجد الأشجار » .

(1) م . س ، 4 / 116 .

(2) م . ن ، 51/4 .

(3) م . ن ، 51/4 .

وقد كان نهرها العظيم بمثابة القلب النابض بالحياة . وقد تفرَّع على أماكن شتى في المدينة جعلها تنعم بمياهه وتستفيد من خيراته الكثيرة .

ثم يقول بعد ذلك [1] : « ولنسيم نجْدها وبهجة مَنْظر حَورها في القلوب والأبصار ، استلطاف يروق الطِّباع ، ويُحدث فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع ».

وهو يُشير هنا إلى أنّ هواء ها يُؤَثِّرُ في النفوس والطباع ، ويُساعد الإنسان الذي يعُمُّهُ على الاختراع والاكتشاف . وهذه النظرية يقول بها كثير من الباحثين .

ثم يقول أيضاً [2] :« ولم تخلُ من أشراف أماثل ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل . ولو لم يكن لها إلا ما خصَّها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر مثل نزهون القلاعية ، وزينب بنت زياد ... وحفصة بنت الحاج ، وناهيك في الظرف والأدب . وهل ترى أظرف منها في جوابها للحسيب الوزير الناظم الناثر أبي جعفر ... بن سعيد ».

وبعدها يتطرّق إلى مدينة مالقة [3] فيذكر موقعها الجميل الاستراتيجي المتربِّع على البرّ والبحر، وتميّزها بكثرة البُروج والحصون الدفاعية ، واشتهارها بفاكهة التين ، وأنّ فيها تُنسج الحُلل المَوْشية الغالية الثّمن . يقول [4] :«وأمَّا مالقة فإنها قد جَمعتْ بين منظر البحر والبَرِّ بالكروم المتّصلة التي لا تكاد تُرى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التي شابهت نجوم السَّماء ، كثرةَ عدد وبهجة ضياء ،وتخلّل الوادي الزائر لها في فصلي الشتاء والربيع في سرر بطحائها و توشيحه لخصور أرجائها . وممَّا اختصَّت به من بين سائر البلاد : التين الربي المنسوب إليها ، لأنَّ اسمها في القديم " ربة "... وفيها تُنسج الحلل الموشية ، التي تتجاوز أثمانها الآلاف، ذات الصور العجيبة... وساحلها محطّ تجارة لمراكب المسلمين و النصارى» .

---

(1) م . س ، ص . ن .

(2) م . ن ، ص . ن .

(3) للاستزادة من الكتب حول هذه المدينة ، ينظر : كمال السيد أبو مصطفى : مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف ، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، د.ط / 1993 ، ص 20 – 35 .

(4) م . س ، 52/4 .

أمّا مدينة المرية (1) فإنّه يذكر شهرتها بين المدن ، ويخصّ أهلها وساكنيها بوصف حسن لم يذكره مع ما تقدم من المدن للدلالة على أن لكل مدينة من مدن الأندلس خاصية قد لا توجد في غيرها ، ويشير أيضا إلى موقعها الحسن الاستراتيجي الذي لعب دورا هاما في إدارة المراكب والسفن البحرية في تلك المنطقة ، حيث يقول (2) : « وأمَّا المرية فإنها البلد المشهور الذكر ، العظيم القدر ، الذي خُصَّ أهلُه باعتدال المزاج ، ورونق الديباج ، ورقّة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، وكرم المعاشرة والصحبة ، وساحلها أنظف السواحل وأشرحها وأملحها منظراً ، وفيها الحصا الملون العجيب... والرخام الصقيل الملوكي ، وواديها المعروف بوادي بَجَانة من أفرج الأودية ، ضِفّتاه بالرياض كالعِذَارين حول الثّغر ، فحق أن ينشد فيها :

أرضٌ وَطِئتُ الدُّرَّ رَضْرَاضاً بها   والتُّرْب مِسكاً والرِّيَاض جناناً

...و بها كان محط مراكب(3) النصارى ، ومجتمع ديوانهم... ولم يوجد لهذا الشأن مثلها لكونها متوسطة ومتّسعة قائمة بالوارد والصادر، وهي أيضاً مصنع للحُلل الموشية النفيسة (4)» .

ويختصر الحديث بعد ذلك عن مدينتي مرسية وبلنسية على الرغم من أهمّيتهما وموقعهما بين مدن الأندلس .

فمرسية كما قال الشقندي حاضرة شرق الأندلس ، حيث ركّز في الحديث عنها على جمال طبيعتها بكل عناصرها المعروفة ، وجعلها المدينة الثالثة في صُنع الحلل الموشية بعد مالقة والمرية .

---

(1) مدينة المرية تقع على ساحل البحر الرومي ، وهي مرسى للسفن القادمة إلى بلاد الأندلس ، وفي مينائها يربض الجانب الأكبر من أسطول الأندلس الأعظم . ينظر : عبد الرحمان البرقوقي : حضارة العرب في الأندلس ، مصر: مكتبة الثقافة الدينية ، ط $_1$ / 2001 ، ص 95 .

(2) المقري : نفح الطيب ، 53/4 .

(3) للاستزادة ينظر : مريم قاسم طويل : مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح ، الدار البيضاء : مكتبة الوحدة العربية ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1 / 1994 ، ص 99 – 100 .

(4) يقول ياقوت الحموي : « ... ويُعمَل بها الوشي و الديباج فيجاد عمله ، وكانت أولا تُعمل بقرطبة ثم غلبت عليها المرية فلم يُثقف في الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية» . (معجم البلدان ، بيروت : دار صادر ، د.ط / 1984 ، 119/1) .

وتشتهر هذه المدينة ـ كما يذكر الكاتب ـ بأنَّ العروس تُجهَّز منها حيث قال [1] : « وأمَّا مرسية فإنها حاضرة شرق الأندلس... وواديها قسيم وادي إشبيلية ، كلاهما ينبع من شقورة وعليه من البساتين المتهدّبة الأغصان ، والنواعير المطربة الألحان ، والأطيار المغردة ، والأزهار المنتضدة ما قد سمعت . وهي من أكثر البلاد فواكه وريحاناً... وهي بلدة تجهز منها العروس التي تنتخب شورتها ، لا تفتقر في شيء من ذلك إلى سواها، وهي للمرية ومالقة في صناعة الوشي ثالثة...إلى غير ذلك ممَّا يطول ذكره ، ولم تخل من علماء وشعراء وأبطال » .

ثم انتقل إلى الإشادة بمحاسن بلنسية ، ومنها : بساتينها ، وبحيراتها ، ونسيجها فقال [2] : « وأمَّا بلنسية ، فإنّها لكثرة بساتينها تُعرف بمطيب الأندلس ... وفيها البحيرة المشهورة الكثيرة الضوء والرونق ، ويقال : إنَّه لمواجهة الشمس لتلك البحيرة يكثر ضوء بلنسية ... وممَّا خُصَّت به النسيج البلنسي الذي يُسفَّرُ لأقطار المغرب ، ولم تخلُ من علماء ولا شعراء ولا فرسان يُكابدون مضايقة الأعداء ».

وكان آخر ما ختم به الحديث في هذه الرسالة الطويلة هو جزيرة ميورقة التي كانت تابعة لبلاد الأندلس(ولازالت تابعة لإسبانيا حاليا) ، حيث يقول [3] :«وأمّا جزيرة ميورقة فمن أخصب بلاد الله تعالى أرجاء ، وأكثرها زرعاً ورزقاً وماشية ، وهي على انقطاعها من البلاد ، مستغنية عنها ، يصل فاضل خيرها إلى غيرها ، إذ فيها من الحضارة والتمكن والتمصّر وعظم البادية ما يغنيها ، وفيها من الفوائد ما فيها، ولها فضلاء وأبطال... » .

ثم يوجّه الحديث بعد ذلك إلى ابن المعلم قائلاً له : « هذا – زان الله تعالى فضْلَكَ بالإنصاف وشرَّفَ كرَمَك بالاعتراف ! – ما حضرني الآن في فضل جزيرة الأندلس ، ولم أذكر من بلادها إلا ما كُلُّ بلد منها مملكة مستقلة يليها ملوك بني عبد

(1) المقري : نفح الطيب ، 53/4 .
(2) م . ن ، 54/4 .
(3) م . ن ، ص . ن .

المؤمن على انفراد ، وغيرها في حكم التبع...وصلى الله على سيدنا محمد نبيّه المختار من صفوة العرب ، وعلى آله وصحبه صلاة متصلة إلى غابر الحِقب».

لقد كانت هذه الرسالة أعمّ من رسالة صفوان بن إدريس ، بيّن فيها صاحبها محاسن بلاد الأندلس على مختلف المستويات ، وإن كانت الأولى تتجسد فيها الأدبية أكثر من الثانية التي تخللها بعض الأخبار والقصص البعيدة عن الجانب الفني الأدبي . ولقد أبرز الكاتبان أيضاً مدى شغفهما ببلاد الأندلس وحبهما لها ، فلم يتركا فضيلة من فضائلها إلا ذكراها ، ولا حسنا من محاسنها إلاّ أبرزاه .

3- الدّعـوة إلى الجهـاد وطـلب الإغاثـة :

إذا كان صوت الشعراء في هذا المجال جهيراً مدوياً في الآفاق ، وأدّى ما عليه، فإن الكتاب الأندلسيين في هذا العصر لم يكن صوتهم خافتاً . بل إن بعض الشعراء الذين كانت لهم الرّيادة في دعوة الأندلسيين وغيرهم إلى الجهاد ، واستنفار بعض الدول القوية المجاورة لنجدة الأندلس ، وظفوا لذلك الغرض رسائلهم ودفعوا الناس دفعاً إلى الذّود عن الوطن . و لربّما فهم الناس النثر أكثر من الشعر ، فحرّك مشاعرهـم وأيقـظ هممهـم .

أ- الدّعــوة إلــى الجهــاد :

كان معظم الكتاب الأندلسيّين في عصر ملوك الطوائف يكتبون رسائلهم ومناشيرهم وخطبهم وما إلى ذلك ، التي يدعون فيها إلى الجهاد من تلقاء أنفسهم ، كما فعل ابن عبد البر في منشوره ، والهوزني في رسالته ، وابن أبي الخصال في خطبته ، لكن الأمر اختلف نسبياً في عصر الموحدين ، إذ أصبحت الكتابات النثرية في هذا الشأن تصدر عن الديوان ، وبأمر من الحاكم .فهذا مثلاً الكاتب أبو الحسن بن عياش يكتب عن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المومن رسالة كان سبب إنشائها هو غدر النصراني "جرانده" الجليقي بمدينة بطليوس ، وتملك ابن"الرنك" الغادر صاحب قلمرية لها ، وحصار الموحدين الذين كانوا في قصبتها وقد ضيق عليهم في ذلك الحصار. وعند ذلك انتفض أمير المؤمنين وقدم بنفسه من مراكش عازماً على غزو بلاد الأندلس وكانت تلك الحركة في سنة 564 هـ . وقد وُجّهت هـذه الرّسـالة إلى جيش الموحدين الذين كانوا في الأندلس جاء فيها (1) : «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد وآله وسلّم ، والحمد لله وحده ، من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيّـدهُ الله بنصره وأمدَّه بمعونته ، إلى الطلبة الموحدين من الذين بجزيرة الأندلس... وما زِلنا وفّقكم الله على إتمام العناية بتلكم الجزيرة – مهَّدها الله – والحرص على عَونها ، والانتواء لنصرتها والعمل على قصد ذلك بالمباشرة

(1) ينظر : ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة ، ص 292 وما بعدها .

والمشاهدة ... ونجعل لها من الفكر حظّاً يستحق الصَّدر على ما سِواه من الأفكار ... ونراه من الأهمّ الأعنى ، والأوَّل الأولى ، قياماً بحق الله في جهاد أعدائها ومكابري مناويها ...وتوقـّياً من استشراء الشّر ، وتوفر أسباب الفتنة ، فينصرف إليها من الالتفات والقصد لحسم عِللها وإبراء أدوائها ما يُقشِع غياباتها ... ويُفضي إلى المقصود الأوَّل من التّفرغ للجزيرة - مهَّدها الله – والتوطئة لأمرها».

إنَّ أغلب ما جاء في هذه الرسالة هو تبيان أحوال البلاد وما تستوجبه من الدفاع عنها . وإذا كان الكتاب الأندلسيون في زمن ملوك الطوائف يركزون على جانب الترغيب والترهيب ، وتزهيد الناس في الحياة الدنيا ، وترغيبهم في الآخرة ، ودعوتهم لترك الذنوب حتى يتهيأوا لجهاد النصارى ، فإن كُتّاب عصرالموحدين لم يكونوا يدعون الناس إلى محاربة النصارى بشكل مباشر ، وبأسلوب حماسي كما فعل ابن عبد البرّ التمري في منشوره المشهور ، وأرى سببَ ذلك هو أن الموحّدين كانوا معتزين بقوّتهم ، واثقين بالانتصار، وبخاصة على عهد عبد المؤمن بن علي وأبي يعقوب يوسف وأبي يوسف يعقوب . لذلك نجد في نهاية بعض هذه الرسائل تبشير الجنود بالفتح ووعدهم به .

فلنستمع إليه وهو يحاول أن يرفع من معنويات الموحدين الموجودين في الأندلس ببعث جنود إضافيّين يشدُّون من عزمهم ، ويكونون دعماً لقوتهم ،ومطمئناً إياهم بالفتح والنصر ، قائلاً:« ولمّا تولّى اللهُ هذه الجهات مَنّة التمهيد ، وبسط لها نعمة التّسكين والتّوطيد ، انعطف النظر إلى محلّ مثاره ، وسال سيل الاعتناء إلى قراره ، وتوجه حفلُ الاشتغال إلى الجزيرة – مهَّدها الله - وتوفرت دواعي الاستعداد لُنصرتها وجهاد عدوّها ، ورأينا في أثناء ما نحاوله من مَرُوم هذه الغزوة المُيَمَّنة المباشر أن نقدّم بين أيدينا عسكراً مباركاً من الموحدين- أعانهم الله - صحبة الشيخ الأجل أبي حفص – أعزَّهُ الله – يكون تقدمة لجواز جمهور الموحدين ومُؤنِساً بما عزمنا عليه – والله المستعان – من التحرُّك بجملة أهل التوحيد والقصد لهذا الغزو الميمون ... » إلى أن يُصرّح بالدعوة إلى الجهاد والتبشير بالفتح فيقول : « فتعاونوا مع إخوانكم

الواصلين على بَركة الله إليكم على جهاد أعدائكم إلى أن يُوافيكم إن شاء الله هذا العزم ... وإذا طالعتم – وفقكم الله – هذه الأنباء واستعلمتم ما في ضمنها من البشائر وعُنوانات الفتوح ...رأيتموها نُعمى تخوَّلتكم ، ورُحمى انتحتكم ...».

وهناك بعض الرسائل التي لم يذكر كاتبُها ، بل اكْتُفِيَ بصدورها عن أمير المؤمنين مثل ما بعث بـه أبو يعقوب يوسف إلى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي إبراهيم . وعلى الطريقة نفسها التي كُتبت بها الرسالة السابقة ، جاءت هـذه الرسالة ، حيث الرَّغبة المُلِحّة في إضفاء الأمن والتحكم في مقاليد الأمور ببلاد الأندلس .

ويجب التنبيه هنا إلى أنّه عندما تمّت البيعة لأبي يعقوب ، احتفل الموحدون بهذا الأمر احتفالاً عظيماً ، وكان لقضية البيعة عند الموحدين الأثر البالغ في نفوس الناس فلا تمر عليهم دونما إجلال ، وعفو عن الناس ، وذلك للتمهيد لما سيأتي من أمرالحكم ، ولإضفاء الهيبة و الاحترام في قلوب الناس لذلك فإنّه عندما تمت مراسيم هذه البيعة جاءت هـذه الرسالة مكمّلة لها ، و فيها يعلن أمير المؤمنين بأنّ الموحدين في حضرة مراكش يُولون اهتماماً بالغاً لما يجري في الأندلس ، حيث بعث أخاه أباإسحاق إبراهيم بن عبد المؤمن والياً على قرطبة راجياً منه التعاون مع أهل إشبيلية على حماية البلاد والدعوة إلى الجهاد فقال:« من أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ... إلى الحافظ أبي عبد الله بن محمد ... والموحدين الذين بأغرناطة ... والذي نوصيكم به تقوى الله تعالى ... والتوكل عليه و الثقة بأنّـه تعالى نَاصِرُ هذا الأمر العزيز ومؤيده ... وظهور كلمته ، وإنجاز ما وعده من الاستيلاء على الأدنى والأبعد ... وإنَّ تلكم الجزيرة – مهَّدَهَا الله – لَمِنْ آكد ما توجه إليه نظرنا ، وتوكل به اعتناؤنا واشتغل به فكرنا لمصاقبة الأعداء الروميين لبلاد الموحدين بها وإلحاحهم على جنباته » ، ثم يقول:« وقد اتفقنا في هذه الأيام على أن يتوجه إليها أخونا أبو إسحاق إبراهيم ... في عسكر مبارك من الموحدين و العرب وفَّرهم الله ليكون بقرطبة - مهدها الله - ورجونا من تعاونه مع إخوانه الذين بإشبيلية - حرسها الله - وتعاضدهم جميعاً وتوازرهم على الجهاد وحماية البلاد والنظر في المصالح ... وهذه كلها مقدمات بين يدَيْ ما يُنوَى من

الغزوالأعم والجهاد الأتم ... فاشكروا الله على ذلك واستبشروا وبشِّرُوا إخوانكم ... بإقبال هذا الخبر ... وسكّنوا به النفوس وثبتوا به الأقدام ، وأجدُّوا في الجهاد بنيات خالصة وعزمات صادقة ، وكونوا على أتم التعاون ... » . وهكذا، بأسلوب النصيحة، يُنهي الكاتب رسالته .

وبالنظر في أسلوب الرسالة وموضوعها ، وتشابهها مع الرسالة السابقة في أغلب الأمور كتوظيف الجمل الاعتراضية أخلُص إلى أن كاتب هذه الرسالة هو أبوالحسن بن عيَّاش .

وهكذا لم تكن رسائل الدعوة إلى الجهاد في عصر الموحّدين ممزوجة بشحن النفوس ودغدغة العواطف واستمالتها كما كان الأمر في القصائد الخاصة بهذا الموضوع ، وإنّما اكتفت – في الغالب – بعَرْض الحال ، والتبشير بالمآل .

ب- طلب الإغاثة :

بعد وقعة " العقاب " التي مُني فيها المسلمون بهزيمة شنعاء على أيدي النصارى ، نشطت حركة الاسترداد ، ووهنت قوى الموحدين في الأندلس ، وآذنت دولتهم بالسقوط . وهذه الأحداث كانت مشابهة لما كان يحدث في المغرب ، مقرّ دولة الموحدين ، حيث ظهرت في أواخر وجودها دول أخرى ، كان الأندلسيون يأملون في إنجادها لهم ، وبخاصة دولة الحفصيين ، أقوى تلك الدول . يُضاف إلى هذا تدفّق كثير من الشعراء والكتاب الأندلسيين على تلك الدول لاجئين . ولقد أثبت الشعراء بحقّ حضورهم هناك ، فنظموا أشعارا طالبين فيها النجدة لوطنهم . لكن صوت الكُتّاب في هذا الموضوع لم يُثبِت وُجوده ، إذ لم أعثر إلّا على رسالة واحدة قصيرة لأبي المطرف بن عميرة .

جاء في نفح الطيب قوله ممهّدا لتلك الرسالة : [1] « وكتب (أبوالمطرّف) رحمه الله إلى سلطان إفريقية الوارث مُلك بني عبد المومن بتلك النواحي ، المستولي

---

[1] المقري ، 243/1 .

على البلدان والضواحي ، وقد كان لأهل الأندلس أملٌ في أخذه بثأرهم ، وضمّ انتثارهم ، ما صورته ».

ويوحي هذا التقديم بأنَّ الرسالة الموجّهة إلى أبي زكرياء الناصر بتونس ، تحمل في طياتها دعوة إلى إنجاد بلاد الأندلس . لكن الذي جاء فيها هو التنويه بالسلطان الحفصي ومدحه والإشادة بفضائله ، فلم يُصرّح أبو المطرف بتلك الدعوة ، وإنّما اكتفى بالتلميح ، ذاكرا فتوحات أبي زكرياء وقوته على الأعداء . وقد استهلّ أبو المطرف هذه الرسالة بالأبيات التالية :

شاقه غِبَّ الخيَال الوارد بارقٌ هاج غرامَ الهاجِد
... إنّما الفخرُ لِمولانا أبي زكريَّاء بن عبد الواحد
ملكٌ لولا حُلاهُ الغُرُّ لم يجر بالحمد لسانُ الحامِد
... ما الفُتوح الغُرُّ إلاّ لهمُ بين ماضٍ بادئ أو عائد
...أيّها الجامع ما قد احْرزوا جمعَ مَن هِمَّتُه في الزّائد
هذه الأُمَّةُ قد أوسعْتَها نظراً يكلأ ليلَ الرّاقد

ولقد سيطر المدح على هذه الرسالة كما كان الأمر عند شعراء الاستنفار ، وذلك لكي يستميلوا نفس الأمير الحفصي . ويختمها الكاتب بقوله (1) : « نصر الله تعالى مولانا وأيَّده ، وشدَّ مُلكَهُ وشيَّدَهُ ، وأبقى للفضل أيامَهُ ، وللفصل أحكامه ، وأظفر بأعناق الأشقياء حُسامه ، ووفّرَ مِن اتساق النعم والآلاء حظوظه وأقسامه ، والحمد لله ثم الحمد لله على أن جعل به حرَمَ الأمة آمناً ،ووهج الفتنة ساكناً ، وأبواب الصلة والمعروف لا تعرف إلا واصلاً أوآذناً، وتلافى فلّ الإسلام منه بفيئاته التي منها ينتظرون الكرّ، وبها يُوعدون الفتح الأعزّ والنصر الأغرّ ، فهم بين جِدَةٍ قبضوها ، وعِدَةٍ رَضوها ، وارتقاب للفتح أكبر هِممهم منه دَرْك الثار، وانتصاف لأهل الجنة من أهل النار . فأمَّا الأوطان فقد أسْلَتهم عنها جهة ُتنبت العِزَّ فيما ُتنبته ، وتنفي من الضيم

---

(1) م . س ، ص 244-245 .

ما تلك تثبته ... وللعبد حالٌ يستقبل بها من النظر الكريم – أدامه الله تعالى – ما أعينُ الآمال إليه صُورٌ ، ورجاء الجميع عليه مقصور» .

وفي هذه الخاتمة يظهر الكاتب أنّ آمال الأندلسيين كانت معلقّة على أبي زكرياء ، وكانوا راجين منه أن يخلّصهم من تكالب الإسبانيين ، وبخاصّة أهل مدينة بلنسية موطن الكاتب ، تلك المدينة التي كانت آيلة إلى السقوط .

4- رثـــاء المـــدن :

رثاء المدن في النثر الأندلسي تمثّله تلك الرسائل التي كُتبت في رثاء بعض المدن الأندلسية التي احتلّها النصارى .

ومن الملاحظ في هذا العصر أنّ الشعراء الذين نظموا في هذا اللون الأدبي ، كانوا كذلك في مقدّمة الكتاب . ولم أعثر على رسائل سوى ما كان لأبي المطرف بن عميرة وابن الأبّار البلنسي . وقد كانت التجربة هي نفسها ، كما أنّ النَفَس الطويل الذي تجلى في قصائدهما ، برز أيضاً في كتاباتهما النثرية . وهو دليل واضح على زعامتهما الأدبية في هذا العصر .

ولقد استحوذت نكبة مدينة بلنسية على اهتمام الكتّاب كما لفَتَتْ انتباه الشعراء. فمن تلك الرسائل التي ندب فيها الكتّاب هذه المدينة رسالة خاطب بها أبو المطرّف بن عميرة صديقه ابن الأبّار يذكر له فيها أخذ العدو هذه المدينة حيث يقول[1] :

«ألا فَيْئَـة للدهر تدنـو بمن نأى وبقـيا يرى مـنها خـلاف الذي رأى

ويامن عذيري منه يغدر من أوى إليه ولا يدري سوى خلف من وأى

ذخائر ما في البرّ و البـحر صيده فـلا لـؤلؤاً أبـقـى علـيه ولا وأى

أيّها الأخ الذي دهش ناظري لكتابه ، بعد أن أدهش خاطري من إغبابه ... »،

وراح يذكر في هذه المقدّمة الطويلة شوقه إلى ابن الأبّار بعد أن انقطعت الصّلة بينهما ، ثمّ نعته بأحسن النعوت ، وأشاد كثيراً ببلاغته ، واقتداره في فنّ الكتابة . ويبدو من خلال بعض المقاطع أنّ ابن الأبّار بعث إليه كتاباً يلومه فيه لشيء كان بينهما ، ثم هجر أحدهما الآخر ، فرَدَّ عليه أبو المطرف بهذه الرسالة التي أراد أن يصلح بها ما تَغيَّر بينهما ، ثمّ يقول مُصَوِّراً المأساة التي وقعت لبلنسية : « فيا لله لأتراب دَرَجُوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قُصَّتِ الأجنحة وقيل : طيروا ، وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا ، فتفرقوا أيدي سَبَا ، وانتشروا ملءَ الوهاد والرُّبَا، ففي كلّ جانب عويل وزفْره ، وبكلّ صدر غليل وحسره ، ولكل عين عِبْرَه ، لا ترقأ

[1] م.س ، 5 / 377 .

من أجلها عَبره ، داء خامر بلادنا حين أتاها ، وما زال بها حتّى سَجَّى على موتاها ، وشجا ليومها الأطول كهلها وفتاها ، وأنذر بها في القوم بحران أنيجه ، يوم أثاروا أسدها المهيجة ، فكانت تلك الحطمة طَلَّ الشُّؤبُوب ، وباكورة البلاء المصبوب ».

وهو تصوير مؤلم للنفوس ، ومفطّر للقلوب ، نتيجة لما أصاب المدينة . وقد حاول أبو المطرف أن يصور المأساة من كل جوانبها ، حيث فرقت بين الأحباب ، وطردت الناس عن أوطانهم ، وتركت الدموع تسيل ، والصدور تضيق بما حصل ، ولم تترك صغيراً ولا كبيراً ، وحتى العلماء ذاقوا مرارتها ؛ فهذا شيخ الكاتب ، أبوالربيع الكلاعي يتفجع عليه ويبكيه ، وهو الذي مات شهيداً في ساحةالوغى في معركة " أنيشة " . ثمّ ، على طريقة ابن شهيد في رائيته(1) التي رثى بها قرطبة ، يرثي بلنسية ، فيذكر مواطن الجمال التي أصيبت فيها وشُوِّهَت . وراح يتساءل عنها ، ويتأوَّهُ عليها بطريقة نلمس من خلالها أنّ الكاتب لم يكن له وطن آخر غيرها ، وهو دليل على صِدق عواطفه تجاهها ، كما نحس أنّ أبا المطرف يائس من خلاصها، يقول : « أثكلتنا إخواناً أبكانا نعيهم . ولله أحوذيهم وألمعيهم ، ذاك أبو ربيعنا ، وشيخ جميعنا ، سعد بشهادة يومه ، ولم يَرَ ما يسوءه في أهله وقومه ... وهي بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق . وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأُخْرج من جسدها روح الإيمان ، فبرح الخفاء ، وقيل : على آثار منح ذهب العفاء ، وانعطفت النوائب مفردة ومركبة ... فأودت الخفة والحصَافة ، وذهب الجِسْرُ والرُّصافة ، ومزّقت الحلّة والشّملة ، وأوحشت الجرف والرملة ، ونزلت بالحارة وقعة الحَرَّة ، وحصلتِ الكنيسة من مآذرها وظبائها على طول الحسرة ، فأين تلك الخمائل ونَضْرتها ، والجداول وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومُنعرجها ، والنواسم وهبوب متلِّها ، والأصائل وشحوب معتلها ؟ دارٌ ضاحكت الشمسُ بحرَها

---

(1) - يقول في مطلعها :

مافي الطّلول مِن الأحبّة مُخبر فمن الذي عن حالها نستخبر

إذا ما أرجعنا القصيدة نثراً نجد أنها تشبه هاته الرسالة في الصور والنسج . ابن شهيد : ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله جمعه وحققه وشرحه : محي الدين ديب ، بيروت : المكتبة العصرية ، ط1 /1997 ، ص 76 .

وبُحيرتَهَا ، وأزهار ترى من أدمع الطّل في أعينها تردُّدَها وحيرَتَها ، ثم زحفت كتيبة الكفر بزُرْقتها وشُقرها ، حتى أحاطت بجزيرة شُقرها . فآهاً لمسقط الرأس هوى نجمُه، ولفادح الخطب سرى كَلمُه ، ويالجنة أجرى الله تعالى النهر تحتها ، وروضة أجاد أبو إسحاق[1] نعتها . وإنما كانت داره التي فيها دبّ ، وعلى أوصاف محاسنها أكبّ ... ولم تعدم بعده محبّين ، قشيبهم إليها ساقوه ، ودمعهم عليها أراقوه».

وتعد هذه الرسالة من روائع ما كُتب في النثر الأندلسي في هذا العصر . وفيها ذهب الكاتب يُقابل بين صورتين ، صورة المدينـة بكامل محاسنها وماضيها الجميل ولباسها القشيب ، وصورة حاضرها الكئيب المحـزن . لذلك فهي أفضل بكثير من بعض القصائد التي قيلت في رثاء المدن .وقد يدلّ ذلك علـى أن مدينة بلنسية ظلّت شغله الشاغل ، ولم تفارق نكبتهاخيالَهُ وإن كان في ديار الغربة هنيئاً منعَّماً . وهو ما يمكن أن يندرج في قضية الالتزام . ثم ختم الرسالة بقصيدة بديعة وقفت عندها في الفصل السابق .

ونظراً لأهمّية الحدث ، فإن ابن الأبّار رَدَّ على رسالة أبي المطرف برسالة بليغة ، جديرة بقولالمقّري : " فلنقتبس نورالبلاغة منها " [2] .

وقد ابتدأ ابن الأبّار رسالته بالثناء على رسالة أبي المطرف ، ثم راح يبكي بلنسية ، ويصرّح بأنّ الذي أصابها جعله يرحل عنها رحيل من لا يرجع إليها أبدًا ، وذلك لعِظم المأساة . ثم تساءل عن أماكنها الجميلة ، وعن حال طبيعتها الغنّاء معدّداً محاسنها ، فقال [3]:« وأمّا الأوطان المحبَّبُ عهدها بحكم الشباب ، المشبَّب فيها بمحاسن الأحباب ، فقد ودّعنا معاهدها وداع الأبد ... أسلمها الإسلام ، وانتظمها الانتثار والاصطلام ... فغلب على الجَذَل الحَزَن ، وذهب مع المسكن السَّكن ... أين

---

[1] هو أبو إسحاق ابن خفاجة الشاعر المشهور ، جنان الأندلس ، له قصائد كثيرة في طبيعتها ، وقد وصف الروض كثيرا، يقول مثلا :

في روضة جنح الدجى ظل بها وتجسمت نَوْرا بها الأنوار

ديوان ابن خفاجة ، ص 136 .

[2] المقري: نفح الطيب ، 5 / 382 .

[3] م .ن ، 5 / 383 .

بلنسية ومغانيها ، وأغاريد وُرْقها وأغانيها ؟ أيـن حِلَى رُصافها وجسرها ، ومنزلا عطائها ونَصْرها ؟ أين أفياؤها تندى غَضَارة ، وذكاؤها تبدو من حضارة ؟ أين جداولها الطَّفّاحة وخمائلها ؟ أين جنائنها النفّاحة وشمائلها ؟ شَدَّ ما عطل من قلائد أزهارها نحرُها ».

وعلى المنهج نفسه الذي سار عليه الشعراء في رثاء الأندلس ، وبخاصة الشاعر أبا البقاء الرندي في نونيته المشهورة سار ابن الأبّار ؛ فعند الملاحظة الدقيقة نجد شَبَهاً كبيرًا بين تلك القصيدة وهذه الرسالة ، وذلك من حيث التناول والمواضيع المطروقة . يقول ابـن الأبار ذاكراً مدناً بعينها ، ومُفصّلاً ما أجمله في البداية ، ومُبدياً عظم المأساة وعُمق الجرح الذي تخطّى إلى مدن أخرى : « ثم لم يلبث داء عقرها ، أن دبَّ إلى جزيرة شُقْرها ، فأمر عذبها النَّمير، وذوى غصنها النَّضير ، وخرست حمائم أدْواحها ، وركدت نواسم أرواحها ، ومع ذلك اقتحمت دانية ، فنزحتْ قطوفُها وهي دانية ، ويالشاطبة وبطحائها ، من حيْف الأيام وإنحائها . ولهفاه ثم لهفاه على تـُدمير وتِلاعها ، وجيّان وقِلاعها ، وقرطبة ونوديها ، وحمص وواديها ، كلُّها رُعي كَلَؤُها ، و دُهي بالتفريق والتمزيق مَلَؤُها ، عضَّ الحصار أكثرها ، وطمس الكفر عينها وأثرَهَا ... ولا مرية في المرية وخفضها على الجوار ، إلى بنيات ، لواحق بالأمهات ، ونواطق بهاك لأول ناطق بهات ، ما هذا النفح بالمعمور؟ أهو النفخ في الصور؟ ... وما لأندلس أصيبت بأشرافها ، ونُقصت من أطرافها ؟ قوّض عن صوامعها الأذان ، وصُمَّت بالنواقيس فيها الآذان » .

وهكذا تمضي الرسالة إلى آخرها في تبيان الواقع الاجتماعي المرير ، من فرقة وتشتت وهجر للأوطان ؛ والواقع الديني المحزن من تنصير وتحويل لمعالم الإسلام إلى الكفر دون رحمة ولا مُراعاة للحقوق التي منحهم إياها المسلمون يوم أن كانوا دولة قوية .

وكذلك فإنّ هذه الرسالة غلب عليها الجانب الفنّي ، حيث استعرض ابن الأبّار قوّته اللغوية ، وأكثر من الاستعارات والتوريات وغيرهما ... وهذا مازادها جمالاً وروعةً .

ولأبي المطرف كذلك رسالة أخرى بعث بها إلى جعفر بن أميّة حين حلّ الرُّزء ببلنسية . وبدأها بقصيدة شعرية ، وقد أشرتُ إلى تلك القصيدة في الفصل السابق ، ويُستَشَفُّ منها غرض الرسالة ، لأن هذه الأخيرة كانت جواباً عن رسالة بعث بها إلى جعفر بن أمية .وقد أثنى عليها مطولاً واستحسنها ، وأشاد ببلاغة الكاتب ، وليس هذا بغريب من ابن عميرة ، إذ كثيراً ما نجده في رسائله الإخوانية يلتزم هذا الأدب الرفيع .يقول مثلاً في تلك المقدمة [1] : « ويا أيّها الجواد وجدناك بحراً ، ... افتتحت بأبياتك الحسان ، ونظمتها نظمَ الجُمان ... ورأيتُك استمددْت ولك الباعُ الأمدّ ، وأعرْتَ محاسنك والعارية تردّ » .

ثم يقول ذاكراً الحادثة الأليمة : « وأجريتَ خبر الحادثة التي محقت بدرَ التمام ، وذهبت بناضرة الأيام . فيا مَن حضر يوم البطشة ، وعُزّي في أنسه بعد تلك الوحشة ، أحقاً أنـّه دُكت الأرض ، ونزَفَ المَعينُ والبَرضُ ، وصوَّح روض المنى ، وصرَّح الخطب وما كنى ؟ ... وجاء اليوم العَسِر ، وأوقدت نار الحزن فلا تزال تستعر... طوفان يقال عنده لا عاصم[2] ، من يُنصفنا من الزمان الظالم ؟ » .

إنّ العبارات التي استعملها الكاتب (يوم البطشة ، دكت الأرض ،اليوم العسر) تُفصح عن مدى هول المصيبة ، إذ لا تستعمل ـ في الأصل ـ إلاّ ليوم القيامة ، حيث تخشع الأبصار ، وتوجف القلوب ، ويصير الحليم حيراناً . وما وقع لبلنسية خطب جلل . ولا نظنّ أبداً أن أبا المطرف بالغ في وصفه لنكبتها ، لأنه عندما سقطت هذه المدينة ، وهي كُبرى قواعد شرق الأندلس ، لم تصمد المدن الأخرى في وجه الزحف النصرانيّ .

---

(1) م س ، 1 / 242 .

(2) إشارة إلى حادثة الطوفان التي حدثت مع نبي الله " نوح " وابنه ، عندما عَمَّ الماء كل شيء ، لجأ ابن نوح إلى جبل ليعتصم به من الطوفان ، فقال له أبوه لا عاصم اليوم من أمر الله . قال تعالى : « قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ» هود : 43.

وممَّا يدل على تصنّع الكاتب توظيفه لمصطلحات علم النحو في التعبير عن هذه الفاجعة وما فعلته بالأحباب والأصحاب . وهو استعمال عجيب ، حيث يقول : « بالله أيَّ نحو تنحو ، ومسطور ُتثبتُ وتمحو ، وقد حُذف الأصليّ والزائد ، وذهبتِ الصِّلة والعائد ، وبابُ التعجّب طال ، وحالُ البائس لا تخشى الانتقال ، وذهبت علامة الرفع، وفُقدتْ سلامـةُ الجمع ، والمعتلُّ أعدى الصحيح ، والمثلَّثُ أردى الفصيح ، وامتنعت العجمة من الصَّرف ، وأمنت زيادتُها من الحذف ،ومالتْ قواعد المِلَّة ، وصِرْنا إلى جمع القلـَّة».

ثم تحدث بعد ذلك عن غربة الإسلام في هذه المدينة التي عاش بين ربوعها قروناً ، واشتهر فيها خيرة علماء الدين في الأندلس، ممَّن ذادوا عن حياض الإسلام ، ثمّ صار هذا الدين بعدهم صريعاً . وقد أرْجَع سبب ذلك إلى العامل التقليديّ المعروف الذي هو كثرة المعاصي وارتكاب الذنوب ، فقال : « وللشرك صيال وتخمُّط ، ولقرنه في شَرَكِه تخبط ، وقد عاد الدين إلى غُربته ، وشرق الإسلام بكربته ، كأن لم يسمع بنصر ابن نُصير ، وطَرْق طارق بكل خيـر ... لله ذلك السَّلف ، لقد طال الأسى عليهم والأسف ، وبقي الحَكَمُ العدل ، والرَّب الذي قوله الفَصْل ، وبيده الفضل ، ربَّنا أمرتَ فعصينا ، ونهَيْتَ فما انتهينا ، ... لو أنّا فيك أحببناوقـَلينا، لـم تـُرنا من الفُرقة ما رأينا ، ولم تسلـّط عدوَّك وعدوّنا علينا ، ... ».

بهذا القانون الإلهي يختم رسالته . ولا يزال ذلك القانون يسري في كل زمان ومكان . وقد طُبِّق على المسلمين في بلاد الأندلس ، يقول تعالى : " إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ " .

لقد صدرت هذه الرسائل عن قلوب مكلومة ، عضَّها الدهر بأنيابه .وقد مثـَّلت هذه النماذج أروع ما يمكن أن يُسْتَشهد به على الاتجاه الوطني الذي ظهر بقوة في الأدب الأندلسيّ في الفترة الأخيرة من عصر الموحدين .

5 - رسائل الفتوحات والغزوات :

لقد اهتم الموحّدون بهذا الفن النثري كثيراً حيث كان حكام هذه الدولة يأمرون كُتابَهم بكتابة الرسائل التي تتناول فتوحاتهم وغزواتهم في المغرب والأندلس ، وقد كثرت هذه الرسائل لكثرة الفتن والقلاقل في مواضع متعدّدة من بلاد المغرب ، ولطول يد النصارى في بلاد الأندلس ، وكانت تلك الرسائل مرآة عكست ما كان للموحّدين من القوة وفرض الهيبة والاحترام على كل من كان مناوئاً لهم .

ولقد كان عبد المؤمن بن علي وأبو يعقوب يوسف ، ومحمد الناصر أكثر خلفاء الموحدين الذين صدرت عنهم هذه الرسائل .

وقد حملت الرسائل التي تناولت فتوحات الموحّدين بالأندلس عاطفة كتّابها الوطنية . لانّ أولئك الكتاب كانوا في الغالب من الاندلسيين .

هناك رسالة للكاتب المتميّز أبي عبد الله بن عياش كتبها عن الأمير محمد النّاصر الموحدي مُخبراً فيها باستيلاء الموحدين على منورقة ويابسة وميورقة بعد أن ظلّت ملجأً أخيراً للمرَابطين ، الذين طاردهم الموحدون في كامل بلاد المغرب والأندلس ، يقول ابن عياش على لسان الأمير: [1]«... فقد علمتم أنَّ الله استأصل شرَّ الأنام ، ورعاء الإبل الصّمالبكم أهل اللّثام ، وطهَّر منهم المغربين تطهيراً ، وكفّر سيئات الأرض التي أقلتهم ، والسماء التي أظلّتهم ، بحسنات هذه الدعوة الإمامية تكفيراً ، ولم يبق منهم إلاّ من كان بجزيرة ميورقة لجأوا إليها ، وتعلقوا بيابسة ومنورقة جناحَيْها ... ثم قصّ الله بيابسة ومنورقة جناحَيْهم ، وقضى بأخذها من الدائرة السَّوْء ما قضى به عَليهم...».

وبعد هذا التحامل على المرابطين ، يذكر مَا دار بين الفريقين من حروب ومنازلات معلناً في الأخير الغلبة للموحّدين وطرد الملثمين عن تلك البلاد ، وقتل الكثير منهم فيقول :«... وعند ذلك تلمَّظت إليهم حفائظُ الموحدين تلمُّظ المرود ...

---

[1] ينظر : مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، اعتنى بإصدارها : ليفي بروفانصال ، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، د.ط / 1941 ، ص 243 والتي تليها .

فجهَّزنا إليهم في أثناء حركتها التي عرَّفنا الله فيها عجائب من السعود ، وأفانين من الأمل المنقود والموعود ، جيشَيْ بَرٍّ وبحرٍ ، وجمعَيْ معونة من الله ونَفْر ... فسار الجيشان في سَمْت ، وتكفَّل الله بإقامة كلّ صعْب من المستصعبات وأمْت ... فلم يكن بين الحلول بالجزيرة والظفر بجهاتها الأربع ، والاستيلاء على شيطانها الرجيم ومعقلها الأمنع ، إلاّ سبع ليال ...ثم هجم الموحدون عليهم في عُقر دارهم هجوماً ... ثم أُجلي ذلك الموطن عن قتل الشقي وأتباعه ، ومحو الباطل المموَّه وأشياعه ... » إلى أن قال : « فأبشروا بهذا الفتح العظيم وتوابعه ، ولواحقه الجسيمة وجوامعه ... ثم إن الفتح فيهم فتح في النصرانية ، وظهور على ممالكها الساحلية ، ولأخذ ميورقة على صاحب أرغُون وبرشلونة أشد من رشق النَّبْل وأهول من وقع السيف ، وأوحش من القطع بحلول الممات ... ».

ولقد كانت فتوحات الموحّدين سبباً في جمع الشمل ، ودرء الفتن ، وإرجاع الأندلس تحت خلافة واحدة ، والوقوف سَدّاً منيعاً أمام مطامع النصارى ، وكل هذه الأمور تخدم بشكل مباشر الوطن وتعين على الحفاظ عليه .

ولم يكن المرابطون وحدهم الذين وقفوا نِدّاً للموحدين ، بل ظهر ، بعد ذلك، الثائر ابن مردنيش ، الذي تمرَّد في شرق البلاد ، وكان شوكة في حلق الدولة الموحدية . ولكن لم يَطل هذا التمرد ، إذ انتصرت سنة 560هـ جيوش الموحدين على هذا الرجل الثائر. وكان هذا الحدث عظيماً في بلاد الأندلس والمغرب ؛ ذلك أنه لمّا وصل البشير إلى حضرة مراكش« قام التكبير والتهليل ، وضُربت الطبول واتّصل السرور وأمر الأمير في الحين بإدخال من حضر من الطلبة لسماع الكتاب الواصل بالبشرى والفتح»[1].

وهذا الكتاب كتبه أبو الحسن عبد الملك بن عياش وقرأه على الحاضرين الفقيه أبو محمد المالقي . وكانت هذه الرسالة طويلة في مضمونها ، لا تخرج عن وصف ما حدث بين الجيشين بإسهاب وتفصيل واسع ، بحيث ذكر فيها بعض الأمور الدقيقة

(1) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة ، ص 201 .

والصغيرة . ونلاحظ تحامل ابن عياش على ابن مردنيش والنصارى ، ونعته بالسوء، والدعاء عليه بالدمار والهزيمة ، وكل ما من شأنه أن يُنقص من قيمته ، ويُضعف من قوته ، مُظِهراً في الجانب الآخر ما للموحّدين من البأس والحزم ، معربا عن الثناء عليهم ، والفرح والسرور بهذا الفتح الكبير الذي أرجع الاستقرار للجهة الشرقية للأندلس ومكن من التحكم فيها . يقول ابن عياش في بعض مقاطع تلك الرسالة[1] :

«... وقد خاطبناكم قبلُ بما كان من صنع الله تعالى في فتح أنْدُوجر وتوحيد الحصون التي تليها ـ عمرها الله ـ ، وتجدَّد بعد ذلك لكم من صنع الله وحده من مطرد الفتح الموعود ، المحفوف بالمناجع والسهود ، ما جَلَّ عن نعت الناعت ... وأظهر من آيات الله تعالى ما فاق بيان ذوي المعارف ، من صُنعٍ لم يُرَ مثله من الحقب ...

فتحُ الفتوح تعالى أن يُحيط به نظم مِن الشّعر أو نثر مِن الخطب

وذلك أن عساكر الموحدين استقبلت هذه البلاد الشرقية ـ فتحها الله ـ تتوغل في أرجائها ، وتحول بحول الله بينها وبين رجائها ، فكلما مرَّ الموحدون بمدينة من مدائنه، أو حصن من حصونه ، انحجر الأشقياء الذين يضبطونها فيها انحجار الثعالب، وانزواء المغلوب بعزّة الغالب ... ».

وقد كانت شدَّة الموحدين على ابن مردنيش قوية ، ووطأتهم عليه كبيرة لا لكونه خرج عن طاعتهم ، بل لاستعانته بالنصارى وتآمره معهم ، وهم الذين لم يستطيعوا تحصينه ولا الدفاع عنه . وقد أوغل الموحدون في أعدائهم سيوفَهم طعناً وضرباً .قال ابن عياش مواصلاً كلامه :« وحملت الروم حملتهم المعهودة ... والتفت عليهم قبائل الموحدين واحتدمت الحرب وحمِيَ الوطيس وثارت سماء النقع دون الجو كواكب الظُّبا والأسِنَّة ، وثبَّت الله أقدام الموحدين ، وزلزل الله أقدام الملحدين ... والروم أكثر القتلى فيهم ، فخرُّوا كأنهم أعجاز نخل خاوية [2]».

---

[1] ينظر : م . س ، ص 202 والتي تليها .

[2] ينظر : م . ن ، ص 206 .

وعلى الرغم من جَلَد جيش الموحدين فإن الكاتب يُسند – في الغالب- النَّصر والقوة الحقيقية إلى الله . وهي تعاليم دأب المهدي بن تومرت على بِّثها في نفوس أتباعه .

وفي الأخير يُشيد الكاتب بهذا الفتح الذي كان عيداً ، والذي لم يكن مقصورا على هذا القطر، وإنما كان خيراً على كامل الأندلس ، لأن ابن مردنيش أتعب كثيراً الموحّدين ونغَّص عليهم أمنهم في البلاد . قال ابن عياش:« وصار سعدُ الأخبية سعدَ السُّعود ، وأقام الموحدون للتَّعِييد ، وقد جمع الله لهم الأعياد في عيد ، والله تعالى يُوزع شكر هذا الفتح العظيم ، ويُفضي لناديه بأكرم عواقب التَّتميم ، إنه منعم كريم ... فهو فتح الأندلس وإذلال عدوّها المتمرّد المتصحِّب ، مُسلَّط الروم عبدة الأوثان والصلبان ، على أهل الإسلام والإيمان . والله يشفع ذلك بأمثاله ، ولا يخلي من ينصر الحق من عضده وإقباله ، وقد بُهتَ هذا العدو الخائن محصوراً ، ودُهِش مذموماً مدحوراً ».

وهكذا كانت رسائل الفتوحات في عصر الموحدين ، والتي أنشأها كتّاب أندلسيّون ، غيرَ خالية من النزعة الوطنيّة وإن كتبوها بأمر الحكام الموحّدين ، لأنّ موضوعها كان تحرير بلادهم من النصارى المتكالبين عليها .

6 - الإشـادة بمحاسن المصنوعـات :

لقد كان عصر الموحديـن عصر التشييد والبناء والازدهار الحضاري ،إذ اهتمّ حكام هذه الدولة بالعمران ، فقاموا ببناء الدور الفخمة ، وتشييد المساجد والجوامع . وبالإضافـة إلى تخليد هذه المصنوعات في بعض القصائد والمقطوعات ، نجد بعض الرسائل والكتابات النثريّة التي نَحت هذا المنحى . إلاّ أنّه ـ انطلاقاً ممَّا عثرتُ عليه في هذا العصرـ ، لم تكن هناك نماذج كافية يمكن أن تكون دليلاً للوقوف على حقيقة هذا اللّون النثري . وإن كنّا نُسلّم بأن هذه القلة لا تتنافى مع وُجود كتابات أخرى . وأذكر من تلك الكتابات رسالتين هامتين : إحداهما في جامع قرطبة ، والأخرى في بناء مدينة بجبل الفتح .

أ - وصـف جامـع قرطبـة :

ظل جامع قرطبة تحفـة معماريّة منذ بنائه إلى يومنا هذا ، يحُجُّ إليه الناس من كل مكان ، لكي يتأملوا ما ترك بنو مروان في بلاد الأندلس . وقد أشاد به الأدباء والمؤرخون والرحالة والسُّياح الذين وقفوا أمامه ، والتعجب يعلو أسارير وجوههم ، لما لاحظوه من الدّقة والجمال في البناء ، والروعة في التشكيل الهندسيّ .

ومن تلك الكتابات رسالة كتبها ابن صاحب الصلاة إلى بعض إخوانه ، يقول فيها [1]:

«... وإنّي شخصتُ إلى حضرة قرطبـة – حرسـها الله – منشِرح الصدر ، لحضور ليلة القدر ، والجامع – قدَّس الله بقعتَه و مكانَهُ ، وَثبَّتَ أساسه وأركانَهُ – قد كُسِـيَ بـردةَ الازدهاء ، وجُليفي معرض البهاء ، كأَنَّ شرفاتِه فلـولٌ فـي سنان ، أو أشرٌ في أسنان ، وكأنّما ضُربت على سمائه كِلل ، أو خلعت على أرجائِهحُلل ، وكأَنَّ الشمس قد خلّفت فيه ضياءها ، ونسجت على أقطاِره أفياءها ، فترى نهاراً قد أحدق به

---

(1) ينظر : رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق : فوزي سعد عيسى ، الإسكندرية : منشأة المعارف ، د.ط / د.ت ، ص 68 .

ليل ، كما أحدق بربوة سيل ... والشَّمع قد رُفِعت على المنار رفع البنود ، وعُرِضت عليها عَرض الجنود ، ليجتلي طلاقة روائِها القريب والبعيد ».

ثم ينتقل إلى وصف قِباب الجامع الرائعة التي أخذت أشكالها الخارجية شكلاً هندسياً فائق الجمال والتنظيم ، وزُيّنت من داخلها بأبهى الحلل والزخارفِ ، وكذلك المحراب الذي أُبدع في صناعته ووشيه ، فيقول :« وظهور القباب مؤلَّلة ، وبطونُها مهلَّلة ، كأنَّها تيجان ، رُصِّع فيها ياقوتٌ ومَرْجان ، قد قُوِّس محرابُها أحكمَ تقويس ، ووُشم بمثل ريش الطواويس ، حتى كأنه بالمجرة مُقرْطَق ، وبقوس قُزح مُمَنطَق ، وكأن اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نُتَفٌ من قوادم الحَمام ، أو كسفٌ من ظُلل الغمام ».

وبعد ذلك يُطيل الحديث عن المصلّين في هذا الجامع الذين يرتادونه بين راكع وساجد وخاشع وتال للقرآن ، ثمّ يختم رسالته بقوله : « فأكرم بها مساعٍ تشوقُ إلى جنَّة الخلد ، ويهون في السعي إليها إنفاق الطوارف والتُّلد ، تعظيماً لشعائر الله ، وتنبيهاً لكلّ ساهٍ ولاهٍ ، حكمة تشهد لله – تعالى - بالربوبيّة ، وطاعة تُذلُّ كلّ نفس أبِية . فلم أَرَ ، أدام الله – سبحانه – عِزَّك ، منظراً منها أبهى ، ولا مخبراً أشهى . وإذا لم تتأمَّله عياناً ، فتخيَّله بياناً ... والتحيَّة العبِقة الريَّا ، المشرقة المحيّا ، عليك ما طلع قمر ، وأينع ثمر ، ورحمة الله – تعالى – وبركاته» .

وواضح من هذا المقطع مدى إعجاب الكاتب بهذا الجامع الذي وصفه وصفاً دقيقاً بديعاً ، وهو أحد المصنوعات التي تفنّن في صناعتها الأندلسيون ، وبرع في وصفها الواصفون ، والصانع والواصف يَكرعان من منبع واحد ، هو حب وطنهم .

والرسالة ، بصفة عامّة مليئة بالصور الفنّية ، وكثرة التشابيه . وذلك ممَّا أضفى عليها سِمة الأدبيّة ، وابن صاحب الصلاة خليقَ بالتكر في هذا الشأن .

ب / الإشادة ببناء مدينة بجبل الفتح :

لقد كان جبل الفتح في عصر الموحّدين مُنطلقاً لكثير من الغزوات والفتوحات التي كانت جيوش هذه الدولة تنظمها ، وكان كذلك محطة يَرتاح فيها الفاتحون قبل فتوحاتهم وبعدها .لذلك أَولى عبد المؤمن هذا الجبل عناية كُبرى ، حيث أمر ببناء مدينة كاملة فيه .

ولم يكن إقدام عبد المؤمن على بناء هذه المدينة إلا بعد أن استخار الله تعالى ودعاه ، وطلب منه العون والتوفيق فكان له ذلك . وهذا يدل على رسوخ الجانب الديني عند حُكام صدر دولة الموحدين . وقد أنشأ أبو جعفر بن عطيّة رسالة في هذه المناسبة يقول في أولها على لسان الخليفة عبد المؤمن [1] : « ومازلنا – أعزكم الله – وهذه المطالع الشرقية مَأمُّ الرّكاب ، وإليها مرتقى الأسباب ، والجهاد المظفر ينتابها من كل مدخل مبارك وباب ، نلتفت من تلكم الجهة إلى العدوة الأندلسية – حفظها الله – بما يجب لها من الالتفات ، ويجمع على قصدها أطراف هذه المقاصد والأشتات ... إلى أن أرسل الله من فضل إنعامه ، وصيِّب إخطاره وإلهامه ، ما استُخير فيه تعالى فصدقت به الاستخارة ، واستقلت به الأفكار المُدارة ، وأذنت فيه بما انشرح له من الصدر بإيذانها مقدّمة البشارة ، وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق – عمَّرَهُ الله – مجمع البحرين ، والقطب الآخذ بأطراف البرّين ، يختص بعون الله بهذا الأمر العزيز إنشاؤها ، ويكون إلى إيجاده اعتزاؤها وانتماؤها ».

وبعد ذلك يبيّن سبب بنائه لهذه المدينة التي ستلعب دور الحصون والقلاع في الدفاع ، وتكون منطلقاً للهجومات التي يشنّها الموحّدون على النصارى ، فيقول:« وإنّا لنرجو أنَّ أشعة النصر لتلكم الجزيرة تثبت من مطلع هذا الشارق والشاهق، وتلمع في كلّ مطرح بكلّ بارق ، وتضمّ إلى حزب الله وفيئته كلَّ منافر ومفارق ، ويكون النظر المحتلّ بذراه ، المنعقد ِبعُراه ، مطلاّ إن شاء الله على المغارب والمشارق . وقد قويت

---

[1] ينظر : مجموع رسائل موحّدية ، ص 97 .

العزيمة بحول الله على الاشتغال ببنائه ، وعمارة فنائه ، والأخذ في شأنه ، وإعداده على مقتضى المدن المحصَّنة المحسَّنة لأوانه ».

ثمّ يذكر أمر عبد المؤمن لرؤساء جنده الذين بغرناطة بأن يجتمعوا مع الأشياخ الأندلسيّين ويُمعِنوا النظر في المكان المختار، حتى يقع في نفوسهم وقعاً حسناً ، فيقول متحدّثا على لسانه :«ولتجمعوا – أعزكم الله – ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين – أكرمهم الله – بهذا الجبل المبارك مع إخوانكم الطلبة الذين بإشبيلية ومن عندهم من أصحابهم والواصلين من قِبَلنا الذين ذكرنا لكم توجيههما ، وتنظروا في ذلك المكان بالنظر الحسن الجامع لمصالح المدن ومرافقها ، وإجادة الاختيار».

وهذه الرسالة ، وإن أمر بكتابتها عبد المؤمن ، لم تخل من العاطفة الوطنيّة لكاتبها أبي جعفر بن عطيّة .

الفصل الرّابع

الخصائص الفنّية للاّتجاه الوطني في الأدب الأندلسي على عهد الموحّدين

إن الإحساس العميق تجاه الوطن لدى الشعراء والكتاب الأندلسيين في عصر الموحّدين، هو الذي جعلهم يكثرون القول في هذا النوع من الأدب ويُجيدونه ، فلا نكد نجد أديباً إلّا وله فيه سهمٌ ، من رثاء، أو مدح، أو حنين، أو وصف... فقد تميزوا عن غيرهم من الأدباء في الأقاليم الأخرى وتفرّدوا عنهم بأساليب تبدو من الوهلة الأولى أنّها أندلسيّة خالصة . فعلى الرغم من أنّ المشارقة سبقوا الأندلسيين في أغراض شعرية كثيرة ، إلا أنّ الأندلسيين أضفوا على تلك الأغراض سمة الأندلسيّة ، فهم وصفوا الطبيعة الخلابة الجميلة التي تميزت بها بلادهم عن بلاد المشرق، وكاد أن يستغرق هذا الحضور للطبيعة جميع ألوان الشعر الأخرى ، بل حتى في بكائهم على مدنهم نجدهم يكثرون من الألفاظ الدالة على الحزن والأسى على ما افتقدوه منها ، لا على طريقة المشارقة الذين جاء رثاؤهم لها ـ في كثير من الأحيان ـ بارداً سطحياً . أمّا الحنين فبالنظر إلى أسبابه وبواعثه التي لم تتيسر في الغالب لأهل المشرق جعلت الأندلسيين يتوسعون فيه ويبدعون في أنواعه ، وهكذا مع جميع الأغراض التي لها صلة بالاتجاه الوطني المدروسة سابقاً.

وبناء على هذا ، كيف كانت الخصائص الفنيّة التي صُبغت بها تلك القصائد والكتابات النثرية التي جعلتها متميزة ومؤثرة في نفس المتلقي ؟

I- الشعر:

أولاً- بناء القصيدة:

قبل الحديث عن بناء القصيدة و هيكلها ، لابد من الوقوف عند مفهوم القصيدة . جاء في لسان العرب: " القصيد من الشعر: ما تَمَّ شطر أبياته ، وفي التهذيب :شطراً بنيته ، سمي بذلك لكماله وصحة وزنه "(1). ثم يورد ابن منظور تعريف ابن جنّي الذي يوضح فيه ما يميز القصيدة عن غيرها من المقطوعة أو الأبيات فيقول : " سُمِّي قصيداً لأنه قُصِدَ واعتُمِدَ وإن كان ما قَصُر منه واضطر بناؤهُ نحو الرّمَل والرّجَز شعراً مُراداً مقصوداً ، وذلك أنَّ ما تَمَّ من الشّعر وتوفر آثرُ عندهم وأشدُّ تقدماً في أنفسهم ممَّا قَصُر واختل ، فسمّوا ما طال ووَفَر قصيداً أي مُراداً مقصوداً "(2) . ثم يقول : " ...ما كان على ثلاثة أبيات قصيدة... والذي في العادة أن يُسمّى ما كان على ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر قطعة ، فأمّا ما زاد على ذلك فإنّما تسميه العرب قصيدة "(3)

ويخالف ابن رشيق القيرواني هذا القول الذي رأى أن عامة الناس استقرت عليه ، وذلك في حديثه عن الرّجز والقصيد حيث قال :" قد خص الناس باسم الرجز المشطور والمنهوك وما جرى مجراهما ، وباسم القصيد ما طالت أبياته ، وليس كذلك"(4) . ثم يقول معللا نفيه ذلك:" لأنّ اشتقاق القصيد من "قصَدْت إلى الشيء" كأن الشاعر قصد إلى عملها على تلك الهيئة"(5).ومع ذلك فهو لم يقدم لنا مفهوماً دقيقاً للقصيدة ، إلا أنه أكد القول المشهور في تعريف القصيدة بتحديد عدد أبياتها فقال :" إذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة ، ولهذا كان الإيطاء بعد سبعة غير معيب عند أحد من

---

(1) ابن منظور . 180/11.
(2) م.ن ، ص.ن.
(3) ينظر: م.ن . ص 181.
(4)العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حقّقه وفصّله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة:دار الطلائع ، د.ط/ 2006 . 153/1.
(5) م.ن ، ص.ن.

الناس ، ومن الناس من لا يعد القصيدة إلا ما بلغ العشرة وتجاوزها ولو ببيت واحد"(1).

وفي النقد الحديث نجد الناقد كولردج يربط ربطاً وثيقاً بين القصيدة واللذة فيقول:« القصيدة هي ذلك النوع من التأليف الذي يضاد الأعمال العلمية في أنه يفترض أن توصيل اللذة - لا الحقيقة - هو غايته المباشرة . ويختلف عن أنواع التأليف الأخرى - التي تشترك معه في هذه الغاية - في أنه يرمي إلى إثارة لذة عامة من العمل ، باعتباره كُلاًّ يتماشى مع اللذة المتميزة التي يبعثها كل جزء من الأجزاء المكونة لهذا العمل »(2)

وقد سبقه إلى هذا الرأي أبو تمام في وصيته المشهورة للبحتري عندما أشار فيها إلى أن نظم الشعر الجيد إنما تسبقه شهوة ورغبة حيث قال: « واجعل شهوتك لقول الشعر إلى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين »(3)

ثم إنّ القصيدة العربية لم تتخذ بناءً واحداً في شكلها ، بل كانت مُركبة ، وبسيطة، وعبارة عن مقطّعة ونتفة ، إلى غير ذلك ممّا هو معروف عند أهل النقد. وسنكتفي في هذه الدراسة بنمطين فقط تجلى فيهما الاتجاه الوطني في عصر الموحدين وهما:

أ- القصيدة المركبة:

ويقصد بها تلك القصائد التي لم تتناول غرضاً واحداً ، وإنّما جاءت مركبة من حيث الموضوع(4) وغالباً ما تتجلى بوضوح في القصائد الطوال.

وقد التزم بها بعض الشعراء الأندلسيين في عصر الموحدين الذين لَمحنا في قصائدهم اتجاهاً وطنياً ، وبخاصة فيما يلي :

(1) م.س ، 158/1.
(2) مصطفى بدوي : كولردج ، القاهرة : دار المعارف ، د.ط/1958 . ص 148.
(3) م.س . 99/2.
(4) يعلّل حازم القرطاجني هذا التنوع من وجهة نفسية قائلاً : « وكانت شيمة النفس التي جُبلت عليها حبَّ النقلة من الأشياء التي لها بها استمتاع إلى بعض، كانت جديرة أن تسأم التمادي على الشيء البسيط الذي لا تنوع فيه، بنقلها من شيء إلى شيء ما لا تسأم الشيء الذي له تنوع يمكنها معه المرواحة بين تأمل الشيء وتأمل غيره » . (منهاج البلغاء . ص 245).

- في القصيدة الدالية التي نظمها أحمد بن عبد الرحمان الوقشي ، حيث جاءت مقدمتها غزلية ، ثم تلاها رثاء الأندلس وطلب النجدة من الخليفة عبد المؤمن بن علي ، إلى أن ختمها بمدح هذا الأخير. والقصيدة مطلعها:(1)

أبتْ غير ماء بالنّخيل وروداً   وهامتْ به عذب الحمام بُـروداً

وقالت لِحاذيــها: أتـمّ زيــادة   على العشر في وردي له فأزيدا

ثم يقول (2) :

ألا ليت شِعــري هل يُمـدّ لــيَ المَــدى   فأبصر شمـلَ المشركيـن طريداً

وهل بعدُ يُقضى في النّصارى بنصرة   تغـادرهم للمُـرهفـات حـصيـداً

وجاء في آخرها قوله (3):

حملتُ إليـه مِن نـظامي قــلادة   يلقبّــهـا أهــلُ الكـــلام قصــيـداً

غدتْ يوم إنشاد القريض وحيدة   كما قصدت في المعلُوات وحيداً

- في رائية أبي المطرف بن عميرة التي ابتدأها بالحنين إلى مدينته بلنسية التي خرج منها إبّان سقوطها ، ثم عرَّج فيها على رثاء المدينة وذكر المُصاب الجلل الذي حَلَّ بها، ثم ختم القصيدة -هو أيضاً - بغرض المدح ، فقال (4) :

أقلوّا ملامي، أو فقولوا وأكثروا   مَلومكمُ عمّا بـه ليس يقصر

وهل غـير صبّما تنـِي عبراته   إذا صعّدت أنفاسـه تتــحدَّر

يحِـنّ ومـا يُجـدي عليه حنيــنُـه   إلى أربـع معـروفها متـنكـر

ثم يقول (5):

كذاك إلى أنْ صاح بالقوم صائح   وأنـذر بالبيّن المشتّت منـذر

وفرّقــهم أيــدي سبا ، وأصابـهـم   علــى غرّة منهم قضاء مقدّر

وفي المدح يقول (6):

---

(1) ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، 198/1/1.
(2) م.ن . ص.ن .
(3) م.ن . 199/1/1 .
(4)المقّري : نفح الطيب . 379/5.
(5) م.ن . 381/5.
(6) لم ترد هذه الأبيات حتى نهاية القصيدة في نفح الطيب . (ينظر:عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص680).

جزى الله عنّا سيداً في جـواره تموّل مضطرّ، وأيسَر معسر
فظلّ لضاح في الظّـهيرة سجْسج وبحر لظمآن، يجيش ويزخر

ومما يلاحظ على هذه القصائد ، أنّ الشعراء وُفّقوا في هذا البناء الموضوعي لقصائدهم ، بحيث اختاروا الغزل والحنين إلى تلك الأوطان ليمهّدوا بهما للغرض المقصود وهو رثاء المدن أو طلب الإغاثة لها ، لكي يبينوا لنا أنه على الرغم من سقوط تلك الأوطان ، فإنهم لا يزالون يتشوقون إليها ، وإلى أحبابهم الذين يسكنون فيها . بعد ذلك يتخلصون إلى الغرض أو الموضوع ، ثم يختموا القصيدة بمدح يدغدغون فيه عواطف الممدوح طمعاً في إنجاد المدينة.

ولا أريد أن أطيل الحديث عن هذه القصائد المركبة، إذ تجلت أيضاً في غرض الحنين إلى الوطن ورأينا كيف أن للحنين علاقة وثيقة بشعر الطبيعة ، وفن الرثاء ، والغزل .

ب- القصيدة البسيطة:

أمّا القصائد البسيطة فهي دون القصائد المركبة من حيث الطول ، إذ تتناول موضوعاً واحداً وتأتي في بعض الأحيان طويلة. يقول حازم القرطاجني: (1)« البسيطة مثل القصائد التي تكون مدحاً صرفاً أو رثاء صرفاً » وغيرها من الأغراض الأخرى.

وهي تطول وتقصر بحسب تجربة الشاعر وإمكاناته التعبيرية والفنية ، وكانت الموضوعات الجديدة ، الأرضية الخصبة للقصيدة البسيطة ، ممّا سهّل انتشارها وقبولها في أوساط الشعراء(2).

---

(1) منهاج البلغاء . ص 303 .
(2) ينظر: نور الدين السد : الشعرية العربية ، دراسة في التطور الفنّي للقصيدة العربية حتى العصر العباسي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د.ط ، د.ت . 31/1 .

وتجلت مثل هذه القصائد في رثاء المدن التي قصَر فيها بعضُ الشعراء حديثَهم عمَّا أصاب مدنهم من دمار وهلاك ، كما في رثاء أبي المطرف بن عميرة لجزيرة شقر حيث قال(1):

يادهر ليتك كنتَعنّا مُعرضاً　　إذ لا نرى لك غير وجه كالح

ولدتَ أيّـام المـكارم ثـمّ لا　　نرجـوك في ميلاد يوم صالح

وفي قصيدته التي يقول فيها (2):

ما بال دمعك لا يذِي مدرارُه　　أم ما لقلبك لا يقرّ قراره

وأوضح غرض تجلت فيه القصائد البسيطة هو ما كان في محاسن بلاد الأندلس، حيث كان كثير من الشعراء في هذا العصر إذا أثار إعجابَه حسنُ مدينة أو مكان ما ، أفرد له قصيدة أو مقطوعة مستقلة لا يخلط معها غيرها من الأغراض الأخرى . مثل قول حازم القرطاجني في مدينة مُرسية (3) :

بجنّة الأرض هِمتُ يا صاح　　فليس عنها الفؤاد بالصّاح

تلك مـحلّ التّـهور مُرسيـة　　مَوطن أنُسي ودار أفراحي

وقول ابن مرج الكحل (4):

عرّج بمنعرج الكثيب الأعْفر　　بيـن الفُـرات وبيـن شطّ الكـوثـر

ولْتغتَـبقها قـهوة ذهبـيّـة　　مِن راحتي أحْوى المراشف أحوَر

وأرى سبب ذلك هو أنّ أغلب هذا النوع من الشعر آني ، يقال في اللحظة التي تثير المناظرُ الحسنة في نفس الشاعر قولَ الشعر، ويقال أيضاً في مجالس اللهو والأنس حيث البديهة والارتجال . وكل هذا وغيره ، لا يجعل الشاعرَ -في الغالب- ينظم قصيدته مركبة ، بل يكتفي بغرض واحد فقط .

ومن المعلوم كذلك أن القصيدة العربية تتكون من أجزاء ثابتة في هيكلها ، هي: المطلع، والمقدمة ، والغرض ، والخاتمة .

---

(1) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص 687.
(2) ابن الخطيب: إعلام الأعلام . ص 273.
(3) الديوان . ص 36.
(4) فوزي سعد عيسى : ابن مرج الكحل ، حياته وشعره . ص 53.

1- المَطْلع:

ويسمى عند المتقدمين من أهل البلاغة والنقد حسن الابتداء، وبراعة الاستهلال ، لأنه أول بيت في القصيدة لذلك فقد أولى له الشعراء اهتماماً كبيراً، فمنهم من وفق فيه ، ومنهم غير ذلك . بل إن « تحسين الاستهلالات والمطالع مِن أحسن شيء في هذه الصناعة ، إذ هي الطليعة الدّالة على ما بعدها ، المتنزّلة من القصيدة منزلة الوجه والغرّة »(1).

والمطلع هو قطب الرّحى في القصيدة، فمتى كان جيداً مستوفياً للشروط التي وضعها النقاد،كانت الأبيات التي بعده على رتبته،حتى وإن لم تكن حسنة. يقول حازم القرطاجني: « تزيد النفس (أي المطالع)بحسنها ابتهاجاً ونشاطاً ،لتلقّي ما بعدها إن كان بنسبة من ذلك ، وربما غطت بحسنها على كثير من التخوّن الواقع بعدها إذا لم يتناصر الحسن فيما وليها»(2).

وعَدَّ ابن رشيق الشّعر كلّه قفل ، ومفتاحه مطلعه ، وأمر بتحسينه وتجويده فقال:« إنّ الشّعر قُفْل أوّله مفتاحه ، وينبغي للشاعر أن يجوّد ابتداء شعره ، فإنّه أوّل ما يقرع السّمع، وبه يستدل على ما عنده من أوّل وهلة »(3).

وكان حرص الشعراء على مطالعهم ، واهتمام النقاد به نتيجة لأنّه« أول ما يقرع فهم السامع أو المُطالِع، فإذا كان حسناً بديعاً استجلبه للإقبال على بقيته بالنظر والإصغاء»(4)

ويؤكد هذا المعنى أيضاً القاضي الجرجاني في قوله: « والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص و بعدهما الخاتمة، فإنها المواقف التي تستعطف

(1) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء . ص 309 .
(2) م.ن . ص.ن .
(3) العمدة . 181/1.
(4) محمد الطاهر ابن عاشور: شرح المقدّمة الأدبية لشرح الإمام المرزوقي على ديوان الحماسة لأبي تمام . ليبيا، تونس: الدار العربية للكتاب . ط$_2$/ 1978 . ص38 .

أسماع الحضور، وتستمليهم إلى الإصغاء»(1) . وقد وضع النقاد شروطاً لكي يكون المَطْلع حسناً ومقبولاً نذكر منها:

-أن تكون ألفاظه عذبة وسلسة وجزلة ، وحسنة النّظم والسَّبك ، وأن تكون معانيها واضحة وخالية من الحشو والرّكة والتّعقيد ، والتقديم والتأخير المُلبِس والذي لا يناسب(2).

- يضيف حازم إلى حُسن اللفظ والمعنى حسنَ النّظم والأسلوب في قوله: «...أو إلى ما يرجع إلى النظم من إحكام بنية وإبداع صيغة ووضع، وما ناسب ذلك ممَّا يحسن في النظم، أو إلى ما يرجع إلى الأسلوب من حسن منزع ، ولطيف منحى ومذهب ، وما جرى مجرى ذلك مما يُستحسن في الأساليب»(3)

ألاّ تتضمن حروفاً وألفاظاً عيب الاستفتاح بها وألاّ يُستكثر منها ، مثل قولهم (ألا) و(خليليَّ) و(قد) ، لأنها من علامات الضعف ، ويُستثنَى القدماءُ من ذلك ، لأنهم جروا على عرق وعملوا على شاكلة.(4) إلى غير ذلك مما لا يمكن حصره من الأمور التي استحسنها النقاد القدماء في المطالع الجيدة ، فهل استوفت قصائد الاتجاه الوطني على عهد الموحدين هذه الشروط؟ وهو ما سنبينه فيما يلي .

لقد كان اهتمام الأندلسيين بالمطالع قبل عصر الموحدين . فهذا عثمان بن المُثنّى النحوي ، التقى مرّة مع الشاعر أبي تمام ، وركبا بحر القلزم ، فأنشد أبو تمام قصيدة يقول في مطلعها:

الله أكبرُ جاء أكبرُ مَن مَشَى   فتعثّرت في كُنهه الأَوهامُ

فقال له ابن المثنى (وكان مِمن هاجر إلى المشرق وسَمع من أبي تمام وأدخل شعرَه إلى بلاد الأندلس): « شعر حسن لولا أنه لا ابتداء له » . فأعاد أبو تمام القصيدة نفسها في اليوم الموالي، وغيّر مطلعها بقوله :

دِمنٌ أَلـمَّ بهـا فقال سـلام   كم حَلَّ عُقدة صبْره الإلمَـام

---

(1) الوساطة بين المتنبي وخصومه ، عنى بطبعه وتصحيحه وشرحه : أحمد عارف الزين . صيدا : مطبعة العرفان ، د.ط/1331هـ . ص45.
(2) ينظر: علي صدر الدين بن معصوم المدني: أنوار الربيع في أنواع البديع ، حققه وترجم لشعرائه : شاكر هادي شكر . ط1/ 1968 . 34/1 .
(3) منهاج البلغاء ، ص 309.
(4) ينظر: ابن رشيق: العمدة . 181/1.

فقال له ابن المثنى: « أنت أشعر الناس » (1).

لقد كان الأندلسي يتذوق الشعر وينقده ، ويهتم كثيراً بمطلع القصيدة . فعلى الرغم من أنّ شهرة أبي تمام تعدّت المشرق إلى الأندلس ، فإن هذا لم يمنع الناقد اللغوي ابن المثنى من أن يبدي رأيه في قصيدة أبي تمام ، وأعاب عليها مطلعها .هذا المطلع الذي رفع من قدر صاحبه وجعله من أشعر الناس عندما حسَّنه وأتى به على طريقة الأقدمين .

ذكرت فيما سبق أن عبد المؤمن بن علي أنشأ مدينة بجبل الفتح . واجتمع له في يوم أخذ البيعة من الأندلسيين بهذا الجبل طائفة من الشعراء ، وكان من بينهم شاعر يسمى " ابن سيد " ويلقب بـ"اللص "، وأنشده قصيدة مدحه فيها ، جاء في مطلعها :

غَمّض عن الشمس واستقصِر مدى زُحل   وانظر إلى الجبل الرَّاسي على جبل
أنَّى استقرَّ به، أنَّى استقلّ به   أنَّى رأى شخصه العالي فلم يَزُل

فقال له عبد المؤمن : لقد ثقّلتنا يا رجل فأُمِر به فأُجلِس .

ثم يعلق عليها عبد الواحد المراكشي بقوله: « وهذه القصيدة من خيار ما مَدَح به، لولا أنه كدّر صفوها بهذه الفاتحة » (2).

لقد صرح المراكشي بأن تلك القصيدة من أفضل ما مُدح عبد المؤمن . ولولا مطلعها الذي جاء مثقلاً بألفاظ كان يمكن للشاعر أن يستغني عنها مثل: "غمض" و"استقصر"، و"الجبل" لبلغ بها "ابن سيد" مأمَلَهُ .

وتفسير ردّة فعل الممدوح ، هو أن " النفس تكون متطلعة لما يستفتح لها الكلام به ، فهي تبسط لاستقبالها الحسن أولاً، وتنقبض لاستقبالها القبيح أولاً أيضاً"(3) . لذلك أمر عبد المؤمن بأن يُجلَس "ابن سيد اللص" ،لأن نفسه لم تنشرح لذلك المطلع .

---

(1) ينظر: إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة . ص49-50.
(2) المعجب . ص 159 . زاد ابن صاحب الصلاة قوله : (... أنكر أمير المؤمنين هذا البدء في قول الشاعر: « غمّض عن الشمس » وقال على مسمع من الناس: « غمّض! غمّض! »منكراً لها). (المن بالإمامة . ص 101).
(3) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء . ص282.

وفي المقابل نجد قصيدة الرصافي البلَنسي الذي مدح بها عبد المؤمن بن علي في اليوم نفسه ، والتي مطلعها:(1)

لو جئتَ نار الهُدَى مِن جانب الطّور قبسْتَ ما شئتَ مِن عِلْم ومِن نُور

مِن كلّ زهْراءَ لم تُرفَع ذُؤابتها ليلاً لِسار ولم تُشبَب لِمقرور

حيث وُفِقَ الشاعر في اختيار هذا المطلع ، لأنه يلخص كل أبيات القصيدة التي تليه . واستطاع أن يخلع على ممدوحه كل صفات الجمال والكمال ، فلو اقتصر على هذا المطلع لكفاه، ولتضمينه أيضا بعض اللمحات الدّينية والعقائدية . لأنّ الشاعر يعلم أنّ ممدوحه متأثر بالعقيدة المهديّة، وكان رجلاً دِيّناً فاضلاً ، فحاول أن يعزف في هذا المطلع على هذا الوتر، لكي تتهيأ نفس الممدوح وتنشرح لباقي الأبيات.

وممّا عدّه ابن رشيق عيباً في المطلع إذا تضمن حروفاً مثل: (ألا، وخليلي، وقد)، نجده عند أبي المطرف بن عميرة في رثائه مدينة بلنسية عندما قال(2):

ألا أيّها القلب المصرّح بالوجد أمالك من بادي الصّبابة مِن بُدّ ؟

وهل مِن سُلوٍ يُرتجى لمتيّم له لوعة الصّادي وروعة ذي الصّد

ومن المَطالع التي ابتدئت بلفظة (خليلي) ، مطلع قصيدة الرصافي التي يقول فيها(3):

خليليّ ما لِلبيد قد عبقَتْ نشراً وما لِرؤوس الرّكب قد رُنّحت سُكراً

هل المِسك مَفْتوقاً بمَدْرجَة الصّبا أمِ القَوم أجَروا مِن بلنسِيَة ذِكراً

وهذا هو الاستثناء الذي ذكره ابن رشيق في قوله السابق ، لأنّ الرصافي سلك في مطلعه هذا « مسلك شعراء البادية ، فيتخيل خليلاً له أو خليلين يناجيهما ويسألهما أن يبادلاه الحديث عن معاهده التي رحل عنها »(4) ؛ أي أنه جرى على طريقة القدماء المطبوعين .

---

(1) الديوان . ص 87.
(2) المقري : نفح الطيب . 141/1.
(3) م.س . ص67.
(4) فوزي سعد عيسى : الشعر الأندلسي في عصر الموحدين . ص286.

وهناك بعض المطالع افتُتحت بالنداء ، وخاصة في القصائد التي أشاد بها أصحابها بجمال الأندلس.فنظراً لافتتانهم بها وإعجابهم بحسنها، استخدم أولئك الشعراء النداء لكي يلفتوا نظر القارئ إلى المنادَى ويشاركهم ذلك الإعجاب. فهذا أبو المطرف ينادي مدينة ظلتّ فريدة بين مدن الأندلس بكل ما حوته من محاسن أجملَهَا في المطلع، وفصَّلها فيما تلاه فقال(1):

يا حمصُ إنَّك في البلاد فريدة ببديع حُسن جَلَّ عن تحسين

أحبِ ب بنهرك حين يزخـر مَدُّهُ فيَروق منـه تحرّك كسكون

وإذن ، كان هناك تناسق وارتباط وثيق بين المطلع وأبيات القصيدة، وقد أضفى النداء عليها جمالية فنّية زاد من ذلك التناسق والارتباط.

2- المقدّمة:

هناك بعض القصائد التي لم يدخل فيها أصحابها إلى الموضوع مباشرة ، بل وضعوا لها مقدّمات تختلف طبيعتها من شاعر لآخر، وعلى حسب ما يقتضيه المقام أيضاً . فهذه المقدمات كانت - في الغالب - تهيّئ الجوّ العام للغرض المقصود ، وقد يجد فيها الشاعر متنفساً فيطيل الحديث فيها ، حتى ليَخَال للقارئ أنّها هي الغرض المطروق.

وهناك أيضاً بعض القصائد التي خلت من المقدمة ، حيث يدخل أصحابها في الموضوع مباشرة ، وذلك بحسب المناسبة ونوع الغرض الذي يتناوله الشاعر . فكيف كان حال مقدمات قصائد الاتجاه الوطني في عصر الموحدين؟

نجد في كثير من القصائد التي قيلت في رثاء المدن أنها ابتدأت بشعر الحنين ، وقد وُفق الشعراء في اختيارهم لهذه المقدمة . لأن بعض أولئك الشعراء قاموا برثاء مدنهم التي سقطت بعد أن خرجوا منها إلى أماكن أخرى ، كما فعل أبو المطرف بن عميرة ، وابن الأبار ، وحازم القرطاجني وغيرهم . حيث توجّهوا إلى سلطان الدولة

---

(1) البلفيقي : المقتضب . ص197.

الحفصية فهذا التنقل ولّد حنيناً في نفوسهم تجاه أوطانهم ، فالشاعر هنا يجعل من شعر الحنين باباً يفتتح به رثاءه لوطنه . فلنستمع إلى أبي لمطرف مثلاً وهو يقول(1):

ألا أيّها القلب المصرّح بالوجد أمالَك مِن بادي الصّبابة مِن بُد
وهل مِن سلوّ يرتجى لمتيّم له لوعة الصّادي وروعة ذي الصّد
يحنّ إلى نجد، وهيهات حرّمت صروف الليالي أن يعود إلى نجْد
فيا جبَل الرّيان ، لا رَيَّ بعدما عدَتْ غِيَرُ الأيّام عن ذلك الورد

فحالته النفسية التي يعيشها من جراء الهجرة ، ونفسه التي طفحت بالأشواق ، وذكر الليالي المنصرمة التي ظلت مختزنة في أناه الباطني ، هي التي ألجأته إلى البدء بالحنين.

ويقول في قصيدة أخرى راثياً فيها مدينة بلنسية، مفتتحاً إياها بالحنين(2):

أقلوّا مَلامي، أو فقولوا وَأكثِروا ملومكم عمَّا به ليس يقصر
وهل غير صبّ ما تَني عبراته إذا صعّدت أنفاسه تتحدّر
يحِنّ وما يجدي عليه حنينه إلى أربُع معروفُها متنكر

وله قصيدة أخرى رثى فيها بلنسية أيضاً ، يبدأها بالبكاء على ماض قضّاه في المدينة ، وشباب عاشه فيها .فاسترجع هذا كله مشتاقاً إليه وإلى تلك الذكريات الحميدة التي ما استطاع نسيانها ولم تفارق مخيلته . وقد أحدث له هذا التذكار - بعدما جار عليه الزمان ونفاه من مدينته بحراً من الأحزان والأوجاع، وكان هذا تمهيداً لسرد المآسي التي وقعت لبلنسية، فجعل من مقدمته بلسماً يخفف به من الجراح التي عاناها ، نتيجة الهجرة وسقوط وطنه فقال(3):

ما بال دمعِك لا يَني مِدرارُه؟ أم ما لقلبك لا يقرّ قرارُه؟
ألِلوعة بين الضّلوع لِظاعن سارتْ ركائبُه، وشطّت داره
أم للشّباب تقاذفت أوطانه بعد الدّنو وأخفقتْ أوطاره

---

(1) المقري : نفح الطيب . 241/1.
(2) م.ن . 379/5.
(3) ابن الخطيب : أعمال الأعلام . ص 273.

أم لِلزّمان أتى بخطب فادح مِن مثل حادثة خَلتْ أعصاره
بَحرٌ مِن الأحزان عبّ عبابه وارتجّ ما بين الحشا زخّاره

ومن الشعراء من انتهج طريقة المتقدمين ، وراح يقلدهم في افتتاح قصيدته بالغزل ، الذي جُعل في كثير من الأحيان على رأس قصائد المدح . فهم يرون بأن الغزل أنسب للمدح ، لأن الشاعر يحاول أن يهيئ نفسيّة الممدوح لاستقبال إطرائه . والغزل فيه ذكر للمحاسن والجمال، ورهافة الإحساس والكلام الرقيق العذب ، وكل ما من شأنه أن يفتح شهية المتلقي . فهذا حازم القرطاجني في مقصورته التي تنوعت فيها الأغراض الشعرية -إلا أنها كانت في الأصل مدحاً للخليفة المستنصر- يفتتحها بغزل قائلاً(1):

لله ما قد هجْت يا يوم النّوى على فؤادي مِن تباريح الجَوى
لقد جمعتَ الظّلم والإظلام إذْ وَاريتَ شمس الحُسن في وقت الضّحى
فخِلتُ يومي إذ توارى نُورُها قبل انتهاء وقتِه، قد انتهى
وما تقضّى عجبي مِن كونها غابت وعُمر اليوم باقٍ ما انقضى
وكم رأتْ عيني نقيض ما رأت مِن اطّلاع نورها تحت الدُّجى
فيالها مِن آية مبصرة أبصرها طرف الرّقيب فامترى

فبهذا النسيب افتتح حازم قصيدته ، وواضح في هذه المقدمة براعته في تقصي المعاني القديمة بأسلوب خَلاً من التكلف والتصنع.

والملاحظ أن القصائد التي قيلت في الجهاد والفتوحات ، خلت من المقدمة الغزلية ،« لأن الأسماع تكون متطلعة إلى ما يقال في تلك الحوادث بالخوض في ذكرها، لا الابتداء بالغزل »(2) . بل إن كثيراً ممّا قيل في فتوح الأمصار جاء بدون مقدمة ، وبعضها الآخر جاء في ثنايا الحديث عن مدح الفاتحين .

---

(1) حازم القرطاجني : المقصورة . ص20 .
(2) ابن الأثير : المثل السائر . 97/3 .

أمّا رثاء المدن « فإن ما فيه من لوعة الأسى...يسيطر على ذهن الشاعر، ويحول بينه وبين التفكير خارج نطاق المصيبة ، ولكنه يسمح باستهلال يتصل بالموضوع ، من تأمل واعتبار بظاهرة الموت ، واتعاظ بالسابقين » (1) .

ونحن نعلم بأن نونية الرندي قيلت في رثاء المدن التي سقطت في أيدي النصارى ، إلا أن بعض أبياتها تناولت الحديث عن الاستنفار والاستغاثة . وقد افتتحها الشاعر بالعزاء وهو الأنسب في هذا المقام، حيث ذكر أمماً وأقواماً وشخصيات مزّقها الدهر وسطا عليها الموت . والسبب في ذلك هو أنه إذا ابتدأ الحديث بذكر فجائع الأندلس ، فإن وقعه على النفس يكون غير عميق . وبالإضافة إلى عنصر الاعتبار وأخذ الموعظة من الأمم السابقة ، وقد ذكر منها ملوك اليمن وما بناه شدّاد في إرم ، وساسان في الفرس ، وذكر عاداً وقحطان ، وغيرها من الدول والأمم التي كانت مشهورة بالقوة والبأس والمنعة .

وقد درج بعض الشعراء على مناداة الاثنين كما فعل بعض الشعراء الجاهليين ، ووقفوا واستوقفوا على شاكلة امرئ القيس . وقد استحسن هذه الطريقة الكثير من النقاد المتقدمين(2).

ومن هؤلاء الشعراء نجد الرصافي البلنسي في رائيته التي يتشوق فيها إلى بلنسية حيث يقول(3):

خليليّ ما لِلبيد قد عبقت نشراً   وما لرؤوس الرّكب قد رُنّحت سُكراً

هل المِسك مفتوقاً بمدْرجة الصّبا   أم القوم أجْرَوا مِن بلنسية ذكراً

خليليَّ عُوجا بي عليها فإنَّه   حديث كبَرْد الماء في الكبد الحرَّى

قِفا غير مأمورَيْن ولتصْديَا بها   على ثقةٍ للغيث فاستسقيا القطْرا

---

(1) عبد الحميد عبد الله الهرامة : القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن هجري ، الظواهر والقضايا والأبنية ، طرابلس: دار الكاتب، ط$_2$/ 1999، 133/2.

(2) من بينهم ابن رشيق القيرواني ، ينظر: العمدة .182/1 .

(3) الديوان . ص68/67 .

ويُسمي ابن رشيق المقدمة الافتتاح ، ويذكر أن للشعراء فيها مذاهب ومسالك ، وعلّل سبب افتتاح الشعراء بالغزل ومقاصدهم فيه عند أهل البادية والحاضرة ، وحديثهم عن المفاوز والركاب قبل المديح ، ووقوفهم على الأطلال والدّمن وغيرهما...(1)

والمقدمة أنواع تختلف من قصيدة لأخرى ، وإن من الشعراء الأندلسيين من ظل وفياً لنوع واحد يكثر من استعماله ، ومنهم من نوَّع في ذلك . ومن الشعراء من اقتفى أثر القدماء في تلك المقدمات ومنهم من حاول التجديد فيها .

فمن المقدمات التي سلك فيها أصحابها مسلكاً تقليدياً نجد ما يلي :

أ- المقدّمة الغزلية:

لقد كان ابن الأبّار أشهر من عُرف بتوظيفها في كثير من قصائده ، وخاصة في مطولاته التي مدح بها الحفصيين . وهو الذي عُرف عنه أيضاً ولوعه بطريقة المتقدمين في نظم أشعاره ، وذلك لإظهار مقدرته الشعرية وعبقريته فيها. ونذكر من مقدماته الغزلية ما جاء - مثلاً- في القصيدة الطويلة التي مدح بها أبا زكرياء الحفصي ، وذكر فيها بطولاته وفتوحاته ، ووصف المعارك التي قارع فيها أعداءَهُ حيث قال (2):

نـأتْ ومزارها صدد   فـهل لك بالمـعـاد يَـدُ

مَـــهـاة مِن بني أسَــد   فريسة لحْظهـا الأسـد

تـفوت العـدّ قتلاهـا   ولا دِيـةٌ ولا قَــــوَدُ

... أتاها أنّــني وصِــب   كما شـاء الهوى كمـد

إذا مـا النّــوم نعَّمَـهـا   يعـذّبـنـي بهـا السُّـهـدُ

إلى أن يقول بعد أن طال الحديث عن مذهبه الغزلي (3) :

سأعتمِـد الأميـرَ وهـل   سِـوى رحمـاه معتمد

(1) ينظر: العمدة . 1/187- 188.
(2) ابن الأبار: الديوان ، ص153- 154- 155.
(3) م.ن ، ص 154- 155.

وأقصد فيه إسراف الـ ـمدائح لستُ أقتصد

...له الأمـلاك جُـند و الـ ـملائك حَـولـه مَـددُ

فلِـمْ يعتـدّ مطـّـردُ الـ ـقنا والنَّصر مُطـّـردُ

وإذا كان مذهب بعض الشعراء الجاهليين(1) في مقدماتهم الغزلية هو التبذل في أوصاف النساء والتعهر ومجانبة العفة والطهر(2) ، فإن شعراء العصر الموحّدي ، جاءت مقدماتهم الغزلية الخاصة بالاتجاه الوطني خالية من تلك الأوصاف المشينة اللاأخلاقية ؛ لأن أغلب القائلين فيه هم فقهاء ذوو نزعة دينية كابن الأبّار وأبي المطرّف وحازم القرطاجني.

وفي قصيدة أخرى يبرع ابن الأبّار في دورانه في فلك الغزل ، حيث يجعل المقدمة مشوقة للقارئ عندما يتحدث عمَّا لاقاه من محبوبته من السلو والصد في الهوى، وما فعلت أسلحتُها التي فتكت به وأصابته في مقتل؛ كالدّلال والجفن والثغر والثوب الموشى بالحرير. وإنَّ ابن الأبّار لا يُصرّح – في الغالب – بذكر المحبوبة ، التي قد تكون حقيقة وقد لا تكون كذلك على سبيل الترميز، إلاّ أنه في هذه القصيدة يشير ببراعة إلى مكانها وما فعلته بعشاقها وبالأماكن التي حلت بها ؛ كدجلة والفرات . ثم إن الغزل الذي هو تعبير عن الحرقة والشوق، قد « يتحول إلى ضرب من الوصف ، لا ليصور حباً ضاع ، بل من أجل الوصف والتمسك بأهداب التقاليد الفنية التي ارتضاها الشعراء والجمهور جميعاً » . يقول في هذه المقدمة(3):

مـاذا يَـروم العـذلُ مِنّـيَ مـاذا أوليس قلبـي جِذوة وجُـذَاذا

قالوا عيالُك في السُّلوّ مِن الهوى قلتُ الهـوى أختار منه عِياذا

بأبـي مَـهـاةٌ عوَّدَت ألحاظَـها فرسَ الأسود فما تُطيق لِواذا

...بالشِعب من بوّان حلَّ شَـغُوفها ومحلُّـها بالكَرْخ من بغـدادا

وردتْ بِحـاراً للفـرات و دَجْلة وجـفـتْ أضاءً بالفلاة إخـاذاً

(1) مثل : امرؤ القيس ، والأعشى وغيرهما .
(2) ينظر: حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، مصر: دار المعارف ، د.ط/د.ت . ص191.
(3) ابن الأبّار: الديوان . ص193- 194- 195.

إلى أن يقول مادحا الخليفة ومبيناً انتصاراته في حروبه:

ملِـك يُـريـك بحِـلمـه وبعـلمـه قيْـاً يُحاضر منقراً ومُعـاذاً

...تأتي الفتوح وما حَملـتم صَعْدة فيـهـا ولا جرَّدتُـمُ فُــولاَذا

وله أيضاً لامية جميلة المنزع ، أتى فيها بكل عجيب ، لغتها رصينة ، وأكثر فيها من التوريات والجناس ، وراح ينسج من النسيب ثوباً مُوشَّى بأساليب رفيعة ، لا يأتي بمثلها إلاّ أديب بارع . وقد جعل هذا الغزل مقدمة لمدح أبي زكرياء ووصف إعادته للأندلس ضد النصارى . يقول منها(1):

لم يخُــن في الحـبّ تأويـلي هـذه الحسناء تأوي لـي

أبصرَتْ صبري على كلفي بيـن تنـكـيـب وتنـكـيـل

... أيُّ آي للــجمـــال غــــدتْ جُـلَّ ترتيـبـي وترحـيل

...دع أساليــب النّسـيب وخُـذ في أساطيـر الأساطيل

ويعلل ابن رشيق ابتداء بعض الشعراء بالنسيب بقوله(2):« وللشعراء مذاهب في افتتاح القصائد بالنسيب ، لما فيه من عطف القلوب ، واستدعاء القبول بحسب ما في الطّ باع من حبّ الغزل والميل إلى اللهو والنساء ، وإنّ ذلك استدراج إلى ما بعده ».

ويزيد هذا المذهبَ وضوحاً ، رَأيُ أبي عبد الله الأليوري الذي يقول(3) :« إنّ النّسيب تنفعل له النفوس ، وترّق القلوب عند سماعه، وتنشط لسماعه نشاطاً زائداً. فلا ينتهي الناظم منه للتخلص إلا والنفس قد اجتمعت ، والقلوب قد رقَّتْ وانفعلَتْ ، والجوارح قد سكنت، فإذ ذاك يقع المدح منها موقعاً ويَحُلُّ من قلبها محلاً طيباً ».

ويصدق هذا على ابن الأبار بشكل مباشر، لا سيما عندما تغيرت نفس الممدوح (أبي زكرياء) تجاهه ووقع له معه ما وقع من الجفاء وتكدر الخاطر، فكان على الشاعر وهو يريد مَدحه أن يبدأ قصيدته بغزل ؛ لكي يُليّن قلبه ، ويرضي خاطره قبل المدح .

---

(1) م.س . ص245-246-247.
(2) العمدة . 187/1.
(3) علي الغريب محمد الشناوي: دراسات في الشعر الأندلسي، القاهرة: مكتبة الآداب، ط1/2003 . ص262.

ب -المقدّمة الطّيفيّة:

وهي المقدمة التي يتحدث فيها الشاعر عن طيف الحبيبة وزورته له ، مثلما جاء عند ابن الأبّار في القصيدة التي مدح بها أبا زكرياء وحثه على استرداد الأندلس . يقول منها(1):

يقِــرُّ بعـيـنـي أنّ قلـبـيَ مـا قَــرّا   نزاعاً إلى مَن لو سرى طيْفها سِـرّاً
قُصارايَ قصرُ النّفس فيها على الهوى   هوانا، وقتل الصّبر في إثرها صبرا
و قَـوْلـي عـلى قـرب المـزار وبــعـده: ســلامٌ وإن حيّيت مِن ربعـها قـفْـرا

إلى أن يقول(2):

ولُذتُ بيحيى المُرتضَى أستعينه   فأحْــدق بي أنـجاده جحفلاً مجـرى
أحـقّملوك الأرض رأياً ورايـةً   بفوز ونصرٍ لا عَدَا الفوز والنَّصرا

جـ -المقدّمة الطّلليّة :

يبدو أن شعراء الاتجاه الوطني في هذا العصر ، لم يهتموا ببعض أنواع المقدمات - انطلاقاً ممَّا عثرت عليه- كالغزلية ، والطللية... ، وهناك نموذج واحد وجدته لابن الأبار، يذكر فيه تلك المنازل التي كانت عامرة بالآنسات ، حيث اللهو والمرح ، وليال الأنس ،وقد صارت هذه المنازل أطلالاً بالية . وأعتقد أن الأندلسيين لم يكن لديهم ميول إلى مثل هذه المقدمات التي استعاضوا عنها بالأنواع الأخرى ، حيث كانت ظروفهم وأوضاعهم آنذاك ، والبيئة الطبيعية الخاصة التي كانوا يعيشون فيها ، هي التي فرضت عليهم هذا التغيير .يقول ابن الأبار مادحاً أبا زكرياء(3):

طلَّت نجـيعـيَ أطـلاءٌ وأطــلالُ   بحيث يعـقـد إحــرام وإحــلال
مـنـازلٌ كانـت الأقـمار تنـزلهـا   بالخِيف خفتْ بهم نُوقٌ وأَجْمـال

---

(1) ابن الأبّار: الديوان . ص 216.
(2) م.ن . ص 218 .
(3) م.ن . ص 257 - 258 .

جرَّ البِـلـى فوقـه أذيالَـه وجرى لشُهبِـه بالأفـول الرَّاهــن الفـالُ
وكم عزيثُ حديثَ الآنسات بها ولِي إلَـى الأنــس إغـدَاذٌ وإرقالُ
... ملِك تـــمــهّدت الدّنـيـا بدَولـته وقـد تحيَّفـهـا للـحيْف زلــزَالُ

د ـ مقدّمة الرّحلة:

شاع هذا النوع في الشعر القديم ، حيث يصف الشاعر رحلته إلى ممدوحه وما لاقاه فيهامن التّعب والنّصب .ويكون أيضاً في بعض المقدمات الحجازية ، وهي التي يُذكر فيها شدّ الرّحال إلى أرض الحجاز في موسم الحج أو غيره ، وتُجعلتقديماً لمدح النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن القصائد التي ظهر في مقدمتها الحديث عن الرحلة ، ما قاله ابن حربون في مدح السّيد الأعلى أبي حفص الموحدي ، حيث ذكر انتصاراته في العدوتين المغربية والأندلسية . وقد أسهب الحديث عن الراحلة وما أصابها من العناء والتعب والضرر، وكل ذلك يهون في سبيل الوصول إلى الحضرة الموحدية . يقول الشاعر(1):

حثّوا المطيَّ فقد قضتْ أوطارَهـا واحْـدُوا إلى باب الأمـير قطارها
وإن اشتـكت أيْنـاً فلا ترنـوا لهـا حتّى تُـحـدّث عـنـده أخـبارهـا
لا تعـذِروهـا أو تــحــلّ فـنـاءه فإذا حللـتـم فاقـبَلـوا أعــذارها
واستوصلـوا أعمالهـا وكـلالهـا فالنّفع في أن تشتكي أضرارهـا
حتّى تزوروا كعبـة الفضل التي قــد أحسنـت برَكاتــهـا زوّارها
فإذا استلمـتـم بالسـلامة ركـنَـهـا فارموا بأخفاف المَطيّ جمارَهـا
... بلـغت رباط الفتح هُجاً ظُلُـّعاً قد كان يستـوي السّري أمَّارها

وإذا كانت الرحلة إلى الممدوح تكون بالوسائل التقليدية المعروفة كالجِمال وغيرها من الحيوانات الصبورة التي تتحمل مشقة السفر، فإنّه من الغريب أن يستبدل

---

(1) ابن صاحب الصّلاة : المَنّ بالإمامة . ص191 .

ابن الأبّار راحلته بما شاع في عصره ، وهي السفينة التي كانت الوسيلة السهلة للوصول بها إلى ممدوحه من الأندلس إلى الحضرة الحفصية بالمغرب الأدنى حيث قال(1):

نــورُ الهدايــة مــا أضــاء وَلاحَــا ... فَقِـف لسَّفِـينَ وبشّر المـلاَّحا
وسَنَى الإمارة ما تطلَّع في الدُّجى ... مِن قَبل إسفـار الصّباح صباحا
فاعْقـل بأبـحُرها جـواريك التـي ... جازتْ إلـى الفوز الرّباح رياحا
... واصدِف عن البحر الذي ألفيْـتَه ... ثَمداً لبـحر نوالها ضحْضَاحا
واصدُرْ عن الملح الأجاج مُسوِّغاً ... عذبـاً فُراتـاً للسَّمـاح قَـراحاً
حـيّـت أبا يحـيى الأمـيـر وإنّـما ... حـيّـت بـه الأنـسام والأرواحـا
مَــلِك تبَـحْبح في المكارم والعُلى ... وتقَـيّل الإصـلاح والإسجَاحـا

هـ ـ المقدّمة الحِكَميّة:

درج على الابتداء بها أصحاب النزعة التأملية ، ومن لهم سلطان العقل على القلب . والذين لهم تجارب طويلة في الحياة ، حيث تصدُر عن شاعر في موقف الحكيم الذي يحاول أن يعطينا خلاصة فكره ، وعُصارة تجربته وعركه للحياة . وتختلف هذه المقدمة حسب الغرض المطروق في الغالب .

فمن تلك المقدمات وأشهرها في هذا العصر ، ما جاء في نونية أبي البقاء الرّندي الذي يقول (2) :

لكلّ شـيء إذا ما تمَّ نقـصـان ... فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتَها دُول ... مَن سـرَّه زمنٌ ساءته أزمان
وهـذه الدّار لا تُبـقي على أحدٍ ... ولا يـدوم على حال لها شان
يُمـزّق الدَّهرُ حتماً كلّ سابغة ... إذا نَبتْ مَشرفيَّات وخُرصان

---

(1) ابن الأبّار : الديوان . ص120 .
(2) المقرّي : نفح الطيب . 373/5 .

والملاحظ على مثل هاته المقدمات ، أنّ الشاعر يشفعها بحديث هو تَبعٌ لها ومُكمّل لمعناها ؛ بحيث يجعلها مقدمة طويلة ، قبل أن يُفصّل الحديث عن الغرض المقصود . فبعد أن تحدث الرّندي عن غوائل الدهر وفناء هذه الدنيا ، أعطى أمثلة عمَّن سبقوا ومضوا ، وطالتهم يد الزمان ، حتى يكون كلامه النظري الذي ابتدأ به مُدَعَّماً بالحجج والبراهين ، فتكون هذه المقدمة مُقنعة ومُريحة للقارئ عندما يطّلع على الغرض الذي هو رثاء بعض مدن الأندلس . فعندما قال: (يُمزِّق الدّهرُ حتماً كلَّسابِغة) يأتي في البيت الذي يليه بعض من شملهم التمزيق باستعمال أسلوب الاستفهام الذي لا يحتاج إلى جواب فقال(1):

ويُنتَضي كلّ سيْف للفنَاء ولو — كان ابن ذي يَزَن والغِمد غِمدان
أين الملوك ذوي التيّجان مِن يمَن — وأين منهم أكاليل وتِيجان
وأين ما شاده شدَّاد في إرم — وأين ماساسه في الفُرس ساسان
وأين ما حازه قارون مِن ذهَب — وأين عاد وشدّاد وقحطان

ولم يكن هذا الأمر فقط في رثاء المدن وشعر الاستنجاد ، بل وُجد عند أولئك الذين عانوا من الغربة والترحال ، وضربوا الأمثلة بمن سبقوهم من أجل التخفيف عن وطأة الشوق والحنين إلى أوطانهم . يقول حازم القرطاجني(2):

إنّ ثواء المرء في أوطانه — عزٌّ وما الغُربة إِلاّ كالتَّوى
وقلَّما بَان امرُؤٌ عن أرضه — إلا وبَان الصّبر عنه ونَأى
فقد تشكى ابنُ مضاض مَضَضاً — مِن شوقه إلى الحجون والصّفا
و كابد الشّوقَ بلالٌ وبرَى — جثمانَه مِن السّقام ما برى
...وحنَّ عمْرُو بن الوليد إذ نأى — عن يثْرب فما صَحا ولا سَلا

إن هذه الأمثلة التي تلت أبيات الحكمة في النموذجين تأكيد وتبيان للصورة الكامنة في الحكمة.

([1]) م.س . ص ن .
(2) المقصورة . ص96-97.

-هناك بعض المقدمات التي يمكننا القول عنها أنها تخص الأندلسيين ،وقلّما نجد لها ذيوعاً لافتاً للانتباه في مقدمات القصائد المشرقية ، إذ هي تخص الوضع السائد في الأندلس ،وتُصبَغ بالطبيعة الأندلسية . ومن تلك المقدمات نذكر:

أ- مقدّمة في الفتوحات:

لقد كان عصر الموحدين عصر فتوحات ، فجعل بعض الشعراء من تلك الفتوحات مقدمة لبعض قصائدهم التي مدحوا بها الحكام . وإذا كان ضرب الأمثلة جزءاً من الحكمة ، فإن هاته الفتوحات هي أيضاً جزء من مدح الفاتحين ، لأنها من منجزاتهم وأعمالهم ، فجعلوها فاتحة حتى تتهيأ نفس الممدوح وتنشرح لما سيُقال فيه . يقول ابن الأبار مادحاً أبا زكرياء(1):

حفّت بحضرتك الفتوح جيوشاً تسبي ملوكاً أو تثلّ عروشاً

وثوتْمقيلاً وسْطها ومُعرّساً أبداً لتبريَ وفقها وتَريشا

أعيتْ على نثر الكلام ونظمه ممّا يجيش بها الوجود جيوشاً

وفي قصيدة أخرى ، يركز الحديث عن فتوحات أبي زكرياء ، ويجعلها مقوماً ترتكز عليه دولته ، وجاءت هذه المقدمة قصيرة ، إلا أنها أعطت نكهة فنية عند خلوصه إلى مدح الخليفة إذ يقول(2):

فواتِح الفتح تُنبي عن تواليه لقد تمهّد مُلك أنتَ واليه

في ذمّة الغيب منها ما تشاهدهُ يهديه صبح وإمساء يُناغيه

تزداد حُباً ولم تجعل زيارتها غِباً و كم زائر يُقْلَى تماديه

ب - مقدّمة في النّسيم:

هناك بعض القصائد التي افتتحت بالحديث عن النسيم لما له من علاقة مباشرة بغرض الحنين ، فلم تعد الأطلال ، ولا بَعر الآرام ، ولا غيرها من الأشياء

---

(1) الديوان . ص416 .
(2) م.ن . ص424.

القديمة التي شاع استعمالها قديما ، تثير نزعة الشوق والحنين عند بعض الشعراء الأندلسيين . وإنما صار النسيم الذي هو جزء من الطبيعة الأندلسية ، يُستفتَح به في بعض القصائد على عهد الموحّدين . فهذا ابن سعيد شاعر الحنين في هذا العصر، يجعل النسيم مقدمة لقصيدة قالها وهو بمدينة مالقة ، ومتشوقاً إلى الجزيرة الخضراء قائلاً (1):

يا نسيما مِن نحو تلك النّواحي   كيف بالله نَوْرُتلك البِطاح

أسقـتهـا الغمام ريّـاً فلاحَـت   في رداء ومئـزر ووشـاح

أم جفـتـه فصـيَّرتـه هشـيمـاً   تركتْهُ تذروه هُوجُ الرّياح

إذن جعل الشاعر من النسيم رسولاً يأتيه بأخبار تلك الأماكن الجميلة التي استوحشها، مُضفياً عليها صورة فنية بديعة ، جعلت هذه المقدمة مناسبة للغرض المراد النظم فيه .

جـ - المقدّمة المَهدِيّة:

كان الموحدون - حكاماً ومحكومين -يُجلُّون المهدي بن تومرت مؤسس دولة الموحدين ، وقد تجلّى هذا التقدير في الإشادة به في بعض قصائد هذا العصر.

ولقد كان حضور المهدي ليس في قصيدة مقصودة بعينها، وإنما ذكره بعض الشعراء في مقدمات قصائدهم التي أشادوا فيها ببعض خلفاءه ، أو وصفوا فيها فتوحات الموحدين . ومن ذلك ما قاله أبو عمر بن حربون في إحدى الفتوحات عندما أمر أبو يعقوب يوسف الشعراء أن يبدأوا قصائدهم على طريقة كتابة الرسائل فقال(2):

الحـمـد لله مُـدنـي شـاسـع الأمـل   و ناظــم الشَّـمـل فـي سلك من الجدل

ومَــن أتــاح لنـصر الدّيـن طائـفـة   تضــمَّنت ريّ هـيم البـيـض و الأسـل

تضاءل الضَّيغمُ العـادي لصَولتهم   حـتّـى اغــتـدى يتـمشّـى مشـيـة الوعل

([1]) المقرّي : نفح الطيب . 427/2 .

(2) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة . ص280 .

ثـمّ الصّـلاة مـع التّسـليم يشفعهـا على الرّسول الذي استوفى مدى الرُّسل
علـى الـذي تمَّـمتْ أحكـام مِلّـَتــه مـكـارماً لـم تـكـن في سالـف المــلـل
ومَــن رضاه على المهدي أحفلـُـه كـمـا هــدى بسـنـاه أرشـد السُّـبُـل
لمـا اجتـبـاه لنـصـر الدين أيَّــدهُ بعصــمـةٍ أمَّنـتـه مدحــض الــزّلــل

لقد جاءت هذه المقدمة على شاكلة كتابة الرسائل بالافتتاح بالحمدلة ، والصلاة والتسليم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان على الشاعر أن يدخل مباشرة في الموضوع ، ولكن العادة جرت في هذا العصر أن يُذكر المهدي في المقدمة.

يضاف إلى ما سبق ذكره، أن هناك بعض القصائد التي خلت من المقدمة ، وشرع أصحابها في الغرض مباشرة ، وذلك لما اقتضته المناسبة والظرف الذي قيلت فيه القصيدة . وأوضح مثال على هذه الطريقة ، نلمحه في الأشعار التي قيلت في محاسن المدن ومصنوعاتها ، إذ لا يحتاج الشاعر - في الغالب - إلى مقدمة يمهّد بها لغرضه ، بل عندما يثيره مشهد طبيعي، أو يحرك في نفسه جمال قصر أو متنزه ، يترجم ذلك الإحساس بالحديث عنه مباشرة . يقول القرطاجني في القصيدة التي هام فيها حبّاً بمرسية(1):

بِ جنّة الأرض هِمْتُ يا صاح فليس عنها الفؤاد بالصّاح

ومن أسباب خُلو هذه القصائد من المقدمات ، هو كونها في الغالب تأتي على شكل قصائد قصيرة أو مقطعات ، فليس بالإمكان أن يجعل الشاعر لها مقدمة ، إذ تأتي -عموما- مرتجَلة سريعة النظم ، معتمدة على الوحدة الموضوعية .

3- التّخلّص :

لمّا كانت المقدمة ليست هي غاية الشاعر، كان التخلص هو الوسيلة التي ينتقل بها إلى غرضه المقصود . وعليه فإن البلاغيين والنقاد يشيدون به كثيرا في مصنفاتهم . والتخلص هو: « أن يستطرد الشاعر المتمكن من معنى إلى معنى آخر

(1) الديوان ، ص36.

يتعلق بممدوحه، بتخلص سهل يختلسه اختلاساً رشيقاً دقيق المعنى ، بحيث لا يشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع في الثاني ، لشدة الممازجة والالتئام والانسجام بينهما ، حتى كأنهما أفرغا في قالب واحد »(1).

لقد جعل ابن حجّة الحموي التخلص من الاستطراد ، ولا نريد بسط الحديث عن الفرق بينهما ، ويكفي ما بيَّنَه هو بنفسه في باب الاستطراد(2).

وورد عند ابن رشيق معنى التخلص في معرض حديثه عن الخروج ، حيث نفى عنه تشبيهه بالاستطراد . وأعطى أمثلة كثيرة لتوضيحه . يقول عنه(3): « وأمّا الخروج فهو عندهم شبيه بالاستطراد ، وليس به ، لأنّ الخروج إنّما هو أن تخرج من نسيب إلى مدح أو غيره بلطف تحيل ، ثم تتمادى فيما خرجت إليه » . ومعنى ذلك أن الرجوع إلى الكلام الأول قبل الخروج هو الاستطراد .

هذا التعريف يوافق ما جاء عند كثير من البلاغيين والنقاد ، إلا أنّ ابن رشيق في موضوع آخر يحاول أن يزيد المصطلح وضُوحاً وشرحاً ، فيرى أنّ التخلص هو أن ينتقل الشاعر من غرض إلى غرض آخر ثم يرجع إلى الغرض الأول ، ثم يتخلص منه مرة ثانية ويرجع إلى الغرض الثاني ، كأن يتخلص من الغزل إلى المدح ثم يرجع إلى الغزل ، ويُعيد حديثه إلى المدح ثانية . يقول في هذا المعنى(4):« ومن الناس من يسمي الخروج تخلصاً وتوسلاً ..وأولى الشعر بأن يُسمى تخلصاً ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى ، ثم عاد إلى الأول وأخذ في غيره ، ثم رجع إلى ما كان فيه» . وضرب لكلامه هذا أمثلة كثيرة .

واستحسن النقاد أن يكون التخلص لطيفاً . قال حازم(5):« ويجب أن يكون التخلص لطيفاً، والخروج إلى المدح بديعاً »

(1) ابن حجّة الحموي : خزانة الأدب وغاية الأرب ، شرح : عصام شعيتو ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، د.ط / 2004 . 329/1 .
(2) ينظر: م.ن ، ص102.
(3) العمدة . 194/1.
(4) م.ن . 196/1.
(5) منهاج البلغاء . ص306.

وإذا كان هذا هو رأي حازم ، فإن ابن رشيق يستند إلى ما وجده واستقرأه من الشعر القديم ، لذلك فهو يورد ما تستحسنه العرب حيث يقول(1):« وكانت العرب لا تذهب هذا المذهب(2) في الخروج إلى المدح ، بل يقولون عند فراغهم من نعت الإبل وذكر القفار وما هم بسبيله : "دع ذا" و"عَدِّ عن ذا"(3) ، ويأخذون فيما يريدون أو يأتون بـ"أن" المشدّدة ابتداء للكلام الذي يقصدونه . فإذا لم يكن خروج الشاعر إلى المدح متصلاً بما قبله ، ولا منفصلاً بقوله "دع ذا" و"عدِّ عن ذا" ونحو ذلك ، سُمّي طفراً وانقطاعاً »

إن الذي جاء به ابن رشيق هو جزء من كل ؛ لأنّه إنّما وقف على بعض ما جاء عند العرب وسمَّاه "طفراً وانقطاعاً " ؛ أي هناك أنواع أخرى من التخلص على حسب خروج الشاعر إلى المدح أو الغرض المطروق .

واستحسن النقاد أيضاً أن يكون التخلص سهلاً ، رشيقاً ، دقيق المعنى ، كما جاء في تعريف ابن حجة الحموي السابق الذكر. لذلك فإنّهم يسمونه تارة حُسن التخلص ، وتارة أخرى براعة المخلص .

وقد اختلفت طرق التخلص عند الشعراء ، وذلك انطلاقاً من مدى قدرة الشاعر على الربط بين المعاني في نصه . ومنه فإنّ ضروب الربط التركيبي تنوعت بين : العطف ، والقسم ، والإشارة ، والجار والمجرور، والتشبيه ، والالتفات ، وغيرها من أساليب الربط بين الجمل المعروفة .

ومما كان فيه الربط بحرف العطف "الواو" فكثير، ونكتفي بذكر ما جاء عند ابن الأبّار في رائيته التي مدح بها أبا زكرياء وحثّه على استرداد الأندلس . حيث ابتدأها بمقدمة طويلة ، حوت ذكر الطيف والغزل ثم تخلص إلى المدح بطريقة جميلة ، وهو

---

(1) م.س . 198/1.

(2) المذهب الذي يقصده ابن رشيق هو أن يَطَّرد الشاعر مِن تخلّص إلى تخلّص ، كأن يقع شيء يعترض في وسط النّسيب كالمدح مثلاً، ثم يعود إلى النّسيب، ثم يرجع إلى المدح . (ينظر: م.ن . ص197).

(3) يخالف أبو العباس ثعلب هذا المذهب ، ويرى بأنّ حُسن الخروج إنّما يكون « من صدر إلى عجز لا يتعداه إلى سواه ، ولا يُقرنه بغيره » . (أبو العباس ثعلب : قواعد الشعر، حققه وقدم له وعلق عليه : رمضان عبد التواب . القاهرة : مكتبة الخانجي . ط3/ 2009 . ص56).

الذي يحسن التخلص في هذا العصر بشكل عجيب ، مستعملاً حرف العطف "الواو" . يقول الشاعر(1):

ولو أنّ ما لا يُستطاع أعادها   تجشّمت أمراً في إعادتها إمرا

بعد هذا الغزل الذي صرح به في أبيات المقدمة ،يقول متخلصاً إلى المدح (2):

ولـُذنـْبِ يَحيَى المُرتضَى أستعينه   فأحدقُ بي أنجاذُه جحفلاً مجرَى

ثم راعى ابن الأبار البيت الذي تلا بيت التخلص وحسَّنه أيضاً ، وأتى به على وجه الحمد(3) ، لكي يكون المعنى متصلاً ببيت التخلص في قوله (4):

أحقّ ملوك الأرض رأياً ورايـة   بفوز ونصر،لا عدا الفوز والنَّصرا

والأمر نفسه بالنسبة لحرف النّداء "يا" ، فقد أكثر منه بعض الشعراء في أبيات التخلص ، وذلك لكي يُلفتوا الانتباه للمتخلص إليه ، ويكون الانتقال إليه لطيفاً . يقول الرصافي البلنسي في رائيته المشهورة التي مدح بها عبد المؤمن بن علي (5):

يا دارُ دارَ أمير المؤمنين بسفـ   ـح الطّـَود،طودِ الهُدى،بوركت في الدّور

ذاتَ العمادين مِن عزٍّ ومملكـة   على الأساسَيْــن مِن قـُـدس وتطْهــير

نلاحظ أنَّ المنادى هو الدار التي بناها الخليفة مع ما بنى بجبل الفتح ، إلا أن ذكر محاسن العمران ، هو من ذكر محاسن بانيه ، لأنه أثناء هذا الوصف يأتي على مدح عبد المؤمن بطريقة لا نشعر معها أنَّه تخلص من وصف إلى مدح .

وقد كان التخلص من المقدمة إلى الغرض بحرف النداء "يا"أيضاً في نونية أبي المطرف بن عميرة التي ذكر فيها محاسن مدينة إشبيلية ، بعد مقدمة غزلية ظريفة . يقول الشاعر(6):

يا حِمصُ إنَّك في البلاد فريدةٌ   بِ بديع حُسن جَلَّ عن تحسين

([1]) ابن الأبار: الديوان . ص 217 .
([2]) م.ن . ص 218 .
([3]) يقول حازم القرطاجني في هذا المعنى: « ومِمّا يجب اعتماده في التخلص أن يجهد في تحسين البيت التالي لبيت التخلص ، فإنّه أوّل الأبيات الخالصة للحمد أو الذمّ ، وأوّل منقلة من مناقل الفكر في ما تخلصت إليه » . (منهاج البلغاء ، ص321).
([4]) م.س . ص.ن .
(5) الرّصافي : الديوان . ص88.
(6) البلفيقي : المقتضب . ص197.

أحبِ ب بنهرك حين يزخر مدُّه فيَروق منه تحرّك كَسُكون

وقد تخلص بعض الشعراء من المقدمة إلى الغرض بحرف "أمَّا" التي تفيد التفصيل والتقسيم . فنجد - مثلاً - أبا المُطرّف بن عميرة عندما تحدث في مقدمة قصيدته الرائية عن الهموم والأحزان التي اعتصرت قلبه من جراء غربته عن وطنه ، ووحشته لأحبابه ، وما أتى الزمان به من الخطوب والحوادث ، يفصل بعض تلك الخطوب التي وقعت لمدينة بلنسية، مستعيناً بحرف "أمّا" ، ولا نكاد نحس أنّه خرج من مقدمته تلك إلى الغرض في قوله(1):

...في كلّ قـلب مـنه وَجْـد عنـده أسفٌ طويل ليس تخبو نارُه

أمَّـا بلنـسيَة فمـثوى كافـــر حفَّت به في عقرها كفّاره

زرْع مِن المكروه حلّ حصاده عند الغدوّ غداة لجّ حصاره

وممّا يؤكد عليه بعض النقاد في حسن التخلص ، هو أن لا يكون انقطاع وانفصال بين المقدمة والغرض . بل يخرج الشاعر من الأوّل إلى الثّي خروجاً لطيفاً لا يفصل بين المعنيين ، يقول ابن طباطبا(2): « ...يحتاج الشاعر إلى أن يصل كلامَه على تصرّفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح ، ومن المديح إلى الشكوى... ، بألطف تخلّص وأحسن حكاية ، بلا انفصال للمعنى الثاني عما قبله ، بل يكون متّصلاً به وممتزجاً معه » .

وقد تجلى هذا التّمازج والاتصال في قصيدة ابن الأبار التي ابتدأها بمقدمة غزلية جميلة ، ثم تخلّص إلى مدح أبي زكرياء في قوله(3):

إن لم تُجِر وبها ألوذُ مِن الهوى فكفى أبو يحي الأميرُ ملاذا

لَذّ النّسيـب بهـا ولكنْ مِقـولـي بمديحه يتولّـع استـلـذاذا

(1) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص682.
(2) عيار الشعر: ابن طباطبا ، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المانع . الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر. د.ط/1985. ص09.
(3) ابن الأبار: الديوان . ص194.

لقد جرت العادة أن يكون التخلص في بيت مستقل ، ولكن في هذه القصيدة جاء في عجز البيت ، متَّصلَ المعنى مع ما جاء في صدره الذي هو جزء من المقدمة ، تأكيداً لما جاء في قول ابن طباطبا السابق .

4- الموضوع:

وهو الغرض الذي من أجله ينظم الشاعر قصيدته ، ويأتي بعد المقدمة في القصائد المركبة، ويكون أصلاً ووحيداً في القصائد ذات الغرض الواحد (البسيطة).

ولقد بسطنا الحديث في الفصل السابق حول بعض الأغراض الشعرية التي تناولها الاتجاه الوطني في عهد الموحدين ، حيث تلوّنت بين رثاء المدن والاستنجاد ، ومحاسن الأندلس ، والحنين ، وشعر الفتوحات . وقد تفاوتت نِسب القصائد والأبيات التي استشهدنا بها في هذه الدراسة ، على حسب ما عثرنا عليه ، فجاءت كالأتي :

- الحنين إلى الوطن :

شكل الحنين إلى الوطن نسبة (36،53 %) من مجموع الشواهد الأخرى ، وهي الأعلى في هذا الفن . إذ إنّ أغلب شعراء هذا العصر لهم يدٌ في هذا الغرض، نظراً للأسباب والدواعي الكثيرة التي تداعت لهم في هذا الظرف العصيب من الصراع المستمر الذي كان بين المسلمين والنصارى والإسبانيين ، وقد سبّب للشعراء نزوحاً وهجرة إلى الأقاليم الأخرى والمدن الأندلسية الآمنة أو شبه الآمنة .

والأندلسي ميّال بطبعه إلى تقديس المكان ، ويكره فراقه و الابتعاد عنه . ولقد كانت قصائد كثيرة في أغراض مختلفة ممزوجة بشعر الحنين . يقول حازم القرطاجني(1): « ولمّا كان أحقّ البواعث بأن يكون هو السبب الأول الداعي إلى قول الشعر ، هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة وألاّفها عند فراقها وتذكر عهودها وعهودهم الحميدة فيها ».

---

(1) منهاج البلغاء . ص249.

لذلك قد لا نجد ديوان شعر خالٍ من الحنين، لأن « الشعر الأندلسي في معظمه شعر غربة وحنين »(1) .

- محاسن المدن وشعر الفتوحات ومدح الفاتحين:

جاء هذان الغرضان في الدرجة الثانية ، بنسبة تكاد تكون متساوية ، تقديرها (32،69%)، وتفسير هذه النسبة يرجع إلى الطبيعة الأندلسية التي خلبت قلوب الشعراء واستهوت حتى غير الأندلسيين ، فوصفوا قصورها ، ومتنزهاتها ، وأشجارها، وأطيارها ، وهوائها ، ووقفوا متأملين جمال مدنها وما أبدعته قدرة الله فيها، وما شيّدته يد البشر وأبدعته عقولهم .

ثم إن سلطان الدولة الموحّدية ، كان له الأثر البالغ في نفوس الشعراء الأندلسيين الذين مدحوهم وذكروا أفضالهم على بلاد الأندلس في استتباب الأمن ، وتشييد الحضارة هناك . والأمر نفسه يخص بعض حكام الدولة الحفصية التي لجأ إلى بلاطها فطاحل الشعراء الأندلسيين المبرّزين في هذا العصر.

بالإضافة إلى أن بعض الشعراء مزجوا بين محاسن الأندلس ومدح الفاتحين الذين كان لهم الفضل الكبير في تلك المحاسن .

- رثاء المدن وشعر الاستنجاد :

كان هذان الغرضان متقاربين في النسبة التي بلغت (30،76%) . وعلى الرغم من أنّ المحنة كانت كبيرة ، وسقوط المدن الأندلسية أوقد في النفوس الألم الشديد ، ولكن إذا ما قارننا القصائد التي قيلت في هذا العصر مع ما جاء في عصر ملوك الطوائف والمرابطين مثلاً ، فنجد أنها تقتصرُ دونها في العدد فقط .

والملاحظ أن أصحاب هذا الفن في هذا العصر كانوا معدودين ومشهورين ، ولهم فيه أكثر من قصيدتين طويلتين . بالإضافة إلى المقطعات والقصائد القصيرة ، وعلى رأسهم ابن الأبّار وأبو المطرف بن عميرة . وكانت بلنسية المدينة التي استأثرت بحصة الأسد ، لأنها مدينة الشاعرين، فبقيا وفيين لها شعراً ونثراً.

(1) فاطمة طحطح : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي . ص09.

5- الخاتمة:

فكما اعتنى أصحاب هذا الفن بالمطالع والابتداءات ، اعتنوا أيضاً بالخواتيم . وقد سماها ابن رشيق " الانتهاء "(1) ، وجاءت عند ابن أبي الأصبع باسم " حسن الخاتمة "(2).

واعتمد آخرون في تسميتها على ما جاء في القرآن الكريم ، وعلى وجه الخصوص في خواتيم السور الكريمة المُسمّاة بالمقاطع ، لذلك وظف هؤلاء هذه الكلمة؛ فسماها " التيفاشي " مثلاً " حسن المقطع "(3) ، والإمام "أحمد بن محمد المرزوقي" "تتميم المقطع"(4) ، وحازم القرطاجني وسمها "بالمقاطع"(5).

وكان الاهتمام بحسن الانتهاء ،نظراً لأنّه « قاعدة القصيدة ، وآخر ما يبقى منها في الأسماع»(6) . بل « ربّما حُفظ من دون سائر الكلام في غالب الأحوال ، فلا يحسن السكوت على غيره»(7)

وممّا أكد عليه أصحاب هذه الصناعة في حسن الانتهاء «أن يكون البيت الأخير يفهم منه السامع أنه آخر القصيدة قبل أن يخبر بذلك»(8)

أعتقد أن هناك كلمة سقطت من كلام شارح كتاب "الحلة السِّيَرا" ، إذ كيف يُعقل أن يَفهم القارئ من البيت الأخير أنّه آخر القصيدة ، ثم بعد ذلك يصرح الشاعر ويُخبر بتمامها ، فأين يكون ذلك بما أنه البيت الأخير؟ والصّواب هو « أن يكون البيت قبل الأخير» ، فسقطت كلمة « قبل » ؛ أي أن كثيرا من الشعراء يُمهّدون في بيت أو أبيات قبل الأخير بإيماءة ، إلى أن القصيدة تشرف على الانتهاء ، أو أن يذكر النّاظم

---

(1) العمدة . 198/1.
(2) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم وتحقيق : حفني محمد شرف . الجمهورية العربية المتحدة ، د.ط/د.ت ، ص616.
(3) ابن حجّة الحموي : خزانة الأدب . 493/2.
(4) شرح المقدمة الأدبية . ص37.
(5) منهاج البلغاء . ص285.
(6) ابن رشيق : العمدة . 195/1.
(7) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب . 493/2.
(8) ابن جابر الأندلسي :الحلّة السِّيرا في مدح خير الورى ، تحقيق علي أبو زيد . بيروت ، دمشق: عالم الكتب. ط2/ 1985 . ص155- 156.

اسمه أو يثني على نفسه ونظمه ، ثم يصرح في الأخير ويعلن عن نهاية القصيدة . يقول حازم القرطاجني في نهاية مقصورته(1):

نظمتُها فريدة في حُسنها   منظومة نظم الفريد المنتقَى

... نَحوتُ في النّقلة في أغراضها   مذاهباً أغيْثُ على مَن قد نحى

... نظـَمها ابنُ حازم وقد نـَمى   نسيبها لابن حزام مَن نَمى

وقد عزا الإحسانَ في أمثالها   لابن الحُسين أحمد مَن قد عزَا

إلى أن يقول:

والحمد لله أجلّ غاية   يُبلَغ بالقول لها ويُنتهَى

ويحرص حازم القرطاجني حرصاً شديداً على الاعتناء بالخاتمة ، وينبه على ذلك من حيث سلامة اللفظ والمعنى من كل ما يشينهما . ويرى أنه لا يُعقل أن تُختتم قصيدة بما فيه خرم وقد سبقه كلام فيه حسن وجمال ، لأن ذلك يؤثر على النفس ولا ترغب فيه . يقول حازم(2): « فأمَّا ما يجب في المقاطع ...فأن يُتَحرَّى أن يكون ما وقع وقع فيها من الكلام كأحسن ما اندرج في حشو القصيدة ، وأن يتحرز فيها من قطع الكلام على لفظ كريه، أو معنى منفّر للنفس...وإنّما وجب الاعتناء بهذا الموضوع لأنّه منقطع الكلام وخاتمته . فالإساءة فيه مُعفية على كثير من تأثير الإحسان المتقدم عليه في النفس، ولا شيء أقبح من كدر بعد صفو، وترميد بعد إنضاج »

وفي الأخير نذكر بعض ما اختتم به الشعراء قصائدهم التي صبّت في الاتجاه الوطني على عهد الموحدين .ومن ذلك مايلي :

لقد كان أكثر الشعراء المادحين يختمون قصائدهم بالدعاء للخليفة الممدوح . فهذا " ابن سيد اللّص " يقول في آخر قصيدته التي مدح بها عبد المؤمن بن علي بمناسبة جلوسه على جبل الفتح(3) :

(1) المقصورة . ص110.
(2) منهاج البلغاء . ص 285.
(3) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة . ص101.

والله يخلد مولانا وسيّدنـا   حتى يبلـّغ فيكم غاية الأمل

فهو دعاء له بطول البقاء، حتى يُمكّن الأمن والاستقرار لبلاد الأندلس .

وبعض الشعراء كانوا ينهون قصائدهم بِحَث ممدوحيهم على فعل ما ، كما فعلوا في قصائد الاستنجاد . فابن الأبّار -مثلاً - يُنهي سينيّته بمثل ما ابتدأها به ، حيث حثّ أبا زكرياء على إنجاد بلنسية في قوله (1):

واضرب لها موعداً بالفتح ترقبه   لعلّ يوم الأعادي قد أتى وعسى

ونجده في قصيدة أخرى يدعوا الخليفة لتلبية النداء وإغاثة المدينة من تكالب النصارى عليها ، ثم يمدحه مدحاً طويلاً ، إلى أن يُنهيها بطلب العفو منه ، وأن يمُن عليه بالتسامح، نظراً لِما جرى له معه في قصته المشهورة التي ألمعنا إليها في الفصل الأول .يقول متمنياً و راجياً(2):

صفحاً جميلاً أيّها الملِك الرّضي   عن مُحكّمات لم نُطِق إحصاءها

تقِـف القـوافـي دونـهـنَّ حسـيرة   لا عِيَّـهـا ، تُخـفي ولا إعيـاءَها

فلـعلَّ علـياكمْ تُسامـح راجيـاً   إصـغاءَها و مُـؤمّلاً إغضاءها

وكان ابن الأبّار رجلاً مستعلياً بعلمه وشعره ، شأنه في ذلك شأن المتنبي ، إلا أنه في هذا الموقف ، حاول أن يتواضع ويرجوا من الخليفة عفوه وصفحه .

وفي الشأن نفسه ، نجد أبا الوليد إسماعيل بن عمر يقول في ختام بائيته التي أشاد فيها بأبي يعقوب المنصور وبفتوحاته(3):

وسالَمنـي زمانـي في ذُراكـم   وقد سَلفَـتْ له عنـدي ذنـوب

فـأعـتـب خائفـاً مـمّـا جـنـاه   وأقسَـم أنّـه منـهـا يـتـوب

فعفواً أيّهـا المولـى وصفحـاً   فكـم جـانٍ ومجتــرم يُنيب

(1) ابن الأبّار: الديوان . ص412.
(2) م.س . ص41.
(3) ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص146.

وإن بعض الشعراء لمّح بنوال أو أعطية يمنحها له الممدوح . فهذا ابن الأبّار يقول في آخر قصيدة له في المدح (1):

وآبَ ماضي شبابي وانثنت جِدَتي   وثـابَ يـنعم في نعائمك البـال
حتّى المدائح مِن جدواك لـي هبـة   منّي كتاب ومِن علياك إمـلال
فِض أيّها البحرُ معروفاً ومعرفةً   تَعلَمْ وتَرْو صدَى هيـم وجُهَّـال

وبعض الشعراء من بقي وفياً للدولة التي تقلب في نعمائها ، فراح يمدحها ويُثني عليها ، كما فعل حازم القرطاجني . إذ بعد أن مدح أبا زكرياء الحفصي بقصيدة طويلة، جعل دولته واسطة العقد الذي تشكله الدول الأخرى . ومعلوم أنّ الجوهرة التي تتوسط العِقد هي أحسنه وأفضله . يقول في نهاية تلك القصيدة (2):

وما كـان أبـقـى غايةً غـير أنَّـــه   حُبِيتَ بما لم يُحبَ خلقٌ و لم يُعطا
إذا دُوَل الأملاك في الفخر نُظّمتْ   على نسـقٍ عِـقداً فدولتُك الوُسطى

أمّا أبو عمر بن حربون فله قصيدة أخرى كتبها في المناسبة نفسها المذكورة سابقاً ، حيث أثنى على الدولة المهدية التي اقتبس من أنوارها الموحدون . بل إن أبا حفص - حسب ابن حربون- تمّم ذلك النور . يقول الشاعر في خاتمتها(3):

فتـهنّؤوها دولـــة مهــديّـة   رَفـعتْ لأبصار العباد منارها
أبْنـا وذكـركم تعلّــة لوعـــة   قد أضرمت بين الجوانح نارها
والشّمل متّصل النّظام بدعوة   ميـمونـة تمَّـمْتُـمُ أنــــوارهـا

ولم يتخلص بعض الشعراء من أن يختموا قصائدهم بالفخر والثناء على قصائدهم ، فهم إن لم يتعمدوا ذلك ولم يقصدوه ، فإنّهم جعلوا قصائدهم قلائد وفرائد ، كما فعل أحمد بن عبد الرحمان الوقشي في داليته التي مدح بها أبا يعقوب يوسف وحرّضه على الجهاد . يقول فيها(4):

حملتُ إليـه مِن نظامي قِـلادة   يلقّبهـا أهـلُ الكـلام قصــيداً

---
(1) م.س ، ص261.
(2) حازم القرطاجني : الديوان . ص73.
(3) ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص192.
(4) عبد الله محمد الزيّات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص677 - 678.

غدتْ يوم إنشاد القريض وحيدة   كما قصدت في المعلوات وحيداً

وهذا الأمر واضح في خاتمة مقصورة حازم القرطاجني التي سبق ذكرها ، ولا حاجة إلى إعادتها .

ثانياً - اللغة والأسلوب :

بعد الحديث عن بنية قصيدة الاتجاه الوطني التي تشكل الجانب الهيكلي أو الشكلي العام ، لابد من الغوص في ثنايا تلك القصائد ، والبحث في جوهرها وروحها ، لذلك سنتحدث في الجوانب المعروفة لقالِب القصيدة وهي : اللغة والأسلوب ، والصورة الفنية ، والإيقاع .

أ- اللغة:

لقد أشاد كثير من الدارسين والنقاد ، بأهمية اللغة في النص الأدبي (شعراً ونثراً) ، لأنّها الأداة الأولى التي يُعنى بها الأديب في عمله الإبداعي .

وهي بالأساس تعتبر ظاهرة إنسانية (1) ، تسعى إلى فتح العالم الذي يحمل كل روابط الانتماء وغلقه على مستوى الكتابة (2).

ولتوضيح العلاقة بين النص واللغة ، يقول : "حسين خمري" (3) : " إنّ كل نصّ هو عبارة عن منظومة لغوية لها قوانينها وآلياتها ، وترهين لألفاظها في سياقاتها المختلفة "

ولقد تجاوز بعض الباحثين الحديث عن فلسفة اللغة ، واعتبرها أحدهم أنّها " وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها "([4]).

في حين يزيدها آخر وتيرة أكثر، ويراها من زاوية أوسع ، إذ " هي الظاهرة الأولى في كل عمل فنّي يستخدم الكلمة أداة للتعبير، وهي أول شيء يصادفنا ، وهي النافذة التي من خلالها نطل ، ومن خلالها نتنسّم . وهي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب ، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق "([5]).

---

(1) قديما عرَّف ابن جني اللغة بأنّها: " أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم " . (الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار . مصر: دار الكتب المصرية . د.ط/د.ت . 33/1 .)

(2) ينظر: عمارة ناصر: اللغة والتأويل ، مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي ، الجزائر: منشورات الاختلاف . بيروت : دار الفارابي . ط1 / 2007 . ص 54- 55.

([3]) نظرية النّص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الجزائر: منشورات الاختلاف. بيروت:دار الفرابي.ط1/2007. ص266.

([4]) ميخائيل نعيمة : الغربال . بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر . ط7/1964 . ص 105.

([5]) عز الدّين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر . القاهرة : دار الكتاب العربي . د.ط/1976 . ص 173 .

ونظراً لتعدد الأغراض الشعرية التي تلوّن بها الاتجاه الوطني في عهد الموحّدين ، فإن اللغة التي كُتِبَ بها هذا الاتجاه ، جاءت وفق تلك الأغراض المتنوعة ، من رثاء ووصف ومدح وحنين... فلكل منها ألفاظ وعبارات لا ينبغي للشاعر أن يسيء توظيفها . يقول حازم القرطاجني: " وإنّما وجب أن يستعمل في كل طريق الألفاظ المستعملة فيه عُرفاً ، لأنّ ما كثر استعماله في غرض ما واختصّ به أو صار كالمختص ،لا يحسن إيراده في غرض مناقض لذلك الغرض ، ولأنّه غير لائق به لكونه مألوفاً في ضدّه ، وغير مألوف فيه ، وذلك مثل استعمال السالفة والجيد في النّسيب ، واستعمال الهادي والكامل في الفخر والمديح ونحوهما ، واستعمال الأخدع والقذال في الذم ".

وانطلاقا ممّا جاء في قول القرطاجني ، حاولنا تصنيف لغة قصائد الاتجاه الوطني كالآتي(1):

1- اللغة الجزلة الفخمة :

وهي اللغة التي كان يوظف فيها الشعراء الألفاظ الفخمة ، مُجارين في ذلك لغة القدماء المطبوعين . وأكثر ما يميزها : الوضوح والرّصانة ، وعدم الابتذال . يقول أبو العباس ثعلب(2): " فأمّا جزالة اللفظ ، فما لم يكن بالمُغرب المُستغلَق البدوي ، ولا السّفساف العامي ، ولكن ما اشتدّ أسرُه ، وسَهُل لفظه ، ونأى واستعصب على غير المطبوعين مَرامُهُ، وتُوهِّمُ إمكانُه " .

ويتّفق مع هذا التعريف ما جاء عند أبي هلال العسكري في قوله (3) : " أمَّا الجزل والمختار من الكلام فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاوراتها ، وتراه بعين صفاته...وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً لا ينغلق معناه ، ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ويكون بريئاً من الغثاثة عارياً من الرَّثاثة ".

([1]) أخذنا هذا التقسيم من كتاب : شعر الاستصراخ في الأندلس : عزوز زرقان .
([2]) قواعد الشعر . ص63 .
([3]) كتاب الصناعتين ، الشعر والنثر . مطبعة محمد بك الاستانة العلية . ط1319/1هـ . ص47 .

ويدخل تحت هذا القسم ثلاثة أنواع من الألفاظ وهي :

أ- الألفاظ الدّالة على القوة :

وهي الألفاظ التي يستعملها الشاعر عندما يريد إبراز مكمن القوة والانتصار في ممدوحه على أعدائه ، فيضفي عليه من الجبروت والعظمة ، ما أخرجهم - في بعض الأحيان - من الحقيقة إلى المغالاة . ويلاحَظ هذا ، في القصائد التي مدح فيها شعراء الاتجاه الوطني حكام الموحّدين والحفصيين ووصف فتوحاتهم .فلنتأمل مثلاً ما قاله أبو بكر بن المنخّل الثّلبي في عبد المؤمن بن علي مهنئاً مادحاً(1):

فَتَحْتُم بلادَ الشّرق فاعتَمِدوا الغَربا فإنّ نسيمَ النَّصر بالفتْح قَد هبَّا

أصَرْتُم إليه الخَيلَ وهْيَ أجَادل فسَالتْ بكُم بَحراً وطارَتْ بِكم رَكْبا

ودُسْتُمْ بِها هَاماتِ كلّ ضلاّل ولم تَتركوا عُجما هنَاك ولا عُرْبا

رمَيْتم بها مِثل السّهام فأصبحَتْ كُماتُهُم صَرعى وأمْوالُهم نَهباً

ظنُّوا - وفي الظنّ الجهالة - أنّهم فلّون مِنْ أجنادِك الصّارم العَضْبا

وخرّوا جمعاً هامِدين كأنّهُم نَدامَى تَساقَوا بينهم أكْؤسَ الصّهبا

مَليك كأنّ الأرض قبضةُ كفّه فلا بُعد فيما يئتحِيه ولا قرْبا

إذا تأملنا الألفاظ (فتحتم ، النصر) علمنا أنّها تدل على قوة الفاتح ، فالفتح والنصر لا يتأتى إلا للقوي . وقوله (أصرتم ، سالت ، طارت ، دستم ، رميتم ، صرعى ، خرّوا، هامدين، قبضة كفه) ، كلها من الألفاظ التي ترسم لنا صورة واضحة للممدوح وجيشه الفاتح الذي تميز بالقوة التي أذلت أعناق العدو.

ورسْم الشجاعة للفاتح ضربٌ من القوة التي يتحلى بها . فمن القوة أن يُشبَّه الممدوح بالأسد. يقول أبو العباس بن سيّد اللّص في عبد المؤمن بن علي(2):

وإنْ نظرْتَ إليه وهْوَ مُنفرد رأيتَ فيه جميعَ النّاس في رَجُل

هِيَ الأساود إلا أنّها حُشِيَت ُسْداً فطالتْ ولولا الأسد لم تَطل

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة . ص95- 96-97.

(2) م.ن . ص99-100.

فدوّخ الأرضَ لـم يَعْتَصِنْ له مَلِك	لاّ وصيَّره أعْـفَـى مِن الطّ لــــل

ولا تمَنــــع جيْـش أنْ يَديــنَ لـه	إلا تـــــوزّع بـين القـتـل والنّـفَـل

فـالألفاظ (رجل ، الأسد ، دوّخ ، يعتص ، صيّره ، توزع) ، كلها من معجم البأس والقوة، إذ " لابد لكل قصيدة مدح سياسية من تصوير جو المعركة ، وهول ما دار فيها ، ليظهر من خلال ذلك شجاعة الممدوح وقدرته على الثبات "(1) . والأمثلة من هذا النوع كثيرة .

ب- الألفاظ الدّالة على العدوّ:

ويقصَد بها كل لفظ دلَّ على اسم العدو، أو على صفة من صفاته . وكان الشعراء في هذا العصر يوظفون هذه الألفاظ في قصائدهم التي يرْثون فيها مدنهم ، أو التي يستنجدون بها المسلمين لكي يبيّنوا فيها مدى الفظاعة التي قام بها أعداء الإسلام ، ويذكروا أسماء أولئك الأعداء، وينعتوهم بنعوت يعرفها أصحاب هذا الفن .

فإذا اطّلعنا -مثلاً - على نونية أبي البقاء الرندي ، لوجدنا فيها بعض ما ذكرنا سالفاً . يقول في قصيدته(2):

...علَى ديار مِنَ الإسلام خالِـيـةً	قد أقفرَتْ ولَها بالكُفر عمْـرَان

...ياأيُّـهـا المَلِكُ البَيـضـاءُ رايَتُـه	أدْرك بِسيفِكَ أهْلَ الكُفر لا كَانوا

...يا مَـنْ لِـذلّة قَـوم بَـعد عِـزِّهِـمُ	أحـالَ حالهُـمُ كُـفْر طـُغيـــــان

بالأمْس كانوا مُلِكاً في منازلِهـم	واليوم هُم في بلاد الكُفْر عَبْـدان

...يقُودُها العلجُ للمَكروه مُكرهَــة	والعَين باكيَـة والقلبُ حَيْـران

لقد أكثر الرّندي من لفظة (الكفر) في هذه النونية [بالكفر - أهل الكفر – كفر وطغيان – بلاد الكفر] ، وهي ألفاظ كلها تدل على العدو الذي استباح أرض المسلمين .

---

(1) فيروز الموسى : قصيدة المديح الأندلسية ، دراسة تحليلية . سوريا : الهيئة العامة السورية للكتاب . د.ط/ 200 . ص175.
(2) ينظر: المقرّي :نفح الطّيب . 5/374–375 .

وسَبب ذلك هو أن الرّندي أراد أن يوصل رسالة مهمة للمسلمين ، لأجل أن تتحرك عزائمهم للدفاع عن وطنهم . فكلمة (كفر) يقابلها (إسلام) ، إذن المسألة هي قضية دينية، والحرب حرب صليبية . بالإضافة إلى أنّه لا يجوز موالاة الكفار، كما كان يفعل بعض ملوك الطوائف من قبل .

ثم يختم القصيدة بلفظ آخر أكثر أهمية وهو (العلج) ، الذي لا يُطلق إلا على النصارى أو الكفار المعتدين الذين يستبيحون ما ليس لهم . لهذا جاءت اللفظة بعد ذلك المشهد المأسوي الذي تعرضت فيه المرأة المسلمة للهوان ، واستباحة عرضها .

أمّا ابن حزمون في سينيته ، فيضيف إلى لفظة (كفر) ومشتقاتها ألفاظاً أخرى هي من صفات النصارى ونعوتهم ، حيث نزّه الإسلامُ المسلمين عن أن يتصفوا بها . يقول ابن حزمون(1):

أإمَـام الحَـقّ وناصِـرهُ   طهَّرت الأرضَ مِنَ الدّنَس

...فأنَاخ المَوتُ كَلاكِلَـــهُ   بِ لـُ باك على بَشَـر رَجِـــس

....حكَمَتْ سياقُك سيّدَنـا   في كلّ مُصِـرٍّ الكفر مُسِــي

فالألفاظ : (الدّنس – رجس – مُسِي، أي مسيء) تضيف معنى آخر لحقيقة العدو؛ وهو أنّه بالإضافة إلى أنهم كفار (حيث استعملها في هذه القصيدة خمس مرات بأشكال مختلفة : الكفار، رداء الكفر، جنبات الكفر، مُصرّ الكفر) ، فهم بشر يتصفون بالقذارة والوسخ ، فلا سبيل لمهادنتهم وموالاتهم أو القرب منهم .

ونجده حيناً آخر يطلق عليهم أسماء عينية مقصودة ، مثل (الأذفونش) وهو أحد زعماء النصارى الإسبانيين ، و(الروم) وهي فئة دون غيرها من الأمم الأخرى.وجاء ذلك في قوله (2):

إنْ كـان نَجـا أذفُنْشُهمــــو   فإلـى عَيْش نكـدٍ تعِـــس

... ومضتْ في الرّوم مضاربُها   وكذلك تفعل فـي الفُـرس

---

(1) ينظر:عبد الواحد المراكشي : المُعجب . ص 213 – 214 – 215 .

(2) م.ن . ص214– 215 .

ويبدو أن ابن الأبار كان أكثر دقة في وصف العدو، فهو يضيف لفظة (الإشراك) و(نجس) إلى هذا المعجم الشعري ، وهما لفظتان متلازمتان ، قال تعالى : " إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " . ولا غرابة في ذلك ، لأن الرجل كان فقيها وعالماً بالقرآن . يقول ابن الأبّار (1) :

مَائن حلّها الإشراكُ مُبتسِماً جِذْلانَ وارتَحل الإيمانُ مُبتَئِساً

... طهِّرْ بِلادَك منهُم إنّهم نَجس لا طَهارةَ ما لَمْ تُغسَلِ النَّجسا

وفي همزيته السابقة ينعت الأعداء بألفاظ من المعجم القرآني ليزيدها دقة ، ولكي يكون وقعها على السامع حاداً وعلى النفس أليماً . ومن تلك الألفاظ نجد : (طواغيت ، الضلال ، أهل النار) ، وأضاف لفظة (الأعاجم) لينفي عنهم صفة الانتماء ، ورد ذلك في قوله(2):

نـادتـك أنْـدلُس فلبّ نِـداءَهــا واجْعَل طَواغيتَ الصّليبِ فِداءَها

...كَيفَ السّبيلُ إلـى احْتِلال مَعَاهِـد شبّ الأعاجِم دُونَها هَيجَاءَها

...ومَصَانع كسَف الضّلالُ صباحَها فيَخَالـه الرّائـي إلَيـه مساءَها

...عَجَباً لأهْل النّار حَلُّوا جَنّة مِنها تَمـدّ علَيهـمُ أفياءَها

وقد سماهم ابن سهل في قصيدته التي رثى فيها مدينته إشبيلية "الأصفر" ، حيث قال(3):

والخَيل تضْجر في المَرابِط غَيْرَة ألّا تَجُوس حَريم رَهْط الأصْفَر

وممّا يتصل بألفاظ العدو، كل ما له علاقة بعقيدتهم ودينهم ، وإن كان الأصل أن ألفاظ العقيدة تدرج في اللغة الرقيقة ، إلا أنّها عندما أُلحقت بالعدو النصراني ، خرجت إلى اللغة الجزلة ؛ ونجد الشعراء إنما يوظفونها في اللغة الفخمة، لأنها هي أيضاً

---

(1) ينظر: ابن الأبّار: الديوان . ص 408 – 412 .
(2) ينظر: م.ن . ص 35 .
(3) ابن سهل : الديوان . ص 142.

تكشف عن حقيقة العدو وتفضحهم ، وتبيّن " عقائدهم الزائفة التي أرادوا لها الانتشار"(1) . ولا سبيل إلى ذلك إلا باللغة الجزلة القوية .

ومن تلك الألفاظ نجد : (الصليب ، نواقيس) في قول ابن الأبار(2) :

بِ أبي مَارس كالطّ لول دَوَارس   نسخَتْ نَوَاقيس الصّليبِ نِداءَها

وكلمة (الوثن) في قول ابن فرقد (3) :

وكانَت رِبَاطاً لأهْل التُّقَى   فعَادتْ مَناطاً لأهل الوَثَنْ

ولفظة (التثليث) في قول أبي موسى هارون بن هارون(4):

يا حَسْرةَ الدّين والدّنيا لِأندلس   مَهْما اسْتَطَال بِ ها التّثليث واجْتَرما

ونجد أيضاً : (الكنائس والبِيَع والجرس) في قول ابن الأبار(5):

فمِنْ دَساكِر كَانتْ دُونَها حرَسا   ومِنْ كَنائس كَانتْ قَبْلها كُنُسَا

يَاللِمَساجِد عَادَتْ لِلعِدَى بِ يَعاً   و لِنِّداءِ غَدَا أثْناءَها جَرَسا

ج- الألفاظ الحربية :

وهي الألفاظ التي لها علاقة بالحروب والفتوحات ، وما يدور في فلكهما . وبديهي أن الشاعر في هذا الموطن يستعمل من الألفاظ أجزلها وأفخمها ، وهو يصور تلك المعارك الحربية بين جند المسلمين والنصارى . أو في تلك القصائد التي يرثي فيها ما سقط من مدن الأندلس نتيجة استخدام النصارى لأسلحة متعددة . أو في تلك الفتوحات التي قام بها الموحدون ، حيث انتصر الخليفة وجنده على الأعداء باستخدامهم أيضاً أسلحة متنوعة .

لقد حاول بعض الشعراء الأندلسيين الذين طلبوا النجدة لبلاد الأندلس، استخدام ألفاظ فخمة يثنون بها على جيوشهم وما تتكون منه . وذكروا بعض الآلات الحربية التي

(1) عزّوز زرقان : شعر الاستصراخ في الأندلس ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1 / 2008 . ص192.
(2) الديوان . ص36 .
(3) لسان الدّين بن الخطيب : الإحاطة . 193/1 .
(4) ابن عِذارى المراكشي : البيان المُغرب . ص383 .
(5) الديوان . ص409 .

يستخدمونها عادة . وكذلك فعلوا في القصائد التي رثوا فيها المدن الأندلسية التي سقطت، وسواء أكانت تلك الآلات من المخلوقات أو المصنوعات. بالإضافة إلى بعض الألفاظ من أسماء وأفعال تدل على الحروب والمعارك.

ويكفي في هذا المقام أن أشير إلى بعض ما ذكرته سابقاً دون تفصيل ، ومنها ما يلي:

يقول موسى هارون بن هارون في رثائه لإشبيلية (1):

... فَالبَحرُ بِالمُنشآت ارْتَجَّ مِنْ ذُعْـر — والبَـرُّ بِالمُرهفَات المَاع فاكتَتَمـا

... فكَمْ ُسارَى غَدتْ في القَيدِ مُوثقة — تشْكـو مِنَ الذ أقداماً لها حطَ مـاً

... في كُلّ حِينٍ تَرى صَرعَى مُجدَّلة — و آخَرين أسَارَى خَطبُهم عَلا ُ ما

والألفاظ هي : (المنشآت ، ذعر، المرهفات ، أسارى ، القيد ، صرعى ، مجدلة)

ويقول ابن سهل الإشبيلي في رثائه لمدينة إشبيلية أيضاً(2):

... نادى الجِـهادُبِ كم بنَصر مُضمَر — يَبْـدو لكم بَـــينَ القَنَـا والضّمَّـر

خَلـُوا الدّيارَ لِدار عِزّ، واركَبوا — غبْـر الفجَاج إلى النّعيم الأخُضَر

...لـو أنـّكم جهّزتـُــمُ عَزماتِـكم — لَهَزمتـمُ مِنهـا العـدوّبِ عسْكَــــــر

و لـو أنـّكـــم سدَّدتـُـمُ هـماتِـكم — لَ عَنَــتهمُ قَبـل القَـنـا المُأطـّ ـر

والخَيل تضْجر في الَوابِ ط غَيرة — ألاّ تَجُوس حَريـم رهْط الأصفَـر

كَم نكَروا مِن مَعْلَم، كَــم دمَّـروا — مِنْ مَعشَر، كَم غيَّروا مِن مَشعَـر

...أيَـعزّ منكُم فارس في كـّ ّـــــــه — سَيفـاً، و دِيـن مُحمّد لـم يُنْصَــر؟

أم كَيف تَفتَخـر الجِـيادبِ أعْــوَج — فيكـم، وتنْتَسب الرّمـاح لِسمْهــر

فلننظر إلى هاته الألفاظ الكثيرة المختلفة ، التي ذُكرت في القصيدة . فبعضها وُظف لاستنهاض الهمم و الّذود عن البلاد ، وبعضها الآخر يصوّر مدى الدمار الذي

(1) ينظر: ابن عذارى المراكشي : البيان المُغرب . ص381 .
(2) الديوان . ص 140-141 .

قام به العدو الإسباني . واقتصر الشاعر على بعض الألفاظ التي سخرها للتقريع بأولئك الذين تقاعسوا عن الدفاع عن وطنهم ، من بينها: (الجهاد ، بنصر، القنا ، الضمر، غبر الفجاج ، بعسكر، طعنتهم، الخيل ، المرابط ، نكروا ، دمَّروا ، فارس ، سيفاً ، الجياد ، الرماح).

تضاف إليها ألفاظ أخرى موازية لاسم الجيش ، أو السيف ، أو أنواع الخيول ، أو السفن الحربية .وقد وردت كثيراً عند الشاعر المبدع ابن الأبار، وهو الذي كان يتخير ألفاظه الدقيقة الموحية إلى عبقريته وشاعريته الفذة ، وتبصُّره في اللسان العربي.

يقول في همزيته مثلاً(1):

...واشدُدْبِ جَلبِ ك جرْدَ خَيلِك أزْرَها   تـرُدُدْ علـى أعـقـابــهـا أرْزَاءَهـا

...ولَـو اسـتـقـلَتْ عوفُها لِقـتَـالـها   لاستـَ بـلـتْ بالمُـقرَبَــات عفاءهـا

...أنـذرهُـمُ بالبَـطشـة الكُـبرى فـقَـد   نَـذَرتْ صـوارمُه الرّقاق دِماءَها

...و إذا انتَضَوا يوَمَ الكَريهةِ بِ يضَهم   أبصَرْتَ فيهم قَطعَها و مضَاءَها

ويقول في لامية (2) :

... أخَـواتُ الخَلِقِ سابِـ حَة   ذات رَدَيـ يــن ورَدَيـ يـل

وبنَـات المَــاء صَائِـلَـة   كالأفَاعــيّ الأفـاعِيـل

..يـِ الجَواري المُنشآت لَهم   جَـرْيُ تَبْتيــر وتبْـِيـل

حيث ذكر من الحيوانات المستعملة في الحروب (جرد خيلك ، المقربات ، الخيل) .ومن المصنوعات (صوارمه ، بيضهم ، بنات الماء ، الجواري المنشآت) . ومن ألفاظ الحروب (أرزاءها ، لقتالها ، البطشة الكبرى ، دماءها ، قطعها ومضاءها).

ومجمل القول ، إن الأندلسيين حاولوا استيفاء خصائص الألفاظ الجزلة ، لأنَّ "أجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً لا متغلق معناه ...ولا يكون مكدوداً مستكرهاً ومتوعّراً متقعراً، ويكون بريئاً من الغثاثة عرياً من الرَّثاثة "(3) . وقد لاحظنا من

---

(1) ينظر: ابن الأبّار: الديوان . ص35– 37 –39 –41 .

(2) م.ن . ص246 –247 .

(3) أبو هلال العسكري : كتاب الصّناعتين . ص49 .

خلال ما ذكرنا سابقاً أن هؤلاء الشعراء لم يتكلفوا في استعمال الغريب والوحشي ، لأنه كانت لديهم رسالة محددَّة المعالم ، انتهجوا فيها طريقة خدمت غرضهم المنشود ؛ فرثاء المدن ، والدعوة إلى الجهاد ، واستنهاض الهمم ، واستنفار الأمم ، تقتضي لغة جزلة قوية ، وواضحة سهلة في الآن نفسه.

ويبدو أن تلك الألفاظ تعرفها عامة الناس ، إلا أنهم لا يوظفونها في كلامهم ، لأنها ألفاظ مختارة تخص هذا النوع من الشعر . يقول أبو هلال العسكري (1) : "وأمّا الجزل المختار من الكلام فهو الذي تعرفه العامة إذا سمعته ولا تستعمله في محاورتها".

2- اللغة الرّقيقة اللينة :

ليس كل الألفاظ التي استعملها شعراء الاتجاه الوطني تتسم بالجزالة والفخامة والقوة ، وإنما هناك أغراض شعرية في ذلك الاتجاه ، اقتضت توظيف لغة رقيقة لينة . يقول أبو تمام في وصيّته للبحتري(2): "..فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقاً والمعنى رشيقاً ، وأكثر فيه من بيان الصبابة وتوجع الكآبة وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق ، والتّعلل باستنشاق النسائم ، وعناء الحمائم ، والبرق اللامعة ، والنجوم الطالعة..."

واضح من هذا النص أن أبا تمام يشير إلى أنه لابد من الشاعر أن يتخيّر اللفظ الرقيق ، والمعنى الرشيق ، إذا رام الغزل ، أو الحنين ، أو ذكر محاسن الطبيعة . وللغرضين الأخيرين اتصال وثيق بالاتجاه الوطني ، وقد جُعل الأول (الغزل) في بعض الأحيان صدراً لبعض ألوان هذا الاتجاه .

إذن يمكن تقسيم ألفاظ هذه اللغة إلى نوعين هما :

أ- الألفاظ الوجدانية :

(1) م.س . ص47.
(2)حازم القرطاجنّي : منهاج البلغاء . ص203 .

وهي التي يستعملها الشاعر للتعبير عما يختلج في النفس من عواطف وأحاسيس، سواء أتعلق الأمر بالمآسي والأحزان ، أم بالأفراح والمسرات . وقد كان المعجم الشعري في هذا الجانب ثرياً ، استوعب جميع أغراض الاتجاه الوطني ، وسوف أقصر الحديث عنها في بعض ما جاء في غرضي الحنين ومحاسن الأندلس .

يقول الرصافي البلنسي في بائيته (1) :

... إيــهٍ عـن الكُـدْية البـيـضـاء إنَّ لـهـا   هـوىً بقـلـب أخيك الوالِـه الوَصِـب

راوح بنا السّهل مِن أكنافها و أرحْ   ركابَـنا ليلـهـا هـذا مِـن التّـعـب

وانضَحْ جوانـبهـا من مُقلتيْك وسَـل   عن الكثيب الكريم العهد في الكُثُبِ

... يا عَذبة الماء والظّـل انعـمي طفلاً   حُيّيتِ مُمسيـةً ميّــادة القُضـب

... ولم نـبت نتـقاضـى مِنْ مـدامعـنـا   ديناً لتـربـك من رقراقها السَّـرب

... مُستعطفـين سخـيّات الشّؤون لـه   حتى تُـحـاك علـيه نمْـرق العُشُب

ولا يخفى على المتأمل في هذه الأبيات ، أن يلحظ ألفاظها التي وظفها الشاعر، وسكب فيها من روحه ما جعلها سهلة سلسة طيّعة له ، من مثل : (هوىً بقلب ، الواله ، الوصب ، التَّعب، انضح ، مقلتيك ، عذبة الماء ، انعمى طفلاً ، ميادة القضب ، مدامعنا، رقراقها ، مستعطفين ، الشؤون) ، إلى غير ذلك من الألفاظ الوُجدانية .

يقول قدامة بن جعفر(2): " ولما كان المذهب في الغزل والحنين إنما هو الرّقة واللطافة والدّماثة ، كان مما يحتاج فيه أن تكون الألفاظ لطيفة مستعذبة مقبولة غير مستكرهة ".

ولقد زاوج الرصافي في رائيته التي تشوق فيها إلى مدينته بلنسية بين الألفاظ الفخمة الجزلة ، والألفاظ الوُجدانية الرقيقة بشكل بارع ، ينمّ عن مدى تمكنه من آلة الشعر وفنونه ، يقول منها(3):

...خليلـيّ عُوجاً بـي علـيـها فإنّــهـا   حديثٌ كبَـرْد الماء في الكبد الحَـرَّى

---

(1) ينظر: الديوان . ص 44 –45.

(2) نقد الشعر. ص75.

(3) الرّصافي : الديوان . ص 67 –68 –69 –70 –71 .

...بلادي التـي ريشَت قُوَيْدمـتي بهـا　　فُرَيخـاً و آوَتْـنـي قرارتُـهـا وكْــراً

مبـادئ لِين العَيش في رَيِّـق الصّبـا　　أبَــى الله أن أنســى لــهـا أبداً ذِكــراً

...أمنــزلنَـا عـصر الشّبيـبـة ما الذي　　طَـوى دونـنا تلك الشّبيبـة و العصْـرا

...محــلٌّ أغــرُّ العـهد لـم نـبْد ذكـرَهُ　　على كبِـدٍ إلا امْـترى أدمُـعاً حـمـراً

...أنيــقٌ كرَيْــعان الـحيـاة التي خــلَت　　طـليـقٌ كـريَّـان الشّــبـاب الـذي مَــرَّا

و قالوا هـل الفِردوس ما قد علمتـه　　فقلتُ وما الفردوس في الجنّة الأخرى

بلَتّـسِيَـة تـلك الزّبَرْجَـدة التــي　　تسِـيل علـيـهـا كــلّ لُـؤلـؤَة نَـهـرا

...خليلــيّ إن أصـدِرْ إلـيهـا فإنّــهـا　　هِيَالوطـَنُ المَحْـبوب أوكْلُّه الصَّـدرا

إنّ جل أبيات القصيدة تحتوي على ألفاظ وُجدانية ، مثل : (برد الماء ، الكبد الحرى، ريشت قويديمتي ، لين العيش ، ريّق الصبا ، عصر الشبيبة، أدمعاً حُمرا ، أنيق ، الحياة، طليق ، ريان الشباب ، الزبرجدة ، الوطن المحبوب...).

ولننظر إلى عبارة (وما الفردوس في الجنة الأخرى) ، حيث اختصر فيها كل أشواقه وانتمائه لوطنه وتفضيله حتى على جنة الفردوس . وقد اعترف له بهذا التمكن وهذا الاقتدار لسان الدين بن الخطيب في قولـه (1) : " وشعره لا نهاية فوقه رونقاً ومائية ، وحـلاوة وطلاوة ، ورقة ديباجـة ، وتمكن ألفـاظ ، وتأصّل معنى " .

ولم يكن ممن يتعجل على القصيد دون تنقيح و تجويد ، ويسير في ذلك على منهجية واحدة. يقول ابن الأبار(2) : " وكان من أهل القوّة وسلامة الطـّبع ، وتنقيح القريض وتجويده ، على طريقة متحدة ".

ووظف هذه الألفاظ - أيضـاً - أولئك الشعراء الذين هاموا في حسن الأندلس ، مثل ما قاله حازم القرطاجنّي في مرسية (3) :

بِ جنّـة الأرض هِمتُ يا صـاح　　فليس عنهـا الفُـؤاد بالصّـاح

تـلـك مَحـلُّ النّهـور مُرسـيَـة　　مَوطن أنُسـي ودارُ أفـراحي

(1) الإحاطة . 356/2 .
(2) أحمد ابن القاضي المكناسي : جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس . الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة . د.ط /1973 . 266/1 .
(3) ينظر: الديوان . ص36 .

مُرسـيَ كـمْ ناعـم و كَم جَـدْل   بيَـن الرّياحيـن فيك و الرّاح

... فكـلّ حُـسن ما بيـن قـنطرتَي   طَـبـيــرة منـــهمـا وسـبَّــاح

تبدو هذه الألفاظ :(هِمتُ، أُنسي ، أفراحي ، ناعم ، جدل ، حُسن) سهلة وبسيطة، وواضحة في دلالتها وتركيبها . ومع ذلك فقد خدمت مُراد الشاعر الذي لم نعهده إلا مصطنعاً في كثير من ألفاظه، طالباً لغريبها ووعرها ، وهذا لا يعد عيباً ؛ لأن من الناس من يستحقرون الكلام إذا رأوه سلساً عذباً وسهلاً حلواً ، ولم يعلموا أنّ السّهل أمنع جانباً ، وأعز مطلباً ، وهو أحسن موقعاً ، وأعذب مستمعاً ، ولهذا قيل أجود الكلام السهل الممتنع" (1).

وهكذا مع أغلب القصائد التي قيلت في وصف محاسن الطبيعة الأندلسية في عهد الموحدين، نجد أن أصحابها يوظّفون كثيراً من الألفاظ الوجدانية ذات السلاسة والنعومة - على الرغم من بساطتها وسهولتها- خارج السياق ؛ لأن "الألفاظ إنما تكتسب قيمتها من خلال وجودها في النص بصورة معينة من قِبل الشاعر الذي أراد لها أن تكون في هذا المكان أو ذاك ، وقصد بذلك أن يعبّر عن معنى مجدّد ، فلا يعود اللفظ مجرد لفظ ، ولكن له وظيفة يؤديها بالتظافر مع غيره من العناصر المختلفة في القصيدة لإبراز العمل الفني في أكمل صورة "(2) . ويتجلى هذا في بعض القصائد التي قالها ابن سفر المريني ، وابن سعيد ، وابن شهاب المالقي وغيرهم .

والأمر نفسه بالنسبة للألفاظ التي تميّزت بالحزن العميق والأسى البالغ ، حيث وظفها الشعراء في رثائهم لمدنهم ، وصرخاتهم التي بعثوا بها لإنجاد الأندلس ، فهي أيضاً ألفاظ وجدانية تلامس عاطفة حزينة، ونفساً مفجوعة و مكلومة بما أصاب البلاد .

ب- ألفاظ العقيدة :

([1]) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين . ص 44 .

(2) أحمد موسى الجاسم : شعر بني أسد في الجاهلية ، دراسة فنية . بيروت : دار الكنوز الأدبية . ط1/ 1995 . ص 357.

ألفاظ العقيدة هي أيضاً رقيقة لينة ، تتميز بالوجدانية العاطفية ، ولقد استوعبت أغلب أغراض الاتجاه الوطني . والسبب في ذلك هو أن أغلب شعراء العصر الموحدي كانوا فقهاء وعلماء دين ، كأبي المُطرّف بن عميرة ، وابن الأبّار، وحازم القرطاجني ، وأبي البقاء الرّندي، وغيرهم كثير . ولم يكن ظهور هذه الألفاظ مقصوراً على هذا العصر، وإنّما كان في كامل عصور الأندلس التي ظلت تخرّج لدنيا الناس شعراء فقهاء.

وألفاظ العقيدة تجمع بين الحزن والسّرور، وانطلاق النّفس ، وانكسار القلب . من ذلك ما جاء في رائية الرّصافي التي افتتحت بتلك الألفاظ واختُتمت بها ، يقول الشاعر مثلاً (1) :

لو جئتَ نار الهُدى من جانب الطّور　　قبسْتَ ما شئتَ مِن عِلْم ومِن نُور
...فيْضيّة القدح مِن نور النّبوة أو　　نور الهداية تجلو ظُلمة النّور
ما زال يقضمُها التّقوى بموقدها　　صَوَّام هاجرة قوَّام ديجور
حتى أضاءت مِن الإيمان عن قبس　　قد كان تحت رماد الكفر مَكفور
نورٌ طوَى اللهُ زنْد الكون منه على　　سِقّط إلى زمن المَهديّ مذْخُور
وآية كإياة الشّمس بيْن يَدي　　غزو على المَلِك القَيسيّ منذور
يا دارُ دارَ أمير المؤمنين بسفـ　　ـح الطَّود طودِ الهُدَى بوركتِ في الدُّور

وهكذا تقريباً في كل بيت نجد لفظاً دينياً كـ (الله ، نار الهدى ، الطور، قبست ، نور، النبوة، الهداية ، التقوى ، صوّام ، قوّام ، الإيمان ، الكفر، آية ، الطود...) . فقد جاءت القصيدة بكاملها طافحة بهذه الألفاظ ؛ إذ إنّ الرّصافي تعمّد ذلك ، حينما أراد أن يرسم لنا شخصية عبد المؤمن بن علي البطل الشجاع ، الذي قهر النّصارى الإسبان بفضل تمسكه بالدين ، والعمل بمقتضى العقيدة الصحيحة وتأثّره بالطّريقة المهديّة .

ولقد ظلّ الأندلسيون يُشبعون قصائدهم بتلك الألفاظ التي استوفوها من المعجم الديني ، فنراهم تارة يُشبّهون الأندلس بجنة الخلد ، وتارة أخرى بالفردوس والجنة

---

(1) ينظر: الديوان . ص87 –88 .

الكبرى ، وشبهوا خيرة أنهارها بنهر الكوثر في الجنة ، وذلك لشدّة شغفهم ببلادهم . ونراهم في مواطن أخرى يصفون ما أصابهم وما آلت إليه مدنهم بالجحيم ، والسّعير، وسَقر، وجهنم ، وذلك للوقوف على الحالة الفظيعة والأعمال الشنيعة التي قام بها العدو الإسباني في وطنهم الأندلس . ولسنا بحاجة إلى إعادة تلك الألفاظ التي صرّحت عن نفسها في قصائد رثاء المدن والاستنجاد وذكر محاسن الأندلس .

وفي الأخير هناك ملاحظات عامة حول لغة شعر الاتجاه الوطني على عهد الموحدين نجملها فيما يلي :

- لقد حاول بعض الشعراء الأندلسيّين في هذا العصر، أن يغرف من معجم الشعر القديم ، لكي يثبت لنا قدرته على مضارعة ألفاظ الأقدمين ، وأنّهم لم يقصروا دونهم ، وهم بهذا العمل يمثّلون الاتجاه المحافظ ، ليس فقط على مستوى بنية القصيدة ، وإنما على مستوى لغتها ، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

يقول أبو المطرّف بن عميرة في رثائه بلنسية (1) :

...ويندب عهداً بالمُشقّ فاللّوى   وأين اللّوى منه ، وأين المُشقَّر

و"المشقر" و"اللوى" اسمان لمكانين ورد ذكرهما في الشعر الجاهلي ، لا سيما في بعض قصائد امرئ القيس (2) .

ويقول في رثائه للمدينة نفسها (3) :

وعزيمة للشّرك جَعْجَع بالهدَى   أنصارها، إذ خانه أنصاره

ويقول عمر ابن حربون في إحدى فتوحات الموحدين (4) :

وكيف رأى ابن الرّك مركب بَعْيِرِهِ   إذا اعتاض مِن دُهُم الجياد الأداهما

فـ (جعجع و اعتاض) ألفاظ مقتبسة من معجم اللغة الجاهلية القديمة .

---

(1) المقري: نفح الطيب . 379/5 .

(2) يقول امرؤ القيس :

أو المكرعات من نخيل ابن يامن   دوين الصفا اللاّئي يلين المشقَّرا

(الديوان . شرح : أبي سعيد السكري ، دراسة وتحقيق : أنور عليان أبو سويلم ، محمد علي الشوابكة . الإمارات العربية المتحدة : مركز زايد للتراث والتاريخ . ط2000/1 . 412/1).

(3) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص 683 .

(4) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة . ص299 .

وغير هذا كثير ، مثل الذي قاله ابن الأبّار وابن سيّد اللّص في قصائد المدائح والفتوحات.

- جنحت لغة الاتجاه الوطني - في بعض الأحيان - إلى لغة النثر، فتميّزت بالنّزعة الخطابية ، والمباشَرة والسّهولة ، وإلى الركاكة عند بعض الشعراء .

ومن ذلك ما جاء عند أبي موسى هارون بن هارون في ميميّته التي رثى فيها إشبيلية ، حيث يقول (1) :

... جرتْ عليكِ يدٌ للدّهـر ظالمة   لا يعدِل الدّهر في شيء إذا حكَما

... كانت معاهد للذّات نعمـرها   فلا نِـزاع إذا ما هاجِـم هَـجَما

فقوله : (لا يعدل الدهر ... إذا حكما . وإذا ما هاجِم هجما) ، لغة تقريريّة نثريّة بسيطة ومبتذلة ، تعرفها العامّة وتردّدها في كلامها .

- من الشعراء من يكثر استعمال اسم الإشارة ، وخاصة (هذا) كقول ابن سعيد(2):

هـذه مِصـر فأيـن المَغـرب   مُذْ نَـأى عنّـي فعيْـني تسْكب

... هـذه حالـي وأمّا حالـتـي   فـي ذُرى مصـر ففِكـرٌ مُتعَب

... وكذا الشّيء إذا غاب انتهوا   فيـه وصفـاً كـي يميـل الغُيّب

ومعلوم أن "هذا" " تُستخدم في النثر للخروج من موضوع إلى آخر . واستخدامها في الشعر يُبعده عن الرّقة والإيحائية ، ويُدخل النّص الشعري في الجفاف والتعسّف والسطحية ، فهذا الاستعمال إن جاز في النثر فإنّه لا يُقبل في الشعر بأي حال من الأحوال "(3).

---

(1) ينظر: المراكشي : المُعجِب . ص381 –382 .
(2) المقرّي :نفح الطّيب . 404/2 .
(3) علي الغريب محمد الشناوي : الإخوانيات في الشعر الأندلسي . القاهرة : مكتبة الآداب. ط1/ 2006 .ص209.

- وقد وجدت بعض الألفاظ التي نزعت إلى الشعبوية ؛ أي أن بعض الشعراء وظّف جملاً مبتذلة ، هي في الأصل لغة الشارع والحياة اليومية ، يعرفها حتى العامي الذي لا يقرأ ، كقول أبي المطرّف بن عميرة (1) :

تعرّض مجتازاً فكان مُنَكّراً   بعهد اللوّى والشّيء بالشيء يُذكَر

فقوله : (والشيء بالشيء يُذكر) معروف عند عامة الناس .

وكذلك بعض الألفاظ التي صارت شائعة على ألسنة العوام في استعمالاتها اليومية ، كقولهم : (لعلّ وعسى) . جاء هذا عند ابن الأبّار مع بعض التغيير في قوله (2) :

واضربْ لها موعداً بالفتح ترقبه   لعلّ يوم الأعادي قد أتَى ، وعسا

-أشرنا في السابق إلى أن كثيراً من شعراء عصر الموحدين كانوا أصحاب ثقافة دينية ، لذلك وجدناهم يقتبسون من القرآن الكريم ، ويوظفونه في أشعارهم .

ومن الاقتباسات التي وردت في قصائد الاتجاه الوطني، نذكر ما يلي :

يقول ابن الأبّار مادحاً أبا زكرياء (3) :

بالجواري المُنشآت لهم   جَرْي تبْتير وتبتيل

فـ (الجواري المنشآت) ، مأخوذة من قوله تعالى :(وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ) . سورة : الرحمن ، الآية : 24 .

وفي قوله من السينية المشهورة (4) :

كأنّما يمتطي واليُمن يَصحبه   مِن البحار طريقاً نحوه يبَساً

وهو مأخوذ من قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَـٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ) . سورة : طه ، الآية : 77.

وكذلك في همزيته التي يقول فيها (5) :

خُوضوا إليها بحْرها يصْبح لكم   رَهْوا وجُوبوا نَحْوها بيْداءَها .

---

(1) م.س . 380/5 .
(2) الديوان . ص 412 .
(3) م.ن . ص247 .
(4) م.ن . ص411 .
(5) م.ن . ص 38 .

إشارة إلى قوله تعالى : (وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ) . سورة : الدخان ، الآية:24 .

ومن أشكال التأثر بالقرآن الكريم ، ما ورد في ميميّة أبي موسى هارون بن هارون السابقة الذكر حين قال (1) :

يا حِمصُ أقْدرَك المَقدورُ حين رَمَى   لم يرْعَ فيك الرّدَى إلاّ ولا ذِمَما

وهذا موجود في قوله تعالى : (لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ) . سورة : التوبة، الآية:10 .

وعندما أراد أبو المطرّف أن يصف الحوادث التي وقعت لديار بلنسية ، اقتبس من القرآن الحادثة التي وقعت لقوم عاد حيث قال (2) :

فأين مِنّا منازل عصَفتْ   ريحٌ عليها مِن العِدى صرْصَر

وجاء في القرآن الكريم عن قوم عاد قوله تعالى :(وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ) . سورة : الحاقة ، الآية : 06 .

- أمّا التأثر بالحديث النبوي الشريف ، فلم أعثر لشعراء الاتجاه الوطني في هذا العصر على نموذج يمكن الاستشهاد به .

- احتوت بعض القصائد على عنصر التّضمين ، حيث يعرفه ابن رشيق بقوله(3) : " هو قصدك إلى البيت من الشعر أو القسيم ، فتأتي به في آخر شعرك أو في وسطه كالمتمثل " ؛ أي أن يأتي الشاعر إلى بيت أو جزء منه ويُضمنه في وسط شعره أو آخره على سبيل التمثيل .

ويشير القزويني إلى ضرورة تنبيه الشاعر في تضمينه إلى الجزء المُضمَّن إن لم يكن مشهوراً عند أهل البلاغة ، في قوله (4) : " وأمّا التّضمين فهو أن يُضمّن الشعر شيئاً من شعر الغير، مع التّنبيه عليه إن لم يكن مشهوراً عند البلغاء ".

---

(1) ابن عِذارى المراكشي : البيان المُغرب . ص381 .
(2) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص 684 .
(3) العمدة . 73/2 .
(4) الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق: مجدي فتحي السيد ، مصر:المكتبة التوفيقية . د.ط/د.ت . ص 264.

ومع ذلك فإنّ أبا بكر بن المنخل الشلبي في بائيته التي أشاد فيها بفتوحات عبد المؤمن بن علي ، يُنبِّه في عجز بيته على صدر بيت للمتنبي وهو مشهور، مخالفاً بذلك ما أشار إليه القزويني في قوله السابق . يقول أبو بكر الشلبي (1) :

ويَستنشِد البَطْريقُ في عَرَصاتكم "فَدَيناك مِنْ رَبْع وإنْ زدْتَنَا كَرْبـا"(2)

ونلاحظ أن الشاعر أخذ شطر البيت (*) بكامله وجعله عجُزاً في بيته بشكل بديع، إلا أنه عند الإمعان في البيتين نجد اختلافاً بينهما ، حيث إنّ عجُز البيت عند أبي بكر بن المنخّل بقوله البطريق (وهو رئيس الأساقفة) جاء ليؤكد قوة عبد المؤمن بن علي وقهره للأعداء .إلا أن وُروده في بيت المتنبي جاء مدحاً وافتخاراً بسيف الدولة الحمداني ، وهذا وجه البديع وحسن التضمين عند ابن المنخّل .

وبعض الشعراء يكون في بيته معنى بيت آخر، ضمَّنه بقصد أو عن غير قصد ، وإن كان بينهما اشتراك في بعض الألفاظ ، مثل قول أبي بكر بن المنخّل في القصيدة نفسها :

بِلادٌ قضَى فيها الشّبابُ مآربي وأبقَى لِنفسي ما بقيتُ بها إرْبـاً (3)

وكقول حازم القرطاجني في قصيدته التي هنَّأ فيها بفتح حمص (4) :

فيشبّ بالهنديّ نيرانُ الوَغى وبِ أعْبق الهندِيّ نيران القِرَى(5)

---

(1) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة . ص 98 .

(2) أخذ صدر البيت من قول المتنبي حين مدح سيف الدولة :

فدَيناك مِن رَبْع وإن زدتنا كَربا فإنّك كنتَ الشّرق للشّمس والغَربا

(الديوان ، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط/1983، ص 325) .

(*)يقول العسكري معرفاً التضمين أنه " استعارتُك الأنصاف والأبيات من غيرك ، وإدخالك إياه في أثناء أبيات قصيدتك ". (كتاب الصناعتين . ص36) .

(3) فيه إشارة إلى قول ابن الرّومي المشهور:

وحُــبّب أوطانُ الرّجـال إليْـهـــمُ مَآرب قضّاها الشّبابُ هنالِك

إذا ذكروا أوطَانهم ذُكِرتْ لهُم عُهود الصِّبا فيها فحَنّوا لِذلك

(الديوان ، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج . لبنان : دار الكتب العلمية . ط2002/3 . 3/14).

(4) الديوان . ص 53 .

(5) فيه شَبَه مع بيت عدي بن زيد القائل :

رُبّ نار بِتّ أرمقها تقْضِم الهنْدي والغَارا

م.ن . ص.ن .

أمّا الرّصافي البلنسي فجاء تضمينه على شاكلة ما ورد في بيت أبي تمام من قصيدته المشهورة في فتح عمورية . وقد اشتركا في حرف الروي والقافية والوزن . يقول الرصافي مُتشوقاً إلى وطنه (1) :

غادوا بِ حْلْبَتِهم مكناسة فغدتْ بغُرّ تلك الحُلَى معْسولَةَ الحَلَب (2)

فإذا كان السبب الذي لجأ من أجله بعض الشعراء إلى التضمين هو التمثيل كما ذكر ابن رشيق في قوله السابق ، فإنّ البعض الآخر لجأ إليه نتيجة إعجاب بالشعر المُضَمّن ، أو لإظهار ملكته في الحفظ ومدى قدرته على الاستظهار والتركيب البديع .

ومع هذا فإنّ شعراء الاتجاه الوطني في هذا العصر ، لم يكثروا من التضمين ، والذي ذكرته هو ما عثرت عليه في قصائدهم ، ربما تماشوا مع الرأي الذي يرى التضمين عيباً من عيوب الشعر(3) . ولأنّ كثيراً من فطاحل الشعراء الأندلسيين كانت لديهم الأنفة والترفع عن أن يضعوا في شعرهم ما ليس لهم ؛ كابن الأبّار ، الذي اكتفى بكثرة الاقتباس وأحجم عن التّضمين على الرّغم من سعة محفوظه واستيعابه للشعر.

ب- الأسلوب :

إنّ الألفاظ بمعزل عن سياقها لا تفيد في شيء ولا معنى لها ، فهي تؤدي المعنى الذي يريده الشاعر داخل السياق .

ثم إنّ النقاد والشعراء على حدّ سواء ،اهتموا بالأسلوب الموظّف في القصيدة . يقول عبد القاهر الجرجاني (4) : "إنّ الأسلوب هو المذهب من النّظم والطريقة فيه".

---

(1) الرصافي البلنسي: الديوان . ص46 .
(2) يقول أبو تمّام في فتح عمورية :
يا يَوَم وقْعَة عمُّوريّة انصَرفتْ عنْك المُنَى حفلاً مَعْسولَة الحَلَب.
(الدّيوان بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق: محمد عبده عزام . مصر: دار المعارف . ط5/ د.ت. 46/1).
(3) ينظر: أحمد مطلوب : معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها . العراق : مطبعة المجمع العلمي العراقي . د.ط / 1983. 261/2 .
(4) دلائل الإعجاز ، تصحيح : محمد رشيد رضا . بيروت : دار المعرفة . د.ط /1981 . ص361 .

ويعطيه ابن رشيق أهمّية كبرى في قوله (1) : "ألا ترى أن الدّر- وهو أخو اللفظ ونسيبه - إذا كان منثوراً ، لم يؤمن عليه ولم ينتفع به ، فإذا نُظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ".

ويؤكد ابن خلدون على أنّه لابد أن يتوافق الأسلوب مع ملكة اللسان في قوله(2): "وإنّما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان ، إذا حاول العبارة عن مقصوده ، ولم يحسن ، بمثابة المُقعَد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه".

ويوسّع محمود مندور في تعريفه للأسلوب ،ولا يجعله مقصوراً على النّاحية اللغوية ، بل يخرجه إلى الأمور المتعلقة بصاحب الأسلوب نفسه حيث يقول (3) : "ليس المقصود بالأسلوب طرق الأداء اللغوية فحسب ، بل المقصود منحى الكاتب العام، وطريقته في التأليف ، والتعبير، والتفكير، والإحساس على السواء".

ونراه في مكان آخر يؤكد على ضرورة وُجود اللفظة في سياقها ، إذ تؤدي معناها في الجملة والتركيب الذي توضع فيه ، قائلاً (4) : "إنّ العبرة ليست بمفردات اللغة ، بل بجُملها وتراكيبها وطرائق التعبير فيها . واللفظ العادي قد يكتسب قوة شاعرية بارزة إذا أُدخل في جملة أو تركيب شعري".

ثم إنّ اللفظة هي الوحدة الأساسية للأسلوب ، والصفات التي تتميز بها تصدق على الأسلوب أيضاً . وقد لاحظنا سابقاً أنّ ألفاظ الاتجاه الوطني كان بعضها يتسم بالجزالة ، والبعض الآخر بالسلاسة والعذوبة ، فكذلك الأسلوب . ويكفي أن نشير فقط إلى بعض النماذج على سبيل التمثيل دون إعادة التعريفات .

وباعتبار أنّ الأسلوب هو "المنهاج الذي ينهجه الأديب في الإفصاح عن فكر يختلج بذهنه أو عاطفة تعتمل في قلبه"(5) ، فإننا نجد مثلاً أبا المُطرّف بن عميرة

---

(1) العمدة . 107/1 .
(2) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون . بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . د.ط /2004 . ص596 .
(3) محمد مندور: في الأدب والنقد . مصر: طبعة لجنة التأليف . د.ط /1952 . ص 60 .
(4) محمد مندور: الأدب وفنونه . القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر. ط2/ د.ت . ص40 .
(5) عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي. بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر. ط2/ 1972. ص145.

يحاول أن يصور لنا المأساة التي وقعت لبلنسية بأسلوب حزين يحمل كل معاني الأسى، وقد ظلت تلك الأحزان تحزّ في نفسه حتى عندما فارقها ، معتمداً في ذلك كله على إعطاء صورة المدينة في الماضي ، وكيف أصبحت بعد ذلك ، وكان هذا أسلوبه الخاص به (1) في أغلب مراثيه لوطنه . وقد تميّز به عن غيره ، بحيث نستطيع أن ندرك أسلوبه من أسلوب غيره . يُضاف إليه جزالة هذا الأسلوب ومتانته ، فلم يكن مصطنعاً - في الغالب - كأترابه الذين غلبت عليهم الصّنعة في بعض القصائد ، مثل ابن الأبّار، أومن جاؤوا بعده كحازم القرطاجني ، و ابن السّيد اللص...

يقول أبو المطرف في بلنسية(2):

مـا بـالُ دمعِك لا يَنـي مِـدرارُه　　　أمْ مـا لِقلبك لا يقِـرّ قــرارُه

ألِلَـوْعـة بيـن الضّلـوع لِظاعــن　　　ســـارتْ ركائبُه وشطّ ت دارُه

...أمّـا بلنسِــيـة فـمــثوى كافــرٍ　　　حـفـّتْ بـه فـي عُـقـرها كُـفـّاره

زرْعٌ مِـن المكـروه حلّ حصـاده　　　عنـد الغُـدوّ غـداة لـجّ حصـاره

...ما كـان ذاك المِــصرُ إلا جـنـّـة　　　لِلحُسن تجـري تحتَـه أنـهـاره

أمّا السّـرار فقد غـداه وهل سوى　　　قمَـر السّماء يزول عنـه سِراره؟

قـد كـان يشـرق بالهـدايـة ليـلـُه　　　والآن أظـلـم بالضّـلال نـهــارُه

وها هو يختصر طريقته و أسلوبه في مقطوعة قصيرة يرثي فيها جزيرة شقر مسقط رأسه بأسلوب جزل، ذاكراً الماضي والحاضر حيث قال (3) :

يا دهـرُ ليتك كنتَ عنّا مُعرضاً　　　إذْ لا نـرى لك غير وجْه كالح

أولــدتَ أيّــام المـكـاره ثـُـمّ لا　　　نرجوك في مـيلاد يـومٍ صالـح

وأَبَيْتَ غيـر ضغينة مِن كاشر　　　وحميتَ إلا مِـن سَخيمَـة كاشح

وأزحتَــنـا عن منــزل كُـنـّا بــه　　　في ظلّ عـيْش بالأماني طافِــح

شُقَـر، وما شُقرُ، وأيْـك حـولـه　　　تسْلي القُوس بصائِحٍأو صـابِـح

---

(1) يقول عبد العزيز عتيق: "إنّ الأفكار تكون قبل أن يفرغها الفنان في قالبه الخاص من الأملاك العامة، فإذا عرف كيف يصوغها على الصّورة اللازمة الملائمة تصبح ملكاً خاصاً له..." . (م.س . ص147).

(2) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام . ص 273 .

(3) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي . ص687 – 688 .

أرض تخيّرَهـا لِطـيب هوائهـا   عَبـقون مِن أرج الثّـنـاء الفاتـح

وأرى النّعيم، وكلّ ما يغدو لـه   يومـاً يصـيـر إلى زوال رائـح

والمقطوعة أكثر وضوحاً من الأولى ، من حيث الجزالة والتعبير عن مراد الشاعر في تصوير الحزن العميق ، وتبيان أسلوبه ومذهبه في فن رثاء المدن، وظهر ذلك جلياً في بيته الأخير، وفيما يلي بعض التبيان:

أيام المكاره ⇄ يوم صالح

أزحتنا عن منزل ⇄ عيش طافح بالأماني

النعيم ⇄ الزوال

وفي المقابل نلمح في رائية ابن مرج الكُحل الأسلوب السّلس الرّقيق ، وهو يعدد محاسن الطبيعة الأندلسية ، حتى قال عن هذا الوصف لسان الدين بن الخطيب (1) : "لم يصف أحد النّهر بِ أرقّ ديباجة ولا أظرف من هذا الإمام" . يقول الشاعر (2):

عرّج بمُنعـرج الكثيب الأعْـفر   بين الفُرات وبين شطّ الكوْثـر

وعشيّـة قد كنتُ أرقـب وقتهـا   سمـحتْ بهـا الأيّـام بعد تعـذّر

نِلـنـا بهـا آمالـنـا في رَوضـــة   تُهْـدي لناشـقهـا شَميـمَ العنـبر

والدّهـر مِن نـدم يـسفّه رأيَـه   فيـما مضَـى منـه بغيـر تكـدّر

وقد زاد من سلاسة الأسلوب ، تلك الاستعارات التي لم يأت بها - فقط - ليبرز محاسن الطبيعة الأندلسيّة ،وإنما أيضاً ليُضفي على القصيدة رقّة وليونة .

ولأنّ "الأسلوب هو المرآة التي توضّح ما في النفس من عاطفة صادقة أو كاذبة، والأفكار تعتمد على جمال الأسلوب وحسنه وبهائه ، ونزاهته ونقائه ولذة طلاوته ومائه

---

(1) لم يَرِد هذا القول في الإحاطة . فوزي سعد عيسى : ابن مرج الكُحل ، حياته وشعره . ص 54 . الهامش .
(2) م.ن . ص 53 .

مع صحة السّبك والتركيب"(1) ، فقد جاءت نونية أبي البقاء الرندي ، مفعمة بتلك العاطفة الصادقة التي عبّر عنها بأسلوب نابع من قلب مكلوم ، ونفس متعبةومتأثّرة بما حدث لمدن الأندلس التي كانت تسقط تترى . ويكفي ذكر البيت الأخير للتدليل على تلك العاطفة وذلك الأسلوب في قوله (2) :

لِمثل هذا يذوب القلبُ مِن كَمَد إنْ كان في القلْب إسلامٌ وإيمَان

وعلى العموم ، فإنّ أشعار الاتجاه الوطني في عصر الموحدين ، تميزت بالتلوين الأسلوبي ، إذ إنّ هذه الظاهرة تعد "من أهم الظواهر التي تميز أسلوب الشعر من أسلوب النثر، وتباعد بينه وبين النثرية التي تهبط بمستواه الفني ... ويأخذ هذا التلوين الأسلوبي أشكالاً شتى فتراه مرة بين الخبرية والإنشائية ، حيث تنتشر صيغ الدعاء والاستفهام والنداء وأساليب التوكيد والقَسَم والشّرط"(3) إلى غير ذلك من الأساليب المعروفة ، والتي لا تخص هذا الاتجاه فقط ، وإنّما تستغرق الشعر العربي بكامله . وسنذكر بعضاً من هذه الأساليب فيما يلي :

أ- أسلوب الاستفهام:

كثر أسلوب الاستفهام في جل أغراض الاتجاه الوطني ، وخرج معناه إلى الهدف الذي يريد الشاعر تحقيقه . فمثلاً نجد ابن سعيد في بائيته التي قالها بمصر حين اشتدت به الغربة ، وكثر بكاؤه ، وحنّ إلى وطنه ، استخدم أدوات الاستفهام ، "للتعبير عن تجربته الشعرية"(4) حيث قال (5) :

هذه مِصرُ فأين المَغرب ؟ مُذْ نأى عنّي فعَيْني تسْكب

فارقَتْه النّفسُ جهلا إنّما يُعرَف الشّيء إذا ما يَذهَب

(1) عبد المجيد هندي : دراسات في الأدب الجاهلي وصدر الإسلام ، دراسة نقدية لآثار أدبية. القاهرة: مكتبة عين شمس . د.ط / د.ت . ص20 .
(2) المقرّي :نفح الطِّيب ، 375/5 .
(3) مي يوسف خليف : القصيدة الجاهلية في المفضّليات. القاهرة : مكتبة غريب للطباعة . د.ط/ 1989. ص252.
(4) محمد أحمد دقالي: الحنين في الشعر الأندلسي ، القرن السابع هجري . ص456 .
(5) المقرّي : نفح الطيب . 404/2 .

فهو يتساءل عن موطنه الذي فارقه ، وقد أحدث له ألما وإحساسا عميقا بالغربة . ثم يعود ليتساءل عن مدينة إشبيلية التي قضى فيها أيام لذته وسروره ، وُظّ فا الاستفهام الذي كان أداة لاسترجاع الماضي والأيام الحميدة . يقول مواصلا كلامه (1) :

أين حِمص؟ أين لِيّمي بِ ها؟ بَعدها لم ألق شيئاً يُعجِب
كم تقضّى لي بها مِن لذّة حيث للنّهر خَرير مُطرب
أيّ عَيْش قد قطعْناه بِ ها؟ ذِكره مِن كلّ نُعمى أطْيَب

ونجد أبا المُطرّف بن عميرة أيضاً يتساءل عن الزمن الجميل الذي قضاه في جزيرة شقر، وكيف تغيّر بعد فراق أهله ووطنه . ثمّ يكرّر الاستفهام عن طبيعة بلاده متحسراً على فراقها ، فقال (2) :

تغيّر ذاك العَهدُ بَعدي و أهله ومَن ذا على الأيّام لا يتغيّر؟
...وكيف انتِفاعي بالحياة وغضّها هَشيم و صافي مائِها مُتكرّر؟
... هل النّهر عِقد للجزيرة مثلما عهدْنا؟ وهل حصباؤه وهْيَ جوهر؟
و هل للصبا ذيل عليه تجرّه فَيَزْوَرُّ عنه مَوجه المُتكسّر؟
وتلك مَغاني هل عليها طلاوة؟ بِمَا رَاق مِنها أو بِمَا رقّ تسْحرُ

فهنا نراه يُكثر من الاستفهام ويكثّف منه ، وهذا يدل على مدى ارتباطه بوطنه، وحنينه إلى ربوعه.أمّا أبو البقاء الرّندي فنجده مكثراً في نونيّته من الاستفهام الدّال على الحسرة التي اعتصرت قلبه نتيجة لما أصاب مدن الأندلس من الضياع والسقوط المخيف حيث قال (3) :

فاسْأل بلنسِيَة ما شَأن مُرسِية؟ وأيْن شَاطِبَة أم أيْن جَيّان؟
وأين قُرْطُبة دارُ العُلوم؟ فَكَم مِنْ عالِم قد سمَا فيها له شَان
وأين حِمْص وما تَحْويه مِن نُزه؟ ونهْرها العذْب فيّاض وملآن

---

(1) م.س . ص.ن .
(2) م.ن . 380/5 .
(3) م.ن . 374/5 .

إنّ الملاحظ على أساليب الاستفهام المتنوعة التي استعملها الشعراء ، أنّها تلامس في كثير من الأحيان السؤال عن الماضي الجميل ، والحاضر الحزين .

ب- أسلوب النداء :

كان للنداء أيضاً حضور في هذا الاتجاه ، وقد تعدّدت ألوانه وأشكاله ، ولكن الغالب عليه هو نداء غير العاقل ؛ كالمساجد ، والدور، والمدن ، إلى غير ذلك ممّا جاء الكثير منه في رثاء المدن ، أو محاسن بلاد الأندلس . ومن أمثلة ذلك نذكر مايلي :

- نادى الرّصافي البلنسي دارَ أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي في رائيته قائلاً(1) :

يـا دارُ دارَ أميـر المُؤمِنيـن بِ سَــ ـقْحِ الطوّد، طَود الهُدى بُوركْتِ في الدُّور

وكان توظيفه له نتيجة لانبهاره بتلك الدار وثنائه عليها ، لأنها من صنع الأمير، وثناؤه عليها من ثنائه عليه .

والأمر نفسه في قصيدة ابن أبي خالد الكاتب ، التي هنّأ فيها الخليفة بفتح ميورقة، واستعمل النداء متعجباً من تلك السفن الحربية وهي تشق عباب البحر، حيث قال (2) :

ويا للجواري المنشآت وحُسْنها طَوائر بيْن الماء والجوّ عُوّما

-وظّفه بعض الشعراء لِلَفت الانتباه إلى المصائب التي حلتّ بالمسلمين ، كقول أبي موسى هارون بن هارون (3) :

يا سائِلي عن مُصَاب المُسلِمين بها أصخلتسمع أمراً يُورث الصّمما

وكقول ابن الأبار في سينيّته (4) :

يا للجَزيرَةِ أضْحَى أهْلُها جزرا لِلحادِثات و أمْسَى جدّها تعِسا

يا للمَساجِد عادَتْلِلِعِا بِ يَعا و لِلنّداء غَدا أثنَاءَها جَـرَسا

---

(1) الديوان . ص88 .
(2) البلفيقي : المقتضب . ص 173.
(3) ابن عذارى المراكشي : البيان المُغرب . ص381 .
(4) الديوان . ص 408 .

- استعمل أسلوب النّداء للتقريع وشحذ الهمم في ميمية هارون بن هارون ، عندما تقاعس أهل وادي الحِمى الذين كانوا وراء البحار، عن نجدة بلاد الأندلس فقال(1) :

يا أهْلَ وادِي الحِمَى بالعُدوَة انتَعِشوا   هذا الدِّماء فقد أشْفى به سَقما

- وخرج النداء في بعض استعمالاته إلى التهكم و السخرية ، كما فعل أبوالبقاء الرّندي في نونيته ، عندما نادى أولئك الذين يملكون الجياد و السيوف ووسائل الحرب وهم في هناء ودعة ، و الأندلسيون يستغيثون بهم ، و لكن لا حياة لمن ينادون . كل ذلك بأسلوب تهكمي حيث قال (2) :

يا راكبين عِتاق الخَيل ضامِرة   كأنّها في مجال السّبق عقبان

ج- الدّعاء :

من خلال النماذج التي وقفنا عندها في الفصل الثاني ، لاحظنا بأن صيغ الدعاء حاضرة في قصائد الفتوحات ومدح الفاتحين ؛ إذ نجد بعض الأدعية لأولئك الفاتحين بصيغ مختلفة . فهذا ابن سيد اللص ، ينهي لاميته التي أنشدها بجبل الفتح بالدعاء للخليفة بطول البقاء و الخلد قائلا (3) :

و اللهُ يخلد مولانا وسيّدنا   حتى يبلّغ فيكُم غايةَ الأمل

ونجد أبا الوليد الشّواش الشّبلي في بائيته ، يختمها بدعاء ضمني للخليفة بالعيش السعيد ، و الهناء ، و الوقاية من الخطوب في قوله (4) :

عِش يا أميرَ المُؤمنين بغِبطة   ووَقاك سعدُك كلّ خَطب نائب

واهْنَأ بِبشرى طالعَتك سعودُها   تجْلو ظلام حَنادِس وغياهِب

---

(1) م.س . ص 382 .
(2) المقّري : نفح الطيب . 373/5 .
(3) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة . ص101 .
(4) م.ن . ص 144 .

وكذلك أبو عمر بن حربون ، يدعو لأمير المؤمنين بدوام التأييد و النصر على أعدائه حيث قال (1) :

فدُمتَ أمير المؤمنين مُؤيّدا على كلّ مَن عاداك بالقِسط قائما

لقد كانت صيغ الدّعاء الموجّهة للحكام من صميم الاتجاه الوطني ، لأنّ أولئك الشعراء رأوا فيهم حماة الوطن ، فدعوا الله لهم بالتأييد ، وطول البقاء ، وكل ما من شأنه أن يقوي من عزيمتهم ، ويبقيهم حصنا لوطنهم وشعبهم .

د- التّكرار:

لا نقصد به التكرار اللفظي ، وإنما تكرار الأسلوب . ويكفي للتدليل على وروده الوقوف عند قصائد أبي المطرف بن عميرة الذي كرر أسلوب التمني في أكثر من موضع بعبارة : "ألا ليت شعري".

يقول في رائيته مستعملا التكرار للدلالة على حيرته وشدة شوقه إلى مدينته بلنسية (2) :

ألا ليْت شِعري و الأمانيّ ضلـّة وقَوْلي ألا يا ليت شعري تحيّر

وفي داليته التي يذكر فيها مُصاب بلنسية ، فيتمنى أن يعود إليها السّعد بعد أن حل بها الرّزء قائلا (3):

ألا ليْتَ شِعري هل لَها مِنْ مطالع معَاد إلَى ما كان فِيها مِن السَّعْد

وجاء التكرار أيضا عند أحمد الوقشى في أبيات محملة باللهفة و الحسرة والأسف في قوله(4):

ويا لَهفـَنفْسي مِن مَعاصِم طِفلة تـجَاور بالقدّ الأليـم نُهودا

ويَـا أسَــفا مـا إنْ يـزال مـردّدا على شمْل أعياد أعيد بَديدا

وفي الأخير نورد كلاما رائعا لمصطفى صادق الرافعي ، أجملَ فيه ما فصلناه

---

(1) م.ن ، ص 301 .

(2) المقّري : نفح الطيب ، 380/5 .

(3) ابن سعيد :اختصار القدح المُعلّى في التاريخ المُحلّى ، تحقيق: إبراهيم الأبياري ، مصر : دار الكتاب المصري ، د.ط / 1980 ، ص 48

(4) م.س ، 5/ 364 .

حيث يقول(1) :"... ومن هذا القبيل يمتاز شعر فحول الأندلس بتجسيم الخيال النحيف ، وإحاطته بالمعاني المبتكرة التي توحي بها الحضارة و التصرف في أرق فنون القول ، واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة وإبداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقيع الموسيقي ، بل هي تُحمَل على التلحين بما فيها من الرّقة و الرنين ، ولا يشاركهم في ذلك إلا من ينزع هذا المنزع ، ويتكلف ذلك الأسلوب ، لأن جزالة اللفظ في شعرهم ، إنما هي روعة موقعه، وحلاوة ارتباطه بسائر أجزاء الجملة، وتلك فلسفة الجزالة " .

ثالثا - الصّورة الشِّعريّة :

إن جمالية الشعر لا تكتمل إلا إذا احتوى على صورة فنية بديعة ، تعطي إشراقة للمعنى الذي يريده الشاعر . وقلّما نجد قصيدة تخلو من صورة فنية على الأقل .

فالجاحظ مثلا يصف الشعر بأنه " صناعة وجنس من التصوير" (2) .

ويشبه الجرجاني الشاعر وهو ينسج صُورَه بالنحات (3).

ولم يكن الاهتمام بالصورة مقصورا على القدماء ، بل إن المحدثين لهم أيضا رأي فيها ، فهذا زكي مبارك يُبيّن فضل الصورة الشعرية قائلا (4) : "وفضل الصورة الشعرية هو تمكين المعني في نفس القارئ و السامع".

ومفهوم الصورة لم يعد موقوفا على الجانب البلاغي كالتشبيه و الاستعارة والكناية ، وهو ما كان متداولا عند بعض القدماء (5) ، بل تعدى ذلك ليشمل صورا مختلفة حسبما يرسمه الشاعر في قصيدته .

([1]) تاريخ آداب العرب ، بيروت : دار الكتاب العربي ، ط 6/ 2001 ، ص 296 .
([2]) كتاب الحيوان ، 3/ 132 .
([3]) ينظر : أسرار البلاغة ، تصحيح : محمد رشيد رضا ، القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده ، ط6/ 1959 ، ص 275 .
([4]) الموازنة بين الشعراء ، بيروت : دار الجيل ، ط2 / د.ت ، ص 67 .
([5]) ينظر : عبد الحميد الهرّامة : القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثامن الهجري ، 2/ 359 .

و لقد حفل شعر الاتجاه الوطني بكثير من الصّور التي جعلته لوحة رائعة ، سطّر عليها الشاعر أجمل رسوماته . لذلك فإن للصورة في هذا الاتجاه عدة أنواع نذكر منها :

أ- الصورة المباشرة :

وهي التي ينقل فيها الشاعر مشهدا من مشاهد الحياة نقلا مباشرا ، دون الاستعانة بالصور البيانية ، ويسمّيها بعضهم بالصورة اللغوية المجردة ، أو الصورة النظمية (1) . كما دعوها بالصورة الموسّعة ، وبالتصوير الحقيقي (2).

وكان استعمال هذه الصورة بشكل لافت للانتباه في شعر رثاء المدن والاستصراخ ؛ إذ نجد بعض الشعراء ينقل لنا بعض الصور الموجودة في تلك المدن التي سقطت في أيدي الإسبان، وقد يختصرها الشاعر في بيت أو بيتين أو أكثر من ذلك.

فلنتأمل هذه الصورة التي رسمها لنا أحمد بن عبد الرحمن الوقشي في داليته إذ يقول (3) :

ويُقْتلكَ مِن أيدِي الطّغاة نَواعما	تبدّلن مِنْ نظم الحجُول قُيودا
وأقبلن في خشْن المسُوح وطالما	سَحبن مِن الوَشْي الرّقيق بُرودا
فحُقّ لدمعي أن يفِيض لِأزرَق	تملّكها دعْج المَدامع سُودا
ويا لَهفَ نفسي مِنْ معاصِم طِفلَة	تجاور بالقدّ الأليم نُهودا

لقد كثر في هذه القصائد وصف صورة المرأة الأندلسية المضطهدة التي غدر بها الزمان، فبعد أن كانت مصونة في خدرها ، عفيفة طاهرة ، تلبس ناعم الثياب وأجمله ، صارت تمشي في ثياب خشن ، مقيدة يديها بالأغلال وقد كانت تحيط بها الأساور . ولم تكن هذه الصورة وليد هذا العصر ، وإنما وجدت أيضا في زمن ملوك الطوائف .

---

(1) ينظر :عزوز زرقان : شعر الاستصراخ في الأندلس ، ص 252 .
(2) م.س ، 385/2 .
(3) المقّري : نفخ الطيب ، 364/5 .

وتأتي الصورة المباشرة مكثفة ومتجمعة في أبيات قليلة ، لكنها ذات معنى عميق، مستوحى من عمق المأساة و الألم ؛ فالصورة التي رسمها لنا هارون بن هارون تكشف عن نفسها ، وهي أوضح في المعالم من التي سبقت ، يقول فيها (1):

فكَم أسُارى غدتْ في القيد مُوثقَة   تشــكو مِن الذّل أقداما لـها حطَـما
وكَمْ صريعٍ رضيع ظلّ مُختَطَـفا   عن أمّـه فـهْوَ بالأمــواج قد قُـطِما
يدعـو الولــيدُ لَباه وهْوَ في شُغل   عن الجواب بِ دمـع سال وانْسَـجَما
فـكَمْ تَـرى وَالِهاً فيــهم ووالِــهة   لا يرجع الطّ رف إنْ حاورته الكلما

ونجد مثلها في قصيدة أبي البقاء الرّندى ، الذي يضع أمامنا صورة المستضعفين وحال الأعزاء الذين صاروا إلى مذلة وهوان حيث يقول (2) :

كَمْ يستغِيثُ بنا المُستضعَفون وهُم   قتلَى وأسْرى فما يهـتـزّ إنسَان
يا مَن لِـذلّـة قَـوم بعـد عِـزّهـــمُ   أحـــال حالَـهم كُفر وطُ غـيَـان
فلَـو تراهُم حَيـارى لا دليل لهُـم   علـيهـمُ مِـن ثـياب الـذّل ألـوان
ولـو رأيتَ بُكاهـم عـند بَـيعهـمُ   لَهَالَك الأمـرُ واستَهْوتك أحزانُ

نحن أمام مشهد نكاد نراه بالعين المجردة ، إذ الشاعر مِثل رجل يحمل آلة تصوير، ويصوّر المشهد كما هو في الواقع مباشرة ، أو فنان يرسم لنا لوحة من الطبيعة المرئية ، لا المتخيَّلة ، دون أن يتدخل في مكوناتها بتغيير لقطة ، أو إضافة ، أو نقصان ، أو تخييل . ونلاحظ أن الشاعر لم يستعن بالصوّر البيانية لتزيين لوحته ، بل اكتفى بنقل الحقيقة كما هي ، وهذا أمر سار عليه كثير من شعراء رثاء المدن والاستصراخ . وأرى أن السبب في ذلك هو محاولة إقناع المتلقي والتأثير فيه (3) ، إذ لو أن الشاعر استعمل صور البيان فلربما يبقى ذهن القارئ مركزاً فيها وفي جمالياتها،

([1]) ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب ، ص 381 .
([2]) م.س . 5 / 374 .
(3) يقول جابر عصفور: " تتمثل أهمية الصّورة الفنية في الطريقة التي تفرض بها علينا نوعا من الانتباه للمعنى الذي تعرضه ، وفي الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به. إنها لا تشغل الانتباه بذاتها، إلا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه". (الصّورة الفنّية في التّراث النّقدي والبلاغي، مصر: دار المعارف، ط1992/3 ، ص363) .

وينسى الرسالة التي عليه أن يدركها من وراء القصيدة ، وهي انفعاله لما جاء في تلك المشاهد وتحريك عواطفه ووجدانه .

وقد استعمل الشاعران في نصيْهما (كم) الخبرية التي تفيد الكثرة ، فتارة جاء بعدها اسم لتعظيمه وشد الانتباه إليه مثل (أسارى ، صريع) ، وتارة أخرى تلاها فعل مضارع مثل (ترى ، يستغيث) للدلالة "على اتساع متجدد لنغمة الاستصراخ الحزينة"(1) .

أمّا ما اختُصِر من تلك الصورة في البيت الواحد فجاء في قول ابن الأبّار(2) :

أسرٌ وقسْر لا قرار عليهما   وتغرُّب عن أسرتي ومكاني

ففي هذا البيت أغنى التلميح عن التصريح ، والإيجاز عن الإكثار، واختصر الشاعر كل معاناته في الأسر والقسر والتغرب عن الأوطان ، وهذه الصفات تحمل دلالات انفعالية اختصرت جميعها في هذا البيت الواحد .

ب- صورة الحركة :

هذا النوع من الصور نجده في الأشعار التي تحدثت عن الطبيعة ، فلمّا كان الشاعر الأندلسي شغوفاً ببيئته الأندلس و محباً لها، وقف أمامها طويلاً متأملاً في جمالها ومحاسنها ، وحاول أن ينقل لنا تلك الصّوَر التي أعجبته بشيء من البراعة في الوصف ؛ فحرّك ما هو ساكن، وأنطق ما هو أبكم ، وبثّ الحياة في الجمادات ، حتى غدت هذه الطبيعة كائناً حياً يعتورُه ما يعتورُ الإنسان ، من رقص وغناء واهتزاز وطرب وتصفيق...

فهذا ابن هِدْ ر المريّني يصف لنا مشهداً طبيعياً ممّا استهوته نفسه ، واستطابه قلبه من اللذة والنعمة ، فحصل له بذلك السرور والفرح . يقول في قصيدته (3) :

فــي أرض أنــدلــس تُــلــتَــذّ نَــعْــمــاء   ولا يُـفـارق فـيـهـا القَلْب سـرّاء

... قد مُيِّزتْ مِن جِهاتِ الأرض حِين بدَتْ   فَـريـدةً وتـولّـى مَـيْـزها المَـاء

(1) عزوز زرقان : شعر الاستصراخ في الأندلس ، ص253 .
(2) الديوان ، ص348 .
(3)المقّري : نفح الطيب ، 174/1.

دَارتْ علَـيـها نِطــاقاً أبـحـرٌ خَفقـتْ وجْـداً بها إذ تبَـدّت وهْـيَ حَسنَـاء
لِذاكَ يَـبْسِم فِـيها الزّهـرُ مِن طَـرب والطّـيـر يشْـدُو ولِلأغصان إصْغاء

وعندما تكون الصورة متراكمة ومنتظمة ، فإن قارئ القصيدة يهتز لها تأثراً واستجابة، وقد يقف مذهولاً ومعجباً بالمشاهد التي يصفها الشاعر، إذ إنّ "الصّورة الشّعرية هي أثر الشاعر المفلق الذي يصف المرئيات وصفاً يجعل قارئ شعره، ما يدري أيقرأ قصيدة مسطورة، أم يشاهد منظراً من مناظر الوجود"(1) . وينطبق هذا القول على قصيدة ابن سهل الإشبيلي ، التي عارض بها رائية ابن عمار ، حيث يقول(2) :

الأرضُ قد لبِستْ رداءً أخْضرا والطّلّ يَـنـثُـر في رُباها جَـوهـراً
هاجَتْ فَخِلتُ الزّهرَ كافوراً بها و حسِبتُ فيها التُّربَ مِسكاً أذفرا
و كـأنّ سوسَـنَهـا يُصافِح وَردَها ثـغْـر يُـقبّل منه خـداً أحـمـرا
و النّهـر ما بـيْن الرِّياض تَخالُـه سَيفـاً تعلّق فـي نِـجـاد أخُـضرا
وجَرتْ بِه صقْحَته الصَّبا فحسِبتُها كفّاً تُنمِّق في الصّحيفة أسطُراً
وكأنّـه إذْ لاحَ نـاصـع فِـضّـة جعَلتْـهُ كفُّ الشّمس تِبْراً أصفرا
أو كالخُـدود بـدتْ لـنـا مُبْيَضّةً فارْتـدّ بالخَجل البياضُ مُعَصفراً
والطّـيـرُ قد قامتْ عليه خطيبـةً لَمْ تـتّخذْ إلاّ الأراكـة مِنـبَرا

إنها طبيعة تموج بكل المشاهد المُبهجة ، والتي شكلت حركة متناغمة . لقد استطاع ابن سهل الإشبيلي من خلالها في هذه المقطوعة ، أن يجعل الأرض تلبس ، والطلّ ينثر، والسّوسن يصافح وُيقبّل ، وريح الصَّبا تكتب، والطّير تخطب . فكل هذه الأفعال فيها حركة لا تكون في الأصل إلا للإنسان ، وهو ما يسمى بالتشخيص(3) .

(1) زكي مبارك : الموازنة بين الشّعراء ، ص63.
(2) الديوان ، ص163.
(3) يعرّفه سيّد قطب بقوله : "يتمثّل في خلع الحياة على المادة الجامدة ، والظواهر الطبيعيّة، والانفعالات الوجدانية، هذه الحياة التي ترتقي فتصبح حياة إنسانية ، تشمل المواد والظواهر والانفعالات ، وتهبُ لهذه الأشياء كلها عواطف آدمية وخلجات إنسانية". (التصوير الفنّي في القرآن ، القاهرة، بيروت : دار الشروق، د.ط/ د.ت ، ص63).

وقد ساعده في ذلك كونه نظمها في مقطوعة إذ هي "أكثر مناسبة لتأليف الصورة من القصيدة الطويلة"(1) .

بالإضافة إلى أن المكان أو البيئة ، هي الأرضية الرّحبة التي يستند إليها الشاعر في رسم لوحاته الفنية "جاعلاً من الصّورة الشكل الخارجي المعبّر عن حالته النفسية وعن تفاعله الداخلي . وهي الضوء الكاشف عن روحه الشفافة الرقيقة"(2) . والأمثلة في هذا الباب كثيرة لا يمكن إحصاؤها ، ولم يخلُ منها أي عصر من عصور الأندلس .

يُضاف إلى ما ذكرنا سابقا ، أنّ الشاعر الأندلسي انصاعت له اللغة بألفاظها وتراكيبها ، واستطاع أن يرسم من خلالها هذه اللوحة المزينة بأبهى حلة ، لأنّ "الألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التي يصوغ منها ذلك الشكل الفني ، أو يرسم بها صورة شعرية"(3).

ج - الصّورة البيانيّة :

من المعروف أنّه عندما تُذكر الصورة الشعرية ، يُلتفَت إلى ألوان البيان مباشرة، لأن الصورة فيها أوضح . وهي صورة غير مباشرة ، تمييزاً لها عن المباشرة المذكورة سالفا . وألوان البيان معروفة لا يخل منها ديوان شعر، ولا سيما عند الأندلسيين ، فإنّهم تقصّوا كل مكونات الطبيعة ، وبرعوا في وصفها وصفاً دقيقاً ، فجاؤوا بتشبيهات ، واستعارات ، وكنايات تفوق جمالاً تلك التي بالمشرق .بل إن كثيراً من المشارقة اعترفوا للأندلسيين بهذا الفضل ، وفيما يلي وقفة مختصرة عند كل صورة .

---

(1) محمّد مُحيِي الدّين : الشّعر الأندلسي في عصر المُوحّدين ، أطروحة دكتوراه ، جامعة تلمسان، 1998/1997. ص480 .
(2) محمد عبيد صالح السّبهاني : المكان في الشّعر الأندلسيّ من الفتح حتى سقوط الخلافة ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ط$_1$/ 2007 ، ص172.
(3)عبد القادر القطّ : الاتجاه الو جداني في الشّعر العربيّ المعاصر، بيروت : دار النهضة العربية ، ط$_3$/ د.ت ، ص391.

1- الصّورة التّشبيهيّة :

إنّ التشبيه هو أكثر ألوان البيان الذي ظهر في قصائد الاتجاه الوطني في عصر المُوحّدين، و بمختلف أنواعه المعروفة . والصّورة التشبيهية هي "تعامل مع الواقع المحسوس بأبعاده ، ومع الجوانب التجريدية الفكرية ، ومع أعماق الإحساس النفسي الداخلي . وهي تتوزّع بحسب المواقف الانفعالية ، وليست هناك نقطة محورية ثابتة للمحسوس أو المجرد النفسي ، بل يملي اتخاذ هذا أو ذاك منطلق السياق ، وتجربة الفنان المعبَّر عنها"(1).

ولتوضيح هذا الأمر، يقول ابن الأبار(2) :

إلى أوطانِـه حــنَّ العَمـيــدُ فظـلّ كأنّــه غُصن يَمـيـدُ
ومسْقَط رأسِه ذَكَو اشتياقاً فذاب فـؤادُه و هْو الحَديـدُ

فالواقع المحسوس هو الحالة التي كان يعيشها ابن الأبار وهو بعيد عن وطنه ، حيث الانتقال من مكان إلى آخر، ونفسه لا تستقر على حال ، وقد سبب له عمق الإحساس النفسي الداخلي الذي هو كثرة الحنين ، فشبّه حالتَه هذه بالغصن الذي تحركه الرياح وتقذفه من جهة إلى أخرى .

وهناك بعض الصور التشبيهية التي لم تفقد قدرتها على التعبير والإيحاء الذي كان منبعه نفسية الشاعر ووجدانه ، وحافظت على الطاقة الحيوية الكامنة ، وعلى الترابط التام بين أجزائها. ونجد هذا في قول أبي البقاء الرندي (3) :

وطِفلة مِثل حُسن الشّمس إذْ طلعت كأنّمـا هِـي يَـاقوت ومَرجـان

يعلق عزوز زرقان على هذه الصورة التشبيهية قائلاً (4) : "وكأنّي بالشاعر يُحدث هذا التشبيه لاشعورياً ، لعامل نفسي أكثر منه شكلي ، فلا نعتقد أنّ الغرض هنا هو فقط إحداث علاقة بين المشبه والمشبه به ، بل إن هذا الجمع بين طرفي الصورة

---

(1) فايز الدّاية : جماليات الأسلوب ، لصّورة الفنّية في الأدب العربي ، دمشق : دار الفكر. ط$_2$/ 1996 ، ص72.
(2) الديوان . ص187.
(3)المقّري : نفح الطيب ، 375/5 .
(4) شعر الاستصراخ في الأندلس ، ص259 .

يعكس لنا المكانة المقدسة التي تحتلها عناصر الصورة في وُجدان الشاعر، والتشبيه أتى لتأكيد ذلك الشعور".

وفي القصيدة نفسها يقول الرندي (1) :

يا رُب أ ُمّ وطِفل حِيل بينهما   كما تُفـرّق أرْوَاح وأبْـدانُ

هنا الصورة التشبيهية أجمل وأبلغ ، إذ لم يذكر لنا صراخ الطفل وهو يُؤخذ من أمه ، ولا حتى صياح أمه ، ولكنّه أتى بصورة أخرى لحالة إنسان تنزع منه روحه وتفرق عن بدنه وهو يتألم ويصيح .

ومن الشعراء من يكرر الصورة التشبيهية ويُكثفها ، مما يدل على عمق تجربته، كما هو عند ابن سعيد في قصيدته التي حنّ فيها إلى إشبيلية ، حيث استرجع أيام لهوه ومرحه في صباه مع محبوبه . وجاءت تلك الصور عنده متعاقبة ، حيث شبّه المحبوب بالظبي ، والشمس ، والنَّقا ، والغصن ، والشهاب ، والبدر، وذُكاء(2) . يقول ابن سعيد(3) :

لولا تشوّق أرْض حِمص ما جرَى   دمْعي ولا شمَتَتْ بيَ الأعْداءُ

... مَـع كُـلّ مَـبـذول الـوصـال مُـمـنـّع   من غَـيرنا تَسمـو به الخُـيَـلاء

كالظ ّبْي كالشّمس المُنيـرةِ كالنّقَا   كالغُصن يُثْنـي معطفيه رُخاء

يسـعَى براح كالشّهـاب بِ راحَـة   كالبدر، والوجهِ المُنيـر ذُكـاء

وتبقى الصورة التشبيهية ، الأرضية التي "يتحرك العقل فيها إلى عقد مقارنات بين أشياء متماثلة يجمع بينها تماثل كامن في النفس والشعور"(4).

2- الصّورة الاستعاريّة :

إنّ الشاعر لا يستدع الصورة الاستعارية إلا ّ لإضفاء الجمال على المستعار له ، ولتحقيق ذلك " لابد له من تذوق لغوي ومعايشة للمجالات الدلالية ورموزها في كل

---

(1) م.س ، 374/5 .
(2) ذُكاء بضم الذال: اسم الشمس ، ابن منظور : لسان العرب ، 51/5.
(3) م.س ، 181/2.
(4) عبد القادر الرباعي :الصّورة الفنّية في شعر أبي تمام ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط2/ 1999، ص203 .

جانب من جوانب الحياة المادية والفكرية والنفسية ، ذلك أن إضاءة الكلمة المستعارة وإشعاع دلالتها لا ينكشفان إلا لمن يعرف ويحس بأنها ليست من هذا المحيط الذي حلّت به ، وعند إدراك هذه الحالة الدلالية يتحقق عنصر المفاجأة والمباغتة مما يكسر الألفة والتتابع العادي لسلسلة الدلالات في السياق ، ويتولد إحساس غريب، أو لنَقُل إنَّه يتميز بجدَّة توقظ النفس وتحرك أعماقها لتتفاعل مع طبيعة التجربة الشعورية"(1) .

هنا نرى أنّ الكاتب ربط الاستعارة بالدلالة التي تنتج عنها ، للوصول إلى تحريك النفس والوجدان .

الاستعارة ← الدلالة ← تحريك النفس

ويثني ابن رشيق على الاستعارة في قوله (2) : " الاستعارة أفضل المجاز، وأول أبواب البديع(3) ، وليس في حلي الشعر أعجب منها . وهي من محاسن الكلام إذا وقعت موقعها، ونزلت موضعها".

ومن أوضح الصّور الاستعارية وأشهرها في الاتجاه الوطني ، هو ما جاء في همزية ابن الأبار، حين صوّر الأندلس رجلاً يستصرخ فقال(4):

نـادَتـك أنْــدلـسٌ فَلَـبِّ نِــداءَهــا   واجْعَل طَـواغيتَ الصّليبِ فِداءَها

صَرَخَتْ بِدعْوَتِك العليّـة فاحبُهـا   مِـن عاطفاتِك مـا يقي حَـوباءها

واشدُدْ بِجلبك جُـرد خَيلك أزْرهـا   تَــرْدُدْ علـى أعقابِـهـا أرزَاءهـا

... رشْ أيّها المَولى الرّحيم جناحـها   واعْقِد بِ أرشِيَـة النّجاة رشاءَهـا

أشفَى على طَـرَف الحياة ذِماؤهـا   فـاستَبـقِ لِلـدّيـن الحنيف دِماءهـا

حاشاك أنْ تفنَى حشاشتُهَـا و قـد   قـصَرتْ عليك نِـداءها ورَجـاءها

(1) فايز الدّاية : جماليات الأسلوب ، ص120.
(2) العمدة ، 222/1.
(3) يبدو أن ابن رشيق ذهب مع رأي ابن المعتز في كتابه" البديع" الذي ضمنه ألوان البيان أيضاً، والدليل على ذلك هو عندما قال " وهي من محاسن الكلام ". إذ وضعها ابن المعتز قبله في الباب الأول المسمى محاسن الكلام من كتابه "البديع " . (ابن المعتز : كتاب البديع ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس : إغناطيوس كراتشقوفسكي ، بيروت : دار المسيرة ، ط3 / 1982 ، ص 3).
(4) الديوان . ص35 .

نلمح في هذا النص مجموعة من الاستعارات ، حيث صور الشاعرُ الأندلسَ على شكل إنسان يستصرخُ ويُنادي ، ولها جناح وحشاشة ، وهذه كلها من خصائص الإنسان .

وانطلاقاً من أن الاستعارة هي "أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه"(1) ، فإن الشاعر لجأ إليها (أي الاستعارة) ، لكي يؤثر في نفسية أبي زكرياء فيهبّ إلى إنجادها ، لأنّ التصريح قد لا يؤدي مفعوله، وقد قلنا سابقاً بأن الاستعارة لها علاقة مع النفس . ثم إنّ هذه الاستعارات أعطت الشاعر "قدرة فائقة للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وكذا أحاسيس الأندلسيين"(2) ، ومثل هذه الصورة الاستعارية تتميز بما يسمى عنصر التشخيص .

ومثلها ورد عند حازم القرطاجني في مقصورته حين صوّر محنة الأندلس ، مشخّصاً الجماد ومضفياً عليه من خواص الإنسان ، ومردُّ ذلك أن الشاعر تفاعل مع الحادثة وأثّرت في نفسه تأثيراً بليغا ، مُظهراً حالة الحزن التي ملأت قلبه تجاه وطنه الأندلس ، يقول حازم (3) :

فقَد بَكتْ أنهارُها بمَدمَع هام مِن الوَجد، لِهَام ما ارْتَوى
فالنّهر الأبيض يبكِي شَجْوه بِ كل دمْع مُستفِيض مَارقا
وقدْ بكى النّهر الكبير صِنْوه إذْ لم يُطقْ يروي صَدى هام زقا
وكاد شُقر أنْ يَغيض عِندَما غِيظ بعيث الشّقر في كُلّ عرى
وأنَّ وادي أنَّةٍ في غَوبِه وغربُه ملآن مِن دمع جرى
ووادِيا الثّغر المُنيف تَاجه وإبْره كِلاهُما قَد اشْتَكى

وقد استعمل بعض الشعراء لفظ "العلج"بديلاً استعارياً للنصارى ، وأشاروا به إلى معاني كثيرة كالغلظة والشّدة والفظاظة والظلم ، وكلها اجتمعت في النصارى

(1) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 67 .
(2) عزوز زرقان : شعر الاستصراخ في الأندلس ، ص267.
(3) المقصورة ، ص104 – 105.

المعتدين ، الذين عاملوا المسلمين بوحشية . فهذا اللفظ عندما يَرد في أشعار الاتجاه الوطني يحمل كل تلك الدلالات .

ومثال ذلك ما جاء في قول أبي البقاء الرندي(1):

وطِفلة مثل حُسْن الشّمس إذْ طلَعَتْ   كأنّمـا هِـي ياقُــوت ومرْجَـان
يقُودهـا العلْـجُ لِلمكـروهِ مُـكرَهـة   والعَـين باكِـيـة والقَلبُ حَيْـران

ويقول ابن الأبّار (2) :

أمّا العـلوُج فقَد أحَالـوا حَالـها   فَمَن المُطيق عِلاجَها وشِفَاءَها

3- الصّورة الكنائية:

يُعرّف عبد القادر الجرجاني الكناية بقوله (3) : "المراد بالكناية ههنا ، أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ، ويجعله دليلاً عليه" . وأعطى أمثلة كثيرة فسّر بها كلامه .

و من الكنايات التي جاءت في أشعار الاتجاه الوطني ، ما ورد في رائية حازم التي ذكر فيها انتثار السِّلك في الأندلس حيث يقول (4) :

كانتْ نَوائب أدْنى ما جنَته نَوىً   أدْنـى جِـنايَـاتها تَهْـيـيجُ أفْكـار
وعَضُّ ظُـفرٍ بأسنانٍ علَى زَمن   قَدْ عضَّ أو قـرْعُ أسْنانٍ بأظْفار

فقوله (عض ظفر بأسنان) كناية عن الندم على البعد عن الأوطان والأحباب . وقوله (قرع أسنان بأظفار) كناية عن الحيرة .

وفي قول الرّصافي البلنسي في رائيته التي تشوّق فيها إلى وطنه بلنسية (5) :

---

(1)المقّري : نفح الطيب ، 375/5 .
(2) الديوان ، ص36 .
(3) دلائل الإعجاز ، ص 66 .
(4) الديوان ، ص47 .
(5) الديوان ، ص68 .

بِلادي التِي ريشتْ قُوَيدِمَي بِـها   فُرَيْخاً وآوَتني قَرارَتُها وَكْراً

وردت الكناية في قوله : (ريشت قويدمتي بها) ، والمعنى الذي هو تاليه وردفه في الوجود - على حد قول الجرجاني - هو : ولادته وصباه في المدينة .

وفي الأخير نقول ، تظلّ الصّورة الشّعرية مُقوّماً أساسياً في قصائد الاتجاه الوطني . إذ إن "شعراء الأندلس قد اهتموا بها قدر اهتمامهم بالّذات وبالنّحن ، واهتمامهم بالأرض والحياة ، بل تعلقوا بها قدر تعلقهم بأرضهم .فقد وجدوا فيها مجالاً للإبداع والتّفوق ، وليصلوا بها إلى مرحلة تتساوى مع تفوق بلادهم في جمالها على غيرها من البلدان في المشرق وفي المغرب ، ومن هنا فقد كانت الأخيلة والصور الشعرية مجالاً للإبداع الذي عنى به الأندلسيون في أشعارهم ، بحيث نجد فيه الجدّة والطّرافة في آن"(1) . وهذا دليل على عبقريتهم وتفوقهم في اجتلاب الصور التي نمّقوا بها قصائدهم .

رابعاً - الإيقاع :

يُعتَبر الإيقاع دعامة أساسية للشعر، فقد أولى له النقاد القدامى والمحدثون اهتماماً بالغا . فنجد بعضا من النقاد القدامى عند تعريفهم للشعر يتطرقون إلى مسألة الإيقاع بشقيه المعروفين : الوزن والقافية ، أو أحدهما .

فالجاحظ يرى أن من مقومات الشعر "إقامة الوزن"(2) . أمّا قدامة بن جعفر، فيرى ضرورة وجود المعنى عند تعريفه للشعر ، حيث قال بأنه " قول موزون ومقفّى، يدلّ على معنى"(3) .

ويؤكد ابن رشيق على أهمّية الوزن في قوله (4) : " الوزن أعظم أركان حدّ الشعر، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية وجالب لها ضرورة ".

---

(1) عبد الله بن علي بن ثقفان :المقوّمات الفنّية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين . الرياض : مكتبة الملك عبد العزيز العامة ، د.ط/ 2001 ، ص171 – 172.
(2) ينظر : الحيوان ، 131/3- 132.
(3) نقد الشعر ، تحقيق وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ط / د.ت ، ص15.
(4) العمدة ، 115/1.

ونراه في مكان آخر يقارن بين النّظم والنثّر، ويبيّن أهمّية الوزن والقافية في جودة الشعر وحفظه ، مع أننا نلاحظ ميله إلى الشعر . يقول ابن رشيق (1) : " وقد اجتمع الناس على أنّ المنثور في كلامهم أكثر، وأقل جيد محفوظاً ، وأنّ الشعر أقل ، وأكثر جيداً محفوظاً ، لأنّ في أدناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب به جيّد المنثور".

وفي هذا التفضيل ، يُدلي ابن سنان الخفاجي بدلوه ، ويُركّز على الوزن هو أيضاً في قوله(2) : " فالذي يصلح أن يقوله من يفضّل النّظم ، أنّ الوزن يُحسِّن الشّعر ، ويحصل للكلام به من الرونق ما لا يكون للكلام المنثور، ويحدث عليه من الطرب في إمكان التلحين والغناء به ما لا يكون للكلام المنثور".

أمّا المحدثون (عرب وأجانب) ، فقد تحدثوا في هذا الجانب كثيراً . فهذا العقاد يتحدث عن مرونة الوزن العروضي ومدى استغراقه لجميع الأغراض الشعرية فيقول(3) : " إنّ أوزان العروض العربية - على أحكامها وإتقانها - سهلة الأداء ، قابلة للتوسّع والتنويع إلى الغاية المطلوبة في كل موضوع يتناوله الشعراء ".

ونجد شوقي ضيف يربط بين موسيقى الشعر والتذوق الجمالي ، فيرى أنه لابد للشاعر أن يتحسس مواطن الجمال ، ولا تكفي معرفته بقواعد العروض والقوافي فيقول(4) : " وتشترك فنون الشعر والتصوير الموسيقي في شيء آخر، هو أننا لا نحكم عليها بقواعد المنطق ، وإنّما نحكم عليها بأذواقنا ، فهي المعيار الذي نرجع إليه في تذوق جمالها ... وكم من أشخاص يتقنون قواعد العروض والقوافي ، وهم لا يحسنون نظم بيت من الشعر، ولا تميِيز الجودة الفنّية أو الجمال الفنّي بين بيت وبيت ، أو بين قطعة شعرية وقطعة ".

ويرى عزّ الدّين منصور أنّ موسيقى الشعر ليست نشازا عنه ، وإنّما تنبعث من أحاسيس المبدع وأفكاره وعواطفه فقال (5) : إنّموسيقى الشعر ليست شيئاً خارجاً عن

---

(1) م.ن ، 18/1.
(2) سرّ الفصاحة ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1982/1 ، ص 287.
(3) أحمد فوزي الهيب : إيقاع الشّعر العربي من الدائرة إلى الحرف ، دراسة في فلسفة العروض ، حلب : دار الرفاعي ، دار القلم العربي ، ط1/ 2004 ، ص15.
(4) شوقي ضيف : في النقد الأدبي ، القاهرة : دار المعارف ، ط9/ د.ت . ص91.
(5) دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشّعر المعاصر، بيروت: مؤسسة المعارف ، ط1/ 1985، ص13.

الشعر يضاف إليه، بل هي نابعة منه ، تفرضها أحاسيس الشاعر وأفكاره ، وتبرزها عاطفته ، فهي نابعة منها متأصلة فيها ".

أمّا عزالدين إسماعيل ،فيذهب مذهباً بعيداً ، فهو يرى بأن الموسيقى الشعرية ليست مقصورة فقط على الإيقاع الذي يُدرَك بالأذن والأحاسيس الخارجية ، ولكن لابد أن يكون له بُعد نفسي ، ليَنْفذ إلى أعماق المتلقّي ويؤثر فيه ، حيث يقول (1) : " الإيقاع الشعري ينطوي على بُعد إبلاغي أصيل ، فهو - في الوقت نفسه - يشحن معه مجموع الأحاسيس والانفعالات ... إنّ موسيقى الشعر لم تعد مجرد أصوات رنانة تروع الآذان، بل أصبحت توقيعات نفسيّة تنفذ إلى صميم المتلقي لتهزّ أعماقه في هدوء ورونق".

ومن هذا المنطلق سنركز الدراسة على دعامتين للإيقاع الشعري وهما : الأوزان والقوافي.

أ- الأوزان :

إنّ الوزن هو المفرّق بين الشعر والنثر، وهو جزء هام في تشكيل القصيدة ، وتكمن وظيفته في " قدرته على إثارة الانفعال وجعل المادة الإبلاغية تطفو على سطح النص "(2) .

ونظراً لأهمية الوزن في الشعر، فإن هناك من النقاد والدارسين من ربطه بالأغراض الشعرية المعروفة ، وهناك من رفض هذا الربط وهذه العلاقة بينهما .

أمّا الفريق المُثبت ، فنجد على رأسه حازم القرطاجني ، الذي ذكر بأن أغراض الشعر المختلفة يجب أن تحاكى بما يناسبها من الأغراض، مضيفاً إليها الجانب النفسي كعادته . والأصل أنّه اقتبس هذا الرأي من اليونان، منبّهاً أيضاً أن ابن سينا أورده في كثير من كتبه ، ومن بينها كتاب "الشّفاء" . يقول حازم القرطاجني (3) : " ولمّا كانت أغراض الشعر شتى ، وكان منها ما يقصد به الجدّ والرّصانة ، وما يقصد به الهزل والرّشاقة ، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم ، وما يقصد به الصّغار والتّحقير؛ وجب

(1) عز الدين اسماعيل : الشّعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنّية والمعنوية ، ص66 –67 .
(2) سمير أبو حمدان : الإبلاغيّة والبلاغة العربيّة . بيروت : منشورات عويدات الدولية ، د.ط/1991 . ص66 .
(3) منهاج البلغاء . ص266 .

أن تُحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس . فإذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة، وإذا قصد في موضع قصداً هزلياً أو استخفافياً ، وقصد تحقير شيء أو العبث به ، حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء ، وكذلك في كل مقصد . وكانت شعراء اليونانيين تلتزم لكل غرض وزناً يليق به ولا تتعداه فيه إلى غيره ". ودافع عن رأيه هذا في شرح طويل ومسهب.

ونجد ابن طباطبا يفسر عملية بناء القصيدة ، التي يرى أنّها تقوم على أربعة أشياء وهي:

اللفـظ ـــــ المعنى

القافية ـــــ الوزن

يقول ابن طباطبا العلوي (1) : " فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة ، مخّض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثراً ، وأعدّ له ما يلبسه إيّاه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه ، والوزن الذي يسلس له القول عليه ".

ويلتزم الحاتمي القاعدة نفسها ، عندما قرّر أن من جملة شروط إبداع الشعر " أن يتأمل الشاعر الغرض الذي يرسيه فكره ، فينظر في أي الأوزان يكون أحسن استمراراً ، ومع أي القوافي يكون أشد اطراداً(2) ".

ولعلّ عبد الله الطيب أن يكون الأقرب إلى الوضوح في هذا المنحى ، إذ حاول إثبات صحّته ، حين قرّر بأنّ تنوّع الأوزان نفسها منطلِق من تنوع الأغراض تباعاً ، وإلا لأغنى الوزن الواحد لجميع الأغراض . يقول عبد الله الطيب (3) : " ...ومُرادي أن أحاول بقدر المستطاع تبيِ ين أنواع الشّعر التي تناسب البحور المختلفة ... فاختلاف أوزان البحور نفسها ، معناه أنّ أغراضاً مختلفة دعت إلى ذلك ، وإلا فقد كان أغنى بحر واحد ووزن واحد ".

---

(1) عيار الشّعر ، ص07 .
(2) الحاتمي : حلية المحاضرة ، ص93 .
(3) المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الكويت : مطبعة حكومة الكويت ، ط1989/3 ، 93/1.

وغير هذه الآراء كثير، لا أريد أن أعرضها كلها ، فهي تنصب في مجرى واحد. إلا أنّ هناك اتجاه آخر معارض للآراء السابقة ، وأصحابه لم يكونوا من الأقدمين ، وكأنّهم أرادوا فقط نقد ما جاء عند الفريق المُثبِت لعلاقة الأوزان بالأغراض .

ومن تلك الآراء (1) ، ما جاء عند إبراهيم أنيس حين طرح سؤالاً مفاده " هل كان الشعر القديم يتخيّر لشعره من الأوزان ما يلائم عاطفته؟ وهل جاءت هذه الأوزان المختلفة تبعاً لاختلاف الشعور عند الناظمين من القدماء؟ "(2) .

فأجاب عنه نافياً ما جاء عند الفريق الأول بقوله : " إنّ استعراض القصائد القديمة وموضوعاتها لا يكاد يشعرنا بمثل هذا التخير، أو الربط بين موضوع واحد تقريباً ، ونذكر أنّها نظمت من الطويل والبسيط والخفيف والوافر والكامل ، لنعرف أن القدماء لم يتخيّروا وزناً خاصاً لموضوع خاص . بل حتى ما سمَّاه صاحب المُفضّليات بالمراثي ، جاءت من الكامل والطويل والبسيط والسريع والخفيف "(3) .

ولا ندري على أي شيء استند إبراهيم أنيس في حُكمه عندما قال : " ويكفي أن نذكر المعلّقات التي قيلت كلّها في موضوع واحد تقريباً " . مع أنّ المتأمل يلحظ تعدداً لأغراض المعلقات ؛ كالغزل ، والوصف ، والحكمة ، والفخر ... ومع ذلك فهو لم يُقدّم لنا رأياً بديلاً يمكن الأخذ به .

والرّأي الوسط الذي يمكننا ترجيحه والاستناد إليه ، هو ما جاء عند حسين بكار، حيث يرى بأنّ قضية ربط الوزن بالغرض ، ما هي إلا عمليّة استقرائية قام بها أصحاب ذلك الاتجاه ، وليس لها أية قاعدة أو قانون . يقول حسين بكار(4) : " فكل ما يشيع الآن من آراء وأفكار عن صلاحية وزنٍ ما ، لموضوع ما ، ليس أكثر من استنتاجات جاءت بعد دراسة الشّعر واستقراء موضوعاته وأوزانه إلى حد ما، هي إذاً نتائج لا قواعد ولا أسس لها " .

---

(1) ومن الذين نقضوا الرأي الأول عبد الملك مرتاض . ينظر:عبد الملك مرتاض : الأدب الجزائري القديم "دراسة في الجذور" . الجزائر: دار هومه للطباعة والنشر. د.ط/ 2005 . ص206 –207 .

(2) إبراهيم أنيس : موسيقى الشّعر. القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر. ط$_2$/ 1952 . ص 174.

(3) م.ن ، ص175.

(4)بناء القصيدة في النّقد العربي القديم في ضوء النّقد الحديث . بيروت:دار الأندلس،د.ط/د.ت . ص163 - 164.

ويمكن أن نطمئن أيضاً إلى رأي عزّالدين إسماعيل ، حين وقف عند رأي الخليل بن أحمد الذي انصَبّ في الاتجاه الأول وفنّده بالدليل حين قال (1) : " ومعنى هذا أن عملية الاستقراء التي يمكن أن يكون الخليل قد قام بها ناقصة ، على أن منهج الاستقراء نفسه غير صالح لشرح مثل هذه القضية ، وكان الخليل كيما يثبت صحة فكرته ، أن يحلل لنا الأوزان ذاتها في صورتها المجردة وأن يربط بينها في هذه الصورة وبين حالات النفس المختلفة". إذن هو ينطلق من تحليل نفسي، محاولاً ربط الوزن باللحظة النفسية التي يعيشها الشاعر. ثم قال في مكان آخر(2): "ومن ثم تكون لكل قصيدة نغمتها الخاصة التي تتفق وحالة الشاعر النفسية".

وانطلاقاً من هذا ، فإن أهم ما يلاحظه المتتبع لأوزان شعر الاتجاه الوطني على عهد الموحدين مايلي :

- لم يخرج الشعراء عن البحور التي نظم فيها القدماء ، كالطويل ، والكامل ، والبسيط ، والرمل وغيرها ، إلا أنّالنِّسب كانت فيها متفاوتة .

أكثرَ شعراء هذا العصر من النظم - مثل سابقيهم - في البحر الطويل الذي أخذ حظاً وافراً من الشواهد التي اعتمدتها في هذا البحث ، إذ كان عددها إحدى وعشرين شاهداً ، والأصل أنه " ليس بين بحور الشعر ما يضارع البحر الطويل في نسبة شيوعه، فقد جاء ما يقرب من ثلث الشعر القديم من هذا الوزن"(3) .

- تميّزت معظم قصائد هذا البحر بالطول ، حيث كانت أبياتها تربو على الخمسة عشر بيتاً. من ذلك ما قاله الرّصافي البلنسي في رائيته التي تشوق فيها إلى بلنسية ، ومطلعها قوله :

خلِيلِيّما لِلبيد قد عبقتْ نَشْـرا   وما لِرؤوس الرّكب قدْ رُنّحت سُكرا

وقصيدة أبي المُطرّف بن عميرة التي رثى فيها بلنسية وهي طويلة جداً. جاء في مطلعها قوله :

---

(1) عز الدّين إسماعيل :التّفسير النّفسي للأدب ، بيروت : دار العودة ، دار الثقافة ، د.ط / د.ت . ص82 .
(2) م.س . ص79.
(3) إبراهيم أنيس : موسيقى الشعر. ص57 ؛ محمود مصطفى : أهدى سبيل إلى علمي الخليل،العروض والقافية، حققه وقدّم له : عمر فاروق الطباع . بيروت : دار القلم ، د.ط / د.ت . ص51 .

أقلّوا مَلامي، أو فقولوا وأكثِروا   مَلُومَكمُ عمّا به لَيس يقْصر

أمّا ما قيل في شعر الفتوحات ومدح الفاتحين ، فقد استأثر البحر الطويل فيه بنصيب وافر، إذ "العَروض الطوّيل تجد فيه أبداً بهاء وقوّة" (1) ، ولا خلاف في أنّ مدح الفاتحين يمتاز بهذه الصفة .

وهكذا نجد القصائد التي قيلت في محاسن الأندلس والاستنجاد ، أي أن شعراء الاتجاه الوطني استعملوا هذا البحر في كل مواضيع هذا الاتجاه ، وهو دليل على أن بحر الطويل "يتسع لجميع أغراض الشعر"(2) .

ثمّ يأتي بعد ذلك البحر البسيط والكامل في الدرجة الثانية ، حيث تقاربا في نسبة الاستشهادات بنحو سبعة عشر لكل واحد منهما . والأمر مقبول عندما نعلم بأن البحر البسيط "من أشهر بحور الشعرالعربي وأكثرها استعمالاً ، ومن أكثرها استيعاباً للأغراض والمعاني المختلفة" (3) .

والملاحظ أنّهماتساويا أيضاً في عدد الشواهد التي استعملها الشعراء في غرض الحنين ، إذ كان عدد النصوص ستة في كليهما . و تساويا في القصائد التي صبّت في محاسن بلاد الأندلس بنسبة ثلاث قصائد ، واختلفا في الباقي (أي باقي الأغراض) .

فمِمّا جاء على البحر البسيط ، ما قاله أبو القاسم عامر بن هشام القرطبي في نونيته الرائعة في غرض الحنين ، والتي مطلعها :

يا هَبّةً باكرَتْ منْ نحو دَارين   وافتْ إليَّ علَى بُعد تُحيّيني

ومن البحر الكامل ما جاء في قول أبي المطرّف بن عميرة عندما هام في حبّ إشبيلية وفضّلها على كثير من البلدان حيث قال :

يا حِمصُ إنك في البلاد فَريدة   بِ بديع حُسْـن جَلّ عن تحْسين

---

(1) حازم القرطاجني : منهاج البلغاء . ص269 .
(2) محمد علي الهاشمي : العروض الواضح وعلم القافية . بيروت : دار البشائر الإسلامية . ط2/ 1995. ص32.
(3) م.س . ص47 .

وبحر الكامل كذلك "يلائم كل أنواع الشعر، لهذا ركِب متنَه الشعراء السابقون والمتأخرون" (1) .

وعند الاطلاع على بحر الرمل ، وجدنا أن قصائده كلها كانت في غرض الحنين، وبهذا نكون مخالفين لرأي القرطاجني عندما أشار إلى أن بحر الرمل مع المديد أليق بالرثاء (2) . ويرى بعض الدارسين أن هذا الحكم لا يصلح على بعض ما وقفوا عليه من نماذج ، بل رأوا أن حازم نفسه لم يلتزم برأيه هذا في مَراثيه (3) .

والذي نراه ونميل إليه ، هو أنّ الرّمل أليق بشعر الألم والعاطفة الحزينة ، وبذلك نشترك مع حازم في قوله بشكل عام ، ونُدخل فيه ما جاء في شعر الحنين الذي يكون فيه هو أيضاً ذلك الشوق والميل العاطفي تجاه الوطن و يُولّد حُزناً وبكاء من شدة الغربة والترحال .

وقد وقفنا على أربع شواهد في البحر الرمل . من ذلك ما قاله ابن سعيد ، حين أدركته وحشة في مصر فأنشد :

هذه مِصرُ فأيـن المَغربُ مُذ نَأى عنّي فعَـيْني تسْكب

وفي نموذج آخر، جاء فيه الرمل مجزوءاً ، حيث استعمله الشاعر أبو المعالي الإشبيلي حين اشتدت به الغربة ، فبكى بكاءً حاراً ، وكأنّهُ تقطّـَع إلى أجزاء عندما خرج من بلاده فقال :

أنَا فِي الغُربَة أبْكي ما بكتْ عَينُ غَريب

لمْ أكُنْ يومَ خُروجِي مِنْبِلادي بِـ مُصِيب

أمّا بحر الوافر فلم نسجل له حضوراً وافراً ، عدا ثلاث قصائد في أغراض مختلفة . والوافر هو من " أكثر البحور مرونة وألينها وزناً ، وأغناها موسيقية ، يشيع فيه النغم العذب الحنون ، وتنطلق الموسيقى الشّجية المطربة ، وهو صالح لمعظم

(1) م.س ، ص75.
(2) منهاج البلغاء ، ص269 .
(3) ينظر:عبد الله محمّد الزيّات : رثاء المدن في الشّعر الأندلسي ، ص513.

الموضوعات ... نظم عليه الأقدمون والمعاصرون شتى الأغراض والمعاني ، فاحتواها بكل طواعية ومرونة ويُسر " (1) .

وممّا جاء في هذا البحر ، أبيات لأبي الحسن بن حريق قالها في بلنسية :

بَلنسِيـة قَـرارَة كُلّ حُسْـن   حَديثٌ صَحَّ في شَرْق وغَرْب

والأبيات التي قالها ابن الأبار عندما شعر بغربة شديدة وهو بعيد عن وطنه :

إلَى أوْطانِه حَنَّ العَميدُ   فَظَلَّ كأنّه غُصْن يَمِيد

- وظف بعض الشعراء بحر المتقارب للتعبير عن حنينهم إلى أوطانهم . فهذا ابن جبير يحس بالغربة وهو خارج وطنه فقال :

غَريب تَذكّر أوطَـانَه   فهَيَّج بِـالتّذكر أشجَانَه

ولقد كان هذا البحر مناسباً لموضوع الحنين ، إذ يتميز بـ"رنَّة واضحة ونغمة حماسية مطربة محببة " (2) .

- وجدنا بعض الشعراء من نظم في بحر الرّجز على غير العادة ، بالنظر إلى العصور التي سبقت عصر الموحدين . وله في كل غرض من أغراض الاتجاه الوطني نموذج ، عدا رثاء المدن .ويكفي أن ندلّل على ذلك بمقصورة حازم القرطاجني التي ربت على الألف بيت . ومع هذا فإنها حوت على مقطع في رثاء المدن ، صوّر فيه الشاعر سقوط بعض المُدن الأندلسية مثل قوله (3) :

ودمّرتْ تُدمير سحْب فِتنَة   وبارق مِن مطْلع البَغي بَغى

ومحقَتْ قُرطبة كَمِثل مـا   قدْ محقَ البدْر السّرار و مَحا

والظاهر أن بحر الرجز من "أكثر الأبحر تغيّراً في إيقاعاته ، وهذا ما سهّل على الشعراء النظم عليه (4) .

- يرى إبراهيم أنيس أن لحظة الانفعال النفسي ، يكون الشاعر فيها أمْيل إلى

---

(1) ينظر: محمد علي الهاشمي : العروض الواضح وعلم القافية ، ص80.
(2) م.س ، ص39.
(3) حازم القرطاجني : المقصورة ، ص103.
(4) م.س ، ص53.

تخيّر البحور القصيرة ، وإلى التقليل من الأبيات (1) ، وهو ما لم يتحقق في قصائد الاتجاه الوطني في هذا العصر، حيث رأينا العكس تماماً . فمثلاً ، إن أغلب القصائد التي قيلت في رثاء المدن والاستصراخ كان أصحابها يعايشون الحادثة ، وقد جاءت بحور تلك القصائد طويلة ، وكثيرة المقاطع ، مثل رائية أبي المطرّف ، وسينية ابن الأبار وهمزيته ، وميمية هارون بن هارون ، ورائية ابن سهل ، ونونية الرندي .

- يرى بعض الدارسين أن بين الوزن والعاطفة صلة قوية ، فلا يوظف الشعراء إلا الأوزان التي تنسجم مع عواطفهم . في حين يرى آخرون أنّه لا علاقة بينهما ، فالشاعر يتخير من الأوزان ما يشاء ، دون مراعاة لإحساسه . وإنّي أرجّح الرّأي الأول، لأنه لا يُعقل أن ينظم الشاعر في بحر لا يناسب عاطفته ، وذلك لأن " كل انفعال شعري أو قول شعري له إيقاع ووزن يتّسق مع الحالة الشعورية في القصيدة "(2) . يقول محمد زكي العشماوي، معلقاً على نص للشاعر الإنجليزي "كولردج" : " مصدر الوزن عند كولردج هو العاطفة أو الانفعال ، بمعنى أنّ الذي يختار الوزن الشعري انفعال الشاعر نفسه" (3) .

وعليه فإن الشعراء الأندلسيين الذين نظموا في الاتجاه الوطني ، كانوا يستخدمون الأوزان التي تستدعيها عواطفهم وتتطلبها انفعالاتهم . فرائية ابن سهل - مثلاً - تطلبّت بحراً " هو إلى الشّدة أقرب منه إلى الرقة "(4) ، وهو بحر الكامل ، وذلك لأن الشاعر نظمها لكي يستنهض بها هِمم عرب المعقل الذين تقاعسوا عن نصرة الأندلسيين ، فقام بتعنيفهم والشدة عليهم، علّهم ينصرون إخوانهم . يقول فيها :

أين الحَفائِظ مَا لها لمْ تنْبعِث   أينَ العَزائم مَا لها لم تثبَرِي

- ومن الشعراء من ركِب بحر السريع الذي "يتدفق سلاسة وعذوبة ، ويحسن فيه الوصف وتمثيل العواطف "(5) .

---

(1) ينظر: موسيقى الشّعر . ص177.
(2) رجاء عيد: القول الشّعري ، مصر : منشأة المعارف . د.ط/ 1995 . ص64 .
(3)قضايا النّقد الأدبي بين القديم والحديث . بيروت : دار النهضة العربية . د.ط / 1979 . ص227–228.
(4) صفاء خلوصي : فنّ التّقطيع الشّعري والقافية . بغداد: منشورات مكتبة المثنى . ط$_5$/ 1977 . ص95.
(5) سعد بوفلاقة: الشّعر النّسوي الأندلسي، أغراضه وخصائصه الفنّية . بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ط/ 2003 . ص210.

فالقصائد التي جاءت في "الوصف" على هذا البحر ، نجد ما قاله أبو جعفر بن سعيد ، عندما وصف متنزّه "حور مؤمّل" :

عرّجْ على الحور وخيّم به   حَيثُ الأَماني ضَافِيات الجنَاح

أمّا "تمثيل العواطف" ، فنلحظه في قصيدة أبي الحسن بن سعيد التي قالها بإشبيلية، مشتاقاً إلى أيام الصِّبا التي قضاها بواد الطلح . وتبرز في القصيدة عاطفة قوية مشحونة بالحنين إلى ذلك المكان . يقول أبو الحسن بن سعيد :

واذْكُرْ بوادي الطّلح عَهداً لنا   لِله ما أحْلَى وما أطْيَب

ب - القوافي :

لقد أولى الشعراء اهتماماً كبيراً بالقوافي ، وحاولوا تنويعها في دواوينهم حسبما تقتضيه الأغراض المطروقة . فقد تنبّه القدماء(1) إلى الأثر الموسيقي الذي تنتجه القافية ، وإلى ضرورة ربط القوافي بالمعاني .فهذا بِشْر بن المعتمر ينبّه الشاعر وينصحه بقوله (2) : " وإذا أردتَ أن تعمل شعراً فاحضر المعاني التي تريد نظمها فكرك وأخطرها على قلبك ، واطلب لها وزنا يتأتّى فيه إيرادها وقافية يحتملها . فمِن المعاني ما تتمكن من نظمه في قافية ولا تتمكن منه في أخرى ، أو تكون في هذه أقرب طريقاً وأيسر كلفة منه في تلك . ولأن تعلو الكلام فتأخذه من فوق ، فيجيء سلساً سهلاً ذا طلاوة ورونق، خير من أن يعلو فيجيء كزّاً فجاً ومتجعداً جلفاً ".

فلقد قرر بشر بن المعتمر من خلال هذه الوصية ، أنه يجب أن تتفق القافية مع الغرض ، فقد تصلح في قصيدة ولا تصلح في أخرى ، وهو التنبيه نفسه الذي أشار إليه بعض النقاد عندما ربطوا الوزن بالغرض .

كما حاول بعض الدارسين ربط القافية بعاطفة الشاعر، فرأوا أن الشاعر يختار لقوافيه الحروف التي تناسب عواطفه وخوالج نفسه .

---

(1) يشير ابن جني إلى أهمّية القافية في الشّعر بقوله : "ألا ترى أنّ العناية في الشّعر إنّما هي بالقوافي لأنّها المقاطع... وكذلك كلما تطرف الحرف في القافية ازدادوا عناية به ومحافظة على حكمه " . (ينظر : الخصائص ، 84/1 .)

(2) أبو هلال العسكري: كتاب الصّناعتين . ص139.

والمتتبع لقوافي شعر الاتجاه الوطني على عهد الموحدين يستنتج ما يلي :

- تنوعت حروف قوافي شعر الاتجاه الوطني في هذه المرحلة ، فجاء منها : الميم ، والكاف، والدال ، والعين ، والواو ، والراء ، والباء ، واللام ، والسين ، والهمزة، والهاء ، والحاء ، والتاء ، والفاء ، والألف المقصورة ، وقد توزعت على كامل أغراض ذلك الاتجاه بنسب متفاوتة.

- كثُر استعمال الشعراء لحروف شاع توظيفها في قوافي الشعر العربي القديم ، مثل : الراء، والدال ، والميم ، والباء وغيرها .

لقد كان حرف الراء(1) السائد في قوافي القصائد التي وقفنا عندها ، وبخاصة في البحور ذات التفعيلات الطويلة ، والأبيات الكثيرة ؛ لأنّ الشاعر يجد في حرف الرّوي هذا متنفساً طويلاً. ومثال ذلك رثاء بلنسية لأبي المطرف حين قال :

أقلوّا مَلامي أو فَقُولوا وأكثِروا   مَلُومكمُ عمّا بِهِ ليس يقْصر

وجاء هذا الروي شائعاً في قصائد الحنين ، حيث احتلّ المرتبة الأولى . وهو حرف لثَوي مكرّر، صفته بين الرخاوة والشدة ، وهو مجهور منفتح فموي(2) . لهذه الصفات فهو أليق بالحنين الذي يحاول الشاعر فيه أن يجهر بعواطفه تجاه وطنه .

ويليه حرف الباء من حيث الشيوع ، إلا أنّه اقتصر على القصائد القصار، عدا بائية أبي الحسن بن سعيد التي قالها وهو بمصر متشوقاً إلى الأندلس .

وحرف الباء شديد مجهور، وهو صوت انفجاري (3) . وقد تحققت هذه الصفات في بائية ابن طفيل التي كان فيها الشاعر شديد اللهجة على الأعراب الذين تباطؤا في نصرة إخوانهم الأندلسيين، فانفجر صوته فيهم مدوياً ومحذرا عن التقاعس قائلاً :

حَذاري فإعِرَاضُ الفتَى عَن نَجادِه   وتضيْيعُه لِلحزْم إحْدَى العَايِ ب

(1) تقول صفاء خلوصي: "ومعظم حروف الهجاء يجوز أن يأتي روياً ولكن ورودها على هذه الصورة يتباين من حيث الشيوع ، فأشيعها (الباء والدال والراء واللام والميم والنون)" . (فنّ التّقطيع الشّعري والقافية . ص215).

(2) ينظر: زبير درّاقي: محاضرات في فقه اللغة . الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية . د.ط / د.ت. ص66 –68 ؛ ينظر:أحمد مختار عمر: دراسة الصّوت اللغوي . القاهرة : عالم الكتب . د.ط/ 1997 . ص396 .

(3) ينظر: إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية . مصر: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها . د.ط / د.ت . ص47 .

وهكذا فقد جاءت أغلب حروف القافية منسجمة مع حالة الشاعر النفسية ، ومع الغرض المطروق .

- جاءت كلّ القوافي مُطلَقة غير مقيدة ، باستثناء مقصورة حازم القرطاجني ، ونونية ابن فرقد في رثاء الأندلس . والقافية المُطلَقة تعين على إثراء الموسيقى ، وتساعد على إظهار ما يختلج في نفس الشاعر (1) .

- لا أثر لوجود القوافي النّفر، وقلة استعمال القوافي الحُوش ، حيث نظم كل شعراء الاتجاه الوطني على القوافي الذّلل (2) .

- اهتم كثير من الشعراء بتصريع المطالع مقتدين بالشعراء السابقين . ومن الأمثلة على ذلك ، مطلع نونيّة إبراهيم بن فرقد التي يقول فيها :

ألا مُسعِدٌ مُنجِدٌذو فطـَنْ   يُبَكّي بـِ دمْع معِين هَتَنْ.

- جاءت القوافي متنوعة كالمؤسّسة (3) ، والمردوفة (4) ، والخالية من الردف والتأسيس. ولعل اختيار أحد تلك الأنواع له علاقة بالحالة النفسية للشاعر.

فمثال القافية المؤسّسة ، ما ورد في لامية ابن عياش قائلاً :

أقِيمُوا إلى العَليَاءِ هُوج الرّواحِل   وقُودُوا إلى الهَيْجاء جُرْد الصَّواهِل

أمّا القافية المردوفة فتوجد بكثرة ، كالتي في نونية أبي المُطرّف عندما قال :

يا حِمْص إنّك في البِـلاد فَريدَ   بِـ بديع حُسْن جلَّ عَن تحْسِين

وهي في هذا المثال ياء .

أمّا القافية الخالية من الردف والتأسيس ، فقد وردت في ميمية هارون بن هارون في قوله:

يا أهلَ وادي الحِمَى بِـ العُدْوة انتَعِشُوا   هـذه الدِّمَاء فقَد أشْفَى بِـ ه سَقَما

---

(1) ينظر: محمّد أحمد دقالي: الحنين في الشّعر الأندلسي . ص532 .

(2) قسَّم أبو العلاء المعرّي القوافي إلى ثلاثة أقسام : الذّلل: وهو ما كثرت على الشعراء .والنّفر: وهي الأقل استعمالاً كالجيم والزاي . والحوش: وهي القوافي المهجورة . (ينظر: محمد عوني عبد الرؤوف : القافية والأصوات اللغوية . مصر: مكتبة الخانجي . د.ط / د.ت . ص95).

(3)التّأسيس: هو الألف التي يكون بينها وبين الروي حرف . (ينظر: حسين عبد الجليل يوسف : علم القافية عند القدماء والمحدثين ، دراسة نظرية وتطبيقية . مصر: مؤسسة المختار للنشر وللتوزيع . ط$_1$/ 2005 . ص29).

(4) الرّدف : هو حرف المدّ الذي يكون قبل الروي ولا فاصل بينهما. (ينظر: سيد البحراوي : العروض وإيقاع الشعر العربي ، محاولة لإنتاج معرفة علمية . مصر: الهيئة المصرية للكتاب . د.ط/ 1993 . ص86).

-جاء لزوم ما لا يلزم في قصائد الاتجاه الوطني نادراً ، من ذلك ما ورد في قصيدة أبي المطرّف بن عميرة التي حنّ فيها إلى الوطن والأهل والأصدقاء ، حيث التزم فيها حرفين هما : السّين واللام . يقول أبو المطرّف (1) :

يـا صاحبيّ ولِلفِـراق صَـبَابة عمّـا بقَلبـي مِن لوَاعِجها سَـلا

واستَخبرا خَبري و إنْ جَوزتُما بَعدي السُّلوَ فإنّ قلبِي مَا سَلا

لِلصّـبر دِرْع كُنتُ مِنها حاسِراً يَومَ اتَّقَيْتُ البَيْن سَهماً مُرسَلا

- هناك بعض العيوب التي مست القافية نذكر منها ما يلي :

* يوجد " إقواء "(2) في ميمية مالك بن المرحّل ، وبالضبط في التّصريع ، وفي القافية في قوله :

اسْتَنصَر الدّينُ بِكُم فأَقدِمُوا فإنّـه إنْ تُسلِمـوه يُسْلَـم

والأصل أن يكون (يسلم) مجزوماً ، وبالتالي يخالف حركة الرّفع الموجودة في العروض (فأقدموا)ومخالفاً لحركة الروي .

* ومن عيوب القافية أن تشتمل على التضمين ، حيث لا يستقل البيت بمعناه ، وتمامُه يكون في البيت الذي يليه . ومثاله قول ابن فرقد :

ألا مُسعِد مُنجِد ذو فطن يُبكـي بدَمـع معِـين هَـتـنْ

جَـزيرَةَ أندَلُس حَـسْـرة لا غَـالب مِنْ حقُود الزّمَن

فلفظة (جزيرة) متّصل معناها بالبيت الأول ؛ لأنّها مفعول به للفعل (يبكي) . وعُدَّ التّضمين عيباً ؛ لأنّ القافية " بمثابة القفل الذي يقفل البيت الموزون بشكل يُوحّده مع القصيدة برُمتها "(3) .

---

(1) محمد أحمد دقالي: الحنين في الشّعر الأندلسي ، ص516.
(2) ينظر: أبو العباس ثعلب : قواعد الشّعر، ص64.
(3) صفاء خلوصي : فنّ التّقطيع الشّعري والقافية ، ص220.

خامسا : ألوان البديع

1- التوشيح :

ويسمى كذلك الارصاد [1]، و التسهيم[2] . وهو "أن يكون مبتدأ الكلام يُنبئ عن مقطعه، و أوله يخبر بآخره ، و صدره يشهد بعجزه ، حتى لو سمعتَ شعرا ، أو عرفتَ رواية ، ثم سمعتَ صدر بيت منه وقفتَ على عجزه قبل بلوغ السماع إليه . وخير الشعر ما تسابق صدوره و أعجازه ، و معانيه و ألفاظه ، فتراه سلسا في النظام ، جاريا على اللسان لا يتنافى و لا يتنافر ، كأنه سبيكة مفرغة ،أو وشي منمنم ، أو عقد منظّم من جوهر متشاكل ، متمكن القوافي غير قلقة ، و ثابتة غير مرجة ، ألفاظه متطابقة ، و قوافيه متوافقة ، و معانيه متعادلة ، كل شيء منه موضوع في موضعه ، وواقع في موقعه . فإذا انقضّ بناؤه ، و حُلّ نظامه ، وجعل نثرا ، لم يذهب حسنه ، و لم تبطل جودته في معناه ولفظه ، فيصلح نقضه لبناء مستأنف ، و جوهره لنظام مستقبل"[3].

يبدو هذا التعريف لأبي هلال العسكري قد أحاط بلفظة التوشيح ، و جمع فيه كل ما من شأنه أن يجعل هذا اللون البديعي مستملَحا عند أهل البلاغة . لذلك فإن وجوده في قصائد الاتجاه الوطني في عصر الموحدين كان بارزا ، وقد أكثر منه شعراء هذا العصر .

من ذلك ما ورد في قصيدة ابن الأبّار حيث يقول [4]:

طهّر بِلادك منهم إنّهم نجس و لا طَهارة ما لم تغسل النّجسا

فلفظة (النجسا) يمكن التنبؤ بها ومعرفتها لأمرين اثنين و هما :

- إن القصيدة هي سينية ، فلا بد من أن يكون حرف الروي في القافية هو السين .

- ذُكر في صدر البيت ما يدل على أن القافية في العجز تكون تلك الفظة نفسها ، وهي قوله :(نجس) مصدقا لقول أبي هلال العسكري " وصدره يشهد بعجزه ... ثم سمعتَ

---

(1) ابن جابر الأندلسي : الحلة السيرا في مدح خير الورى، ص 94.
(2)ابن رشيق : العمدة ، 2 / 27 .
(3) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ، ص 348 .
(4)الديوان ، ص 412 .

صدر بيت منه وقفتَ على عجزه قبل بلوغ السماع إليه ". لذلك سمي بالارصاد ، لأن قارئ الشطر الأول يستطيع أن يترصد قافية البيت بما دل عليه الصدر .

وقد تأتي هذه اللفظة التي يمكن أن نسميها الدليل في عجز البيت ، كما في قول ابن طفيل[1] :

وتَظهر أحْوال يروق سَماعها فيرَغَب في أمثالها كلُّ راغب

فمن خلال لفظة (فيرغب) ، يمكن أن نتوقع ما يقابلها في القافية ، وهي لفظة (راغب). ولكي يكون التوشيح صحيحا ، لابد من معرفة القافية في البيت الذي سبقه حتى تأتي اللفظة في التوشيح على منوالها ، وإلا فيمكن أن تحل مكانها أية لفظة أخرى تحقق الوزن في البيت .

ومن الأمثلة كذلك نذكر مايلي :

يقول أبو المطرّف[2] :

وعَزيمَة لِلشّرك جعْجَع بالهدى أنصَارها ، إذا خانَه أنصارُه

(جعجع أنصارها / خانه أنصاره)

و كقوله في العينية[3]:

نَوى غُربة حتّى بمنزل غربَة لقد صنع البَين الذي هُو صانع

(صنع / صانع)

و كقوله كذلك في قصيدة دالية[4]:

وهَل أذْنب الأبناء ذنْب أبيهمُ فصاروا إلى الإخُراج مِن جنّة الخُلد

فكلمة (الجنة) في الشعر الوطني الأندلسي ، كثيرا ما كانت تُعرف بالخلد، إضافة إلى أن هذا المعنى مأخوذ من المعجم القرآني بهذا الشكل .

2- مراعاة النظير :

([1]) محمد سعيد محمد : دراسات في الأدب الأندلسي ، ص 63 .
([2])عبد العزيز عبد المجيد : ابن الأبّار ، حياته و كتبه ، ص 148 .
([3])عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص 668 .
([4]) ابن سعيد : اختصار القدح المُعلّى في التاريخ المُحلي ، ص 48 .

يُعرّف هذا النوع بأنه " جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه"[1]

ويضيف ابن حجّة الحموي إلى هذا التعريف شيئا آخر يجعله أكثر انضباطا ووضوحا فيقول : " وهو في الاصلاح أن يجمع الناظم أو الناثر أمرا و ما يناسبه ، مع إلغاء ذكر التضاد ، لتخرج المطابقة ، وسواء كانت المناسبة لفظا لمعنى أو لفظا للفظ أو معنى لمعنى ، إذ القصد جمع شيء إلى ما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أحد الوجوه"[2] . فهو بهذا التعريف يُخرج جمع الأشياء المتناظرة و المتضادة في آن واحد، مثل : الليل و النهار ، فالليل يلائمه النهار ، لكنهما متضادان ، فيدخلان في باب المطابقة ، و يخرجان من حقل مراعاة النظير . و يسمى أيضا عند أهل البلاغة التناسب و التأليف و التوافق ([3]) .

ومن أمثلته قول ابن سِفر [4] :

أنهَارها فضّة والمِسك تُربتُها والخزُّ روضتُها و الدّر حصباء

فالانهار و التربة و الروضة و الحصباء كلها متناسبة لأنها من الطبيعة . و الفضة والمسك والخزّ و الدّر من الأشياء الثمينة و أدوات الزينة . فالشاعر في هذا البيت جمع كل شيء بما يناسبه و يناظره ، ولم يكن بينها أي تضاد .

وهناك من الشعراء من ولع بهذا الفن فأكثر منه في القصيدة الواحدة . فهذا ابن أبي خالد الكاتب في قصيدته التي يهنئ فيها بفتح ميورقة ، يورد فيها ثلاثة أمثلة مختلفة من مراعاة النظير فيقول[5] :

و ياحُسن ما تبدو خِلال دُروعـها أسِنّـتها تحكي السّماء و أنجُـما
إذا انتشَرت في الجـوّ أجنحةٌ لـها رأيتَ بها روضا و نَوْرا مُكمّما
وإن لم تهجْه الرّيح جاء مُصافحا فمدّت له كفاّ خَضيبا و مِعصما

([1]) صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع ، تحقيق : نسيب نشاوي ، بيروت : دار صادر ، ط 2 / 1992 ، ص128 .
([2])ابن حجة الحموي : خزانة الأدب و غاية الأدب ، 1 /293 .
([3]) ابن جابر : الحلة السّيرا ، ص 89 .
([4])المقري : نفخ الطيب ، 1 / 174 .
([5]) البلفيقي : المقتضب ، ص 173 .

ففي البيت الأول جمع بين السماء و النجوم ، فهما من مجموعة المجرّة ، وبالتالي فإن النجم نظير السماء . و في البيت الثاني نجد أن الزهر(النَّوْر) نظير للروض ، لأنهما من الطبيعة الصامتة ، لذلك جمع الشاعر بينهما . أمّا البيت الثالث فنلاحظ أن الكفّ و المعصم من الأعضاء ، فجُمع بينهما مراعاة للنظير .

ومما جاء في هذا الغرض أيضا ، قول الرصافي البلنسي في المدينة التي بناها عبد المؤمن بن علي بجبل الفتح ، جاء فيها [1]:

ذات العِمادَين مِن عزّ ومملكة　　على الأساسَين مِن قُدس و تطهير
مواطئ مِن نبيّ طال ما وُصلتْ　　فيها الخُطى بَين تسبيح و تكبير
بقيّة الحرب فاتوها وما بِهِمُ　　في الضّرب والطّعن عن سيمَاء لتقصِير
لا يُنكر القومُ ممّا في أكفّهم　　بِيضِ مفاليلَ أو سُمر مكاسير

ففي البيتين الأولين جمع الشاعر بين القدس و التطهير ، و بين التسبيح والتكبير. فالقداسة ملائمة للتطهير ، وقد بُني عليهما أساس دار أمير المؤمنين . و التسبيح نظير للتكبير ، فهما من أنواع ذكر الله . وكل هاته الألفاظ من حقل واحد و هو الجانب الديني.

أما البيتان الآخران فمراعاة النظير فيهما يكمن في الألفاظ التالية : الضرب والطعن ، بيض مفاليل و سمر مكاسير ، و كلها تدخل ضمن إطار الحرب و أدواته. ونلاحظ أن ألفاظ هذا اللون البديعي ليس بينها تضاد .

و مما جاء في الجانب الديني ، وكان مسوغا للجمع بين الألفاظ المتناظرة ، هو ماورد في آخر قصيدة أبي البقاء الرندي ، حيث قال [2]:

لِمثل هذا يذوب القلبُ مِن كمد　　إن كان في القلب إسلام و إيمان

فجمع بين الإسلام و الإيمان و هما متناظران .

([1]) الرصافي : الديوان ، ص 88 – 89 .
([2]) المقري : نفح الطيب ، 5 / 373 .

3- التّدبيج :

إن المقصود بالتدبيج هو " أن يذكر الشاعر أو الناثر ألوانا يقصد الكناية بها أو التورية بذكرها عن أشياء ، من مدح أو وصف أو نسيب أو هجاء أو غير ذلك من الفنون "[1].

واللفظة مشتقة من الديباج الذي هو نوع من الحرير . " و له في البلاغة موقع عظيم ، وهو يكسب الكلام بلاغة و يزيده حلاوة " [2].

يرى الدكتور وليد إبراهيم قصاب أن التدبيج أضيق من الطباق ، لأنه يختص بالألوان دون غيرها ، باستثناء اللونين الأبيض و الأسود ، لأنهما متضادان على الحقيقة ، لذلك فهما من الطباق . وما عداهما من الألوان الأخرى فليس بينها تضاد على الحقيقة ، بل يكون بينها ما يشبهه و هو التدبيج ، بشرط أن تستعمل هذه الألوان على وجه الكناية أو التورية [3].

يقول ابن طفيل في قصيدته التي يُرغّب فيها الأعراب و يُمنّيهم بما سوف يلقونه من نعيم[4] :

فما همُّنا إلّا صلاح جميعكم   و تسريحكم في ظلّ أخضَر هاطِل

فاللون الأخضر في هذا البيت كناية عن حياة النعيم و العيش الرغيد . لأن ابن طفيل أراد من خلال هذه القصيدة استنفار القبائل العربية للذود عن بلاد الأندلس ، فراح يُمنيهم بهذه الغزوة بما ينتظرهم من الملذات و أطيب المتاع .

و في الغرض نفسه نلفي ما نظمه ابن سهل في عرب المعقل الذين تقاعسوا عن نصرة الأندلس مُرغّبا إياهم في إنجاد البلاد فقال [5] :

خَلوّا الدّيار لِدار خُلد واركبوا   غمْر العجاج إلى النّعيم الأخضَر

---

(1) ابن أبي الإصبع المصري : تحرير التحبير ، ص 532 .
(2) يحي بن حمزة العلوي : كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز، مصر : مطبعة المقتطف ، د.ط /1914 ، 3 / 78 .
(3) ينظر : وليد إبراهيم قصاب : علم البديع ، دمشق : دار الفكر ، ط1 / 2012 ، ص 28 .
(4) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة ، ص 329 .
(5) ابن سهل : الديوان ، ص 141 .

فالنعيم الأخضر في هذا البيت ليس كناية عن متاع الدنيا ، و إنما عبّر الشاعر بهذا اللون عن نعيم الآخرة ، فهو قد نهاهم في بداية البيت عن الجري وراء سقط المتاع الدنيوي ، حاثا إياهم أن يركبوا كل مطية توصلهم إلى النعيم الأخروي .

وهناك صورة أخرى للون آخر ذكر في دالية أبي جعفر الوقشي البلنسي التي استغاث بها يوسف بن عبد المؤمن بن علي . يقول الشاعر(1) :

فحُقّ لدمعي أن يفيض لأزرق   تملكها دعج المدامع سُودا

وردت أبيات قبل هذا البيت ، وضّح فيها الوقشي الوضع الأليم الذي كانت تعيشه الأندلس ، حيث عاث الفرنج في الأرض فسادا ، وأكثروا فيها القتل ، وأسبوا النساء، فكانت هذه المشاهد سببا لأن يذرف الشاعر دموعا حارة . فاللون الأسود في هذا البيت كناية عن الحزن و الألم .

واستُعمل اللون الأبيض في معرض الحديث عن سقوط مدن الأندلس . فهذا الرّندي وهو يرثي الأندلس في نونيته يقول (2) :

تبكي الحنيفيّة البيضاء مِن أسف   كما بكى لِفراق الإلف هيمان

فقرُن البياض بالإسلام (الحنيفية) لوضوح تعاليمه ، ولسماحته و بساطته ، وعدم وصفه بالتعقيد والغلو .

وبعيدا عن الحزن و الرثاء و الاستنجاد ، نجد لونا آخر وُظف في غرض ذكر محاسن الأندلس . يقول ابن سهل في قصيدة رائية(3) :

والوُرق تشدو والأراكة تنثني   والشّمس ترفُل في قميص أصفر

فالتدبيج هنا جاء في قوله (قميص أصفر) ، وقد كنّى به الشاعر عن غروب الشمس . و يدعمه بيت الشاعر في مكان آخر من القصيدة نفسها ، حيث يقول (4):

ما اصفرّ وجهُ الشّمس عند غروبها   إلا لِفرُقة حُسن ذاك المَنظر

---

(1) المقري : نفح الطيب ، 5 / 364 .
(2) م . ن ، 5/ 374 .
(3)فوزي سعد عيسى : ابن مرج الكحل ، حياته وشعره ، ص 53 .
(4) م . ن ، ص 54 .

4-الطّ باق :

يُعرّفه أبو هلال العسكري بقوله [1] : " قد أجمع الناس أن المطابقة في الكلام ، هي الجمع بين الشيء و ضده في جزء من أجزاء الرسالة ، أو الخطبة ، أو البيت من بيوت القصيدة " .

وهذا التعريف هو الشائع بين معظم النقاد و البلاغين . لكن قدامة بن جعفر لم ير هذا الرأي ، و ذهب إلى أن الطباق هو اجتماع المعنيين (أي المتضادين) في لفظة واحدة مكرّرة ، وسمّاه التكافؤ[2]. و هذا التعريف هو أقرب الى أن نصطلح به على الجناس لا على الطباق .

وهو نوعان : طباق الإيجاب ، و طباق السلب .

أ - **طباق الإيجاب :**وهو " أن يؤتى بالكلمة و نقيضها ، أي أن يقابل بين المعنيين بالتضاد" [3]. وأمثلة هذا النوع - في القصائد المدروسة - كثيرة ، ويكفي في هذا المقام ذكر بعضها . يقول ابن شهاب المالقي مُشيدا بمتنزّه " السُّد " بقرطبة [4] :

بكَرنا له والشّمس في خِدر شرقها   إلى أنْ أجابتْ إذ دعا الغربُ دعواه

فاللفظتان (شرقها و الغرب) متضادتان ، لكنهما لم تأتيا متوافقتين لا من حيث الحروف و لا من حيث الوزن ؛ فجاءت الأولى مقترنة بالضمير (ها) ، والثانية معرفة ب (ال) .

وهناك مثال اجتمع فيه نوعان من الطباق ، طباق الإيجاب على رأي جمهور البلغاء ، والطباق الذي تفرد به قدامة بن جعفر . يقول أبو جعفر بن سعيد[5] :

فإنْ كان يرجو جنّة الخُلد آجلا   فعندي له في عاجِل جنّة الخَلد

---

(1) كتاب الصناعتين ، ص 286 .
(2) ينظر : قدامة بن جعفر نقد الشعر ، ص 147.
(3) وليد إبراهيم قصاب : علم البديع ، دمشق : دار الفكر ، ط 1 / 2012 . ص 20 .
(4) المقرّي : نفح الطيب ، 2 / 18 .
(5) م .ن ، 4 / 293 .

فكلمة (آجل) ضدها (عاجل) وهو طباق إيجاب ، و (جنّة الخلد) في صدر البيت معناها جنّة الآخرة ، و(جنّة الخلد) في عجُز البيت هي جنّة الدنيا ، وهذا هو الطباق الذي أشار إليه قدامة بن جعفر في تعريفه .

ب - طباق السّلب: وهو " أن يؤتى بالمعنى وعكسه ، عن طريق الإثبات والنفي ، أو الأمر والنهي"([1]) .

ويبدو أن الشواهد المتيسرة في هذا الباب ، جاءت كلها عن طريق الإثبات والنفي .

فممّا جاء في الإثبات والنفي بـ (ما) قول أبي البقاء الرندي ([2]) :

وللحوادث سُلوان يسهّلها   وما لما حل بالإسلام سُلوان

سلوان : إثبات   ما سلوان : نفي

ويكون النفي كذلك بـ (لا) مثل قول ابن سيّد اللص الإشبيلي ([3]):

وأن يُقيم من الميل المبين ولا   يقيم ما بِ عراريه من الهبل

يقيم : إثبات   لا يقيم : نفي

ويأتي النفي بـ (ليس) ، كقول ابن سيّد اللص في القصيدة نفسها ([4]):

يعْرو المحدّق في تردادها نظرا   ما ليس يَعروه مِن صفيّن والجَمل

يعرو : إثبات   ليس يعرو : نفي

وقد يتقدم النفي على الإثبات للتأكيد عليه . يقول ابن الأبّار([5]) :

تلك الجزيرةُ لابقاء لها إذا   لم يضمن الفتحُ القريب بقاءَها

فلما كانت القصيدة موجهة إلى أبي زكرياء الحفصي لغرض إنجاد مدينة بلنسية ، جاء تقديم النفي في هذا الموطن أولى ، لأنه إن لم تُخلّص المدينة من النصارى فلا بقاء لها.

([1]) وليد إبراهيم قصاب: علم البديع ، ص20 .
([2]) المقري : نفح الطيب ، 373/3 .
([3]) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة ، ص100.
([4]) م.ن ، ص.ن.
([5]) الديوان ، ص 35.

5- المقابلة :

ذكر قدامة بن جعفر في معرض حديثه عن الشعر الجيّد فقال([1]) :" والذي يسمى به الشعر فائقا ، ويكون إذا اجتمع فيه مستحسنا صحة المقابلة ، وحسن النظم، وجزالة اللفظ ، واعتدال الوزن ، وإصابة التشبيه ، وجودة التفصيل ، وقلة التكلف ، والمشاكلة في المطابقة . وأضداد هذا كله معيبة تمجّها الآذان ، وتخرج عن وصف البيان". فاشترط في المقابلة أن تكون صحيحة ؛ أي كل جزء في القسم الأول يقابله على الترتيب ما يناسبه في القسم الثاني .

وفسر قدامة عبارة (صحة المقابلة) في كتابه نقد الشعر بوضوح فقال([2]) : "وصحة المقابلة أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق أو المخالفة بين بعضها وبعض ، فيأتي في الموافق بما يوافق ، وفي المخالف على الصحة ، أو يشترط شروطا ، أو يعد أحوالا في أحد المعنيين ، فيجب أن يأتي فيما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدده ، وفيما يخالف بضد ذلك " .

وهناك من يخلط بين الطباق والمقابلة ، ويرى([3]) أن المقابلة من الطباق. وابن جابر الأندلسي لم يدرج المقابلة في بديعيّته . والصحيح أن هناك فرق بينهما من جهتين:

1- الطباق يكون بين لفظين ، فإذا زاد على اللفظين صار مقابلة .

2- المقابلة أعمّ من المطابقة ، وتكون بين شيئين فأكثر، " وبين ما يخالف وما يوافق. فبقولنا: وما يوافق ، صارت المقابلة أعم من المطابقة . فإن التنظير بين ما يوافق ليس بمطابقة " ([4]).

([1]) قدامة بن جعفر: نقد النثر ، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ط / 1982 ، ص 84 .

([2]) قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص 141 .

([3]) من هؤلاء فضل حسن عباس ، يقول في هذا الشأن : "... فأنت ترى أن الطباق والمقابلة من حيث الموضوع شيء واحد ، كل ما في الأمر أن الطباق يكون بين معنيينن أما المقابلة فيشترط لها أكثر من ذلك، ولا نرى ضرورة لهذا الاصطلاح ما دام الموضوع واحدا ، ولم لا تكون المطابقة والمقابلة شيئا واحدا" . (البلاغة فنونها وأفناها ، علم البيان والبديع ، الأردن : دار النفائس للنشر والتوزيع، ط2009/12، ص 325)

([4]) ابن أبي الإصبع المصري: تحرير التحبير ، ص 179 .

وهذا اللون البديعي أنواع ؛ فقد تكون فيه مقابلة اثنين باثنين ، أو ثلاث بثلاث ،أو أربع بأربع ، إلى غير ذلك . وقد وجدنا في أبيات الاتجاه الوطني المدروس النوعين الأولين فقط .

فمن الأمثلة التي كانت فيها مقابلة اثنين باثنين ، ما جاء في قول ابن سيّد اللص الإشبيلي، عندما مدح عبد المؤمن بن علي([1]) :

ظَحى بِ كرّته الإسلامُ في جذل   والمشركون وأهلُ الكفر في جَدل

فالإسلام يُقابله الكفر، والجذل يقابله الجدل ، لأن الجذل هو الفرح والسرور، والجدل يُفضي إلى الحزن والكآبة .

ونلحظ الصورة نفسها في نونية أبي البقاء الرندي حيث يقول([2]) :

على دِيارمِن الإسلام خالِية   قد أقفرتْ ولها بالكفر عُمران

إن لفظة الإسلام في هذا المثال أيضا تقابلها لفظة الكفر، ولفظة خالية تقابلها لفظة العمران ، فهو تقابل بالتضاد لا بالتوافق .

ومما جاء فيه مقابلة ثلاث بثلاث ، بيت لأبي المطرّف بن عميرة قائلا ([3]) :

قد كان يشرق بالهداية ليلُه   والآن أظلم بالضّلال نهارُه

يوضّح هذا البيت تلك الصورة البئيسة التى كانت عليها مدن الأندلس بعد سقوطها، وقد كانت من قبل عكس ما صارت إليه . فقد قابل الشاعر بين ثلاثة أمور وهي : (يشرق≠ أظلم) و (الهداية ≠ الضلال) و (الليل ≠ النهار).

ونلفي هذا النوع من المقابلة في سينية ابن الأبّار التي استنجد بها أبا زكرياء الحفصي إذ يقول فيها ([4]) :

مَدائن حلّها الإشراكُ مبتسما   جذلان وارتحل الإيمان مُبتئِسا

([1]) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة ، ص 101 .
([2]) المقري : نفح الطيب ، 374/5 .
([3]) عبد العزيز عبد المجيد ، ابن الأبار ، حياته وكتبه ، ص 149 .
([4]) ابن الأبّار : الديوان ، ص 408 .

فالفعل (حلّ) يقابله (ارتحل) ، والاسم (الشرك) يقابله (الإيمان) ، وحالة الابتسام يقابلها البؤس . والملاحظ على هذه الأمثلة كلها أنها تلامس الجانب الديني الذي كان الوعاء الأنسب لإظهار صورة المقابلة فيه .

6- الجناس :

وهو أن تتشابه الكلمتان في اللفظ ، وتختلفا في المعنى . وله فائدة عظيمة تكمن في الميل إلى الإصغاء إليه ، لأن مناسبة الألفاظ تحدث ميلا وإصغاء إليها، وكذلك اللفظ إذا حُمل على معنى ثم جاء والمراد به معنى آخر ، كان للنفس تشوُّق إليه ، وهو من ألطف مجاري الكلام ، ومن محاسن مداخله ([1]) .

ويُعد الجناس من أكثر أبواب علم البديع التي اشتغل عليها البلاغيون وكتبوا فيه كثيرا، وفرّعوه إلى أقسام ، بل وضعه بعض المصنفين ضمن الأبواب الأولى في كتبهم كما جاء في بعض البديعيات .

وينقسم إلى عدة أقسام نذكر منها :

1- الجناس المستوفي التام : وهو " أن يأتي المتكلم بكلمتين متفقتين لفظا ، مختلفتين معنى ، لا تفاوت في تركيبهما ولا اختلاف في حركاتهما ، سواء كان من اسمين أو فعلين ، أو من اسم وفعل ، أو اسم وحرف . فان كانا من نوع واحد سُمّي مماثلا، وإن كانا من نوعين مختلفين سُمّى مستوفي" ([2]) .

إن هذا النوع من الجناس قليل في الشواهد الشعرية المأخوذة سابقا . ورد في قصيدة حازم القرطاجنّي التي مدح بها الأمير أبا يحيى وحثه على إعادة فتح الأندلس قوله ([3]) :

الصّبح عندك ليل والدُّجى نُور إن الأوانس عن ضدّ الصّبا نُور

فـ (نور) الأولى هي ضد الظلام ، و(نور) الثانية جمع نوار ، وهي النافرة من الظباء وغيرها .

([1]) ينظر: وليد إبراهيم قصاب: علم البديع ، ص 137

([2]) عبد القادر حسين : فن البديع، بيروت، دار الشروق،ط1983/1، ص 109.

([3]) حازم القرطاجي: الديوان، ص59

2- الجناس المفروق: يُعرّف بأنه "ما تشابه ركناه لفظا لا خطّ ا . وسُمّي مفروقا، لافتراق الركنين في الخط " ([1]) .

يقول ابن الأبّار في مطلع قصيدته التي مدح بها أبا زكرياء الحفصي ، ووصف إعادته للأندلس ضد النصارى ، وهو استفتاح غزلي ([2]) :

لم يخُن في الحبّ تأويلي   هذه الحسناء تأوي لي

فلفظة (تأويلي) من التأويل وهي كلمة واحدة اسمية ، ولفظة (تأوي لي) مركبة من (تأوي) و(لي) ، لكن من حيث النطق فهما متشابهتان .

3-الجناس المحرّف: وهو " ما اختلف فيه اللفظان في هيئات الحروف ، حركاتها وسكناتها فقط ؛ أي مع التساوي في نوعها وعددها وترتيبها ، سواء أكانا من اسمين أو فعلين ، أو من اسم وفعل ، أو من غير ذلك ، فإن القصد اختلاف الحركات " ([3]) .

ومثاله قول ابن الأبّار في سينيته ([4]) :

وأوطِئ الفَيلق الجرّار أرضهم   حتّى يُطأطِئ رْأسا كلُّ من رأَسا

نلاحظ أن الاختلاف بين كلمةر(أ ْ سا) الأولى و (رأسا) الثانية ، هو أن الهمزة الأولى جاءت ساكنة والثانية مفتوحة . والأولى جاءت اسما والثانية فعلا . وهما متساويتان في النوع والعدد والترتيب .

4-الجناس المضارع: وهو " ما كان فيه الحرفان المختلفان متقاربين في المخرج، سواء أكانا في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره "([5]) وينطبق هذا التعريف على ما جاء في بيت ابن سيّد اللص ، حيث يقول ([6]) :

مصاحبا مثله في اليمّ متّصلا   منه بحَزْم وعَزْم غير مَنفصل

فالحاء في (حزم) ، والعين في (عزم) من مَخرج واحد وهو الحلق .

([1]) عبد القادر حسين: فن البديع ، ص112.
([2]) ابن الأبار: الديوان: ص245.
([3]) علي الجندي: فن الجناس، مصر: مطبعة الاعتماد ، د.ط/د.ت، ص87
([4]) م.س، ص412.
([5]) الشحات محمد أبو ستيت : دراسات منهجية في علم البديع ، الاسكندرية : مكتبة الاسكندرية ، ط1994/1، ص 204
([6]) ابن صاحب الصلاة : المنّ بالإمامة ، ص100.

وجاء هذا النوع في بيت آخر من القصيدة نفسها في قوله ([1]) :

أيعدل الغَيم غُرّ المزن لو عقلوا   أو يُجعل السَّمَل المَشفوه كالسَّبَل

الميم في (السمل) ، والباء في (السبل) مخرجهما من الشفتين .

5- الجناس اللاحق: ما كان فيه الحرفان المختلفان غير متقاربين في المخرج، ويكونان أيضا إما في أول اللفظ أو في وسطه أو في آخره ([2]) .

يقول أبو المطرّف بن عميرة راثيا جزيرة شُقر ([3]) :

شُقْر وما شُقْر وأيْك حوله   تُسلي النّقوس بصَائِح أو وصَادِح

فالاختلاف بين الكلمتين (صائح وصادح) هو في حرفي الهمزة والدال ، وهما حرفان ليسا من مخرج واحد ، والاختلاف جاء في وسط الكلمة .

6-جناس الاشتقاق: وهو ما توافق فيه اللفظان في الحروف الأصلية وفي أصل المعنى ؛ حيث يؤخذ لفظ من الآخر لمناسبة بينهما في المعنى ([4]) .

ولقد تفرّد بهذا النوع كثيرا الشاعر ابن الأبّار في قصائده . من ذك قوله ([5]) :

كانتْ حدائق للأحداق مُؤنقة   فصوَّح النّضر مِن أدْواحها وعسا

فـ (حدائق) جمع حديقة ، و(الأحداق) الثانية جمع حدَقة العين ، وبينهما اشتقاق لغوي من الفعل الثلاثي(ح ، د ، ق) .

7- الجمع:

وهو أن يُجمع نوعان فصاعدا في نوع واحد ([6]) .

ومثاله قول ابن الأبّار([7]) :

قامتْ على العدل والإحسان دعْوَته   وأنشرتْ مِن وجود الجُود ما رُمِسا

فجمع الشاعر العدل والإحسان في قيام دعوة ممدوحه .

([1]) م.س ، ص101.
([2]) ينظر : محمود أحمد حسن المراغي : علم البديع ، بيروت : دار العلوم العربية ، ط1991/1، ص115
([3]) عبد الله محمد الزيات : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، ص677
([4]) علي الجندي : فن الجناس ، ص 114 .
([5]) الديوان ، ص 409 .
([6]) ينظر : صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية ، ص166.
([7]) الديوان ، ص411.

8- التقسيم:

وهو " أن تذكر متعدّدا ، أوشيئا تعدّد أجزاءه ، ثم تذكر حكم كل واحد على سبيل التقسيم([1]) .

وممّا ورد في هذا الباب قول ابن الأبّار في السينية نفسها ([2]) :

بَرى العصاة ورَاْش الطّ ـائعين فقل   في الليث مُفترسا والغَيثِ مُرتجسا

فذكر في الشطر الأول العصاة والطائعين ، وقسّم في البيت الثاني ما لكل واحد منهما ؛ فممدوحه ليث مفترس للعاصين ، وهو غيث مرتجس للطائعين .

9- الجمع مع التقسيم:

يُعرّف هذا النوع بأنّه عبارة عن جمع متعدّد تحت حكم ، ثم تقسيمه ، أو تقسيم متعدّد ثم جمعه ([3]) .

يقول حازم القرطاجنّي في رائيته ([4]) :

سيْب وسيْف فذا طَوق المُطيع وذا   طَوق على جِيد مَن يعصيك مَزْرور

فجمع الشاعر خصلتين في ممدوحه وهما أنّه سيب وسيف ، ثمّ قسّمهما وجعل لكل منهما ما يناسبهما ، وهما أن السّيب طوق للمطيع ، والسّيف طوق على جيد العاصي .

ويقول الرّصافي البلنسي ([5]) :

ثكلتهمُ ثُكلاً دهى العينَ والحشا   ففجّر ذا ماءا وسجّر ذا جمرا

جمع الرّصافي في الشطر الأول شيئين وهما العين والحشا في حكم واحد وهو الدهاء، ثم قسّمهما ، فجعل تفجير الماء للعين ، وتسجير الجمر للحشا.

([1]) ابن جابر الأندلسي :الحلّة السيرا ، ص117.
([2]) م .س ، ص.ن.
([3]) السيد علي صدر الدين بن معصوم المدني : أنوار الربيع في أنواع البديع ، 173/5 .
([4]) الديوان ، ص 61 .
([5]) الديوان ، ص72.

II - النثر

كان لقدوم أبي علي القالي إلى بلاد الأندلس و إملاء أماليه فيها ، الأثر البالغ في انتعاش فن الكتابة . ثم إن الأندلسيين قد تأثروا بما كان يأتيهم من بلاد المشرق ، فمثلا ابن حزم القرطبي تأثر بطريقة ابن المقفع ، ونعلم أن الجاحظ اتسعت شهرته في بلاد الأندلس ، وراح كثير من الكتاب الأندلسيين يؤلفون بعض مصنفاتهم وينسجون رسائلهم على طريقته ، ومن هؤلاء ابن زيدون في رسالته "الهزلية "المشهورة ، فهي تشبه إلى حد كبير رسالة "التربيع والتدوير" للجاحظ (1) .

بالإضافة إلى أنه يوجد أثر واضح لمدرسة ابن العميد في كتابات بعض الأدباء والمؤرخين الذين أرّخوا للأدب الأندلسي ، من أمثال "ابن حيان" في "المقتبس في أخبار الأندلس " ، "والفتح بن خاقان " في كتابيه "قلائد العقيان" و"مطمح الأنفس"، و"ابن بسام الشّنتَريني" في "الذخيرة"(2) .

وكما هو معلوم ، فإن لكل مدرسة من هذه المدارس طريقتها في فن الكتابة، في التزامهم بالسجع مثلا من عدمه ، أو الإفراط في المحسنات البديعية ، أو التّنويع في حروف العطف والجر ...الخ

ولم يكن النثر الأندلسي السائر في الاتجاه الوطني على عهد الموحدين ، بمنأى عن تلك الخصائص التي ميّزت الفنون والاتجاهات الأخرى . وفي هذا المقام ، سنذكر بعض خصائصه المتمثلة في :

1- الجُمل الدُّعائية والمُعترضة :

لقد أكثر الكُتّاب الأندلسيّون من الجمل الدّعائية والمعترضة في رسائلهم التي صبت في الاتجاه الوطني ، وكانت هذه سِمة أهل المشرق أيضا ، وقد اختلفت صيغتها على حسب المقام.

([1]) ينظر :عبد العزيز عتيق : الأدب العربي في الأندلس . بيروت دار النهضة العربية . د.ط / د.ت . ص 435 .
([2]) م.ن . ص.ن .

والملاحَظ أن أغلب الجُمل الدّعائية والمعترضة ، جاء فيها الدعاء للملوك بالنّصر، والتأييد، والفوز ، والعزّة ، وتشييد المُلك ، وما يتصل بهذا المعنى . أو بالنّصر ، والفتح ، وكل ما دُعيَ به لبعض المدن الأندلسيّة التي سقطت في أيدي الأعداء .

والظّاهر أن "هذا اللون من الجمل يُعتبر أصلا من أصول التعبير الأدبي لدى الكُتاب في المشرق والأندلس ، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها "(1) .

فممّا ورد من الجمل الدّعائية في تلك الكتابات ، ما جاء في بداية رسالة صفوان بن ادريس التي يقول فيها : "مولاي أمْتع الله ببقائك الزّمان وأبناءه ... وأوصل إليك ما شئت من المنّ و الأمان ".

ويُلاحظ في هذا المقطع أن الكاتب تعمد ذكر هذه الجمل ، ولم يفتتح رسالته بما يُستفتح به كالبسملة والحمدلة والثناء على الله تبارك وتعالى ، بل ابتدأ بالدعاء للخليفة بطول البقاء والمن والأمان ، ثم مدحه بعد ذلك .

ونلاحظ أيضا أن رسائل الدعوة إلى الجهاد وطلب الإغاثة ، احتوت على جمل دعائية ، فقلما نعثر على واحدة خالية منها . في حين أن الجمل المعترضة وُجدت في كل رسائل هذا الاتجاه .

نذكر من ذلك ما جاء في مقدمة رسالة أبي الحسن بن عياش ، الذي كتب عن أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، حيث راح يدعو له بالنصر والتأييد، والمعونة والتوفيق ، إذ يقول : (2) "مِن أمير المؤمنين أيده الله بنصره وأمده بمعونته ... ومازلنا وفقكم الله على إتمام على العناية بتلكم الجزيرة ...".

وفي رسالة أخرى نجد أمير المؤمنين يقرن دعاءه لنفسه بدعائه للموحّدين الذين كانوا بغرناطة ؛ لكي يعلَم أولئك الموحّدون بأن الخليفة يأمل في استجابتهم ، وأنه

([1]) محمد عبد الغفور الكلاعي : إحكام صنعة الكلام ، تحقيق : محمد رضوان الدّاية . بيروت : دار الثقافة ط1985/2 . ص 81 .
([2]) ينظر : ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص 292 .

كما يُدعى للخليفة يُدعى لهم أيضا . يقول أبو يعقوب في رسالة لم يُذكر كاتبُها:(1)"...من أمير المؤمنين أيّده الله بنصره وأمدّه بمعونته ، إلى الحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي ابراهيم والموحّدين الذين بأغرناطة أدام الله كرامتهم ، ووصل توفيقهم".

ويأتي الدعاء كذلك - في الغالب - ، في أواخر كثير من الرسائل الديوانية ، شأنها شأن بعض القصائد التي تُختتم بالدعاء ، حيث يُرجى فيها النصر ، أو رفع البلاء، أوغفران الذنوب ، كما بيّنا في قصائد رثاء المدن والاستنجاد . إلا أنّ الرسائل الديوانية يكون فيها الدعاء حصرا للخليفة أو الحاكم . يقول أبو المطرّف في نهاية الرسالة التي بعث بها إلى سلطان إفريقية (2) : "نصر الله تعالى مولانا وأيّده ، وشدّ مُلكه وشيّده ، وأبقى للفضل أيامه ، وللفصل أحكامه ، وأظفر بأعناق الأشقياء حسامه ، ووفره من اتساق النعم والآلاء حظوظه وأقسامه " .

ولقد كانت هذه الجمل الدعائية قصيرة ، لا يستغرق الكاتب كثيرا في صناعتها، لأنها لم تكن مقصده ، إلا في النادر عندما تتصل بحديث يُكمل معناها ، كمدح الخليفة والثناء عليه ، مثلما هو موجود في نهاية رسالة صفوان بن إدريس . وقد تعمد الكاتب ذلك ، لأن المقام اقتضى أن يسترسل الكاتب في الدعاء للخليفة عندما أنهى الحديث الذي أجراه على ألسنة بعض المدن الأندلسية ، التي تفاخرت فيما بينها ، وأظهرت أحسن ما لديها . فارتأى الكاتب أن يُتبع هذا الحديث بالدعاء للخليفة حيث قال(3) :" وإيّاه سبحانه نسأل أن يردّ سيدنا ، ويبقيه وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويصل له تأييدا وتأبيدا ، ويمهّد له الأيام حتى تكون الأحرار لعبيد عبيده عبيدا ، ويمدّ على الدنيا بساط سعده ، ويهبه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده .

آمِين آمين لا أرضَى بِ واحدة حتّى أُضِيف إليها ألفَ آمينا "

([1]) ينظر : م.س . ص 272 – 273 .
([2])المقري : نفح الطيب . 244/1 .
([3]) صفوان بن إدريس : زاد المسافر . ص18 .

أمّا الجُمل المعترضة ، فهي في الاتجاه الوطني تحمل بين ثناياها الدعاء . فنجد مثلا الشّقندي في رسالته السابقة ، استعمل جملة اعتراضية ، استدرك بها كلامه لئلا يُفهم غلطا ، حيث تضمنت الدعاء لدوام خلافة بني عبد المؤمن بن علي . وكان السّياق الذي جاءت فيه أن الكاتب أراد أن يشيد بخلفاء الأندلس . يقول الشّقندي (1) : " إن كان كرسي جميع بلاد المغرب عندكم بخلافة بني عبد المؤمن - أدامها الله تعالى - فقد كان عندنا بخلافة القرشيّين الذين يقول فيهم مشرقيّهم :.... " . فلو كان الكلام خاليا من تلك لجملة الاعتراضية لفُهم منه أنه يريد الانتقاص من مُلك الموحدين بالمغرب .

وإذا كانت هذه الجملة جاءت بين الشّرط وجوابه ، فقد وردت في الرسالة نفسها بين المبتدأ و الخبر ، عندما اقترب من إنهاء الحديث عن فضل بلاد الأندلس في قوله : " هذا - زان الله فضلك بالانصاف وشرف كرمك بالاعتراف - ما حضرني الآن في فضل جزيرة الأندلس ... " .

وفي رسائل الدعوة إلى الجهاد ، جاءت صيغ الدعاء في الجمل المعترضة متنوعة ، فتارة يُدعى فيها للمدينة أو البلاد ، وتارة أخرى للحاكم أولجند الموحدين .

ثم إنّنا نجد صيغة قد تكررت أكثر من مرة وهي (مهدها الله) ، وهي دعاء لتحرير الأرض من النصارى . وردت مرتين في رسالة ابن عياش حين قال (2) : " ومازلنا ... بتلكم الجزيرة - مهدها الله - والحرص على عونها ... " . ثم في مكان آخر من الرسالة نفسها يقول (3) : " وتَوجّه حفلُ الاشتغال إلى الجزيرة - مهّدها الله - وتوفّرت دواعي الاستعداد لنصرتها ...". والملاحظ أنّ هذه الجملة الاعتراضية استُعملت كثيرا عند ذكر بلاد الأندلس .

وجاء كذلك في فحوى تلك الجمل ، ما يشير إلى الحِفظ ، والحِرس ، و الحماية ، والإعمار. فمثلا نجد أحدَهم يتحدّث عمّن كان في مدينة إشبيلية ، فيدعو لها بالحِرس في

---

(1) م.س . 28/4 .
(2) ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص 293 .
(3) م.ن . ص 294 .

قوله(1): " ورجونا من تعامله مع إخوانه الذين بإشبيلية - حرسها الله - وتعاضدهم جميعا ". وفي الرسالة الإخوانية التي جاء فيها وصف جامع قرطبة ، حيث قال ابن صاحب الصلاة فيها (2) :" وإنّي شَخصتُ إلى حضرة قرطبة حرسها الله - منشرح الصدر ".

أمّا الدعاء بالحماية فجاء مرة واحدة في الرسالة التي كانت جوابا على رسالة والي غرناطة ، حيث أشاد فيها بفتوحات المسلمين هناك قائلا (3) :" وقد وصلَنا كتابكم من غرناطة - حماها الله - بما سناه الله في الأعداء ".

وفيما يخص طلب الإعمار ، جاء في الرسالة التي أنشأها أبو جعفر بن عطية عن عبد المؤمن بن علي مشيدا ببناء مدينة بجبل طارق حيث قال (4) :" ... وهو النظر في اختطاط مدينة عتيقة مباركة بجبل طارق _ عمره الله _ مجمع البحرين ".

ولم تكن المدن والأماكن وحدها التي استأثرت بهذه الجمل المعترضة ، فقد ظلّ فها بعض الكُتّاب لِلعاقل الذي دُعي له بالعزّة والتوفيق والإكرام . فهاهو أبو الحسن بن عياش في رسالته يُثني على الشيخ أبي حفص الهنتاني بجملة اعتراضية حيث قال(5) :" ... صحبة الشيخ الأجل أبي حفص - أعزه الله- يكون تقدمة لجواز جمهور الموحدين". ونراه في مكان آخر من الرسالة نفسها ، يستعمل جملة أخرى يدعو فيها لجيش الموحدين بالتوفيق قائلا :" ... إلى الطلبة الموحدين ... ومازلنا - وفقكم الله - على إتمام العناية بتلكم الجزيرة ".

وقد دُعي للأشياخ الأندلسيين بالكرم ، حيث قال أبو جعفر بن عطية في الرسالة السابقة :" ... ومن إليكم من الأشياخ الأندلسيين - أكرمهم الله - بهذا الجبل المبارك " .

نلاحظ مما سبق أن الجملة المعترضة كانت حاضرة في الرسالة الديوانية والإخوانية ، وقد كان الدعاء فيها للأشخاص وللمدن والأماكن على السواء . وكان

---

(1) م.س . ص 273 .
(2) رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق : فوزي سعد عيسى . ص68 .
(3) رسائل مُوحّدية ، مجموعة جديدة ، تحقيق : أحمد عزّاوي ، القنيطرة ، المغرب : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ط / 2001 ، 119/1 .
(4) مجموع رسائل مُوحّدية ، اعتنى بإصدارها : ليفي بروفنصال . ص 97 .
(5) ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص 274 .

توظيف عباراتها متناسبا مع السياق الذي وردت فيه ، ويُضاف إليه مراعاة " حالة الكاتب النفسية عند الكتابة " (1) .

2 - التّنويع بين الشّعر والنّثر :

إن معظم الكتاب الأندلسيين في هذه الفترة كانوا شعراء ، يكتبون لحكام الدولة الموحدية رسائل ديوانية خلدت في التراث الأندلسي ، بالإضافة إلى الأنواع النثرية الأخرى . لِذلك لقّب أغلبهم بذي الوزارتين . ولم يفّك هؤلاء الكتاب عن أن يدبّجوا نثرهم بكثير من الشعر ، وخاصة إذا طال الجانب النّثري في الرسالة ، حيث تملّه النفس وتنفر منه ، فيحتاج الكاتب إلى ما يُرَوّح به عنها (2) ؛ حيث يكون الشعر ملاذا له ودعامة يتكئ عليها ، إذ هو من بين الوسائل الأساسية التي يحتاج إليها في صناعته . وعند التأمل في ذلك التنويع بين الشعر والنثر عند أولئك الكتاب المذكورين سابقا ، يمكننا استنتاج مايلي :

- كان حضور الشعر في بعض الرسائل بارزا ، نظرا للغرض الذي كُتبت فيه، فمثلا نجد في رسالة المفاخرة بين مدن الأندلس ، أن أبا بحر صفوان بن إدريس ، يوظّ ف بعض الأبيات التي جعلها على لسان المدينة التي تفاخر بنفسها في حضرة الأمير ، حتى تنال رضاه . يقول مثلا على لسان مدينة غرناطة (3) :" فأنا أولى بهذا السيد الأعدل ، وماله بي من عوض ولابدل، ولم لا يعطف علي عنان مجده ويثني . وإن أنشَد يوما فإيّاي يعني :

بِ لادٌ بها عقّ الشّباب تَمَائِمِي   وأوّل أرض مَسّ جِلدي تُرابها".

فبهذا البيت الشعري ، تؤكد هذه المدينة على أولويّتها بالأمير ، إذ المكان الذي يولد فيه الإنسان ويترعرع هو الأحق بتفضيله على سواه .

---

(1) رضا عبد الغني الكساسبة : النثر الفنّي في عصر المُوحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري ، ص 206 .

(2) يقول أبو عامر بن شهيد مُبيّنا هذا المسلك الذي رآه مناسبا للمقام :"ولمّا طال الكلام ـ أيّد الله المؤتمن ـ ولم يبلغ مملوكه الغاية التي إليها قصد،ولا استوفى من الإيراد ما إيّاه اعتمد، خشية أن يصيبه ما يصيب التطويل من السّآمة المخصوصة به ، والملال الموقوف عليه ، ففصله بنظم فيه عون على الدرس، وتنبيه لشهوة النفس" . (ابن بسام : الذخيرة . 164/1).

(3) صفوان بن إدريس : زاد المسافر . ص 16 .

وفي مكان آخر يكون الشّعر وسيلة للإزدراء والانتقاص من قيمة الخصم ، وتذكيره ببعض عيوبه . فهذه "تدمير" - في الرّسالة نفسها - تهجم على مدينة "بلنسية"، وتسخر منها ببيتين من الشعر يمكن أن يكونا كفيلين بعدم رغبة الأمير في المدينة . يقول الكاتب (1): "... وقِراك لايُسمِن ولايغني من جوع ، فإلى ما تبرز الإماء في منصّة العقائل ، ولكن اذكري قول القائل:

بلنـسِيةٍ بِـ يذِي عن القَلب سلْـوة   فإنّـكِ رَوض لا أحِـنّ لِـزهـركِ

وكَيف يُحبّ المَرءُ دارا تقسّمتْ   على صارمَيْ جُوع وفِتنة مُشركِ"

- هناك بعض الرسائل التي كادت أن تخلو من الشعر ، إلا ماجاء نادرا ، كرسالة الشّقنْدي في محاسن المدن ، ورسالة أبي الحسن بن عياش في الدعوة إلى الجهاد ، وسبب ذلك ربما لأن شهرة الرجلين في الكتابة كانت أكثر من الشعر ، فاستغنيا عنه في بعض الرسائل .

- يُؤتَى بالشعر في بعض الكتابات النثرية للاستشهاد ، " وهو أن يورد البيت من الشعر أو البيتان ، أو أكثر في خلال الكلام المنثور ، مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر . ولا يُشترط فيه أن ينبَّه عليه بـ " قال" ونحوه ، كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية ، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام ، فلا يُحتاج إلى التنبيه عليه"(2).

ومن الأمثلة على هذا قول ابن عياش في رسالته التي كتبها بمناسبة فتح "أندوجر":"...وقد خاطبناكم قبلُ بما كان من صنع الله تعالى في فتح أندوجر وتوحيد الحصون ... ويوم كيوم ذي قار ، انتصف فيه الموحّدون والعرب من العجم ، ولمن سار لهم في الزي والكلم ، وتمسك منهم بسبب

فتْح الفتُوح تعَالى أن يُحيط به   نظْمٌ مِن الشّعر أو نَثرٌ مِن الخُطب"(3) .

---

(1) م.س . ص 17.
(2) القلقشندي : كتاب صبح الأعشى ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، د.ط / 1922 ، 274/1 .
(3) ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص 202 .

نلاحظ أن الكاتب استشهد بهذا البيت دون أن ينبه عليه بـ قال ونحوه كما جاء في كلام القلقشندي ، لأن البيت وصاحبه مشهوران ، فلا حاجة للإشارة إليه.

- كان تضمين الشعر في النثر الموحدي ذي الطابع الوطني على صورتين : فمرّة نجد الكاتب يستشهد بشعر غيره ، وتارة أخرى يكون الشعر من نظم الكاتب . وقد عد الكلاعي هذه الصفة من سمات الكاتب البارع المجيد لفن الكتابة حيث يقول (1) :" وكان المجيد منهم كثيرا ما يُضمّن رسائله أشعاره وأشعار غيره".

ويُلاحظ أن تضمين الكاتب لشعره في نثره ، كثُر في الرسائل الإخوانية التي كانت بين بعض الشعراء الكتاب البارزين في هذا العصر ، وبخاصة في موضوع رثاء المدن . فهذا أبو المُطرّف بن عميرة يبعث رسالة إلى صديقه ابن الأبّار، يذكر له فيها أخذ العدو مدينة بلنسية ، حيث بدأها بشعر من نظمه دون التنبيه إليه (2) ، مبينا فيه صروف الدهر وتقلباته . وقد كان هذ الشعر أول الرسالة ، ثم مباشرةتيُتِ عه بخطابه إلى صديقه . يقول ابن عميرة (3) :

" ألا فيئَة لِلدّهر تَدنُوبِ مَن نَأى وبقيا يَرى منها خِلافَ الذِي أرَى

ويَامَن عذِيري منْه يَغدِر مَن أوَى إليه ولايَدري سِوَى خَلف مَن وَأى

ذَخَائر مَا فِي البَرّ والبَحر صَيدهُ فَلا لَـؤلـُؤا أبْقى علَـيـه ولا وَأى

أيّها الأخ الذي دهش ناظري لكتابه ، بعد أن أدهش خاطري من إغبابه ...".

فكانت هذه الأبيات بمثابة فاتحة الرسالة التي خلت منها ، حيث وضّح فيها المكاره والخطوب التي تكون في الدهر بشكل عام ، ثم بعد ذلك فصّل المصائب والدّمار الذي حل بمدينة بلنسية .

وإذا كان أبو المطرف قد افتتح هذه الرسالة بثلاث أبيات ، فإننا نجده في مكان آخر يبدأ رسالة بقصيدة كاملة تمثل فن رثاء المدن . وهي رسالة بعث بها إلى الشيخ أبي جعفر بن أمية ، حين حلّ الرّزء ببلنسية . وهذه القصيدة يمكن لوحدها أن تفصح

([1]) الكلاعي : إحكام صنعة الكلام . ص 71.

([2])يقول القلقشندي مُشيرا إلى عملية مزج الشّعر بالنّثر دون التّنبيه عليه في رسائل الإخوانيات: "..فإنّ الشعر يتميّز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام ،فلا يحتاج إلى التنبيه عليه. وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات". (صبح الأعشى . 274/1).

([3]) المقرّي : نفح الطيب . 377/5 .

عن الأسى والألم الذي اعتصر قلب ابن عميرة ، ولذلك جعلها مفتتحا لكلامه وتمهيدا لمبتغاه .

يقول الكاتب في رسالته (1) :

" ألَا أيّها القلبُ المَصرّح بالوَجدِ أمَالَك مِن بَادي الصّبابَة مِن بُدّ

... أمِن بَعـد رُزْءٍ فِي بلنْـسِيَةٍ ثَوَى بِ أحْنَائِـنا كالنّار مُضـمرَة الوَقد ...

مَرحبا بالسّحاءة وما أعَارت أفقي مِن الإضاءَة ..."

ويُفهَم من كلام الكلاعي السابق ، أن هناك بعض الكتّاب من يمزج نثره بشعر غيره . ولقد وجدنا بعض الكُتّاب مَن يُضمّن رسائلَه بشعر الأندلسيّين ، وخاصة في حقل المناظرات والمفاخرات ، لأنّه الأنسب لتحقيق المُراد واستجلاء الوطنية . فالشّقندي - مثلا - عندما أراد أن يفاخر بشعراء الأندلس اختار- في رسالته - بعضا مِمّن كان شعرُه على درجة عالية من الجودة ، حيث استشهد بشعر المعتمد بن عباد ، وابن دراج القسطلي الذي أثنى عليه الثعالبي . يقول الشقندي في رسالته (2) : " ..... وهل لكم في الشّعْر مَلِك مثل المعتمد بن عباد في قوله :

وليْلى بِسُدّ النّـهر أنْـسا قـطعْتُه بِ ذات سِوار مِـثل منـعَطـف النّـهر

نضَت بُردَها عَن غُصن بَان مُنعّم فيَا حُسْن ماانشَقّ الكُمام عَن الزّهْر "

ويقول أيضا (3) : " وهل لكم مِثل شاعر الأندلُس ابن دَرّاج الذي قال فيه الثّعَالبي : " هوبِ الصقْ ع الأندلُسي كالمتنبّي بِ صِقع الشّام " ، الذي إن مدح المُلوك قال مثل قوله :

ألَمْ تعْلَمي أنّ الثوّاءَ هُو التّوى وأنّ بُيوت العاجِزين قبُور

وأنّ خَطِيراتِ المَهالك ضُمَّن لِراكِبِها أنّ الجَزاءَ خطِير "

فمنطق الفخر هو الذي جعل الكاتب يتخيّر بعضَ الأبيات التي استحسنها لشعراء معروفين في الأندلس .

---

(1) م.س . 241/1 .
(2) م.ن . 32/4 .
(3) م.ن . 33/4 .

ونجد كذلك صفوان بن ادريس يستشهد ببيتين من الشّعر لأبي عبد الله بن عياش؛ لأنّ منطق الجدال والمناظرة هو الذي جعل تُدمير تزدري ببلنسية التي ذكرتْ جملة من محاسنها ، تفتخر بها على باقي المدن الأخرى . يقول ابن ادريس في رسالته(1) : " فإلَامَ تبرز الإماء في منصّة العقائل ، و لكن اذكُري قول القائل :

بلَنسِيةٌ بِ يذِي عن القَلْب سَلْوة   فإنّـك روْض لا أحِنّ لِـزهْـرك

وكيفَ يُحِبّ المَرءُ دارا تقسّمتْ   علَى صَارمَي جُوع وفتْنة مُشرك "

ولقد كان التّضمين أيضا من الرافد الشعري المشرقي ، إلا أنه لم يكن كثيرا . ولقد اكتفى بعض الكتّاب بذكر أبيات قلائل فقط ، جاءت في الغالب في صورة بيت أو بيتين ؛ ويرجع سبب ذلك إلى ميل كثير من الأندلسيين إلى أشعار أهل بلدهم ، خاصة عندما تبينت ملامح الشعر الأندلسي ، ولم يعد صورةً طبق الأصل للشعر المشرقي ، إذ كانت رغبة كثير من الأندلسيين في العصور الأولى ، في احتذاء الشعر المشرقي والنسج على منواله والتعلق به . ومن الشعراء الذين كانت لهم الحظوة في نفوس الأندلسيين أبو تمام ، فقد ظلّت غُرر أشعاره يتمثل بها بعض الشعراء في قصائدهم(2)، ويضمنها الكتاب في رسائلهم . ويلاحَظ أنّ الأندلسيّين أُعجِبوا ببائية أبي تمام التي قالها في فتح عمّورية ، بل "كانت كُتب الفتوح في الأندلس والمغرب تُصدّر بقول أبي تمام"(3) في بائيته .

فهذا الكاتب أبو الحسن بن عياش يُضمّن بيتا من بائية أبي تمام في رسالة كتبها بمناسبة فتح مدينة مرسية ، حيث يقول (4) : ".... وأظهر من آيات الله تعالى ما فاق بيان ذوي المعارف ، مِن صُنع لم يُر مثلُه من الحِقب ......

فتْح الفُتوح تعالى أن يُحيط به   نظْمٌ مِن الشّعر أو نثْر مِن الخُطَب * "

---

(1) زاد المسافر . ص 17 .

(2) ينظر : محمد بن شريفة : أبو تمّام وأبو الطيّب في أدب المغاربة . بيروت : دار الغرب الإسلامي . ط1986/1. ص 56 .

(3) م.ن . ص 57 .

(4) ابن صاحب الصّلاة : المّن بالإمامة . ص 202 .

(*) أبو تمام : ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي . 45/1 .

فهذا البيت فيه من القوة والجزالة ما يعطي للنثر شاعرية وموسيقى تستعذبها النفس ، بالإضافة إلى إضفاء العظمة والهيبة على ذلك الفتح .

- هناك مِن الكُتّاب مَن كان يأتي بشطر بيت واحد ويمزجه بكلامه النثري ، ويعود ذلك لكثرة محفوظ الكاتب ، ولتمكُنه مِن فن الكتابة وأصولها ، فيجعل القارئ لا يحس بوجود شعر بين نثر، إلا من كان على علم به . والغالب أنهم يستعملون بعض الأشطار المعروفة ، من ذلك ما جاء عند صفوان بن ادريس في رسالته التي يقول فيها(1) : "ماالذي يجديك الروضُ والزهر ، أم ما يفيدك الجدول والنهر ، وهل يفسد العطّار ما أفسد الدّهر ". فعند مقابلة أجزاء هذا المقطع النثري ، ندرك مدى التمازج والانسيابية في المعنى الذي اشترك فيه شطر البيت (وهل يفسد العطار ما أفسد الدهر)، مع ماتقدمه من النثر ، وصار هذا المقطع لوحة موسيقية انصهر فيها الشعر مع النثر، "دون أن يبز أحدهما الآخر في متانة تركيب وحسن سبك ، أو تجانس في اللفظ والمعنى"(2).

ولقد كانت هذه طريقة الكتّاب المقتدرين والعارفين بأفانين الشعر ، بل والمبرّزين فيه والذين ينظمون الجيّد منه . وهذه الطريقة أصعب من الإتيان بأبيات يُستشهد بها وتكون منفصلة عن الكلام النثري . يقول عرفة حلمي عباس في هذا الباب(3) : " إنّ تضمين الشعر طريقة مألوفة في الكتابة النثرية بوجه عام ، غير أن هذه الطريقة (أي تضمين شطر بيت في النثر) قلمّا يسلكها إلا المَهرة من الكتّاب لصعوبة المُواءمة بين المعنى الشعري والمعنى النثري من ناحية ، وبين انتظام قافية البيت مع سجعات النثر" . فلهذه الصعوبة المُشار إليها في هذا القول لم نجد نماذج أخرى في كتابات النثر الموحّدي السّائر في الاتجاه الوطني .

- يُفهم من آخر كلام عرفة حلمي عباس ، أنّ هناك من الكتّاب من يوافق بين انتظام قافية البيت أو الأبيات مع سجعات النثر، ومنهم من يخالف في ذلك . أمّا

---

(1) زاد المسافر . ص 17 .

(2) رضا عبد الغني الكساسبة : النّثر الفنّي في عصر الموحّدين . ص 207 .

(3) نقد النّثر ، النّظرية والتطبيق ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ط1 / 2009 . ص 16.

المخالفون فهُم كُثر ، نذكر على سبيل المثال ما جاء في رسالة صفوان بن ادريس في قوله (1) : " ولم يعطف علي جنان مجده ويثني ، وإن أنشد يوما فإياي يعني :

بلاد بها عقّ الشباب تمائمي وأوّل أرْض مسّ جلدي تُرابها".

وغيره كثير . في حين أنّ التوافق لم يتحقق إلا مع توظيفهم لأشطار الأبيات الممزوجة مزجا كاملا مع النثر ، لا يحول بينهما شيئ . وأضيف هنا مثالا آخر جاء في رسالة صفوان حيث يقول (2) : " ومن قدّم صالحا فلا بد أن يوازيه ، ومن يفعل الخير لا يعدم جوازيه ".

وفي الأخير نخلص إلى أنّ الشعر خدَم كثيرا النثر ، واستطاع الكتّاب أن يوظفوه توظيفا حسنا ، فبدا الشعر كأنه فقرة نثرية ، أو النثر كأنه قطعة شعرية . وقد راعى الكتّاب في هذا المزج التوفيق في المعنى وتأدية الغرض المنشود .

3- الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي :

تطرقنا في الفصل الأول عندما تحدثنا عن بعض الأعلام الأندلسيين في عصر الدولة الموحدية ، إلى أن أغلبهم كان ذا ثقافة دينية ، حيث بدأوا تعليمهم الأولي انطلاقا من حفظ القرآن الكريم ومدارسته . وهذه الطريقة لم تكن وليدة هذا العصر، وإنّما هي خطة ظلّت قائمة في ربوع الأندلس على مختلف الأزمان . يقول ابن خلدون :(3) " وأمّا أهل الأندلس ، فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو، وهذا الذي يراعونه في التعليم ، إلا أنّه لما كان القرآن أصل ذلك وأسّه ، ومنبع الدّين والعلوم، جعلوه أصلاً في التعليم " .

فقلّما نجد رسالة أندلسية لا تحتوي على آيات قرآنية، بل ربما لا نجد لوناً نثرياً، رسالة كان أو مقامة أو غيرهما ، خاليا من هذا النوع من الاستشهاد . يُضاف إلى هذا،أنّ البيئة الأندلسية التي سادها الجانب الديني إبان عصر الموحدين ، كانت عاملاً

---

(1) زاد المسافر . ص 16.
(2) م.ن . ص 14.
(3) المقدّمة ، ص 556 .

آخر في شيوع الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وفيما يلي تفصيل ذلك :

يقتبس كثير من الكتّاب الأندلسيين آية أو جزءاً من آية ، دون الإشارة إليها أو التمهيد لها ، وهي طريقة يعتمدها الكتّاب المجيدون ويفضّلها النقاد والدارسون . وقد اشتهر بها في بلاد الأندلس في عهد الموحدين صفوان بن إدريس التجيبي ، خاصة في رسالته المشهورة التي ناظر فيها بين مدن الأندلس . يقول على سبيل المثال (1) : " ويغْرِقون في رياض ذِكرك العاطر بمُدام حبّك ويصطبحون ، (كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) "(2) . نلاحظ أنّ الكاتب استعمل هذا الجزء من آية (كل حزب بما لديهم فرحون) ، في صدد حديثه عن تلك المدن التي استعدت للقاء الأمير، حيث كل واحدة منها تريد إظهار محاسنها وخصالها على الأخريات وتمدح نفسها بين يدي الأمير، وورد هذا المعنى في المقطع الذي سبق الآية في قوله : ((وللبلاد ، من قِراع على تملكك لها وجلاد ، يتمنَّون شخصك الكريم على الله ويقترحون))(3) ، فلخّص هذا المشهد كله في الآية السابقة ، وجاء التعبير بهذا الانسجام بديعاً .

ونجد صفوان في مكان آخر من رسالته يُنبّه على وجود جزء من آية بلفظ (يتلو) ، وهي صيغة غير مباشرة ، لأنّها قد تستعمل لغير القرآن ؛ فالإشارة المباشرة هي أنه يقول مثلاً : يقول الله تعالى ، أو ما يشابهها من الصّيغ المعروفة . يقول الكاتب(4) : "... ويصيخ إلى إجابة دعوته ويصغي ، ويتلو إذا بُشّر بك (ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ)"(5) .

ويجب التنبيه إلى أن رسالة صفوان مشحونة بالقرآن الكريم ، حيث استطاع بمقدرته الأدبية أن يدمج بين كلامه ومعنى الآية بشكل عجيب .وقد اختتم تقريباً حديث

---

(1) زاد المسافر . ص 14.
(2) سورة : المؤمنون ، الآية : 53 .
(3) م.ن . ص.ن .
(4) م.ن . ص.ن .
(5) سورة : الكهف ، الآية : 64 .

كل مدينة بجزء من آية ، ولا أدلّ على براعته من قوله :(1) " وكفوّا عن تبَاريكم (ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٌ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ) (2)" ، لنلحظ كيف أحدث هذا الإيقاع الموسيقي جمالية في السياق بين (عن تباريكم وعند باريكم) ، فالاختلاف بينهما فقط في حرف التاء والدال ، وهما من مخرج صوتي واحد ، ولكن الكاتب كان حسن التصرف ، فطوّع الآية بشكل تساوقت فيه مع ما سبقها .

وإذا كان صفوان بن إدريس يكتفي بجزء يسير من القرآن -نظراً لأنه لم يكن يقصد هذا المزج بين الآية وكلامه على سبيل الاستشهاد في كثير من الأحيان ، وإنما كان يُظهر مدى مقدرته الفنية وعبقريته في توظيف القرآن - فإنّ بعض الكتّاب الآخرين استشهدو بآيات طوال . فهذا الكاتب ابن عياش يقول في الرسالة التي كتبها عن الأمير محمد الناصر : (3) "...ومازال الخلفاء الراشدون - أي خلفاء دولة الموحّدين - يدعونهم بالتّذكر الذي هم له غافلون ، (وَهُمۡ يَنۡهَوۡنَ عَنۡهُ وَيَنۡـَٔوۡنَ عَنۡهُۖ وَإِن يُهۡلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ) (4) ، تقذف إليهم في كل حين درر المواعظ أمواج البحار" . إنّ الذي ليس له دراية بالقرآن الكريم ، لا يستطيع أن يفرق بينه وبين كلام ابن عياش . وليس معنى هذا أن الكاتب وصل إلى درجة محاكاة كلام الله تبارك وتعالى ، ولكن لأنه تماشى معه في معناه فاندمجاً معاً ، كما يفعل الخطيب- مثلاً- في خطبته ، ولا يفرق بينهما إلا الحافظ لكتاب الله ، أو من أوتي بلاغة الأولين وفصاحة النابغين .

ويقول في مكان آخر من الرسالة نفسها : (5) "... وقلوب الموحّدين على التّظافر متوافقة ، وشعار العدوّ المعرّة والهون ، والهلاك الذي سبقت به الكاف والنون، ولسان الحال يتلو ما يوقن به الموقنون ، (فَقَدۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ)"(6) ، إلى أن يقول : (7) " واعلموا أن هؤلاء الأشرار كانوا

(1) م.ن . ص 15.
(2) سورة : البقرة ، الآية : 54 .
(3) مجموع رسائل موحّدية . ص 244 .
(4) سورة : الأنعام ، الآية : 26 .
(5) م.ن . ص 245- 246 .
(6) سورة : الأنعام ، الآية : 05 .
(7) م.ن . ص 247 .

يجادلونكم القِبلة وهم عنها مدبرون ، ويدعون معكم أيماناً بكتب الله وهم عنها معرضون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (1) ، أولئك الذين راموا الشّحنة العظمى بالتحريف والتبديل" .

إنّ هذا الخطاب القرآني الذي وظفه الكاتب ، كان شديد التقريع في وصف أعداء المسلمين ، وجاء متماً للمعنى الذي أراده ابن عياش . وأفصحتْ تلك الآيات عمّا يقتضيه الفتح ، في قوله تعالى : ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِيهِمۡ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ ؛ أي أنباء الفتح ، فزادت هذه الآية كلامَ ابن عياش فصاحة وبيانا . وفي قوله تعالى :﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ ، شحن لنفوس الفاتحين ؛ فالضّال عن الطريق الواضح سهل الوقوع في أيدي المسلمين .

- هناك مِن الكتّاب من تأثّر بالمعجم القرآني في رسائله ، فراح يقتبس منه بعض الألفاظ والتراكيب والمعاني المعروفة في القرآن ، دون أن أخذ الآية بنصّها ، بل يُفهم منها أن صاحبها له دراية بها ، فتأثر بها فاستعملها . ولقد كان ورود هذا النوع من الاقتباسات على شكلين : إمّا أن يستعمل الكاتب ألفاظاً قرآنية، أو تعبيراً يُشير إلى آية قرآنية بعينها ، وقد كان هذا الشكل الثاني هو الغالب .

فمن الاستعمال الأول ، نجد مثلاً لفظة (الاتساق) في رسالة الشقندي عند حديثه عن بعض ملوك الأندلس في قوله : (2) " ولم تزل ملوكهم في الاتساق كما قيل :

إنّ الخِلافة فيكُم لم تَزل نَسقا   كالعِقد مَنظومة فيه فَرائدُه

إلى أن حكم الله بنثر سلكهم وذهاب ملكهم ". ووردت هذه اللفظة في قوله تعالى:(3) ﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ . جاء في تفسير هذه الآية ، أن "اتّسق" "اتّسق" بمعنى :(4) " اجتمع وتمّ نوره، وذلك في الليالي البِيض " ، وهذا المعنى ينطبق تماما مع ما جاء به الشقندي عندما ذكر حكام الأندلس أيام دولة الأمويين الذين

---

(1) سورة : المائدة ، الآية : 60 .
(2)المقّري : نفح الطيب . 29/4 .
(3) سورة : الانشقاق ، الآيتان : 17- 18.
(4) الصاوي :حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، مذيلاً بلباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، إشراف ومراجعة وتقديم: صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . ط2005/1 ، 6/ 2336.

ازدهرت بهم البلاد ، وحافظت على استقرارها ، حينما كانوا متّحدين ومجتمعين على رأي واحد ، إلى أن انتثر سلكهم ، وذهبت ريحهم . وكذلك اتساق القمر عندما يصير بدراً يشّع نوره ويتلألأ، إلى أن يأفل ويغيب .

ووردت أيضاً لفظة قرآنية أخرى في قوله : (1) "فتلطّف لذلك في أن يأتي به في منزع يُصيّر خلقه في الأسماع جديداً، وكليله في الأفكار حديداً " ، فكلمة "حديد" ذكرت في قوله تعالى : (2) ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ؛ والبصر الحديد هو القوي النافذ(3) . وواضح من كلام الكاتب ، ما أضفته تلك اللفظة من معنى بليغ ، عندما أخبرنا عن أحد الشعراء الأندلسيين ، الذي فاخر به وفضّل بعض تشبيهاته التي خرج بها عما ألفه الشعراء ، كتشبيههم الثغر بالأقاح ، والزهر بالنجوم ، والخدود بالشقائق ، وكأن هذه هي الكليلة ؛ وما جاء به هو الحديد النافذ .

لقد كان وجود بعض الألفاظ القرآنية في كتابات الأندلسيين، نظراً لما تمتاز به من " الجمال والفن ، وصورة الابداع التي تشع منها ، وظلال المشاهد الحية ، وقوة الحركة فيها ، ومقدار ما تملكه من سيطرة على الوجدان والمخيلة ، ومدى إثارتها وتأثيرها على النفس ، وفتح الآفاق ، لتحلّ اللفظة محل ريشة رسام مبدع ، فتصور بالألوان والخطوط ، وتنقش فيها الحياة ، ليعيش الدارس على أرض خصبة تموج بالحركة وبالإثارة وبالتصوير المتنوع " (4) .

أمّا الشكل الثاني فهو كثير، استعمله أغلب كتّاب هذا العصر في رسائل جمَّة . والملاحظ أنّ عبقرية الكاتب في توظيفه هي التي تحدد صواب هذا النوع جودته ، لأنه يكون في كلام الكاتب ما يشير إلى آية قرآنية ، وقد يختلف المعنيان إن لم يكن التركيب والسبك جيداً .

فهذا الكاتب الفقيه أبو المطرّف بن عميرة ، تأتيه الآيات القرآنية طيّعة مرنة، يأخذ منها زبدتها ويفرغها في قالب يخدم غرضه ومراده . ففي الرسالة التي بعثها إلى

---

(1) المقّري : نفح الطيب . 37/4 .
(2) سورة : ق ، الآية : 22 .
(3) ينظر: أبو عبد الله القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : حامد أحمد الطاهر . القاهرة : دار الغد الجديد . ط2010/1 . 9 /17 .
(4) عمر السّلامي : الإعجاز الفنّي في القرآن . تونس : نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله . د.ط/ 1980. ص 72.

أبي جعفر بن أمية واصفاً له حال بلنسبة ، نجده يستعمل بعض التعبيرات التي تشير إلى آيات قرآنية بعينها .يقول مثلاً (1) :" فيا من حضر يوم البطشة ، وعُزّي في أنسه بعد تلك الوحشة، أحقاً أنّه دُكت الأرض...وجاء اليوم العسر، وأوقدت نار الحزن فلا تستعر؟ حلم ما نرى؟ بل ما رأى ذا حالم ، طوفان يقال عنده لا عاصم " . فقوله : (يوم البطشة ، ودكت الأرض) ، تعبيران لهما مدلول لآيتين هما : قوله تعالى : (2) (يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ) ، وقوله تعالى :(3) (كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلۡأَرۡضُ دَكّا دَكّا). فالكاتب ابن عميرة استطاع بهذين التعبيرين أن يصف لصديقه هول الكارثة والمصيبة الجسيمة التي حلت بمدينة بلنسية ، وكأن القيامة قامت بسقوط هذه المدينة ، وبالتالي أعطت هذه اللفتة القرآنية لتعبير الكاتب قوة وحركية في الصورة ، وذلك لدغدغة النفوس وإثارة العَبرات .

أمّا قوله (طوفان يُقال عنده لا عاصم) ، فهو إشارة إلى قوله تعالى : (4) (قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ ، وهو خطاب وجّهه نبي الله نوح إلى ابنه الذي التجأ إلى جبل أراد أن يعتصم به من الطوفان . وقد أخذ الكاتب هذا المعنى ليؤكد على أن طوفان النصارى الذي دخل المدينة أهلكها وخربها ولم تعد لها عصمة منه .

ويبدو أن رثاء المدن قد استحوذ على النصيب الأوفر من هذا النوع ، فقد كان له حضور عند الكاتب الفقيه ابن الأبّار في الرسالة التي بعثها إلى صديقه أبي المطرّف بن عميرة ، حينما استولى الإفرنج على مدينة بلنسية التي شغلت الشعراء والكتاب بسقوطها ، وبعض المدن الأخرى كجزيرة شُقر، ودانية ، والمِرية ، وغيرها . يقول ابن الأبّار: (5) " أين بلنسية ومغانيها...ومع ذلك اقتحمت دانية ، فنزحت قطوفها وهي دانية...ما هذا النفخ بالمعمور؟ أهو النفح في الصور؟...وما لأندلس أصيبت بأشرافها ،

---

(1) المقري : نفح الطيب . 242/1 .
(2) سورة : الدّخان ، الآية : 16 .
(3) سورة : الفجر ، الآية : 21 .
(4) سورة : هود ، الآية : 43 .
(5) م.ن . 242/1 .

ونقصت من أطرافها؟... وهذه الإمامة أيدها الله تعالى ، هي المنقذة من أسرها ، والمنفذة لسلطانها مراسم نصرها فيتاح الأخذ بالنار، ويزاح عن الجنة أهل النار...".

إنّ المقابلة بين بعض جُمل ابن الأبّار والآيات التي اقتبس منها ، تكون على النّحو التالي :

فنزحت قطوفها وهي دانية ← (فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ) سورة:الحاقة، الآية:22-23

أهو النّفخ في الصّور ← (يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا) سورة:النبأ، الآية:18

ونقصت من أطرافها ← (أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا) سورة:الرعد، الآية:41

ويُزاح عن الجنّة أهلُ النار ← (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ) سورة: آل عمران ، الآية:185. (الصّورة بينهما معكوسة ، إلا أنّهما يشتركان في عملية الزّحزحة)

إذن نخلص من هذا كله ، أنّ كتّاب هذا العصر، كانوا مولعين بالقرآن الكريم ؛ لأنّ أغلبهم كان في متشبعاً بالثقافة الدينية ، وهذا ما ساعدهم على حسن توظيف آي القرآن ، الذي لم يأتوا به فقط على سبيل الاستشهاد ، وإنّما أضفى على تلك الرسائل صبغة فنية .

أمّا حظ تلك الرّسائل التي صبّت في الاتجاه الوطني من الحديث النبوي ، فلم يكن بالدرجة التي كان عليها بالنسبة للقرآن الكريم ، وقد تفاوت توظيف الحديث الشريف فيها من كاتب لآخر . والملاحظ أن أبا المطرّف بن عميرة ، كان أكثر الكتّاب تأثراً بكلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وسنكتفي في هذا الجانب بإيراد بعض الأمثلة من رسائله السابقة .

جاء في رسالته التي بعثها إلى أبي جعفر بن أمية حين دخل النصارى بلنسية قوله : "مرحباً بالسّحاءة وما أعارت أفقي من الإضاءة... بلاغة تفتن كل لبيب ، وترعى روض كل أديب ، وتغض على رغم العدو من حبيب ، إنّ من البيان لسحراً ، ويا أيها الجواد وجدناك بحراً". فقوله : " إنّ من البيان لسحراً " (1) ، هو من جوامع كلم النبي صلى الله عليه وسلم. فالكاتب وظف هذا الحديث كمقدمة لكلامه الذي يُريد أن يبين فيه المصائب التي حلّت ببلنسية ببلاغة واضحة ، وبيان يسحر ذوي العقول .

وفي مكان آخر من الرسالة نفسها ، يدعم كلامه بجزء من حديث ، عندما أثنى على منظوم أبي جعفر بن أمية ومنثوره في قوله (2) : ثم نثرت على القرطاس شذور النثور... ورأيتك استمددت ولك الباع الأمد ، وأعرت محاسنك والعارية تُردّ ، وجئت باللألاءة تروق أربعتها وتخرس بها قعقعة الأشعار وجعجعتها " ، و الشاهد في هذا المقطع هو قوله : (والعارية ترد) ، وقد أخذه من الحديث النبوي الشريف : (العَارِيَةُ مُؤَدَّاة) (3).

ويلجأ ابن عميرة إلى معنى حديث نبوي لا إلى لفظه ، في مكان آخر من الرسالة، ووظفه توظيفاً محكماً ، ينمّ عن عبقرية الكاتب وفهمه العميق للشرع . يقول أبو المطرّف : (4) " ومالت قواعد الملة ، وصرنا إلى جمع القلة ، وللشرك صيال وتخمط ، ولقرنه في شَرَكه تخبط ، وقد عاد الدين إلى غربته ، وشرق الإسلام بكربته". فبعد أن كانت بلنسية مدينة للعلم والعلماء ، والأمن والطمأنينة ، وانتشر الإسلام فيها قروناً ، ها هو الشرك يعود إليها ، والإسلام يطمس فيها، بعد أن دخلها النصارى وعاثوا فيها فساداً ، فصار الدين في بلنسية غريباً . وهذا المعنى موجود في قوله صلى الله عليه وسلم : (إنّ الإسلام بَدأَ غَريباً وسَيَعُودُ غَريبا كَمَا بَدَأَ فطُوبَى لِلغُرَبَاء) (5).

(1) زين الدّين الزبيدي : مختصر صحيح البخاري . الجزائر: دار الإمام مالك . ط2013/2 . ص 467 .
(2) المقّري : نفح الطيب . 1/ 242 .
(3) ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي ، وبحاشية تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري ، حقق أصوله وخرج أحاديثه : الشيخ خليل مأمون شيحا . بيروت: دار المعرفة . ط1996/1. 138/3.
(4) م.س . ص.ن .
(5) الترمذي :الجامع الكبير ، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : بشار عواد معروف ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 / 1996 ، 4 / 371 .

4- توظيف المَثل :

يُعرّف ابن السّكيت المَثل بقوله : (1) " المَثل لِفظٌ يخالف لفظَ المضروب له ، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ ، شبّهوه بالمثال الذي يُعمَل عليه غيره ".

ويُوَضّح ابن المقفع قيمة المثل وأثره في الكلام والسامع فيقول : (2) " إذا جعل الكلام مثلا كان أوضح للمنطق ، وآنق للسّمع ، وأوسع لشعوب الحديث " .

ويذكر إبراهيم النّظّام أربعة أشياء يتميز بها المثل عن الكلام ، حيث قال : (3) "يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ ، وإصابة المعنى ، وحسن التشبيه وجودة الكناية ، فهو نهاية البلاغة ".

ولم تخل كتابات العصر الموحّدي السائرة في الاتجاه الوطني ، من توظيف بعض الأمثال ، إلا أنها لم تكن كثيرة كثرة استعمال أولائك الكتّاب للقرآن الكريم والشعر العربي .

فهاهو صفوان بن إدريس التجيبي يستعمل بعض الأمثال في رسالته التي كان الحديث فيها عن تغاير بعض مدن الأندلس . وهذا النوع من الكتابات الفنية يستدعي توظيف بعض الأمثال ، كقول صفوان في رسالته على لسان مدينة غرناطة : (4) " فحُسني لا يُطمع فيه و لا يُحتال ، فدعوني (فكل ذات ذيل تختال)* " . إن المقام هو مقام فخر وإظهار للمحاسن ، فكما أن الطاووس يختال بذيله الطويل الذي يعطيه جمالاً وحسناً بين الطيور الأخرى، فمدينة غرناطة هي أيضاً تُظهر بين يدي الأمير من المحاسن ما يجعلها مقدَمة على المدن الأخرى .

وفي مكان آخر من الرسالة ، عندما رأت تُدمير من بلنسية ما أساءها ، وقد تعالت بوصف ما تحوزه من محاسن فقالت : (5) " فاجمعوا على الانقياد لي والسلام ،

---

(1) أبو الفضل أحمد الميداني : مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد . مطبعة السنة المحمدية . د.ط/1955 . 6/1 .
(2) م.ن . ص.ن .
(3) م.س . ص.ن .
(4) صفوان بن إدريس : زاد المسافر . ص 15.
(*) م.س . 134/2 .
(5) صفوان بن إدريس : زاد المسافر . ص 17.

، و إلا فعضوا بناناً واقرعوا أسناناً " ، عند ذلك أنكرت تدمير قولها ، وسخِرت منها وتعجّبت بمَثل فقالت لها:(1) "عِش رجَباً، تر عجباً "

كان هذا المثل فاتحة رد تدمير على بلنسية ، حيث لم تكتف به ، وإنّما أعلنت عداءها لها صراحة ، ونفت عنها مزاعمها دون أن تطيل الكلام ، ولم تسرد ما يمكن أن يبعث الملل في النفس ، وإنّما جمعت ذلك كله في مثل اختصرت فيه مرادها ، ودفعت به كلام غريمتها فقالت:(2) هذه سماء الفخر، فمن ضمّك أن تعرجي، ليس بِ عشّك فادرجي * " ، وهو مثل يضرب لمن يرفع نفسه فوق قدره .

ويمكن أن نستنتج من خلال توظيف المثل في بعض كتابات الاتجاه الوطني على عهد الموحدين ما يلي :

- شاع المثل في الرسائل الفنية التي صبت في قالب المناظرة وذكر الفضائل والمحاسن ، في حين أن رسائل رثاء المدن مثلاً وُجدت فيها الحكمة (شعراً ونثراً) ، وهي الأنسب لهذا الغرض .

كان استعمالهم لتلك الأمثال بشكل مباشر، دون حذف ، أو إضافة ، أو تقديم ، أو تأخير، ودون أن يحلّوا معقودها ، بل وظفوها كما هي .

- استطاع أولئك الكتاب ، أن يمزجوا بين كلامهم والأمثال التي استعملوها ، بشكل فنّي بديع ؛ بحيث جاء المعنى متساوقاً ومنتظماً مع ما قبله دون خلل ، واحترموا مع ذلك منطق السّجع الذي شاع في أسلوبهم .

5- الألفاظ :

أفاض كثير من النقاد القدامى والدارسين الحديث عن استعمالات اللفظ في الكلام المنثور، ورأى بعضهم (3) أن ما يستعمل من الألفاظ في النثر، يجوز توظيفه في الشعر، والعكس غير صحيح . ومن المعروف أن لكل نوع من أنوع النثر ألفاظاً

---

(1) م.س . ص.ن .
(2) م.ن ، ص.ن .
(*) الميداني : مجمع الأمثال . 2/ 181 .
(3) مِن هؤلاء مثلاً : ابن الأثير . (ينظر: المثل السائر . 168/1).

تناسبه، وهو أمر متفق عليه عند كثير من المتخصصين في هذا المجال ، وفيما يلي بيان ذلك :

- لقد كانت السّمة البارزة للألفاظ التي استعملها الكتّاب الأندلسيون - في الغالب - هي "السهولة والوضوح ، والابتعاد عن التعقيد ، والغرابة ، والوحشية ، وغيرها من الصفات التي تخل بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه أهل البلاغة ، من تنافر الحروف ووحشية الألفاظ ومخالفة القياس " (1) . وهذه الميزة تكاد تنطبق على كل ما وقفت عليه من رسائل الاتجاه الوطني على عهد الموحدين .

- ويُضاف إلى هذا ، أن الكتّاب الأندلسيين - على العموم -وظّفوا من الألفاظ التي تداولها أهل المشرق ، ما تناسب مع حياتهم وحاجاتهم النفسية والفكرية والسياسية، وما هو نابع من بيئتهم الطبيعية ، فاختفت - إلى حدّ بعيد - كثير من الألفاظ الوحشية والغريبة التي كان يستعملها الكتاب المشارقة (2) .

- إنّ الرسائل التي كُتبت في بيان فضل الأندلس ، كانت الألفاظ فيها واضحة وسهلة ، ولا يكتنفها الغموض ؛ فرسالة ابن سعيد التي ذيّل بها رسالة ابن حزم ، يجد الباحث فيها طابع السهولة في الألفاظ ، والوضوح في المفردات ، والابتعاد عن صعبها وغريبها . يظهر هذا -مثلاً- في قوله وهو يستعرض بعض الأعلام الأندلسيين الفطاحل وبعض مصنفاتهم (3) : " وأمّا القراءات فلمكي المذكور فيها كتاب : التبّصرة... وأمّا الحديث فكان بعصرنا في المائة السابقة الإمام أبو الحسن علي بن القطان القرطبي ... وإليه كانت النّهاية والإشارة في عصرنا " .

وفي مثل قول الشقندي - أيضاً - في الغرض نفسه (4) : " وإنّك إن تعرّضت للمفاضلة بالعلماء فأخبرني : هل لكم في الفقه مثل عبد الملك بن حبيب الذي يُعمل بأقواله إلى الآن ، ومثل أبي الوليد الباجي ..." .

---

(1) فايز عبد النبي القيسي : أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، عمان : دار البشير ، ط1 / 1989 . ص 339 .
(2) ينظر: رضا عبد الغني الكساسبة : النّثر الفني في عصر الموحّدين وارتباطه بواقعهم الحضاري . ص 217 .
(3) المقّري : نفح الطيب . 23/4 .
(4) م.ن . 31/4 .

فقضية إظهار الفضل ، والرّد على من زعم أنّ الأندلسيين كانوا دون غيرهم في التأليف والتصنيف في مختلف العلوم هو الذي كان سبباً في سهولة الألفاظ ووضوحها . وعلى هذه الطريقة سارت " النصوص النثرية الموحدية في سهولة ألفاظها وتناغمها وتجانسها وترابطها في معانيها ، فهي واضحة الدلالات ، سهلة النطق ، جميلة الوقع على السمع ، تنسجم مع الذوق الأدبي السليم ، آخذة بأركان الفصاحة وأسبابها"(1) .

- تميزت ألفاظ بعض الرسائل بالجزالة والفخامة ، وهي سِمة نجدها في "وصف مواقف الحروب ، وفي قوارع التّهديد والتخويف وأشباه ذلك "(2) . وقد تجلى هذا في الرسائل التي كتبت في الفتوحات والغزوات . يقول أبو الحسن بن عياش إحدى رسائله : (3) " وحمَلت الروم حملتهم المعهودة ... والتفت عليهم قبائل الموحدين ، واحتدمت الحرب ، وحَمِي الوطيس ، وثارت سماء القّع دون الجو كواكب الظُبا والأسِنة ، وثبّت الله أقدام الموحدين ، وزلزل الله أقدام الملحدين ... والروم أكثر القتلى فيهم ، فخرّوا كأنّهم أعجاز نخل خاوية ".

فالألفاظ : (احتدمت ، حمي الوطيس ، النقع ، الظبا ، الأسنة) ، تدور في فلك الجزالة والفخامة .

ونجد هذه الخاصية أيضاً في الرسائل التي كُتبت في رثاء المدن ، مثل قول ابن الأبّار: (4) " فيا لله لأتراب دَرجوا ، وأصحاب عن الأوطان خرجوا ، قصّت الأجنحة وقيل طيروا ... فتفرّقوا أيدي سبا ، وانتشروا ملء الوهاد والرُّبا . ففي كل جانب عويل وزفره ، وبكل صدر غليل وحسره ، داء خامَر بلادنا حين أتاها ، ومازال بها حتى سجّى على موتاها ... فكانت تلك الحطمة طلّ الشؤبوب ، وباكورة البلاء المصبوب " .

- جاءت ألفاظ بعض الرسائل عذبة سلسة ، ينتظم بعضها مع بعض ، ومكوّنة جُملاً وتراكيب انسجمت إلى حدّ بعيد مع الاتجاه الوطني في النثر الأندلسي على عهد الموحدين . وليس اللفظ العذب " أن يكون رقيقاً سفسفاً ؛ وإنّما هو اللطيف الرقيق

---

(1) م.س . ص 218 .
(2) عرفة حلمي عباس : نقد النثر ، النظرية والتطبيق . ص 228 .
(3) ابن صاحب الصّلاة : المنّ بالإمامة . ص 206 .
(4)المقرّي : نفح الطيب . 5/ 378 .

الحاشية ، النّاعم الملمس " (1) . وتظهر هذه الألفاظ في الرسائل التي أشاد فيها الكتّاب بمحاسن المصنوعات ، مثل قول ابن صاحب الصلاة في وصف جامع قرطبة : " وظهور القباب مؤللة ، وبطونها مهّللة ، كأنّها تيجان، رصّع فيها ياقوت ومرجان ، قد قوس محرابها أحكم تقويس ... وكأنّ اللازورد حول وشومه ، وبين رسومه ، نتف من قوادم الحمام ، أو كسف من ظلل الغمام ... فأكرم بها مساع تشوق إلى جنّة الخلد ، ويهون في السّعي إليها إنفاق الطوارف والتّلد، تعظيماً لشعائر الله " (2) .

- خلت رسائل الاتجاه الوطني في هذا العصر- حسب اطلاعنا - من الألفاظ العامّية والمبتذلة ، لأنّ كتّاب هذا العصر في الاتجاه المذكور، كانوا على درجة عالية من البلاغة ، وعلى وعي تام بالألفاظ التي تخدم غرضهم ، فالشقندي ، و ابن سعيد ، وابن عياش ، و ابن صاحب الصلاة ، من الكتّاب البارزين ، والذين لهم قدم راسخة في فنّ الكتابة على عهد الموحدين.

6- الإيقاع الموسيقي :

إذا كان النقاد و والبلاغيون عرّفوا الشعر بأنّه كلام موزون مقفى ، فهذا لا يعني أنّ النثر الفنّي يفتقد خصوصية الوزن والإيقاع ، بل إنّ النّص إذا كان متماسكاً موزوناً ومعتدل الألفاظ ، نقي اللهجة، خالياً مِن التنافر، تحقق له نوع من التلاؤم والانسجام ، ونتج عنه إيقاع فنّي خاص ، وهو سرّ هذا الإحساس المبهم بالنشوة (3).

إنّ حضور هذه الخاصية في النثر، يختلف عن وجودها في الشعر؛ فإذا كان مبعثها في الشعر هو توالي التفعيلات بما فيها من متحركات وسواكن على نحو منتظم ، فإنّ مبعثها في النثر هو " المناسبة والموازنة بين الألفاظ في الجمل والعبارات ، أو بين الجمل والعبارات أنفسها"(4).

([1]) ابن الأثير : المثل السائر . 185/1- 194- 195 .
([2]) ينظر: رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق : فوزي سعد عيسى . ص 68 .
([3]) ينظر: إبتسام أحمد حمدان : الأسس الجماليّة للإيقاع البلاغي في العصر العباسي . حلب ، سوريا: دار القلم العربي ط1/ 1997 . ص 51 .
([4]) عثمان موافي : في نظرية الأدب ، من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم . الإسكندرية ، مصر: دار المعرفة الجامعية . د.ط/ 2000م ، 1/ 103 .

ومن ثمّ فإنّ للنثر إيقاعاً خاصاً به ، يكسبه جمالاً ورونقاً . " وقد حرص النقّاد والبلاغيون على أن لا تكون القيم الموسيقية للنثر الفنّي حِلية خارجية للزخرف والتزيين ، بل يرونها ضرورة تتبع المعنى ، وتنبع من الألفاظ الدالة عليه . وفي هذا ما يدل على أن الموسيقى من المقومات الجوهرية في النثر الفني ، لأنها تنبع من تفاعلات الكلمات في سياق النص ، وتعكس انفعالات القائل ، وترسم صورة لحرارة عاطفته ، وهي في الوقت نفسه من العوامل المهمّة التي تؤثر بإيقاعها في المتلقي " (1) .

ومن العناصر التي تؤلف إيقاعا موسيقياً في النثر الفني نذكر ما يلي :

أ- السّجع :

1- مفهومه :

جاء في كتاب سرّ الفصاحة ، أنّ السجع هو " تماثل الحروف في مقاطع الفصول " (2).

وفي تعريف القزويني ، نلحظ كلمة يُفهم منها مدى اهتمام الكتّاب ومبالغتهم في الإتيان بالسّجع ، وهي كلمة (تواطؤ) ، حيث يقول : " ومنه السجع ، وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد " (3) .

ويرى بعضهم (4) أن رتبة السّجع في النثر، كمنزلة القافية في الشعر .

أمّا ابن الأثير، ففصّل الكلام عن السجع وأطال ، وأتى فيه بما يغني عن كثير ممّا جاء به غيره من أصحاب هذه الصنعة ، وأورَد أمثلة كثيرة مختلفة المشارب دعّم بها آراءه .

وينبّهنا عبد القاهر الجرجاني ، إلى خصلة لطيفة يجب أن تتوفر في السّجع ، حتى يكون حسناً ومقبولاً؛ وهي أن يكون المعنى هو السّبب في حصول هذا السجع ، من غير تكلف ولا تصنّع ، حيث يقول : " فإنك لا تجد تجنيساً مقبولاً، ولا سجعاً

([1]) عرفة حملي عباس : نقد النثر ، النظرية والتطبيق . ص 353 .
([2]) ابن سنان الخفاجي . ص 171 .
([3]) القزويني : الإيضاح . ص 248 .
([4]) ينظر : أبو يعقوب السكاكي : مفتاح العلوم ، تحقيق ودراسة : أكرم عثمان يوسف . بغداد : مطبعة دار الرسالة . ط1982/1 . ص272 .

حسناً، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه ، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً " (1) .

وفيما يلي سنبين صورة السجع في نثر الاتجاه الوطني عند كتاب الموحدين في الأندلس :

- اقتدى الكتاب الأندلسيون في استعمالهم للسجع بالكتّاب المشارقة ، وأخذوا الكثير من مدارسهم ؛ كمدرسة الجاحظ ، وابن المقفع ، وابن العميد ، والقاضي الفاضل، وغيرهم . حيث أعجب كل كاتب بطريقة هؤلاء فأخذوا عنهم . والملاحظ أن الأندلسيين إذا كانوا قد اقتصدوا في السجع في العصور الأولى ، فإنّهم أكثروا منه بدءاً من عصر ملوك الطوائف ، بل " إن الكتّاب جميعاً يسجعون"(2)

وكان من أشهر أعلام النثر في عصر الدولة الموحّدية بالأندلس الذين احتذوا حذوا المشارقة ، ابن مُغاور الشاطبي ، وصفوان بن إدريس ، وأبو المطرف بن عميرة، فقد تأثر هؤلاء جميعاً بطريقة بديع الزمان في النثر القائم على السجع والجناس وغيرهما (3) .

ومع هذا فإن الكتّاب الأندلسيّين في هذا العصر، أخذوا من أدب المشارقة ما يناسب طبيعتهم ، وصبغوا نتاجهم بصبغة أندلسية موحّدية ، فتميزوا بطريقتهم التي فاقوا بها غيرهم ، فما كانوا همذانيين ، و لا جاحظيين ، ولا تلاميذ لابن العميد أو غيرهم ؛ وإنّما كانوا أندلسيين بكل المقاييس التي تميز أسلوباً عن غيره . فجاء نثرهم ثراً بالأسجاع ، والازدواج ، والطباق، والجناس ، والمقابلة ، وغيرها من الألوان التي تشكل اللوحة الموسيقية للنثر الفني في عصر الموحدين .(4)

2- أقسامه :

ينقسم الكلام المُسجّع إلى ثلاثة أقسام وهي (5) :

([1]) عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة . ص 11.
([2]) شوقي ضيف : الفنّ ومذاهبه في النثر العربي . مصر : دار المعارف . ط5 / د.ت . ص 325 .
([3]) ينظر : علي الغريب محمد الشناوي : النثر الأندلسي في عصر الموحّدين ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ط1/ 2009 . ص 281 .
([4]) ينظر: رضا عبد الغني الكساسبة :النّثر الفني في عصر الموحّدين . ص 237 .
([5]) ينظر ابن الأثير : المثل السائر . 1/255- 257 .

1- أن يكون الفصلان متساويين ، ولا يزيد أحدهما على الآخر . ومثاله قول أبي المطرّف بن عميرة في رثاء مدينة بلنسية : " فأودت الخفّة والحصافة ، وذهب الجسر والرّصافة ، ومزّقت الحلّة و الشّملة ، وأوحشت الجرف والرّملة " (1) .

نلاحظ أن الفصلين في هذه القطعة متساويان من حيث الألفاظ :

فأودت	الخفة	والخصافة	وذهب	الجسر	والرصافة
1	2	3	1	2	3

ومزقت	الحلة	والشملة	وأوجست	الجرف	والرملة
1	2	3	1	2	3

وهذا القسم - كما يرى ابن الأثير- هو أشرف السّجع منزلة ، وذلك للاعتدال الذي فيه ، حتى لكأنَّ هذه الفصول المتساوية الأجزاء ، أفُرغت في قالب واحد (2) .

2 - أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا طولاً يخرجه عن الاعتدال خروجاً كثيراً، لأنه يعد عيباً وقبحاً . وورد هذا القسم في بعض أجزاء رسالة الشّقندي في فضل الأندلس والأندلسيين ، حيث يقول : " أقن حياءك أيّها المغرّد بالنحيب ، المتزيّن بالخلف المتحبب إلى الغواني بالمشيب الخضيب " (3) .

وفي مكان آخر من الرسالة يقول : "... إذ نفقوا سوق العلوم ، وتباروا في المثوبة على المنثور والمنظوم " (4) . ونلاحظ من خلال المثالين ، أنّ طول الفصل الثاني كان معتدلاً، وليس طولاً يعيبه .

3- أن يكون الفصل الآخر أقصر من الأول .وهذا القسم يراه ابن الأثير عيباً ولا يحبّذه . يقول في هذا النوع : (وهو عندي عيب فاحش ، وسبب ذلك أنّ السجع

---

(1) المقري : نفح الطيب . 379/5 .
(2) م . س . 379/5 .
(3) م . س . 4/ 28 .
(4) م . ن . ص 29 .

يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول ، بحكم طوله، ثم يجيء الفصل الثاني قصيراً عن الأول ، فيكون كالشيء المبتور، فيبقى الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلى غاية فيعثر دونها " (1) .

ومثال هذا القسم ، جاء في رسالة أبي المطرّف التي بعث بها إلى الأمير الحفصي إذ يقول : " وتلافى فلّ الإسلام منه بفيئاته التي منها ينتظرون الكرّ، وبها يوعدون الفتح الأعز والنصر الأغرّ، فهم بين جِدة قبضوها ، وعِدّة رضوها ، وارتقاب للفتح أكبر هممهم منه درك الثار، وانتصاف لأهل الجنة من أهل النار . فأمّا الأوطان فقد أسْلتهم عنها جهة تنبت العز فيما تُنبته ، وتنفي من الضيم ما تلك تثبته " (2) .

عندما نقلب النظر في نثر الاتجاه الوطني ، نجد أن القسم الثالث الذي عدّه ابن الأثير عيباً كان هو السائد ، والقسم الثاني قَلتْ شواهده في تلك الكتابات ، أي أنّ الكتّاب الأندلسيين كانوا مولعين بتطويل الفصل الأول من السجع .

3- أنواعه :

يذكر أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي ، أن السجع أربعة أنواع (3) وهي : المنقاد، والمستجلب ، والمضارع ، والمشكل . والذي يعنينا في هذا العنصر هو: المنقاد والمستجلب والمشكل ، لأن هذا النوع من النثر ، لا يحتوي على المضارع . وفيما يلي بيان تلك الأنواع :

1- المنقاد : وسُمّي بهذا الاسم ، " لأنّه ينقاد طوعاً ، ويأتي قبل أن يُستدعى ويُستجلب ، وأكثر ما يأتي في فصل العاطل . فمنه ما يأتي متفقاً في الوزن والسجع"(4) ، نحو قول ابن الأبّار: " فليت شعري بم استوثق تمحيصها؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها " (5) . فاللفظتان (تمحيصها - تخصيصها) ، متفقتان في الوزن (تفعيلها) ، وهما مسجوعتان.

---

(1) المثل السائر . 257/1 .
(2) المقري : نفح الطيب . 1/ 244 – 245 .
(3) ينظر : إحكام صنعة الكلام . ص 233-237 .
(4) م . ن . ص 233 .
(5)المقري : نفح الطيب . 5/ 384 .

2- المستجلَب : يقول عنه الكلاعي : " ثمّ كثُرت الصّناعة وتشدّذ فيها القالة ، فاستجلبوا فيها السجع الفائق واللفظ الرائق . فلم يأتوا بـ غفور مع بصير ... ، بل جاؤوا بـ غفور مع كفور، فضمّوا الفاء وحرف المد واللين والراء . وجاؤوا بـ خبير مع ثبير ، وعبير وصبير، فراعوا شكل الحرف المُضمَن ، والتزموا من ذلك ما لا يلزم ، واستجلبوا منه ما ربما لم يأت في سياق الكلام" (1) .

مضمون كلام الكلاعي ، أنّ هذا النوع من السجع ، يجب أن تتفق ألفاظه من حيث الوزن والشكل ، وأن يلتزم الكاتب فيها ما لا يلزم . وهو لون بديعي اشتهر به الشاعر العباسي أبو العلاء المعري ، فجرى هذا اللون في النثر أيضاً . ومع هذا فإنّ الكلاعي لا يراه ضرورة يتحتم على الكاتب اتباعها ، لأنّه قد لا يُراعى فيه الجانب الإعرابي في بعض الأحيان .

إنّ هذا النوع من السجع قليل في الكتابات السابقة ، حيث نجد بعض الأسجاع تتفق في الوزن والشكل ، لكنها لا تتوفر على لزوم ما لا يلزم ، والعكس صحيح . أمّا توفرهما معاً فقليل جداً.

من ذلك ما ورد في رسالة صفوان بن إدريس ، حين يقول على لسان مدينة غرناطة: " فلا يلحقني من معاند ضرر ولاحيف ، ولا يهتدي إلي خيال طارق ولا طيف... لي بطاح تقلدّت من جداولها أسلاكاً ، وأطلعت كواكب زهرها فعادت أفلاكاً"(2) .

فالسجع المستجلب في قوله : (حَيْف/طَيْف) و(أَسْلاكاً/أَفْلاكاً) ، حيث التزم في الأول حرفي (يف) ، وفي الثاني (لاكاً) ، والوزن ظاهر فيهما ومشترك .

2- المُشكِل : وسُمّي بهذا الاسم " لأنه يأتي متّفق اللفظ ، مختلف المعنى ؛ فربما أشكل"(3) . وهذا المفهوم يدخل تحت قسم الجناس التام ، لكن يُشترط فيه أن يكون ضمن الكلام المسجوع ، نحو قول أبي المطرف : " ثمّ زحفت كتيبة الكفر بزُرقها

---

(1) إحكام صنعة الكلام ، ص 234 .
(2) زاد المسافر . ص 15 .
(3) م . س . ص 237 .

وشُقرها ، حتى أحاطت بجزيرة شُقرها " (1) . فـ (شقرها) الأولى ، هم أصحاب الشَعر الأشقر من النصارى الإسبانيين، و(شقرها) الثانية ، هي جزيرة شُقر التابعة لمدينة بلنسية .

وقول ابن الأبّار : " ومع ذلك اقتُحمت دانية ، فنزحت قطوفها وهي دانية " (2). فـ (دانية) الأولى من مدن الأندلس ، و (دانية) الثانية من الدنو .

وهذا النوع من السجع قليل في نثر الاتجاه الوطني ، لأنه ربما يتكلف فيه الكاتب ويتصنع ، لكي يأتي بلفظتين متفقتين في الرسم مختلفتين في المعنى .

ب - الازدواج :

يُعدّ الازدواج من المحسنات اللفظية التي تضفي رونقاً على النثر الفني ، ولا سيما عند الأندلسيين ؛ إذ إن كلّ الذين وقفت على كتاباتهم في الاتجاه الوطني، لم تخل رسائلهم من الازدواج .

ومعلوم أن السجع يكون على فاصلتين أو أكثر، أمّا الازدواج فتكون فيه كل سجعتين على حرف واحد .

وقد أشاد به أبو هلال العسكري واستحسنه حيث قال : " لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج ، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن ، لأنّه في نظمه خارج من كلام الخلق ، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات"(3) .

عندما نتأمل في كل النماذج النثرية التي سبق ذكرها في الفصل السابق ، نلاحظ أن الكتّاب الأندلسيّين استعملوا فيها فنّ الازدواج، فلن نجد أي نص نثري خالياً من هذا اللون ، بل إن الازدواج في تلك النصوص فاق السجع وغلب عليه .

---

(1) المقري : نفح الطيب . 279/5 .
(2) م .ن . 5/ 384 .
(3) كتاب الصناعتين . ص 260 .

يقول ابن عياش مثلاً : " ثم قضّ الله بيابسة ومنورقة جناحيهم ، وقضى بأخذها من الدائرة السَوء ما قضى به عليهم، وظُن بأن ستكون لهم وعظاً ييسّرهم لليُسرا ، ويلين قلوبهم للذكرا(**) فما أفادهم الوعظُ إلا عتوا ، وما زادهم وهم في الحضيض إلا علو " (1) . وهكذا في كامل الرسالة ، نجد الازدواج هو الشائع ، حيث نلحظ أنه أعطى العبارات والجمل نغماً منتظماً ،وأضفى عليها إيقاعا موسيقياً رائعا .

وجاءت بعض جمل الازدواج قصيرة ، حيث أعطت شحنة موسيقية مركزة . يقول صفوان بن إدريس على لسان مالقة : " فقالت مالقة : تتركوني بينكم هملا ، ولا تعطوني في سيدنا أملا ، ولِم ولي البحر العجاج ، والسبل الفجاج ، والجنات الأثيرة ، والفواكه الكثيرة " (2).

فعلى الرغم من قصر هذه الجمل ، إلا أنها استطاعت أن تفصح عمّا لمدينة مالقة من فضائل ومحاسن ، بنغمة موسيقية مركزة ومتكاثفة .

ويأتي مقدار الألفاظ في الجزء الأول من الازدواج مساوياً في بعض الأحيان للجزء الثاني، وهذا ما يزيد من جمالية الموسيقي النثرية . يقول أبو المطرف في رسالته : "...فأودتْ الخفّة والحصافة ، وذهب الجسر والرّصافة ، ومزّقت الحلّة والشّملة ، وأوحشتْ الجرف والرّملة" . (3)

ج -الطّباق والجناس والتّورية :

كثر استعمال الطباق عند كتاب هذا الاتجاه في هذا العصر بنوعيه المعروفين : طباق الإيجاب وطباق السلب . وقد لوَّنوا به كثيراً من رسائلهم المتنوعة الأغراض والمواضيع . ففي الرسالة التي وصف فيها ابن صاحب الصلاة جامع قرطبة نجده يقول: "فترى نهاراً قد أحدق به ليل ... والشّمع قد رُفعت على المنار رفع البنود ... ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد ، ويستوي في هداية ضيائها الشقيّ والسعيد ...

(**) هكذا وردت اللفظتان في المصدر.
(1) مجموع رسائل موحّدية ، اعتنى بإصدارها : ليفي بروفانصال . ص 244 .
(2) زاد المسافر . ص 16.
(3)المقري : نفح الطيب . 379/5 .

تضحك ببكائها وتبكي بضحكها ، وتهلك بحياتها ، وتحيى بهلكها " (1) . فالنّهار والليل، والقريب والبعيد ، والشقيّ والسعيد ، والضحك والبكاء ، والهلاك والحياة ، كلها تندرج ضمن طباق الإيجاب .

ومما نلاحظه في هذا الجانب ، أن رسائل المفاخرات ، والرسائل التي جاء فيها بيان فضل الأندلس ، كانت مملوءة بفنّ الطباق ، على غرار الأنواع الأخرى من الرسائل التي لم يكثر فيها هذا الصبغ البديعي .

ومن الطباق الذي ورد في رسالة صفوان بن إدريس على سبيل الذكر ، نجد ما يلي:(2) (يزيدون ، ينقصون/ الجزر، المد/ المستقبح ، مستحسناً/ تتأخرون ، تتقدمون/ الأول ، الآخر/ بكر، روحات/ يأخذون ، يدعون/ التعريض ، التصريح/تحرككم ، هدوئكم/ يصلح ، أفسد/ يوقد ، خمد/ يسيل ، جمد/ الأحرار، العبيد) . ولأنّ المفاخرة والمفاضلة تقوم أساسا على التضاد والنقائض ، فإنّ الطباق كان الأنسب لهؤلاء الكتاب لشحن رسائلهم وإضفاء موسيقى نثرية تتفق مع غرضهم المنشود .

فصفوان بن إدريس أكثر من استعمال الطباق حينما أراد أن يُظهر على لسان كل مدينة ما لها من محاسن ، ويبرز ما لغيرها من نقيض ذلك .

والشقندي - أيضاً -كثر الطّباق في رسالته التي كان وجه المفاضلة فيها هو سبب الإكثار منه ، عندما راح يبيّن فيها ما للأندلس - على غيرها من الأقطار- من فضائل ومحاسن ، فكان الطباق مُعبّراً عن مراد الكاتب ، ومن ذلك قوله : (3) (حرَّك، ساكناً/ ملأ ، فارغاً/ اليمين ، اليسار/ الليل ، النهار/ العوالي ، الزجاج/ تتكثّر، قليلاً/ تتعزّز، ذليلاً/ الفتاة ، العجوز،/ التفرق ، الإجماع/ الخلق ، الجديد/ كليل ، حديداً) .

---

(1) رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق : فوزي سعد عيسى . ص 67 .
(2) ينظر : صفوان بن إدريس : زاد المسافر . ص 14-15-16-17-18.
(3) ينظر:المقري : نفح الطيب . 28/4- 29- 37 .

وعلى العموم ، فإنّ الطباق أعطى نغمة موسيقيّة داخل الخطاب النثري، إذ لا قيمة له " إلا بقدر إثارته داخل السياق الأسلوبي جميعه لمشاعر ثرية تتصل بالصورة العامة للموقف " (1) .

أمّا طباق السّلب ،فقد كان نادراً جداً . ومثاله قول ابن الأبّار: (2) " فأيّة حيلة لا حيلة في صرفها" ، وقوله : (3) " أجنت ما لم تجن الأصقاع " . فالطباق في (حيلة/ لا حيلة) ، و(جنت / لم تجن) .

ومن جهة أخرى فإنّ المقابلة لم يكن لها حضور في الرسائل المدروسة ، سوى ما جاء عند الشقندي في قوله (4) : " إن مدح رفع ، وإن ذمَّ وضع " .

وكان للجناس النّصيب الوافر في رسائل الاتجاه الوطني ، وخاصة في رسائل ابن عُميرة وابن الأبّار، حيث كان هذا الأخير يُحسِنه في الشّعر، وبرع فيه كثيراً في النثر، وفاق به غيره من كتاب هذا العصر، إذ الطُّلع على أشعاره ورسائله ، يجده قد تلاعب به كثيراً ، وجاء بأغلب أنواعه وضروبه (5) المعروفة عند البلاغيين . وسنكتفي بلمحة خاطفة عن هذا اللون البديعي في رسائل رثاء بعض المدن الأندلسية في عصر الموحدين .

والجناس كما هو معلوم نوعان : تام وناقص ، وقد غلب الجناس الناقص في الرسائل المدروسة على الجناس التام ، لأنّ الجناس التام فيه تكرار للكلمة واختلاف للمعنى ، مما يجعل الكاتب يتكلف في اختياره .

فمِن الجناس التام ، قول أبي المطرف : (6) " ثم زحفت كتيبة الكفر بزرقها وشقرها ، حتى أحاطت بجزيرة شقرها " . فاللفظتان (شقرها وشقرها) ، اتفقتا في الخط، واختلفتا في المعنى ، فالأولى من اللون ، والثانية من المكان ، وهي أيضا تورية.

([1]) رجاء عيد : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور . الإسكندرية : منشأة المعارف . ط2/ د.ت . ص 469.
([2]) م.س . 384/5 .
([3]) م.ن . ص.ن .
([4]) م.ن . 4/ 32 .
([5]) ينظر : القزويني : الإيضاح . ص 242- 243 - 244-245 - 246 -247 ، ففيه حديث مفصل عن الجناس .
([6])المقّري : نفح الطيب . 379/5 .

وورد - أيضاً - في رسالة ابن الأبّار حيث يقول : (1) " ومع ذلك اقتحمت دانية، فنزحت قطوفها وهي دانية " . فدانية الأولى اسم لمدينة أندلسية ، والثانية من الدنو.

أمّا الجناس الناقص فهو كثير جداً - كما أسلفنا -، فقد كان في الأفعال والأسماء والأماكن...الخ .

فالذي جاء بصيغة الفعل ، مثل قول أبي المطرّف : (2) " فيالله لأتراب درجوا، وأصحاب عن الأوطان خرجوا، قُصت الأجنحة وقيل طيروا، وإنّما هو القتل أو الأسر أو تسيروا. " فـ : (درجوا / خرجوا) و (طيروا / تسيروا) كلها أفعال مختلفة الأزمنة .

والذي جاء في صورة الاسم ، أخذ مساحة واسعة من هذا النثر . من ذلك قول أبي المطرّف ،مستعملاً الجناس في تصوير الفجائع التي حلت ببلنسية : (3) "أحقاً أنّه دكت الأرض، ونزف المعين والبرض ...أبِنْ لي كيف فقدت رجاحة الأحلام ، وعقدت مناحة الإسلام" . فـ (الأرض/ البرض) و (الأحلام/ الإسلام) ، كلها من الأسماء .

أمّا الجناس الذي وقع في أسماء الأماكن ، فكذِكر ابن الأبّار لبعض الأمكان الطبيعية لبلاد الأندلس في قوله : (4) " والهْفاه ثم لهفاه على تُدمير وتلاعها ، وجيّان وقلاعها ، وقرطبة ونوديها ، وحمص ووايها " .

والظّاهر أنّ أغلب هذا الجناس وقع في الفواصل المسجوعة ، وهو ما يوحي لنا أنّ كتّاب هذا العصر كانوا شغوفين بتنميق رسائلهم وزخرفتها ، و يدل على أنهم كانوا أصحاب طبع سليم وذوق رفيع .

---

(1) م.س . 384/5 .
(2) م.ن . 5/ 378 .
(3) م.ن . 1/ 242 .
(4) م.ن . 384/5 .

خاتـــمة

إن الجولة العلمية التي سادتها القراءة النافعة في صفحات تاريخ الأندلس عامة ، وعصر الموحّدين خاصة ، جعلتني أقف على حصاد هذه القراءة التي استخلصتها ثمرات في هذه النتائج ، وذلك بعد أن تتبعت ملامح الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي ونثره في عهد الموحّدين

أولا : إن سقوط كثير من المدن الأندلسية في عصر الموحّدين كان أحد العوامل الهامة لخصوبة تربة الأدب الأندلسي التي نمت فيها أشعار وكتابات كثيرة مملؤة بالروح الوطنية.

ثانيا : كانت هجرة كثير من الأدباء الأندلسيين لأوطنهم نتيجة لتلك الظروف السياسية العصبية التي كانت تعيشها مدنهم ، وقد أدى ذلك إلى شوقهم لتلك الأوطان وحنينهم إليها ، فعبروا عن ذلك الاشتياق بما أسعفتهم به خواطرهم .

ثالثا : لقد حظيت مدينة بلنسية بغرر القصائد الرثائية عندما استُبيحت أراضيها، لأن سقوطها كان مُؤذنا بسقوط العديد من المدن الأخرى ، فهي كانت كبرى قواعد شرق الأندلس ، ومن تلك القصائد ما نظمه أبو المطرّف وابن الأبّار .

وهناك قصيدة واحدة جاء فيها رثاء مدن كثيرة ، ولم تختص بمدينة واحدة ، وهي نونية أبي البقاء الرندي .

رابعا : لم يكتف الشعراء الأندلسيون بدعوة أصحاب الأرض لنجدة بلادهم ، بل قاموا بتوجيه أصواتهم إلى بعض الأعراب الذين كانوا في الضفة الأخرى من بلاد المغرب، إلا أنهم لم يكونوا في المقام اللائق بشعور الأندلسيين وآمالهم لتحرير وطنهم.

خامسا : جاءت أغلب القصائد التي قيلت في محاسن الأندلس قصيرة ، ولم تبلغ في طول الأبيات ما بلغته قصائد الرثاء ، وقصائد الاستنجاد .

سادسا : هناك قصائد لم يلتزم فيها الشعراء بالوحدة الموضوعية ، فجاءت مبنيّة على أكثر من موضوع واحد ، كالمدح والرثاء والحنين .

سابعا : إن النثر الأندلسي المتلون بصبغة الوطنيّة في عصر الموحّدين كان بشكل عام يسير في الطريق التي شقها النثر المشرقي . ثم إن الكتّاب الأندلسيين أضافوا إليه شيئا مما يوافق طبيعة بلادهم وما أجبرتهم عليه ظروف البيئة .

ثامنا : كانت بعض الرسائل في هذا العصر مكمّلة لرسائل كُتبت في زمن ملوك الطوائف والمرابطين ، وهي تشبهها في جميع الخصائص ، كالرسائل التي كُتبت في بيان فضل الأندلس ومحاسنها .

تاسعا : لقد كانت رسالة صفوان بن إدريس من أهم الرسائل ذات الصبغة الخيالية التي مثلت نموذجا رائعا في إبرز الروح الوطنية في العصر الموحّدي .

عاشرا : لم تكن الرسائل التي جاء فيها بيان فضل الأندلس وذكر محاسنها تقتصر على جانب واحد ، بل كانت متنوعة الأغراض ، كرسالة ابن سعيد ، والشّقندي.

الحادي عشر : لقد كان فن الترسل الوعاء الوحيد دون غيره من الألوان النثرية الأخرى التي حملت سمة موضوع الاتجاه الوطني . وعلى الرغم من ظهور كثير من الكتّاب الأندلسيين في عصر الموحّدين ، فإن الاتجاه الوطني لم يبرز في كتابتهم بالكثرة التي ظهر بها في الشعر .

الثاني عشر : لم يكن الأدب الوطني في الأندلس يختلف عن غيره في المقوّمات الفنيّة السائدة في الساحة الأدبية الأندلسية

وفي الأخير، فإن الاتجاه الوطني ليس كغيره من الاتجاهات الأخرى ، وإن الحديث عنه لشيق ممتع ، وما ذلك إلا لأن حب الوطن من أسمى العواطف وأنبل المشاعر . وقد تزداد تلك العواطف سموا ، وتلك المشاعر نبلا إذا كان الوطن هو الأندلس ، كما جرى به لسان الشعار : الفردوس العربي المفقود .

قائمة المصادر والمراجع

أولا : الكتـــــب(بالعربية)

القرآن الكريم برواية ورش عن الإمام نافع .

1- إبراهيم، رجب عبد الجواد: معجم علماء اللغة و النحو في الأندلس من الفتح إلى سقوط الخلافة ، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ط1/ 2004 .

2- ابن الأبّار، أبو عبد الله محمد : الحلة السّيراء ، حققه وعلق حواشيه : حسين مؤنس، القاهرة : دار المعارف ، ط2 / 1985.

3- تحفة القادم ، تحقيق:إحسان عباس، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1، 1986.

4- المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي ، القاهرة : دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، د.ط / 1967.

5- ابن أبي الأصبع، زكي الدين : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم وتحقيق : حفني محمد شرف . الجمهورية العربية المتحدة، د.ط/د.ت.

6- ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة ، د.ط/1972 .

7- ابن الأثير، أبو الحسن علي : الكامل في التاريخ ، راجعه وصححه : محمد يوسف الدقاق، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط2003/4.

8- الأزهري ، أبو منصور محمد بن أحمد : تهذيب اللغة،إشراف : محمد عوض مرعب ،علق عليها:عمر السلامي ،بيروت:دار إحياء التراث العربي ، ط1/ 2001.

9- ابن بسام، أبو الحسن علي الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عباس ، ليبيا ، تونس :الدار العربية للكتاب ، د.ط / 1970.

10- ابن ثقفان ، عبد الله بن علي: المقوّمات الفنّية في القصيدة الأندلسية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين . الرياض : مكتبة الملك عبد العزيز العامة . د.ط/ 2001 .
11- ابن جابر،محمد بن أحمد الأندلسي:الحلّة السِّيرا في مدح خير الورى،تحقيق علي أبو زيد، بيروت ، دمشق: عالم الكتب. ط$_2$/ 1985.
12- ابن جبير،أبو الحسن محمد: رحلة ابن جبير، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ط / د.ت
13- ابن جنّي، أبو الفتح عثمان : الخصائص ، تحقيق: محمد علي النجار . مصر: دار الكتب المصرية ، د.ط/د.ت.
14- ابن حجّة الحموي، تقي الدين أبو بكر : خزانة الأدب وغاية الأرب ، شرح : عصام شعيتو ، بيروت : دار ومكتبة الهلال ، د.ط / 2004.
15- ابن الخطيب، لسان الدين: الإحاطة في أخبار غرناطة ، شرحه و ضبطه وقدم له : يوسف علي الطويل ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط2003/1 .
16- تاريخ إسبانية الإسلامية ،أو كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، د،ط/2006.
17- ابن خفاجة، أبو إسحاق إبراهيم: ديوان ابن خفاجة، تحقيق عبد الله سنده ، بيروت : دار المعرفة ،ط2006/1.
18- ابن خلدون، عبد الرحمان: تاريخ ابن خلدون ، القاهرة : الهيئة العامة لقصور الثقافة، د.ط/2007.
19- مقدمة ابن خلدون ، بيروت : دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ط/2004.

20-ابن خلكان، شمس الدين: وفيات الأعيان و أنباء أبناء الزمان ، بيروت : دار صادر، د.ط/1977.
21-ابن دراج ، أبو عامر أحمد القسطلي : الديوان ، حققه وقدم له وعلق عليه : محمود علي مكي ، الكويت : منشورات مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري ، ط2/ 2004.
22-ابن رشيق، أبو علي الحسن القيرواني:العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، حقّقه وفصّله وعلق حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة:دار الطلائع ، د.ط/ 2006
23-ابن رمضان، صالح: الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم ، بيروت : دار الفارابيّ ، ط 2007/1
24-ابن الرومي، أبو الحسن علي : الديوان ، شرح الأستاذ أحمد حسن بسج . لبنان : دار الكتب العلمية . ط2002/3.
25- الديوان ، تحقيق : حسين نصار ، القاهرة : مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، ط3 / 2003.
26- زلط ، أحمد: الخطاب الشعري الوطني والسياسي ، اتجاهاته وروائع أعلامه ، القاهرة: هبة النيل العربية للنشر والتوزيع،ط1/ 2008
27-ابن سعيد، أبو الحسن علي بن موسى : المغرب في حلى المغرب ، حققه وعلق عليه : شوقي ضيف ، مصر: دار المعارف ، ط4 / د .ت.
28- اختصار القدح المُعلّى في التاريخ المُحلّى ، اختصره : محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، القاهرة : دار الكتاب المصري، بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ط2 / 1980 .
29-ابن سنان الخفاجي،: سرّ الفصاحة . بيروت: دار الكتب العلمية . ط1982/1.

30- ابن سهل،إبراهيم:ديوان ابن سهل،قدم له إحسان عباس، بيروت: دار صادر، د.ط/1980
31- ابن شُهَيد، أبو عامر أحمد:ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله جمعه وحققه وشرحه: محي الدين ديب ، بيروت : المكتبة العصرية ، ط1 /1997 .
32- ابن صاحب الصلاة، عبد الملك : المنّ بالإمامة ، تاريخ بلاد المغرب و الأندلس في عهد الموحّدين، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط3/1987.
33- ابن طباطبا، محمد بن أحمد العلوي : عيار الشعر ، تحقيق : عبد العزيز بن ناصر المانع ، الرياض: دار العلوم للطباعة والنشر. د.ط/1985.
34- ابن عبد الملك المراكشي،: الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة ، تحقيق: إحسان عباس ، بيروت : دار القافة ، د. ط /1965.
35- الذيل و التكملة لكتابي الموصول و الصلة ، تحقيق : محمد بنشريفة ، بيروت : دار الثقافة ، د.ط / د.ت .
36- ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، قسم الموحدين، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط1985/1.
37- ابن قربة، صالح: عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين ،الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب ، د. ط /1991.
38- ابن ماجه : سنن ابن ماجه ، بشرح الإمام أبي الحسن الحنفي ، وبحاشية تعليقات مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه للإمام البوصيري ، حقق أصوله وخرج أحاديثه : الشيخ خليل مأمون شيحا . بيروت: دار المعرفة . ط1996/1.

39- ابن محمد، علي: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس، مضامينه و أشكاله ، بيروت: دار الغرب الإسلامي ، ط1/1990.

40- ابن المعتز، عبد الله : كتاب البديع ، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس : إغناطيوس كراتشقوفسكي ، بيروت : دار المسيرة ، ط3 / 1982.

41- ابن معصوم المدني ، علي صدر الدين : أنوار الربيع في أنواع البديع ، حققه وترجم لشعرائه : شاكر هادي شكر . ط$_1$/ 1968.

42- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين : لسان العرب ، طبعة جديدة ومصححة وملونة، اعتنى بتصحيحها : أمين محمد عبد الوهاب ، محمد الصادق العبيدي، بيروت لبنان: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ط$_3$ / د.ت .

43- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي : الدّيوان بشرح الخطيب التبريزي ، تحقيق: محمد عبده عزام . مصر: دار المعارف . ط5/ د.ت.

44- أبو حمدان ، سمير: الإبلاغيّة والبلاغة العربيّة . بيروت : منشورات عويدات الدولية ، د.ط/1991.

45- أبو رميلة، هشام:الموحّدين وعلاقتهم بالممالك النصرانية والدول الإسلامية في الأندلس، عمان: دار الفرقان ، ط1/2004.

46- أبو ستيت ، الشحات محمد : دراسات منهجية في علم البديع ، الاسكندرية : مكتبة الإسكندرية ، ط1/1994.

47- أبو الفضل، محمد أحمد : شرق الأندلس في العصر الإسلامي ، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د.ط / 1996.

48- أبو هلال، الحسن بن عبد الله العسكري،: كتاب الصناعتين ، الشعر والنثر،مطبعة محمد بك الأستانة العلية ، ط1/1319هـ

49- أحمد بن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس. الرباط : دار المنصور للطباعة والوراقة . د.ط /1973 .

50-أرسلان، شكيب : خلاصة تاريخ الأندلس ، بيروت : منشورات دار مكتبة الحياة ، د.ط / د.ت.
51-إسماعيل ، عز الدّين:التّفسير النّفسي للأدب. بيروت: دار العودة ، دار الثقافة . د.ط / د.ت.
52- الشعر العربي المعاصر، القاهرة : دار الكتاب العربي، د.ط/1976.
53-امرؤ القيس بن حجر: الديوان ، شرح :أبي سعيد السكري، دراسة وتحقيق : أنور عليان أبو سويلم ، محمد علي الشوابكة . الإمارات العربية المتحدة : مركز زايد للتراث والتاريخ . ط2000/1 .
54-أنيس، إبراهيم: الأصوات اللغوية .مصر:مكتبة نهضة مصر ومطبعتها،د.ط / د.ت.
55- موسيقى الشّعر. القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية للطبع والنشر، ط$_2$/ 1952.
56-الأوسي، حكمة علي : الأدب الأندلسي في عصر الموحّدين ، القاهرة : مكتبة الخانجي ، د. ط / د.ت.
57-بالنثيا، آنخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، نقله عن الإسبانية حسين مؤنس، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، ط2 /2008 .
58-البحراوي، سيد : العروض وإيقاع الشعر العربي ، محاولة لإنتاج معرفة علمية . مصر: الهيئة المصرية للكتاب . د.ط/ 1993 .
59-بدوي ، مصطفى : كولردج ، القاهرة : دار المعارف ، د.ط/1958.
60-- البرقوقي، عبد الرحمان : حضارة العرب في الأندلس ، مصر: مكتبة الثقافة الدينية ، ط$_1$/ 2001.
61-البستاني، بطرس :أدباء العرب ، في الأندلس وعصر الانبعاث، بيروت : دار الجيل ، د.ط / د.ت.
62- معارك العرب في الأندلس ، بيروت : دار الجيل ، د.ط /1987.
63-بكار، حسين :بناء القصيدة في النّقد العربي القديم في ضوء النّقد الحديث ، بيروت:دار الأندلس، د.ط/د.ت.

64- البلفيقي ، أبو إسحاق إبراهيم :المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق إبراهيم الأبيـاري ، القاهـرة : دار الكـتاب المصـري ، بيـروت : دارالكـتاب اللـبناني ، ط3 / 1989 .
65-بنشريفة ، محمد : أبو تمّام وأبو الطيّب في أدب المغاربة ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1986/1.
66-بوفلاقة، سعد: الشّعر النّسوي الأندلسي، أغراضهوخصائصه الفنّية . بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د.ط/ 2003.
67-بومزبز، الطاهر: أصول الشعرية العربية نظرية حازم القرطاجني في تأصيل الخطاب الشعري، بيروت : الدار العربية للعلوم ، الجزائر: منشورات الاختلاف ، ط 1/ 2007.
68-الترمذي، أبو عيسى محمد : الجامع الكبير ، حققه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه : بشار عواد معروف ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط1 / 1996.
69-ثعلب، أبو العباس : قواعد الشعر، حقـقه وقـدم له وعلق عليه : رمـضان عـبد التــواب . القاهرة : مكتبة الخانجي . ط3/ 2009 .
70-الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر : الحيوان ، تحقيق يحيى الشامي ، بيروت : دار ومكتبة الهلال، د.ط / 2003.
71-الجاسم، أحمد موسى : شعر بني أسد في الجاهلية ، دراسة فنية . بيروت : دار الكنوز الأدبية . ط1/ 1995.
72- جـرّار، صـلاح : قـراءات في الشـعـر الأنـدلسي ، الأردن : دار المسـيرة للنـشر و التوزيع ، ط2007/1 .
73-جلال الدين السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، بيروت : المكتبة العصرية ، د .ط / د.ت.
74-الجمل، إيمان : المعارضات في الشعر الأندلسي ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، ط1 / 2007.

75-الجندي ، علي: فن الجناس ، مصر: مطبعة الاعتماد ، د.ط/د.ت.
76-حازم القرطاجنّي،أبو الحسن:الديوان،تحقيق عثمان الكعّاك،بيروت:دار الثقافة ، د.ط / د.ت

77- المقصورة ، تحقيق : مهدي علام ، مصر : مطبعة مصر، د.ط / 1953.
78- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، بيروت : دار الغرب الإسلامي، ط2 /1981.
79-حسين ، عبد القادر : فن البديع ، بيروت ، دار الشروق ، ط1983/1.
80- حمدان ، ابتسام أحمد : الأسس الجماليّة للإيقاع البلاغي في العصر العباسي ، حلب ، سوريا: دار القلم العربي ط1/ 1997.
81-الحميري، محمد عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه : إحسان عباس ، بيروت : مكتبة لبنان، ط1984/2 .
82- صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، اعتنى بشرحها وتصحيحها : ليفي بروفنصال ، بيروت : دار الجيل ، ط2 / 1988.
83-حومد ، أسعد : محنة العرب في الأندلس ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2 /1988.
84-خفاجة ، محمد عبد المنعم : قصة الأدب في الأندلس بيروت : مكتبة المعارف ، د.ط/1962
85-خلوصي، صفاء : فنّ التّقطيع الشّعري والقافية . بغداد: منشورات مكتبة المثنى . ط$_5$ / 1977.
86-خليف، مي يوسف : القصيدة الجاهلية في المفضّليات. القاهرة : مكتبة غريب للطباعة . د.ط/ 1989.
87-خمري، حسين :نظرية النّص من بنية المعنى إلى سيميائية الدال ، الجزائر: منشورات الاختلاف. بيروت:دار الفرابي.ط2007/1.

88-الدّاية ، فايز: جماليات الأسلوب ، الصّورة الفنّية في الأدب العربي . دمشق : دار الفكر. ط2/ 1996.
89-درّاقي، زبير: محاضرات في فقه اللغة . الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية . د.ط / د.ت.
90-دقالي، محمد أحمد: الحنين في الشعر الأندلسي القرن السابع الهجري ، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط1 / 2008.
91-دندش، عصمت عبد اللطيف :الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحّدين ، عصر الطوائف الثاني،بيروت : دار الغرب الإسلامي ، ط 1/ 1988.
92-دي لاجرانخا، فرناندو: مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات ، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم ، القاهرة : دار الثقافة العربية ، د.ط/1985.
93-الرافعي ، مصطفى صادق : تاريخ آداب العرب ، بيروت : دار الكتاب العربي . ط 6/ 2001.
94-الرباعي ، عبد القادر :الصّورة الفنّية في شعر أبي تمام ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2/ 1999.
95-رسائل مُوحّدية ، مجموعة جديدة ، تحقيق : أحمد عزّاوي ، القنيطرة ، المغرب : منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، ط1 / 2001.
96-رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق : فوزي سعد عيسى ، الإسكندرية : منشأة المعارف ، د.ط / د.ت
97-الرّصافي، أبو عبد الله محمد: ديوان الرصافي ، جمعه وقدم له: إحسان عباس ، بيروت : دار الشروق ، ط2 /1983.
98-الرّكابي ، جودت : في الأدب الأندلسي ، القاهرة : دار المعارف ، ط1970/3.
99-الزبيدي ،زين الدّين : مختصر صحيح البخاري . الجزائر: دار الإمام مالك . ط2013/2

100- زرقان ، عزّوز : شعر الاستصراخ في الأندلس ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1/ 2008.
101- الزركشي، أبو عبد الله محمد: تاريخ الدولتين الموحّدية والحفصية، تحقيق وتعليق : محمد ماضور، تونس:المكتبة العتيقة ،ط2/ د.ت.
102- الزيات، عبد الله محمد : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، بنغازي : منشورات جامعة قار يونس ، ط1 / 1990.
103- سالم ،السيد عبد العزيز: المغرب الكبير العصر الإسلامي ، دراسة تاريخية وعمرانية وأثرية، بيروت : دار النهضة العربية ، د.ط/1981 .
104- السّبهاني، محمد عبيد صالح : المكان في الشّعر الأندلسيّ من الفتح حتى سقوط الخلافة، القاهرة : دار الآفاق العربية . ط$_1$/ 2007.
105- السعيد، محمد مجيد: الشعر في عهد المرابطين و الموحّدين في الأندلس ، الجمهورية العراقية : دار الرشيد للنشر ، د.ط / 1979.
106- السكاكي، أبو يعقوب يوسف : مفتاح العلوم ، تحقيق ودراسة : أكرم عثمان يوسف ، بغداد : مطبعة دار الرسالة . ط1982/1.
107- السّلامي ، عمر : الإعجاز الفنّي في القرآن . تونس : نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله . د.ط/ 1980.
108- السّلاوي، أبو العباس أحمد الناصري:الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري و محمد الناصري ، الدار البيضاء : دار الكتاب ، د.ط / 1950.
109- السيوفي، مصطفى:تاريخ الأدب الأندلسي ، القاهرة : الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، ط1 /2008.
110- الشناوي، علي الغريب محمد : الإخوانيات في الشّعر الأندلسي . القاهرة : مكتبة الآداب. ط$_1$/ 2006.
111- دراسات في الشعر الأندلسي ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ط$_1$/2003.

112- النثر الأندلسي في عصر الموحّدين ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ط1/ 2009.
113- الشوادفي، أحمد محمد:شهيد الشعراء ابن الأبّار، دراسة في الخيال،القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ط1/ 2008.
114- الصاحب بن عباد ، إسماعيل ، تحقيق : الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بيروت : عالم الكتب ، ط1 / 1994
115- الصّاوي، أحمد بن محمد الخلوتي :حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، مذيلاً بلباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ، إشراف ومراجعة وتقديم: صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع . ط2005/1 .
116- صفوان بن إدريس، أبو بحر التجيبي: زاد المسافر وغُرّة مُحيّا الأدب السافر، أعدّه وعلّق عليه : عبد القادر محداد ، بيروت : دار الرائد العربي ، د.ط / 1980.
117- صفي الدين الحلي : شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع ، تحقيق : نسيب نشاوي ، بيروت : دار صادر ، ط 2 / 1992.
118- الصلابي، علي محمد محمد :إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحّدين ، القاهرة : دار التوزيع و النشر الإسلامية ، ط2003/1.
119- الضبي، أحمد بن عميرة : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، القاهرة: دار الكتاب العربي ، د.ط /1967.
120- ضيف ، أحمد : بلاغة العرب في الأندلس ، تونس : دار المعارف للطباعة والنشر، ط2/ 1998.
121- ضيف ، شوقي : تاريخ الأدب العربي ، عصر الدول و الإمارات ، الأندلس ، مصر : دار المعارف ، ط3 / د.ت.
122- الفنّ ومذاهبه في النثر العربي . مصر : دار المعارف . ط5 / د.ت.
123- في النقد الأدبي ، القاهرة : دار المعارف ، ط9 / د.ت.

124- طحطح، فاطمة : الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، الدار البيضاء : مطبعة النجاح الجديدة ، ط1 / 1993.

125- الطريفي، يوسف عطا: شعراء العرب ، المغرب والأندلس ، عمان: الأميرية للنشر والتوزيع ، ط1 /2007 .

126- طقوش، محمد سهيل: تاريخ المسلمين في الأندلس ، بيروت : دار النفائس، ط2008/2.

127- الطيب ، عبد الله : المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها ، الكويت : مطبعة حكومة الكويت ، ط1989/3.

128- طويل، مريم قاسم: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح ، الدار البيضاء : مكتبة الوحدة العربية ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ط1 / 1994.

129- عباس، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة ، بيروت : دار الثقافة ، ط6 / 1981.

130- تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع ، ط2001/1 .

131- محاولات في النقد و الدراسات الأدبية، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط1 / 2000.

132- عباس ، عرفة حلمي :نقد النّثر ، النّظرية والتطبيق ، القاهرة : مكتبة الآداب ، ط1 / 2009.

133- عباس، فضل حسن : البلاغة فنونها وأفناها ، علم البيان والبديع ، الأردن : دار النفائس للنشر والتوزيع، ط2009/12.

134- عبد الرؤوف، محمد عوني: القافية والأصوات اللغوية . مصر: مكتبة الخانجي . د.ط / د.ت.

135- عبد القاهر أبو بكر الجرجاني : أسرار البلاغة ، تصحيح : محمد رشيد رضا . القاهرة : مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده . ط6/ 1959.

136- دلائل الإعجاز، تصحيح : محمد رشيد رضا، بيروت : دار المعرفة . د.ط /1981.

137- عبد الله، نافع: الشوق والحنين في الشعر الأندلسي ، بيروت : دار الوسام للطباعة والنشر ، ط1 / 2003.

138- عبد المجيد، عبد العزيز: ابن الأبّار حياته وكتبه ، تطوان : معهد مولاي الحسن للأبحاث ، د. ط / 1951.

139- عبد الواحد المراكشي: المُعجِب في تلخيص أخبار المغرب ، شرحه واعتنى به : صلاح الدين الهواري ، بيروت : المكتبة العصرية ، ط2006/1.

140- وثائق المرابطين والموحّدين ، تحقيق : حسين مؤنس ،القاهرة : مكتبة الثقافة الدينية ، ط2 / 2006.

141- عتيق ، عبد العزيز : الأدب العربي في الأندلس ، بيروت دار النهضة العربية ، د.ط / د.ت.

142- في النقد الأدبي . بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر. ط2/ 1972.

143- العريس، محمد : موسوعة شعراء العصر الأندلسي ، بيروت : منشورات دار اليوسف ، ط1 /2005 .

144- العشماوي، محمد زكي ، قضايا النّقد الأدبي بين القديم والحديث . بيروت : دار النهضة العربية . د.ط / 1979.

145- عصفور، جابر :الصّورة الفنّية في التّراث النّقدي والبلاغي. مصر: دار المعارف، ط1992/3 .

146- عطوان، حسين : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، مصر: دار المعارف ، د.ط/د.ت.

147- علّام، عبد الله : الدولة المرابطية والموحّدية ، القاهرة : دار المعارف ، د.ط/ 1971.

148- علوش ، سعيد : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، بيروت :دار الكتاب اللبناني، الدار البيضاء:سوشبريس،ط1985/1

149- عمر، أحمد مختار: دراسة الصّوت اللغوي . القاهرة : عالم الكتب . د.ط/ 1997

150- معجم اللغة العربية المعاصرة ، القاهرة : عالم الكتب ، ط1 /2008

151- عنان، محمد عبد الله : تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ،القاهرة : مكتبة الخانجي، ط2 / 1970.

152- دولة الإسلام في الأندلس ، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال ، القاهرة : مكتبة الأسرة ، د.ط / 2003 .

153- دولة الإسلام في الأندلس ، مصر : مكتبة الأسرة ، د.ط/2001

154- العيادي، محسن حامد : ابن سعيد الأندلسي حياته وتراثه الفكري والأدبي، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، د .ط / 1972.

155- عيد، رجاء : فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور . الإسكندرية : منشأة المعارف . ط2/ د.ت.

156- القول الشّعري ، مصر : منشأة المعارف ، د.ط/ 1995.

157- عيد، يوسف:أصوات الهزيمة في الشعر الأندلسي،بيروت:دار الفكر اللبناني ، ط1 /1993

158- الشعر الأندلسي وصدى النكبات ، بيروت : دار الفكر العربي ، ط2002/1

159- عيسى،فوزي سعد:ابن مرج الكحل،حياته و شعره،الإسكندرية:منشأة المعارف، د.ط / د.ت

160- الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي ، الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية ، د.ط / 2002.

161- الشعر الأندلسي في عصر الموحّدين ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط1 / 2007 .

162- في الأدب الأندلسي ، مصر: دار المعرفة الجامعية ، د.ط / 2004.
163- الغبريني، أبو العباس أحمد : عنوان الدراية ، في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، الجزائر : دار البصائر للتوزيع و النشر ، ط1 / 2007 .
164- الفراهيدي ، الخليل بن أحمد : كتاب العين ، تحقيق : مهدي المخزومي ، إبراهيم السامرائي ، إيران : مؤسسة دار الهجرة ، ط2 / 1409 هـ
165- فرحات يوسف و عيد يوسف : معجم الحضارة الأندلسية ، بيروت : دار الفكر العربي ، ط1/ 2000 .
166- فرناندو دي لاجرانخا : مقامات ورسائل أندلسية نصوص ودراسات ، ترجمة عبد اللطيف عبد الحليم ، القاهرة: دار الثقافة العربية ، د.ط / 1985 .
167- فكري، أحمد: قرطبة في العصر الإسلامي ، تاريخ وحضارة ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة، د.ط /1983.
168- القاضي الجرجاني، علي بن عبد العزيز : الوساطة بين المتنبي وخصومه ، عنى بطبعه وتصحيحه وشرحه : أحمد عارف الزين . صيدا : مطبعة العرفان ، د.ط/1331هـ
169- قدامة بن جعفر، أبو الفرج : نقد الشعر ، تحقيق وتعليق : محمد عبد المنعم خفاجي ، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ط / د.ت.
170- نقد النثر ، بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ط / 1982.
171- القرطبي ، أبو عبد الله محمد : الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : حامد أحمد الطاهر ، القاهرة : دار الغد الجديد . ط2010/1.
172- القزويني، محمد بن عبد الرحمان : الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق: مجدي فتحي السيد ، مصر:المكتبة التوفيقية . د.ط/د.ت .
173- قصاب، وليد إبراهيم : علم البديع ، دمشق : دار الفكر ، ط1 / 2012.
174- قطب، سيد : التصوير الفنّي في القرآن . القاهرة ، بيروت: دار الشروق، د.ط/ د.ت.

175- القطّ، عبد القادر : الاتجاه الوجداني في الشّعر العربيّ المعاصر. بيروت : دار النهضة العربية . ط3/ د.ت.
176- قلاتي، عبد القادر : الدولة الإسلامية في الأندلس من الميلاد إلى السقوط ، بيروت: دار وحي القلم ، دار الأصالة : الجزائر، ط2006/1.
177- القلقشندي، أبو العباس أحمد : كتاب صبح الأعشى ، القاهرة : دار الكتب المصرية ، د.ط / 1922.
178- القيسي، فايز عبد النبي : أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، عمان : دار البشير ، ط1 / 1989.
179- الكتبي، محمد بن شاكر : فوات الوفيات والذيل عليها ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت : دار صادر ، د.ط /1973 .
180- الكساسبة، رضا عبد الغني:النثر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، د. ط / 2004 .
181- الكلاعي ، محمد عبد الغفور : إحكام صنعة الكلام ، تحقيق : محمد رضوان الدّاية ، بيروت : دار الثقافة ط1985/2.
182- كمال السيد أبو مصطفى : مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف ، دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية ، الإسكندرية : مؤسسة شباب الجامعة ، د.ط / 1993
183- ليفي بروفانصال : مجموع رسائل موحّدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية، المغرب : مطبوعات معهد العلوم العليا المغربية ، د.ط / 1941 .
184- مؤلف مجهول : ذكر بلاد الأندلس ، تحقيق : لويس مولينا ، مدريد : المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، المعهد ميغيل أسين ، د.ط / 1983.
185- مؤنس، حسين: موسوعة تاريخ الأندلس ، تاريخ وفكر وحضارة ، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ، ط1 / 1996 .
186- مبارك، زكي : الموازنة بين الشعراء . بيروت : دار الجيل . ط2 / د.ت.

187- المتنبي، أبو الطيب أحمد : الديوان ، بيروت : دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط/1983
188- المراغي، محمود أحمد حسن : علم البديع ، بيروت : دار العلوم العربية ، ط1991/1.
189- مرتاض ، عبد الملك : الأدب الجزائري القديم "دراسة في الجذور" . الجزائر: دار هومه للطباعة والنشر، د.ط/ 2005 .
190- مصطفى ، محمود : أهدى سبيل إلى علمي الخليل،العروض والقافية، حققه وقدّم له : عمر فاروق الطباع . بيروت : دار القلم ، د.ط / د.ت .
191- مطلوب، أحمد : معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها . العراق : مطبعة المجمع العلمي العراقي . د.ط / 1983.
192- المطوي، محمد العروسي : الحروب الصليبية في المشرق و المغرب ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، د.ط / 1982.
193- المقري،أبو العباس أحمد: أزهار الرياض في أخبار عياض ، المملكة المغربية و الإمارات العربية المتحدة : صندوق إحياء التراث الإسلامي ، د .ط / 1978.
194- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق : يوسف الشيخ محمد البقاعي ، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط1/ 1998 .
195- مكي، الطاهر أحمد : دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة ، القاهرة : دار المعارف ، ط2 /1983.
196- مندور، محمد: الأدب وفنونه . القاهرة : دار نهضة مصر للطباعة والنشر. ط$_2$ / د.ت.
197- في الأدب والنقد ، مصر: طبعة لجنة التأليف ، د.ط /1952.

198- منصور، عز الدين : دراسات نقدية ونماذج حول بعض قضايا الشّعر المعاصر، بيروت: مؤسسة المعارف. ط1/ 1985.
199- موافي، عثمان : في نظرية الأدب ، من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم ، الإسكندرية ، مصر: دار المعرفة الجامعية . د.ط/ 2000م
200- الموسى، فيروز : قصيدة المديح الأندلسية ، دراسة تحليلية . سوريا : الهيئة العامة السورية للكتاب . د.ط/ 2009.
201- ميدان ، أيمن محمد : الحوار الأدبي بين المشرق والمغرب ، المتنبي والمعري نموذجين ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، د .ط / د .ت .
202- دراسات في الأدب الأندلسي ، الإسكندرية : دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، ط1 /2004.
203- الميداني، أبو الفضل أحمد : مجمع الأمثال ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية . د.ط/1955.
204- ناصر، عمارة : اللغة والتأويل ، مقاربات في الهرميـنوطيقا الغربية والتأويـل العـربي الإسلامي ، الجزائر: منشورات الاختلاف . بيروت : دار الفارابي ، ط1 / 2007 .
205- النشار، محمد محمود: تأسيس مملكة البرتغال ، مصر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط1/ 1995.
- نصّار ، نواف : معجم المصطلحات الأدبية ، عمان ، الأردن : دار المعتز ، ط1 / 2011،
نصر الله، سعدون: تاريخ العرب السياسي في الأندلس ، بيروت : دار النهضة العربية للطباعة و النشر، ط1998/1.
206- نعيمة ، ميخائيل : الغربال . بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر . ط1964/7.
207- الهادي معمر و القرقوطي محمد:جهاد الموحّدين في بلاد الأندلس، الجزائر: دار هومه للطباعة و النشر و التوزيع، د.ط/2005.

208- الهاشمي، أحمد: جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، د .ط / 2007.

209- الهاشمي ، محمد علي : العروض الواضح وعلم القافية . بيروت : دار البشائر الإسلامية، ط$_2$/ 1995.

210- الهرامة ، عبد الحميد عبد الله : القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن هجري ، الظواهر والقضايا والأبنية ، طرابلس: دار الكاتب، ط$_2$/ 1999.

211- هندي، عبد المجيد : دراسات في الأدب الجاهلي وصدر الإسلام ، دراسة نقدية لآثار أدبية. القاهرة: مكتبة عين شمس . د.ط / د.ت.

212- الهيب، فوزي: إيقاع الشّعر العربي من الدائرة إلى الحرف، دراسة في فلسفة العروض ، حلب: دار الرفاعي ، دار القلم العربي. ط$_1$/ 2004.

213- الوراكلي، حسن: ياقوتة الأندلس، دراسات في التراث الأندلسي ، بيروت : دار الغرب الإسلامي ، د.ط /1994.

214- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، بيروت : دار صادر ، د.ط / 1984.

215- يحي بن حمزة العلوي : كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز، مصر : مطبعة المقتطف ، د.ط /1914.

216- يوسف، حسين عبد الجليل : علم القافية عند القدماء والمحدثين ، دراسة نظرية وتطبيقية . مصر: مؤسسة المختار للنشر وللتوزيع . ط$_1$/ 2005 .

ثانيا : بالأجنبية

217- O 'callaghan , J . F : A history of medieval Spain , New-york , 1975

ثالثا : الرسائل الجامعية

218 -مُحيِي الدّين، محمّد: الشّعر الأندلسي في عصر المُوحّدين ، أطروحة دكتوراه ،

جامعة تلمسان، 1998/1997.

الفهرس

الصفحة	العنوان
أ	مقـدمّـة
09	مدخل: نبذة عن دولة الموحدين
27	**الفصل الأول: عوامل ظهور الاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي على عهد الموحدين**
29	1- نشاط حركة الاسترداد
66	**2-** ابتعاد بعض الأدباء عن أوطانهم
93	**الفصل الثاني: الاتجاه الوطني في الشعر الأندلسي على عهد الموحدين**
96	1- رثاء المدن
116	2- الاستنجاد و الدعوة إلى الجهاد
135	3- ذكر محاسن الأندلس وبيان فضائلها
153	4- الحنين إلى الوطن
166	5- شعر الفتوحات ومدح الفاتحين
185	**الفصل الثالث: الاتجاه الوطني في النثر الأندلسي على عهد الموحّدين**
188	1- رسائل المفاخرات والمناظرات
198	2- رسائل في بيان فضل الأندلس ومحاسنها
214	3- الدعوة إلى الجهاد وطلب الإغاثة
220	4- رثاء المدن
226	5- رسائل الفتوحات والغزوات
230	6- الإشادة بمحاسن المصنوعات
234	**الفصل الرابع:الخصائص الفنية للاتجاه الوطني في الأدب الأندلسي على عهد الموحّدين**
236	**I- الشـــعر**
236	أولا: بناء القصيدة
270	ثانيا:اللغة والأسلوب
298	ثالثا: الصورة الشعرية
309	رابعا:الإيــقاع
323	خامسا: ألوان البديع
337	**II- النـــثر**
337	1- الجمل الدُّعائية والمعترضة
342	2- التنويع بين الشعر والنثر
348	3- الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي
356	4- توظيف المثل

5- الألــفـاظ	358
6- الإيقاع الموسيقي	361
خاتــمــة	372
قائمة المصادر والمراجع	375
الفـــهــــرس	395

ملخص

تتناول هذه الأطروحة جانبا مُهما من قضايا الأدب الأندلسي، وهو قضية الاتجاه الوطني ، في عصر يعد من أزهى العصور هو عصر الموحدين، وقد تجلى هذا الاتجاه في قصائد رثاء المدن ، والاستنجاد والدعوة إلى الجهاد ، وفي الإشادة بمحاسن الأندلس، وشعر الفتوحات ومدح الفاتحين . وظهر كذلك في نثر كُتّاب العصر الموحّدي، متجليا في بعض رسائل المناظرات والمفاخرات ، وما كُتب كذلك في بيان فضل الأندلس ومحاسنها، وفي الإشادة بمحاسن المصنوعات ، ورسائل الفتوحات والغزوات. بالإضافة إلى الوقوف عند بعض الخصائص الفنّية لتلك الأغراض المذكورة سابقاً .

The Abstract

Throughout this thesis ideal with one among the important issues of Andalusian literature, it is the national trend in an age which is considered as one of the brightest eras is the age of Unifiers, and this trend was reflected in the poems of lamentpoems of pathos to cities and showing the beauty of Andalusia in their literary works. This was clearly tackled in the prose book of Almouwahidi showing the good picture and positive sides of Andalusia in addition to some positive aspects mentioned before.

Résumé

La présente thèse porte sur l'un des aspects importants de la littérature andalouse, cet extrait traite le thème de la tendance nationale durant l'ère de l'une des époques les plus brillantes de l'âge d’El-mouahidine, cette tendance est reflétée dans les poèmes de lamentation des villes , la demande d’aides ainsi qu’ à l’appelle au djihad, l’exaltation des beautés de l'Andalousie, des poèmes de conquêtes et les louange des conquérants. Ceci apparu également dans les proses des écrivains de l’ère d’El-mouahidines , l’exemple des messages de débats et d’orgueil montre bien cela . Ceci est également illustré dans les écris portants sur les bienfaisances, les beautés et les fabrications de l’Andalousie, nous pouvons constater aussi les messages de conquêtes et d’invasions plus les caractéristiques techniques des visées auparavant.